١٨ الأعمال الكاملة

فراس السواح

موسوعة تاريخ الأديان

الزرادشتية، المانوية، اليهودية، المسيحية

الكتاب الخامس





التكوين

موسوعة تاريخ الأديان

الكتاب الخامس

الزاردشتية ـ المانوية
اليهودية ـ المسيحية

موسوعة تاريخ الأديان

الكتاب الخامس

الزاردشتية - المانوية
اليهودية - المسيحية

تحرير

فراس السواح

المترجمون

عبد الرزاق العلي

محمود منقذ الهاشمي

التكوين

مقدمة

لطبعة الأعمال غير الكاملة

عندما وُضعت أمامي على الطاولة في دار التكوين كومة مؤلفاتي الاثنين والعشرين ومخطوط كتابٍ لم يُطبع بعد، لنبحث في إجراءات إصدارها في طبعةٍ جديدة عن الدار تحت عنوان الأعمال الكاملة، كنت وأنا أتأملها كمن ينظر إلى حصاد العمر. أربعون عاماً تفصل بين كتابي الأول مغامرة العقل الأولى والكتاب الجديد «الله والكون والإنسان»، ومشروع تكامل تدريجياً دون خطةٍ مسبقة في ثلاث وعشرين مغامرة هي مشروعي المعرفي الخاص الذي أحببت أن أُشرك به قرائي. وفي كل مغامرة كنت كمن يرتاد أرضاً بكراً غير مطروقة ويكتشف مجاهيلها، وتقودني نهاية كل مغامرة إلى بدايةٍ أخرى على طريقة سندباد الليالي العربية. ها هو طرف كتاب مغامرة العقل الأولى ـ دراسة في الأسطورة يبدو لي في أسفل الكومة. أسحبه وأتأمله، إنه في غلاف طبعته الحادية عشرة الصادرة عام 1988 والتي عاد ناشرها إلى غلاف الطبعة الأولى الصادرة عام 1976 الذي صممه الصديق الفنان إحسان عنتابي، ولكن ألوانه بهتت حتى بدت وكأنها بلونٍ واحد لعدم عناية الناشر بتجديد بلاكاتها المتآكلة من تعدد الطبعات التي صدرت منذ ذلك الوقت. وفي حالة التأمل هذه، يخطر لي أن هذا الكتاب قد رسم مسار حياتي ووضعني على سكةٍ ذات اتجاهٍ واحد. فقد وُلد نتيجة ولعٍ شخصي بتاريخ الشرق القديم وثقافته وانكبابٍ على دراسة ما أنتجته هذه الثقافة من معتقدات وأساطير وآداب، في زمن لم تكن فيه هذه الأمور موضع اهتمامٍ عام، ولكني لم أكن أخطط لأن أغدو متخصصاً في هذا المجال، ولم أنظر إلى نفسي إلا كهاوٍ عاكفٍ بجد على هوايته. إلا أن النجاح المدوّي للكتاب الذي نفذت طبعته الأولى الصادرة عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق في ستة أشهر، ثم تتابعت طبعاته في بيروت، أشعرني بالمسؤولية، لأن القراء كانوا يتوقعون مني عملاً آخر ويتلهفون إليه.

إن النجاح الكبير الذي يلقاه الكتاب الأول للمؤلف يضعه في ورطة ويفرض عليه التزاماتٍ لا فكاك منها، فهو إما أن ينتقل بعده إلى نجاحٍ أكبر أو يسقط ويؤول إلى النسيان عندما لا يتجاوز نفسه في الكتاب الثاني. وقد كنت واعياً لهذه الورطة ومُدركاً لأبعادها، فلم أتعجل في العودة إلى الكتابة وإنما تابعت مسيرتي المعرفية التي صارت وقفاً على التاريخ العام والميثولوجيا وتاريخ الأديان. وعاماً بعد عام، كان كتاب لغز عشتار يتكامل في ذهني وأعدُّ له كل عدّةٍ ممكنة خلال ثمانية أعوام، ثم كتبته في عامين ودفعته إلى المطبعة فصدر عام 1986، أي بعد مرور عشر سنواتٍ على صدور الكتاب الأول. وكان نجاحاً مدوياً آخر فاق النجاح الأول، فقد نفذت طبعته الأولى، 2000 نسخة، بعد أقل من ستة أشهر وصدرت الطبعة الثانية قبل نهاية العام ثم تتالت الطبعات.

كان العمل الدؤوب خلال السنوات العشر الفاصلة بين الكتابين، والذي كان لغز عشتار من نواتجه، قد نقلني من طور الهواية إلى طور التخصص، فتفرغت للكتابة بشكلٍ كامل ولم أفعل شيئاً آخر خلال السنوات الثلاثين الأخيرة التي أنتجتُ خلالها بقية أفراد أسرة الأعمال الكاملة، إلى أن دعتني جامعة بكين للدراسات الأجنبية في صيف عام 2012 للعمل كمحاضر فيها، وعهدت إلي بتدريس مادة تاريخ العرب لطلاب الليسانس ومادة تاريخ أديان الشرق الأوسط لطلاب الدراسات العليا، وهناك أنجزتُ كتابي الأخير «الله والكون والإنسان». على أنني أُفضّل أن أدعو هذه الطبعة بالأعمال غير الكاملة، وذلك على طريقة الزميلة غادة السمان التي فعلت ذلك من قبلي، لأن هذه المجموعة مرشحةٌ دوماً لاستقبال أعضاءٍ جُدد مازالوا الآن في طي الغيب.

وعلى الرغم من أنني كنت أخاطب العقل العربي، إلا أنني فعلت ذلك بأدوات ومناهج البحث الغربي، ولم أكن حريصاً على إضافة الجديد إلى مساحة البحث في الثقافة العربية، قدر حرصي على الإضافة إلى مساحة البحث على المستوى العالمي، وهذا ما ساعدني على اختراق حلقة البحث الأكاديمي الغربي المغلقة، فدعاني الباحث الأميركي الكبير توماس تومبسون المتخصص في تاريخ فلسطين

القديم والدراسات التوراتية إلى المشاركة في كتابٍ من تحريره صدر عام 2003 عن دار T & T Clark في بريطانيا تحت عنوان:

Jerusalem in History and Tradition

ونشرت فيه فصلاً بعنوان:

Jerusalem During the Age of Judah Kingdom

كنت قد تعرفت على تومبسون في ندوةٍ دولية عن تاريخ القدس في العاصمة الأردنية عمان عام 2001، شاركتُ فيها إلى جانب عددٍ من الباحثين الغربيين في التاريخ وعلم الآثار، وربطت بيننا صداقةٌ متينة استمرت بعد ذلك من خلال المراسلات، إلى أن جمعتنا مرةً ثانية ندوة دولية أخرى انعقدت في دمشق بمناسبة اختيار القدس عاصمةً للثقافة العربية، وكانت لنا حواراتٌ طويلة حول تاريخ أورشليم القدس وما يُدعى بتاريخ بني إسرائيل، واختلفنا في مسائل عديدة أثارها تومبسون في ورقة عمله التي قدمها إلى الندوة. وكان الباحث البريطاني الكبير كيث وايتلام قد دعا كلينا إلى المشاركة في كتابٍ من تحريره بعنوان:

The Politics of Israel's Past

فاتفقنا على أن نثير هذه الاختلافات في دراستينا اللتين ستُنشران في ذلك الكتاب، وهكذا كان. فقد صدر الكتاب الذي احتوى على دراساتٍ لباحثين من أوروبا وأميركا عام 2013 عن جامعة شيفلد ببريطانيا، وفيه دراسةٌ لي عن نشوء الديانة اليهودية بعنوان:

The Faithful Remnent and the Invention of Religious Identity.

خصصتُ آخرها لمناقشة أفكار تومبسون، ولتومبسون دراستان الأولى بعنوان:

What We Do And Do Not Know About Pre-Hellenistic Al-Quds.

والثانية خصصها للرد عليّ بعنوان:

The Literary Trope of Return - A Reply to Firas Sawah.

أي: العودة من السبي كمجاز أدبي - رد على فراس السواح.

الكتاب يُشبه الكائن الحي في دورة حياته، فهو يُولد ويعيش مدةً ثم يختفي ولا تجده بعد ذلك إلا في المكتبات العامة، ولكن بعضها يقاوم الزمن وقد يتحول إلى كلاسيكيات لا تخرج من دورة التداول. وقد أطال القراء في عمر مؤلفاتي حتى الآن، ولم يختف أحدها من رفوف باعة الكتب، أمّا تحوّل بعضها إلى كلاسيكيات فأمرٌ في حكم الغيب.

فإلى قرائي في كل مكان أُهدي هذه الأعمال غير الكاملة مع محبتي وعرفاني.

فراس السواح

بكين، كانون الثاني - يناير 2016

الفصل الأول

الزرادشـــتية

تأليف: Geoffrey Parrinder
John B. Noss
ترجمة: عبد الرزاق العلي

ديانات إيران القديمة

إطلالة عامة

إن إيران، أو فارس كما كانت تسمى قديماً، مطوقة بمثلث من السلاسل الجبلية، ويوجد في القلب منها صحراوان ملحيتان تتميزان بالجدب والقحل حتى لتبدو صحراء غوبي خصبة بالمقارنة. ومع جبال ترتفع إلى 5500م بالمقابل، فإن إيران تبدو أرض التناقضات الكبرى. إنها تحتوي على غابة مدارية في محيط بحر قزوين، ومناخاً متوسطياً في وديان الأنهار في الجنوب الغربي. وقد أدت هذه الاختلافات البيئية إلى نشوء ثقافات متنوعة شكلت الجبال حاجزاً جعل التواصل بينها صعباً. فبينما كانت إيران الغربية خاضعة للمؤثرات القادمة من ما بين النهرين واليونان وروما، كان الطرف الشرقي منها خاضع للمؤثرات القادمة من الهند وحتى الصين. بهذا شكلت إيران جسراً ما بين الشرق والغرب، حقيقة كهذه لم تؤثر في ديانتها فحسب، بل جعلت منها حداً فاصلاً في تاريخ المنطقة.

لقد اجتاحت إيران موجات من الآريين، شعب بدوي محارب، من الشمال والشمال الغربي نحو سنة 1000 ق.م. وبحلول 800 ق.م كانوا قد احتلوا الأرض واستوطنوا فيها، ونتبين في أديان الهند وإيران، نتيجة التأثير الآري، عدداً من الخصائص المتشابهة، حيث يظهر عدد من الآلهة المتشابهة) مثل ميتراس في كلتا المنطقتين، كما إن مفهومها للنظام الكوني متشابه، بالإضافة إلى التشارك في الكثير من الظواهر العامة المرتبطة بطقوسهم وعباداتهم.

يعكس دين الآريين نهج حياتهم. إنه دين شعب يحيا مرتبطاً بالطبيعة، وبقدر ما يستمتع بها فهو يخشاها، إنه مفتون بخيرها الذي يمده بالحياة، ومع ذلك فهو يخاف من قسوتها في تدمير الحياة. والطبيعة التجريدية للدين تدل عليها أسماء الآلهة: (ميتراس) العقد أو الإنفاق، (فارونا) القول الصادق و(آرياماان) كرم الضيافة وحسنها، وما إلى ذلك.

الزرادشتية:

من المعتقد أن زرادشت قد عاش وعمل في شمال شرق إيران ما بين 628-551ق.م ولكن في الواقع يمكن أن تكون حياته قبل ذلك. لا نعرف إلا القليل من التفاصيل عن حياته، والتي رويت بطريقة ورعة ومنقحة. وقد أثارت تعاليمه المبكرة عداءً عظيماً له حيث اضطر إلى الهرب، وقد وجد في موطنه الجديد مريداً في شخص حاكم محلي هو الملك فيشتاسبا. وقد أصبح زرادشت بدءاً من هذا التاريخ شخصية ذات أهمية في القضايا المحلية، وكان متزوجاً وله بنت وولدان. وتقول المدونات أنه قد أغتيل في السبعينات من عمره.

وصلتنا تعاليم زرادشت من خلال سبعة عشر نشيداً من أناشيد (الغاثا)، والتي على الرغم من صعوبة ترجمتها، فإنها ملفتة للنظر في إبراز حمية زرادشت وحبه للإله، بالإضافة إلى حكمته. والإله بالنسبة لزرادشت هو الرب الحكيم أهورامزدا الذي خلق السماء والأرض، وهو الأول والأخير، وهو أيضاً الصديق، وهو الذي دعاه إلى الرسالة. والإله ليس له أي صلة بالشر. روحه القدسية تمنح الحياة وتخلق الرجال والنساء. وتقف على تعارض معه الروح الشريرة، القوة المدمرة، التي تتميز بالعقل الشرير وبالكذب والتكبر. ولا بد للبشر أن يختاروا بين هاتين القوتين المتعارضتين، هاتين الروحين التوأمين. فإذا ما اتبعوا طريق الشر كانت حياتهم حافلة بالأفكار والكلام والوقائع الخبيثة. ولكن إذا ما اتبعوا طريق الحق فإنهم سوف يصبحون شركاء في العقل الخير ويبلغون الكمال والخلود والتقوى والملكوت، والتي كلها من صفات الإله.

مهما يكن، فإن الصراع بين الحق والباطل ليس أبدياً، ولا بد أن تأتي ساعة التحول المصيرية للعالم، عندها يجتمع الجيشان العظيمان المتخاصمان، ويخضع البشر للامتحان العظيم من خلال النار. عندها سوف تحل العدالة، وسوف يتجدد كل شيء بعون من أصحاب الدين الخير، المخلصين الذين سيردون الهوى بالأعمال الصالحة وبنشر التعاليم الصائبة. وكل من يقوم على رد الباطل يكون من المخلصين. عبارة تشير بشكل خاص إلى زرادشت ذاته.

وعلى الرغم من إنكار زرادشت للكثير من التراث القديم فإنه لم ينسلخ عنه كليةً، حيث إنه ككاهن قد كتب عدداً من أناشيده على نمط التراث القديم. ورأى في طقس النار القديم رمزاً للنور وقانون الإله الكوني، وقد مارس ذلك في صلواته. بعض سمات الإله هذه، على الأقل، هي تعديلات لأفكار آرية، ومثال عليها فكرة الصدق أو الحقيقة. وقد كان مهيئاً لممارسة التصور المعهود حول محاكمة الفرد عند الموت. لكنه أعاد صياغة ونمذجة كل ما تبناه بطريقة فريدة. وتطلب منه حبه للإله أن يعمل من أجل العدالة الاجتماعية والوئام. لقد رفض الفعل التدميري للبدو الغزاة، وأبصر في الحياة الريفية المستقرة نموذجاً للسلام والصدق.

لا بد لتعاليم مؤسس أي دين أن تتطور على يد أتباعه، والزرادشتية ليست استثناءً. لقد جُمعت أفكار زرادشت ونُسقت وتحددت وتساوقت مع فكر وحاجات الأزمنة المتغيرة، ولم يتعمد أتباعه تشويه تعاليمه، بل بدا أنهم عملوا على التوفيق بين تعاليمه والدين التقليدي. ونتج عن ذلك دين عظيم تم الإفصاح عنه بتعابير أسطورية.

المصادر:

كتاب الزرادشتيين المقدس هو الأفيستا، وعلى الأغلب أنه لم يدون حتى القرن الخامس الميلادي. ولكن قسماً منه يعود في الزمن إلى عهد أقدم بكثير، حتى إلى ما قبل الزرادشتية. ولسوء الحظ فإن الأفيستا لم تنج من عاديات الزمن، فكل ما تبقى منها هو أناشيد زرادشت، والغاثا، بالإضافة إلى النصوص الطقسية الدينية (الياشا وفينديداد) وأناشيد أخرى (الياشت) وابتهالات.

وظهرت في القرن التاسع الميلادي بعض الكتب الزرادشتية التي تدافع عن الديانة الزرادشتية ضد الدعاية المسيحية والإسلامية، وتشرح الديانة للعامة. كتبت هذه الكتب باللغة البارثية الوسطية أو البهلوية، وكانت عبارة عن مقتطفات وملخصات وتعليقات على الأفيستا، وأصبحت هذه الكتب هي ما يحفظ المعتقدات القديمة. ويضاف إلى ذلك الفلكلور والنقوش الكتابية والعملات وتقارير الرحالة الأجانب، ديانة الزرادشتيين الجدد، كل ذلك أضاف إلى معارفنا بديانة إيران.

مفهوم الإله:

يُعلّمنا كتاب في تلقين الدين الزرادشتي أن النظام والقانون الذي نشاهده في السماء وعلى الأرض، يجعلنا نعتقد ونؤمن بالكينونة التي لا تحد للرب القدير. يحب الزرادشتيون الدنيا، ويعتقدون أن الحياة تُعلّمنا أن الإله هو الأعظم والأفضل والأسمى في الفضيلة والاستقامة والخير.

والأصل في دين الباطل هو أن الشر يأتي من الخالق. ولكن الإله الحق لا يمكن أن يكون مسؤولاً عن الشر، فالشر ماهية كما الخير، وكلاهما يعود إلى العلة الأولى: الإله والشيطان. وأهريمن الشيطان كان موجوداً دائماً، وهو مسؤول عن الشر بكليته في الدنيا، بما في ذلك المرض والموت والغضب والجشع. وبما أن الاثنين جوهران متعارضان أساساً، فإنهما حتماً باقيان في صراع.

لكلٍ قواه الخاصة به في صراعهما، وصفات الإله التي يطرحها زرادشت مثل الكمال والخلود إلخ.. تتحول عنده إلى شخصيات فردية جليلة هم الخالدون الوهابون الستة أو أمهراسباندا، وهؤلاء يجلسون أمام عرش الإله ولهم مكانتهم الخاصة في الشعائر الزرادشتية. إنهم يحرسون عناصر العالم (النار والتراب والماء، إلخ..) وهم ليسوا الكائنات السماوية الوحيدة بأي حال، هناك أيضاً اليازاتا Yazata أو الملائكة البديعون. ومكانة هاتين الفئتين تراتبياً، في الغالب، هي كمكانة رؤساء الملائكة والملائكة في الديانة المسيحية. يشكل اليازاتا، نظرياً، حشداً كبيراً من الملائكة البديعين، ولكن من الطبيعي أن تكون السيطرة لأفراد محددين منهم، عادة ما تتمثل بشخصيات آرية قديمة. وعلى الرغم من المثيولوجيا الموجودة، فإن الصفة المجردة لهذه القوى السماوية تبقى قائمة: إنها لا تزال تمثل العقل الخيّر والصدق والسلام..إلخ.

وفي المقابل، يوجد حشود من الشياطين والأرواح الشريرة المتعارضة مع القوى السماوية، وهي نادراً ما تصور من خلال شخصيات فردية كما تصور نظيراتها السماوية، لكن يعبر عن طبيعتها الدنيئة بأقوى العبارات. وترسم صور رؤساء الشياطين بمزيد من التفاصيل، إنهم الذين يقفون في مواجهة الأمهراسبندات، الوهابين الخالدين، ويمثلون رأس الردة والفوضى والأفكار الخبيثة والمعصية والعطش، وفوق كل ذلك الكذب.

فهم العالم:

إن تاريخ العالم هو تاريخ صراع الإله مع الشيطان، وهو مقسم إلى أربع مراحل، كل مرحلة مدتها ثلاثة آلاف سنة، في المرحلتين الأولى والثانية يجهز كل من الإله والشيطان قواهما، ويدخلان في المرحلة الثالثة في صراع، حيث يهزم الشيطان في النهاية. لقد اخترق الشيطان حاجز السماء في بداية الخلق، وتسلط على الإنسان الأول والبهيمة الأولى بالمرض والموت. وهو قادر كما في الأصل على القيام بالأفعال الهدامة فقط. ولكن في لحظة انتصاره الظاهري فإن كلاً من الإنسان والبهيمة يطرحان بذوراً تؤدي لانبعاث الحياة البشرية والنباتية. وحيث إن الحياة خرجت من موتها، فإن ديمومة الخلق الخير وهزيمة الشيطان هي مؤكدة لا محالة.

إن العالم ينتمي للخالق ذاته، لذلك فإن الزرادشتيين، بعكس بعض الأديان الأخرى، لا يعتقدون أن المادة شر. في الواقع، الشيطان، وليس البشر، هو من طبيعة مغايرة للعالم المادي، إنه لا يستطيع أن يأخذ شكلاً جسدياً، ولكن يبقى في العالم على شكل طفيلي يحاول عبثاً تدمير عمل الله.

الرجال والنساء في الدنيا:

الناس، الذين هم تجليات لذواتهم العلوية، الفرافاشي، هم فاعلون أحرار يملكون القدرة على الاختيار بين اتّباع الله أو الشيطان. فإن اختاروا الصواب فإنهم يساندون الإله في نصره النهائي. واختيار الصواب يعني القبول بالعالم كما هو، لأنه عالم الله. ولا يفرق الزرادشتيون ما بين الروح والجسد (كما يفعل القديس بولس)، حيث تشكل كل من الروح والجسد وحدة. وإن الانسحاب من العالم كما يفعل الرهبان ما هو إلا رفض لعالم الإله، فالزهد خطيئة كبرى كما التمادي في الشهوات، وعلى الرجال واجب ديني في أن يتخذوا زوجات وينجبوا أطفالاً، وهكذا يقوى الدين الصالح. كما إن زراعة الأرض وتربية الماشية هي فعل مقدس . والجسد السليم يمكّن الإنسان من امتلاك عقل خير وسليم، والذي بدوره سوف يمكنه من القيام بأفعال الخير.

وهكذا تعتبر الديانة الزرادشتية ديانة مسرة وابتهاج، حيث لا يحبذ أن يكون المرء معتلاً في اليوم المكرس لإله الدينونة من كل شهر. في يوم راشن ومعناه الحياة بهيجة، يستطيع الإنسان القيام بأي شيء يرغبه، ولكن ضمن شروط القدسية، وانطلاقاً من واجب احترام الآخرين، فإن سوء الأخلاق وإزعاج الناس يعتبران من الخطايا. ومن أساسيات الدين أن يستمتع المرء بالحياة وأن يساعد الآخرين على أن يستمتعوا أيضاً.

وتمتلك الزرادشتية مجموعة قيم أخلاقية اجتماعية متينة، وبمقارنتها بالهندوسية فإنها أكثر فاعلية. والعمل هو ملح الحياة، ولكن لا يعبر عن شخصية الإنسان بما تعمل وتقول فحسب، بل بما تفكر أيضاً. ولا بد أن يتغلب البشر على الشكوك والرغبات المنحرفة من خلال العقل، وأن يتغلبوا على الجشع بالقناعة، وعلى الغضب بالسكينة، وعلى الحسد بالإحسان، وعلى الفاقة بالاحتراس، وعلى الشقاق بالسلم، وعلى الباطل بالحق.

السمات الظاهرية للديانة الزرادشتية:

كما الهندوس والسيخ، يرتدي الزرادشتيون بعض الرموز كجزء من لباسهم اليومي ليذكرهم بديانتهم. وأول هذه الرموز هو الحزام المقدس، الكوشتي، مربوط به اثنان وسبعون خيطاً ترمز إلى فصول الياسنا. يربط ويفك هذا الحزام عدة مرات يومياً تعبيراً عن ثبات العزيمة أخلاقياً ودينياً. ثاني هذه الرموز هو القميص، السادرى، الذي يرمز إلى الدين نفسه. ويلبس الكهنة أردية بيضاء مع عمامات وأقنعة فوق أفواههم أثناء القيام بطقوس النار المقدسة ليتجنبوا تدنيسها بنفس زفيرهم. وعدد صلواتهم خمس بحسب مواقيت اليوم الخمسة، وهي الصبح والظهر والعصر والمغرب ومنتصف الليل. وهناك احتفالات بالأحداث المهمة في الحياة، مثل الولادة وسن البلوغ والزواج والحمل والموت.

الموت من عمل الشيطان، لذلك فإن الجثة هي مسكن الشياطين. وكلما زاد صلاح المتوفى زادت قوة الفعل الشيطاني. وإذا ما أحرقت الجثة أو دفنت فإنها سوف تدنس العناصر، لذلك فإن الجثث توضع في بروج الصمت، الداخما،

حيث تفترسها النسور. ولا بد أن يخضع المرء لطقس تطهيري قبل أي صلاة. ويتم الاعتراف بالذنوب التي ارتكبت بالفكر أو القول أو الفعل.

وهناك شعيرتان رئيستان: طقوس النار وقربان الهاوما. فالنار هي رمز وابن أهورامزدا، ولا بد أن يتم الطقس بعيداً عن أي دنس، بحيث لا تظهر النار للشمس أو لأي عيون غير مؤمنة. وتحفظ النار في معبد النار. ويوجد عدة أشكال للنار المقدسة، ويقوم بخدمتها كهنة مختصون على الدوام وعن طيب خاطر. النار الأولى هي بهرام، أو ملك النيران، التي تأتي في أرفع منزلة. وعندما يزور البارسيون النار، فإنهم يفركون جباههم برمادها رمزاً للتواضع والتساوي وكمصدر للقوة.

هدف التاريخ:

بعد الموت توزن أعمال المرء بالميزان، وإذا ما مالت كفة الخير على الشر عبر المرء إلى السماء، وعكس ذلك يذهب إلى الجحيم، حيث العقاب على قدر الإثم. لكن هذا ليس هو النهاية. فالجحيم الأبدي إن هو إلا درس لا أخلاقي في عيني زرادشت. فالإله الطيب لن يسمح أبداً بأن يكون عذاب مخلوقاته أبدياً. فالغاية من العقاب هو الإصلاح والتوبة بحيث إنه في يوم البعث سوف يصعد الجميع بعون المخلص لمواجهة الحساب الأخير. وفي النهاية عندما يصفى الجميع يتم القضاء على الشيطان وكل أعماله، ولن يبقى تمييز أو فرق بين السماء والأرض، حيث يمكن للجميع أن يتعبدوا ويحيوا مع الله في مجد خلقه.

الحركات الدينية الأخرى في إيران:

الزروانية:

لم يكن إله زرادشت كافياً وحده لكثير من الإيرانيين. فعلى الرغم من أنه كان الخير المطلق، فإنه كان محكوماً بنفوذ الشيطان. وبالنسبة للزروانيين فإن الروحين التوأمين عند زرادشت، اللذين أصبحا أهورامزدا وأهريمن، قد صدرا عن الذي لا يحد وهو فوق أي ثنوية، والذي هو «زروان» الزمان والمكان

المطلقان. إن زروان هو الإلـه ذو الوجـوه الأربعـة. ووجوهـه أو مظـاهره تمثـل الولادة، والصبا، والشيخوخة، ثم العـودة إلى المطلـق، وهـي عـصور العـالم. وهكذا وضمن الواحد نرى كل مظاهر الحياة والنور والظلمة والحرارة والبرودة.

تخبرنا الأسـطورة الزروانيـة الأساسـية أن زروان أراد ابنـاً، لكنـه شـك في تحقيق رغبته، على الرغم من تقديمه القرابين لمدة ألف عام، وفي لحظـة شـكه ولد له توأمان، أهورامزدا الذي هو تجسيد للخير بإطلاقه، وأهريمن، الشيطان، الذي هو تجسيد لشك زروان. ولأن أهريمن كـان الأول في مجيئـه للعـالم فقـد نُصِّب حاكماً لهذا العالم مدة 9000سنة. غير أن أهورامزدا كان قد مـنح الكهانـة والنصر النهائي. وهذه المكانة المتساوية نظرياً للكائنين قادت إلى تقدمه القرابين إلى أهريمن باعتباره قوة لا بد من استرضائها. ويقـارن كـثير مـن البـاحثين هـذه التقدمات بالتي تقدم إلى ديوس أريمانيوس في المترانية.

نستطيع أن نتبين تأثيرات متعددة تأثرت بها الزروائية كالبابليـة والهنديـة والإغريقية. ونتج عن ذلك أكثر من مدرسة فكرية: هناك المدرسة الجبرية التي تؤمن أن العالم هو حد الزمـان الـذي هـو زروان، حيـث تـرى أن الكائنـات البشرية ما هي إلا دمىّ في يدي القدر، وتتكر مفهوم زرادشت الأساسي حول الإرادة الحرة.

بينما مدارس أخرى تنكر خلق العالم من العدم بفعل إرادة وتقبل فكرة نشوء المادة التطوري، وفي هذا نكران للإله الخالق الزرادشتي. وتنكر هـذه المدرسـة الزروانية المادية الإيمان بالثواب والعقاب وبالتالي الجنة والنار. وربما مثلت هذه الأفكار التحديثية حركات هامشية في الزروانية.

قليل هو ما نعرفه عن علم الأخلاق الزرواني. ربما، ونتيجة للتأثر البوذي، اعتقد الزروانيون أن أصل الشر في العنـصر البـشري مـا هـو إلا خطـل أو زيـغ عقلي، أو جشع متجسد جسدياً في الشبق وعقلياً في الجهل. وكـانوا يظنـون أن النساء هن المصدر لمعظم الشر في العالم، حيث يغوين الرجـال ويأخـذنهم إلى طريق الخطل العقلي. وهذه حركة بعيدة تماماً عن التعالم الأخلاقية الزرادشتية.

ما هو موجود عن العقيدة الزروائية ضئيل جداً، حيث لا يذكر أي نص إيراني هذا المذهب. كل ما لدينا عن الزروانية مأخوذ عن مؤلفين أجانب تعود مصادرهم إلى القرن الرابع ق.م. وبعض النصوص المتفرقة تحاول التوفيق بين المعتقد الأرثوذكسي والزروانية. لا نستطيع أن نحدد متى نشأ هذا المذهب. ويشير بعض الباحثين إلى أن الروحين التوأمين عند زرادشت ما هما إلا تحوير عن الزروانية. ورأى آخرون في تمثال من البرونز يعود إلى القرن الرابع عشر ق.م. تجسيداً لزروان، ولكن ما هذا إلا تخمين.

ما هو مؤكد أن الحركة قد نمت أثناء المعهد الإخميني (550 – 333ق.م) والبارثي (250ق.م – 247م). أما العهد الساساني (247 – 635م) ربما كان عصر صراع بين الديانتين الزروانية والزرادشتية. أو ربما كان داخل الديانة الزرادشتية تيارات تمارس الطقس الزرواني نفسه. وربما شكلت الزروانية مجرد حركة أكثر منهما فرقة دينية واضحة المعالم. ومع ذلك فقد كانت نافذة ومؤثرة.

الميترانية:

كان ميتراس في الأصل إلهاً للعقود، وميترا تعني العقد، وهو إله آري. هو الذي يصون الحقيقة ويحفظ النظام ويدمر القوى الشقاقية للشر والغضب والجشع والتكبر، وجميع آلهة الشر ورجاله. ويوصف بأنه المحارب القوي القادر. وهو الذي يصلي له المحاربون وهم ممسكون بأعراف خيولهم قبل الانطلاق إلى المعركة.

وبصفته حامي الصدق والحقيقة فهو قاضي الروح بعد الموت، وبصفته حافظ العقود فهو الذي يقرر متى ينتهي حكم الشيطان. والجميع في ترقب قدومه وسط الاحترام والولاء في يوم النصر.

وهنالك نبوءة معروفة بعنوان: نبوءة هستاسبن، ذكرها المؤلفون المسيحيون، تم التعرف إليها باعتبارها نبوءة ميترانية تتوقع قدوم الإله في نهاية العالم ليدمر الأشرار بالنار وينقذ الصالحين. ولدينا عدد من النصب الرومانية تصور مولده، كما يذكر عدد من النصوص المسيحية من القرن الخامس

الميلادي وجود أسطورة ميترانية قديمة تتنبأ بظهور نجم في السماء سوف يقود المجوس إلى مكان مولد المخلص.

يعتبر ميترا إله شعبي ذو أهمية في التاريخ الإيراني، حيث تمت الاستجارة به والابتهال له من قبل الملوك الإخمينيين على ما يظهر في نقوشهم الكتابية. ولدينا العديد من أسماء العامة والملوك المركبة تحمل في أحد شطريها اسم ميترا (مثل ميتراديتس). وقد بقي يشغل مكانه مهمة في الطقوس الزرادشتية.

لكن ليس بالإمكان التأكيد أنه كان يوجد عبادة ميتراوية في إيران، وذلك على الرغم من أنه من إيران انطلقت هذه العبادة باتجاه الشرق إلى الهند، وباتجاه الغرب إلى ما بين النهرين وآسيا الوسطى. ونرى أن الأساطير الأرمنية، والأسماء المشتقة من أسماء آلهة، والمنحوتات النافرة والكتابات النقشية المصرية والأناضولية، جميعها تشهد على الشعبية الكبيرة لهذا الإله في أنهاء الشرق القديم أثناء العهود ما قبل المسيحية.

دخلت الميترانية إلى روما أول مرة عام 60ق.م، وانتشرت عبر الإمبراطورية الرومانية حتى وصلت إلى بريطانيا في القرن الثاني الميلادي. وقد اعتنقها بشكل رئيس الجنود، لذا كانت عبادة ذكورية بامتياز. ولا بد أن يخضع الداخل الجديد إلى الاختبارين الجسدي والروحي، ومن خلال ذلك يتبرأ من كل السلطات ما عدا سلطة ميترا. وكان من المأمول أن يتمسك بناموس أخلاقي محدد. وبالمقابل فإنه يتلقى وعداً بنصيب في السماء يوم الحساب.

يقوم الإيمان المركزي لهذه العبادة على قيام ميترا بالتضحية بثور. كان هذا الفعل الطقسي خلاقاً وخلاصياً. حيث يفكر المتعبد بالأضحية الأولى عندما خرجت الحياة من الموت، ويتطلع إلى الأضحية الأخيرة للإله ميترا عندما يموت الحيوان الأخير ليمنح الإنسان إكسير الخلود. وتتم المشاركة في تجربة هذه الهبة السماوية الأولى من خلال وجبة جماعية مشتركة فيها الخبز والخمر حيث يمثل الكاهن الإله ميترا.

المندائيون:

المندائيون أو الناصورائيون (nazorians) أو (الصابئة) هم طائفة صغيرة ما تزال موجودة في جنوب العراق وفي إيران المجاورة. ويدّعون انحدارهم من يوحنا المعمدان. ويعتقدون أن أسلافهم قد هربوا إلى فارس بعد سقوط أورشليم. لغتهم ورموزهم مزيج من عناصر سامية وإيرانية، وهي في الغالب ذات مضمون غنوصي. ويعود أول تدوين لنصوصهم المكتوبة بالمندائية إلى القرن الثامن الميلادي. لكن مضمون هذه النصوص يعود إلى زمن أقدم من ذلك بكثير. إنهم مجموعة باطنية خاصة جداً. ولا يسمح إلا لرجال الدين الاطلاع على النصوص الدينية الأكثر سرية.

وخشيةً من طبيعة اللغة التجسيدية فإن المندائيين يصفون المطلق كذات سامية لا شكل لها ويدعونها ملك النور، ورب العظمة، ومانا العظيم، وملك النور ثابت في الأعالي مقابل مملكة الظلام. وخلق العالم هو نتيجة فيض من ملك النور، وأهم ما صدر عنه من مخلوقاته هو المخلص منداد هيا ومعناها معرفة الحياة، ومنه جاء اسم الطائفة. وعندهم أن كل شيء في عالم المادة له قرينه السماوي. والكون نفسه مشابه في الشكل لخالقه وهو الإنسان الأسمى والأكمل. وكما في ديانات كثيرة فإن المندائيين يعتقدون أن حدود الجسد المادية لا تعبر عن طبيعة الكائن البشري الحقيقية. والروح، كما يعتقدون، هي في غربة في هذا العالم، إنها ذرة نور وقد سجنت في المادة عند خلق هذا العالم. وإذا كان الجسد قد خلق بواسطة الكواكب، فإن الحياة والنفس قد جاءا من عالم النور. غير أن الروح لن تتحرر من الجسد عبر قهره وإذلاله عن طريق الزهد. فالناس يمكنهم التنعم بالهبات الخيرة للحياة باعتدال. إن ما يعيق تحرر الروح هم الكواكب، والنجوم، وما يمكن اعتبارها أدياناً زائفة كاليهودية والمسيحية. وسوف تتحرر أرواح الصالحين في نهاية الزمان عندما يتم التخلص من الأرض والكواكب. كما إن التحرر يمكن أن يحصل في الزمان والمكان الراهنين بفعل هيبيل زيوا، مخلص دخل العالم السفلي وهزم الأرواح الشريرة.

والتعميد يطرد الأرواح وهو أساس الخلاص. إنه غسل للجسد والروح

وبعث لحياة جديدة. وتشكل الوجبة القربانية جزءاً من التعميد. ويوجد طقس آخر مهم هو المسيكتا، أي النهوض أو الصعود حيث طريق الروح إلى عالم النور يصبح ممكناً من خلال طقوس التطهير التي يحتفل بها عند موت الإنسان. وكما يظهر لنا من خلال العديد من المنحوتات النافرة الإيرانية فإن المصافحة بشكل عام تعتبر فعلاً دينياً ذا أهمية، وهي تؤدي دوراً كبيراً في الديانة المندائية، وتُعرف بالكوشتا، وتقدم هذه المنحوتات تفاصيل كثيرة حول كل طقس لان أي أداء غير صحيح يمكن أن تكون له عواقب وخيمة على كل من المريد والكاهن.

وقد قضت جائحة طاعون على كل الكهنة تقريباً في القرن التاسع عشر. وعلى الرغم من تشكيل مجلس كهنوتي جديد، إلا أن معظم الكهنة هرمون. ولا يبدو أن إمكانية الاستخلاف قائمة الآن.

المانويون:

ولد ماني لأسرة من النبلاء البارثيين 216 - 274م، وأمضى شبابه فيما بين النهرين، محيط احتوى الكثير من الديانات في ذلك العصر وصهرها. جاءته الرؤيا الأولى وهو في سن الثانية عشرة، وفي سن العشرين انطلق ليؤسس دينه الجديد. وبوجود قنوات اتصال مع البلاط الملكي فقد اجتذب عدداً من القادة النافذين، ولقي تأييد العاهل الساساني شابور الأول والذي رافقه ماني في حروبه الغربية. وبقي التأييد الملكي لماني حتى آخر أيام بهرام الأول، بعدها تحدى الكهنة الزرادشتيون (الماجي) بقيادة كارتير، تعاليم ماني لأنهم كانوا يخشون نجاحه، وقد حاكوا له مؤامرة وأسقطوه، ومات وهو مقيد بالسلاسل.

ادّعى ماني لنفسه تحقيق ما صبا إليه كل من زرادشت وبوذا ويسوع. جميعهم كان عندهم أجزاء ناقصة من الحقيقة. وحتى إن هذه الديانات قد أُفسدت من قبل أتباعهم. معتبراً نفسه رسول النور لكل البشر فقد حدد آلهته بحسب مستمعيه. لذلك عندما كان يخاطب المسيحيين فإن المخلص هو يسوع، وعندما يخاطب الزرادشتيين فإن الإنسان الأول هو أهورامزدا. بأي حال فإن إله العهد القديم كان مرفوضاً من ماني. كان المانويون يقدمون أنفسهم في أيام الجور والاضطهاد كمسيحيين أو زرادشتيين. ربما هذه الميزة بعينها هي ما راقت لشابور.

تأتي الثنوية في الصميم من تعالم ماني. الإله رب العزة يعارضه أمير الظلام. والاثنان أصلان أوليان. وخلق العالم من أجساد الأراكنة ولكن شرارات من النور تم احتباسها داخل المادة المظلمة، عندما تغلب الأراكنة على «الإنسان الأول» (ويدعى أيضاً بالإنسان القديم) وصار أسيراً لعالم الظلام. في هذا العالم الممتزج تبحث الروح عن النجاة من خوف الموت، هذا العدو الذي يفصلها عن موطنها الحقيقي.

ويتحقق التحرر عن طريق الزهد ومعرفة الطبيعة الحقيقية للنفس، ودحر الشياطين من قبل المخلص، والذي هو نفسه قد خلصه الله من براثنهم. عند التحرر تصعد الروح إلى الفردوس الجديد المحكوم من الإنسان الأول. وفي نهاية الزمان، عندما تتحرر كل شرارات النور، فإن كامل الجسد سوف يعود إلى فردوس الخلود. فيما بين ذلك فإن تلك الشرارات التي لم تتحرر في هذه الحياة خاضعة للتناسخ.

يتوزع المنتسبون إلى فئتين: السماعون وهم الفئة الأولى، الذين يؤمنون الطعام والضروريات للصفوة التي هي الفئة الأعلى. لقد أنتج ماني، وعن علم ودراية، ديناً جديداً، وزوده بأدب ديني وشعائر مقوننة. لقد حرم الأصنام، لكن واعتقاداً منه بالقيمة التربوية للفن فقد أمر بتجليد الكتب بشكل جميل مع رسوم توضيحية. كما أمر أن تصاحب الطقوس الدينية موسيقا وأناشيد جميلة. غير واضح إذا ما امتلك المانويون نظام مناسك وقرابين.

انتشرت المانوية عبر الإمبراطورية الرومانية والمنطقة العربية والهند والصين. وعلى الرغم من الاضطهاد الذي أتى على الدين لعدة قرون، فإن الدين المانوي كان له تأثير في العديد من الحركات، مثال على ذلك: الألبينيون في فرنسا العصور الوسطى.

تاريخ موجز للدين الإيراني:

الأصلان الأساسيان في الديانة الإيرانية هما الدين الشعبي الآري وتعاليم زرادشت. والتاريخ الديني الإيراني هو سيرة تفاعل هذين المعتقدين تحت تأثير قوى خارجية. ويعتبر العهد الإخميني (550 - 333ق.م) هو أحد ذرى تاريخ إيران السياسي وفيه حصل التغلغل الزرادشتي في تراث ودين الدولة بشكل قوي. وتشير عدد من النقوش الكتابية الملكية إلى الزرادشتية كمصدر تأثير قوي. وتشير

عدد من النقوش الكتابية الملكية إلى الزردادشتية كمصدر تأثر قوي في البلاط، ولا سيما أثناء حكم دارسوم وأحشورش، حيث كان الماجي (المجوس) هم رجال الدين الرسميون، طبقة كهنوتية وراثية واجبها الأساس كان الاهتمام بالدين. وكانوا يقومون بكل الطقوس الدينية المعروفة. وبينما أصبحت الزرادشتية أكثر شعبية. كان الماجي هم من حملوا التعاليم، ربما من دون اعتبارها ديناً أو عبادة مستقلة. وبما أن الزرادشتية قد انتشرت في إيران عن طريق الماجي فقد توحدت تعاليم النبي مع الدين التقليدي، توحداً ميز كلاً من الفترة الإخمينية والعهود اللاحقة. كانت الإمبراطورية الإخينية واسعة، ما أدى إلى أن يفرض تشابك الثقافات تأثيراً في الدين. حيث دخل التماثيل الإغريقية في الديانة وأصبح علم الفلك البابلي عاملاً مؤثراً فيما. وقد يكون هذا المحيط الاجتماعي المتنوع هو ما أدى إلى ظهور الزروانية.

أدى غزو الاسكندر الأكبر عام 333ق.م، وقدوم الهلينية، إلى صدمة عظيمة أصابت الإيرانيين، على الرغم من محاولة الاسكندر توحيد الشرق والغرب وتبنيه للكثير من الأعراف. وبعد أن استقلت إيران حكمها البارثيون من 250ق.م إلى 247م. وكون البارثيين قد امتلكوا حضارة أقل تطوراً فقد أبقوا على الكثير من التقنية الهيلينية، والعمارة والنظام النقدي وغيرها. بدأت الثقافة الإيرانية بالبروز تدريجياً في القرنين الثاني والأول ق.م ويمكن مشاهدة ذلك في فنهم ونقودهم المعدنية. وبدأ يظهر تأثيرهم في محيطهم بعد ذلك. وإذا كانت الميتراوية الرومانية قد نشأت عن الصيغة الإيرانية لعبادة هذا الإله وليس نتيجة للاحتكاك مع مملكة بونتس الفارسية في آسيا الصغرى[1]، فهذا يعني أن الميتراوية قد انتقلت إلى روما نتيجة التوسع البارثي غرباً. ومن المعتقد أن المندائيين قد جاؤوا إلى إيران في العهد البارثي.

---

(1) وهي مملكة في شمال شرق آسيا الصغرى على شواشئ البحر الأسود أسس فيها ميتريداتيس الفارسي مملكة مستقلة، 301-63ق.م، وملوكها من أصول بارثية نقلوا معهم طقوسهم الإيرانية القديمة على الرغم من تهلينهم - المترجم.

على الرغم من أن الزرادشتية كانت ديانة الدولة الرسمية أيام الساسانيين 247 - 635م، فقد وجد عدد من الأقليات الدينية كالبوذية واليهودية والمسيحية والمندائية والمانوية. بعد تحول الإمبراطور قسطنطين الكبير إلى المسيحية، ظهرت حاجة ملحة لدين يوحد الإمبراطورية الفارسية الواسعة ضد روما المسيحية وتهديدات أخرى وغيرها. لكن من الخطأ أن نطرح الصراع بين الأديان الإيرانية المتعددة على أنه سياسي.

من قديم الزمان والفكر الديني يعالج مشكلة الشر في العالم، القضية المحورية لكثير من الحركات. فقد رفض المانويون المادة باعتبارها أصل الشر، بينما أكد المندائيون والزرادشتيون أن الحياة هبة من الخالق. وقد انقسم الزراونيون والميترانيون حول الموضوع كذلك. وعلى الرغم من أن الزرادشتية كانت دين الدولة الساسانية الرسمي، إلى أنه تحت السطح الظاهري للعقدية الرسمية وطقوسها، استمرت الخلافات والتباينات بخصوص القضايا اللاهوتية.

والوحدة التي هيمنت ربما كانت نتيجة التهديد المشترك القادم من الإسلام. لقد ضمت الإمبراطورية الإسلامية إيران إليها عام 635م. يبدو أنه قد حصل قليل من الاضطهاد المنظم بعد انتهاء الحروب. ونتيجة لارتباط التقدم المادي بالدخول في الإسلام فقد دخل الكثيرون فيه مع بعض الارتدادات عنه. حافظت الزرادشتية على وجودها وإن يكن محلياً، ولا سيما في فارس Fars. ونتيجة للمناخ الفكري المتحرر في القرن العاشر الميلادي ظهرت الكثير من الكتب دفاعاً عن الزرادشتية، الدين الخير.

عندما ازداد الوضع سوءاً في إيران هاجرت جماعات من الزرادشتيين الأوفياء لدينهم إلى الهند وشكلت تجمعات دعيت بالبارسيس (البارسيين) واستقروا في بومباي بشكل رئيس. على الرغم من تميزهم بالمحافظة، إلا أن تعرضهم لتأثيرات مختلفة، جعلهم يظهرون ميلاً إلى تعديل بعض الممارسات والمعتقدات. ووضعهم صعب جداً في الوقت الحاضر. ونتيجة لجديتهم الكبيرة في العمل، فإن الكثير منهم يتمتعون بالثراء، لكن هذا يشكل عبئاً عليهم في بلد ذي ميول اشتراكية قوية. وقد حافظوا على هويتهم من خلال مدارسهم الخاصة. لكن على هذه المدارس أن تقبل اليوم غير البارسيس، ولا أحد يعلم ماذا يخبئ المستقبل لهم.

لم يهاجر جميع الزرادشتيين إلى الهند، بل بقي بعضهم في إيران. وعلى الرغم من صعوبة ما عانوه، فقد كونوا تجمعات صغيرة ما تزال مستمرة، ولا سيما في يزد وكرمان وطهران. وقد منحوا حرية العبادة، وما زالوا يمارسون طقوس ديانتهم في معابد النار والمزارات. حتى إن بعض المزارات الإسلامية تبدو كتحويرات عن الزرادشتية. كما أن الشاه السابق قد استخدم بعض الألقاب الإيرانية القديمة.

تأثير الديانة الإيرانية:

على الرغم من العدد المحدود للزرادشتيين الممارسين لديانتهم في العالم اليوم، ما يزيد قليلاً على 125 ألفاً في الهند وما يقارب 25 ألفاً في إيران بحسب إحصاء 1976، فإن الديانة الإيرانية، ولا سيما الزرادشتية، قد أدت أدواراً حيوية على مسرح تاريخ الدين في العالم. كان زرادشت معروفاً ومحترماً في بلاد الإغريق في عصر أفلاطون، وقد انتشرت عبادة ميترا عبر الإمبراطورية الرومانية حتى وصلت شمال إنكلترا. بالعودة إلى الشرق كان الفن والدين الإيرانيان مصدر تأثير كبير في الهند. حيث انتشرت عبادة ميترا من إيران إلى مجوس الهند (Magas) بدءاً من القرن السادس الميلادي وما بعد. ولكن قبل ذلك يمكن أن تكون الزرادشتية قد ساعدت على نشوء فكرة المخلص في البوذية في هيئة ميترايا بوذا. وقد أدت إيران دوراً مهماً في الديانة الإسلامية، معينة إياها في التحول من دين عربي إلى دين عالمي. حيث إن لإيران دوراً في تطور ونمو الحركات الباطنية والصوفية وفكرة المخلص، وهي مفاهيم تدين بنسبة ما إلى التأثير الإيراني. وربما كان أعظم تأثير لإيران في تطور المعتقد اليهودي – المسيحي. ومن المعترف به بشكل واسع في الوقت الحاضر من قبل الباحثين في الكتاب المقدس، أن المفاهيم اليهودية اللاحقة حول الشيطان والجحيم والحياة الآخرة والبعث ونهاية العالم وصورة المخلص، كلها قد اصطبغت بصبغة زرادشتية، بالإضافة، بالطبع إلى المعتقدات التي أثرت في اركان المسيحية. لاهوتياً كما جغرافياً، كانت إيران الجسر بين الشرق والغرب، حيث ساهمت بشكل كبير في حقل الدين.

الزرادشتية دين الثنوية الأخلاقية

نرى من خلال دراسة بنية التجربة الدينية حول العالم أن في تطور الديانة الزرادشتية وجارتها الديانة الهندوسية، أثراً للبيئة والتطور الثقافي في معتقدات ومواقف الشعوب ذات الأصل الواحد. إن لدين زرادشت الأصول نفسها التي لدين الآريين الفيديين. وحيث أن القبائل الهندو ـ أوربية كانت في ارتحال دائم في بداية الألفية الثانية ق.م، أو ربما أبكر من ذلك، فقد حصل وافترقت في مسالكها في مكان ما قرب بحر قزوين، حيث أن قسماً منهم، وربما الأعظم، قد استمر بالصعود باتجاه وادي نهر جيحون إلى الهند، بينما تغلغل البقية فيما يعرف اليوم بأرمينيا وأذربيجان والوديان الجبلية التي تحف بالهضبة الإيرانية من الشمال الغربي. وقد واكب هذا الانفصال الجغرافي الطبيعي انفصالاً ثقافياً.

في أرض إيران التي يفضل المؤرخون أن يطلقوا عليها بلاد فارس القديمة، كانت الأرض الزراعية قاحلة في معظمها والمناخ جافاً ومنشطاً، وتميز السكان نتيجة لذلك بنوع من العدوانية والواقعية، حيث فرضت الطبيعة عليهم أن يكونوا مزارعين ورعاة حريصين ويقظين. بينما في الجانب الهندي ذي المناخ المثبط فقد مالت الحياة إلى الركود كطبيعة جغرافية، ولكنها غنية بشرياً بالاهتمامات الرومانتيكية والفلسفية. كان هناك الكثير من الوقت من أجل إعمال الفكر في الهند، ربما لعدم انشغالهم بأمور حياتية كثيرة. بينما كان الوضع مختلفاً تماماً في الهضبة الإيرانية. حيث كان التفكير والعيش منشغلين بهذا العالم وبالصراع المثير والصعب من أجل البقاء. وأصبحت مبادئ السلوك الأخلاقي أحد أهم اهتمامات الدين، بينما هم يلاحقون وسائل العيش، وقد تلاشى طبع الزهد والتقشف من عقول الناس تقريباً.

لو افترضنا أن آريي الهندي وآريي إيران قد بقوا معاً وعاشوا جنباً إلى جنب في سهول جنوب شرق أوروبا، كما فعلوا ذلك من قبل. هل كان لهذا الاختلاف الكبير أن يظهر كما هو بين الزرادشتية والهندوسية؟ لا جدوى من طرح هذا السؤال. لد عمل الزمن والظروف على جعلهما يتباعدان عن بعضهما. ليس من السهل سرد قصة الزرادشتية فمصادرنا ليست واضحة وأصلية كما هو الحال في دراسة ديانة الفيدا. حيث أن كتاب الزرادشتية المقدس، الأفيستا، قد استمر تناقله شفهياً لقرون، ولم يدون حتى القرن الثالث أو الرابع الميلادي في العهد الساساني. وما يحتويه الأفيستا، أن هو إلا تشكيلة من الكتابات شتى تقل أو تزيد دون ترابط. إنه في الواقع بقية من تراث أدبي أوسع بكثير، وقد ضاع وفني منه الكثير. والجزء الأهم من الأفيستا هو اليشنا بالنسبة لنا لأنه يحتوي أناشيد الغاثا لزرادشت وهو مكتوب بلغة محلية قديمة الغاثية Gathic، لغة سبقت الأفيستية وذات صلة بالفيدية. هذه الأناشيد هي الوحيدة التي تعطينا المعلومات الجدرة بالثقة عن حياة وفكر زرادشت.

الأجزاء الأخرى من الأفيستا، اليشتات Yashts، تعج بالتعاويذ لطرد الشياطين مع تعاليم التطهير. وهناك الأفيستا الصغرى، وهذه كلها لا يمكن الاعتماد عليها كثيراً بسبب تاريخها المتأخر واختلاف نبرتها ونظرتها إلى العالم. بالإضافة إلى الأفيستا يوجد ما يسمى بالنصوص البهلوية المكتوبة باللغة البهلوية التي كانت لغة البارثيين بعد مئتي عام من الحكم الإسلامي لفارس. أهم هذه النصوص هو البونداهشن Bundahishen الذي يصف الخلق وتكوين العالم، بالإضافة إلى الدنكاتا Denkata وهي جمع لأخبار زرادشت المتناقلة. تقدم لنا هذه النصوص أفكاراً عن الزرادشتية المتأخرة.

أفضل منهج نتبعه هو أن نبدأ بما يمكن استدراكه من الديانة الإيرانية قبل زرادشت، بعدها نتناول تعاليم وحياة زرادشت نفسه وأخيراً نطرح الاختلافات المنظورة في زرادشتية العصور اللاحقة.

1- الديانة الإيرانية قبل زرادشت:

ما نعرفه في واقع الأمر عن الديانة الإيرانية قبل زرادشت مأخوذ من الإشارات الصريحة العداء لهذه الديانة في أناشيد الغاثا، والإشارات عصية التفسير الكائنة في النقوش الكتابية للملوك الإخمينين، ومن النصوص الأفيستية ما بعد الغاثية.

نحن نعلم، بأي حال، أن الديانة الشعبية للإيرانيين كانت هي نفسها كما يتم التعبير عنها في أسفار الفيدا السنسكريتية الهندية.

لقد عبد العامة قوى معروفة باسم الدايفاس Daevas، تسمية شبيهة بالديفاس Divas وتعني المنورين في الريغ فيدا. وكان هؤلاء مرتبطين بقوى الطبيعة، الشمس والقمر والنجوم والأرض والنار والماء والرياح.

وقد ميَّز الكهنة أيضاً الأهوراي أي الأرباب من بين الآلهة الذين صنفوا في مرتبة سماوية علوية، وهم المعنيون بالنظام الكوني. وبهذا الشكل وجد نظام تراتبي للآلهة غير واضح بالنسبة إلينا.

كان من بين الآلهة إنتار أو إندارا، وهو إندرا الفيدي، إلهاً للحرب، المعروف باسم فيريثراغنا Verethragna، الذي دمر فيريثرا Verethra، التنين الذي حجز مياه الأمطار. لكن لم تكن لهذا الإله في إيران تلك الأهمية التي كانت له بين آريي الهند. لقد كان يتفوق عليه ميترا وهو (ميترا الفيدي)، إله ذو شعبية كبيرة، ومشهور جداً على ما يبدو بين الآريين في كل مكان. ويرد ذكر ميترا في وثيقة حثية اكتشفت في آسيا الصغرى تعود إلى 1400 - 1300 ق.م تحت اسم ميدرا Miidra، وقد كان الإله الأكبر عند الميتانيين على ما يبدو. وهؤلاء هم مجموعة آرية سيطرت على المناطق الجبلية المتاخمة لسهول بلاد الرافدين من جهة الشمال. وقد وضعه الآريون في أعلى المراتب. وكانوا يرون فيه واهب الماشية والأبناء، وهو إله النور (ومن ذلك استدل المانويون والإغريق والرومان أنه كان إلهاً شمسياً، وهذا ما يمكن أن يكون صحيحاً)؛ وقد كان رمزاً للأخلاق والحفاظ على الدين. وقد صور في نشيد آخر في الأفيستا الصغرى بأنه الإله

الذي يصلي له الأمراء قبل أن ينطلقوا إلى المعركة. ومن خلال مهمته كحامٍ لحرمة المعاهدات يبدو أنه يعني الميثاق أو المعاهدة. فهو يحرسها حيثما وجد دين باطل.

«جياد المخادعين ترفض حمل راكبيها. وعلى الرغم من عدوها فإنها لا تتقدم، وعلى الرغم من امتطائهم الجياد فإنه لا يحرزون أي تقدم. ومع أنهم يركبون العربات فهم لا يكسبون أي مزية. والرمح المرمي من قبل عدو ميترا يرتد. حتى لو تميز العدو رامي الرماح بالمهارة، حتى وصل رمحه إلى جسم عدوه، فإن الضربة لا تؤذي. فالرمح الخارج من يد عدو ميترا تحمله الريح بعيداً».

يظهر بالإضافة إلى ميترا إله يدعى عند الحثيين أوروّوانا Uruwana، وهو الذي عرفه الإغريق باسم أورانوس، والذي يتطابق مع آرونا الفيدي. إنه إله قبة السماء والرب (=أهورا) حامي النظام الأخلاقي. وقد كان ذا سمات أخلاقية سامية. وسوف نعود إليه ثانية. كما ونتعرف أيضاً على مفهوم يقوم عليه نظام العالم، سوءا كان طبيعياً أم أخلاقياً، يدعى آشار أو أرتا والذي من صفاته الصدق والحق والعدالة والنظام القدسي. وهو ريتا الفيدي نفسه. ونسمع أيضاً عن التوأم السماوي وهما الناساتيا Nasatya وآسفين Asvins (ويدعيان في الوثائق الحثية ناشا أديناتا Nashaadinata). وقد أرجعهم الفرس اللاحقون إلى كائن واحد من نسل فايو، الريح، مرافق إندارا والذي يتجلى في الطبيعة المزدوجة للريح الطيبة والريح المدمرة، والتي تهب من بدء الخليقة. وعن حاكم الموتى، وهو أول إنسان مات في البدايات الأولى ويدعى ييما (ياما الفيدي Yama) وعن الفرافاشي، أو الآباء، وهم أرواح الأسلاف الحامية. عُبدت هذه القوى الإلهية وغيرها، وقدمت لها القرابين تحت السماء المفتوحة بجانب المذابح بمعاونة من الكهنة، وعبدة النار، وجرى التناول الطقسي للشراب المهلوس الذي كان يُحضَّر من نبات الهاوما المقدس، ويقابله (السوما الفيدي).

تكتسب عبادة النار عند الإيرانيين أهمية خاصة، ليس بسبب تشابهها مع طقوس النار الاحتفالية في الهند القديمة فحسب، بل نتيجة أهميتها التاريخية في

الزرادشتية حتى الوقت الراهن. الاسم الفيدي آغني Agni (= النار) غير وارد في التراث الإيراني، لكن مما لا شك فيه أنه قد تمت عبادته والابتهال إليه تحت الاسم الإيراني آتار Atar. وأثناء الطقوس الاحتفالية التي كانت توقد فيها النار الشعائرية ويتم تبجيلها، كان العشب حول المذبح يقدس ويرش بعصير الهاوما ويحول إلى مائدة توضع عليها حصص من القربان من أجل الضيوف الإلهيين غير المرئيين. ويمكن أن يكون القربان من الحبوب، ولكن عادة ما يكون القربان حيواناً. في حال كانت الأضحية حيواناً، كانت تفرك بالبارسوم Barsom، وهو عبارة عن حزمة من الأغصان كانت تعبد كقوة خارقة وتوضع أمام الوجه أثناء عبادة النار المقدسة. كان الطقس الاحتفالي لاستخلاص الهاوما والاستعمال القرباني لهذا السائل المقدس شبيه بالطقس الاحتفالي لعصير السوما في الهند الفيدية.

على العموم فإن الإيرانيين القدماء، ولا سيما الذين حرثوا الحقول وأطلقوا ماشيتهم ترعى في البرية قد اتبعوا ديناً لا يلائم أسلوب حياتهم واقتصادهم المتطور. حيث أصبحت التضحية بالحيوانات تشكل عبئاً متزايداً عليهم. وما بدا طبيعياً ومنطقياً للبدو ولا يتضمن خسارة اقتصادية. كان بالنسبة للذين استقروا مكلفاً جداً ولا بد من إصلاحه، وظهر زرادشت ليقدم الحل.

2- حياة وتعاليم زرادشت:

يستحيل التأكد من تفاصيل حياة زرادشت ويصعب أن نغطي الحقيقة كاملة بسبب حالة عدم اليقين التي تحيط بالمدونات. لكن البيانات التي سوف نعرضها ربما قد تتضمن بعض الحقيقة.

تاريخ مولد زرادشت غير محدد أبداً. ويحدد التراث الفارسي ذلك نحو 660ق.م وهذا التاريخ قد يكون أسبق بثلاثين سنة أو أكثر على مولده الحقيقي. ولكن معظم الباحثين الحديثين يتبنّونه رغم الشك في دقته. وهنالك آخرون يجادلون، اعتماداً على المنطق، أن زرادشت قد عاش في فترة أبكر منذ ذلك بكثير، وربما تعود إلى العام 1000ق.م، أو ربما تتأخر حتى النصف الأول من القرن السادس ق.م.

قضية أخرى محيرة من الصعب التأكد منها وهي مكان مولده. يبدو أنه قد ولد في مكان ما في شرق إيران، لكنه نشط في مكان أبعد باتجاه الشرق. ويتجاسر أحد المصادر الحديثة على تحديد دقيق للمكان الذي بث فيه دعوته، إنه بلاد خوارزم القديمة، منطقة تشمل ما يدعى اليوم خراسان الفارسية وغرب أفغانستان وجمهورية تركمنستان.

وبحسب التراث اللاحق والمدون بعده بفترة طويلة، فقد تلقى تعليمه على يد مؤدب، وتلقى الكوشتي Kusti، النطاق أو الزنار المقدس، في عمر الخامسة عشرة عرف عنه طبعه العاطفي الذي تجلى بشكل خاص بالاهتمام الشديد بكبار السن وبالماشية في زمن المجاعة. في سن العشرين هجر أباه وأمه وزوجته التي اختاراها له باحثاً عن جواب عن أسئلته الدينية العميقة.

في سن الثلاثين الحرجة (غالباً هي سن المحنة في حياة العباقرة المتدينين) جاءه أول وحي. وقد بالغت الأسطورة في سرد الحدث الأصلي وحولته إلى سلسلة من المعجزات الرؤيوية: وبحسب ما يروي التراث فقد ظهرت أول وأهم رؤيا مريعة على ضفاف نهر دايتا قرب منزله، حيث ظهر شخص بتسعة أضعاف حجم الإنسان أمام زرادشت، لقد كان الملاك الرئيس فوهومانا (الفكر الخير). استجوب فوهومانا زرادشت ثم أمره أن ينزع عنه جسده المادي وأصعده كروح منزهة إلى حضرة أهورامزدا الرب الحكيم والكائن العلي المحاط بملائكته. وبحسب ما تخبرنا المدونات أنه حالما ظهر في المجمع السماوي لم يعد يرى ظله على الأرض وذلك بسبب البهاء العظيم للملائكة المقربين الذين طوقوه. بعد ذلك دعا أهورامزدا زرادشت إلى النبوة، وقام بتعليمه مبادئ الدين الصحيح. وتستمر الحكاية وتخبرنا أنه في السنوات الثماني التالية التقى في الرؤيا بكل واحد من الملائكة المقربين الستة، وفي كل اجتماع كان يضاف شيء جديد إلى أصل الوحي. وفي أناشيد الغاثا التي من المفترض أنها أقوال زرادشت، لدينا مزيد من التفاصيل الأكثر أصالة، موضوعة بصيغة سؤال وجواب بين زرادشت وأهورامزدا.

وبحسب ما يروي التراث فقد بدأ دعوته مباشرة بعد ذلك ولكن دون نجاح. وفي ذروة إحساسه بالخذلان جاءه الروح الشرير أنغرا ماينو وأمره أن يتبرأ من دين مزدا. لكن زرادشت أجابه: لن أتبرأ من دين مزدا الخير، حتى لو قطعت إرباً وفارقتني الحياة والروح. بعد ذلك ترك موطنه وتوجه شرقاً قاصداً بلاط أمير آري يدعى فيشتاسبا، وهناك بدأ مع أمل متجدد يجاهد لمدة سنتين ليكسب الحاكم إلى دينه. يعطي فيشتاسبا الانطباع بأنه إنسان نزيه، بسيط وصادق مع نمط الحياة الذي يعيشه، ولكنه كان تحت سيطرة الكاربان المكروهين في الأفيستا، وهم جمع من الكهنة الجشعين. وبسبب طلباتهم الكثيرة من القرابين الحيوانية وأعمالهم السحرية الموجهة لإنبات المحاصيل وحماية الماشية وإبقاء السلاب البدو الطورانيين القادمين من الشمال بعيدين عن المنطقة، وإبعاد التأثيرات الشيطانية المؤذية من كل نوع، فقد عارضهم زرادشت بشدة. ولكنهم استطاعوا أن يزجوا به في السجن نتيجة الصراع معهم. ولكن وبعد عامين من المعاناة، وامتلاك القدرة على شفاء حصان فيتشتاسبا الأسود والمفضل، وبمساعدة زوجة فيتشتاسبا هوتاوسا المتعاطفة، استطاع أن يكسب الطبقة الحاكمة إلى دينه.

كان التحول كاملاً وبلا تحفظ، وقد وضع فيشتاسبا كل قوته وراء نشر الديانة. ولقد تبع البلاط بكامله العاهل الملكي إلى الدخول في الدين الجديد. أكبر الأثر. كما كان لتحول شقيقين من النبلاء صاحبي شأن عظيم في المجلس الاستشاري للملك فيشتاسبا دوراً كبيراً، وهما بالاسم فراشا أوشترا وجاما سبا، وقد أصبحا نسيبان لزرادشت في علاقة زواج. قدم الأول ابنته، هوفي، زوجةً لزرادشت بينما اتخذ الثاني ابنة زرادشت بوروسيستا زوجة أولى.

انقضت السنوات العشرون التالية، بحسب ما تروي سير التراث اللاحقة والتي لا يعول كثيراً عليها، في نشر الدين بشكل رسمي بين الإيرانيين وفي خوض حربين مقدستين في الدفاع عن هذا الدين، وقد تميز العمل بالهمة والنشاط. وشهدت الحرب الأولى بروز اسفندا كبطل عظيم من خلال هزيمته للغزاة الطورانيين. ولكن غزوة الطورانيين الثانية قد نجحت في بدايتها، هذا إذا صدقت المرويات، وقد وقعت عندما كان زرادشت في السابعة والسبعين

من عمره وقد أدت إلى قتله. ويعلن مدونو الأفيستا اللاحقون، بعد ألف سنة من الواقعة، أنه عندما اجتاح الطورانيون بلخ، فاجأ واحد من جندهم زرادشت وطعنه وهو أمام مذبح النار يؤدي الصلاة. سواء حدثت الواقعة كما يروى أم لا فإن موت زرادشت لم يعن أفول الدين. لقد ثبت جذور ديانته الجديدة عميقاً في الأرض الخصبة للوعي الشعبي الإيراني، حيث كان مقدراً لها أن تزدهر.

التعاليم:

إن الدين الذي جاء به زرادشت كان دين وحدانية أخلاقي فريد. جوهر القول أنه اعتقد أن الشريعة الأخلاقية تتطلب صلاحاً بشرياً صادراً عن إله واحد خير. عندما وعظ زرادشت باسم الإله العلي أهورامزدا، الرب الحكيم، لم يكن قد ابتدع شيئاً جديداً، حيث كان الاسم متداولاً، ولم يكن الإله الذي يشير إليه الاسم مجهولاً في ذلك الزمان. ولم يكن أهورامزدا، مع احتمال القليل من الشك سوى إله الأخلاق والنظام الطبيعي الذي بعده آريو الهند تحت اسم الإله فارونا.

ويبدو أن عشيرة زرادشت قدمت الولاء والطاعة إلى هذا الإله الأخلاقي العلي. على الرغم من أنه لم يعد يحمل اسم فارونا، فإن كثيراً من الباحثين يرونه هو نفسه عبر المظاهر التي عرض من خلالها، (يوصف في الغاثا بأنه ملفع بالسموات العظيمة التي هي له رداءً) واستنتجوا أن هذا اللقب التشريفي قد جاء ليحل محل الاسم القديم، تماماً كما هو الحال في لقب الإله روردا الهندي، «شيفا» الذي حل فيما بعد محل الاسم القديم. ويبدو اسم أهورامزدا كعلامة تشريف واضحة تماماً. فكلمة مزدا تعني الحكيم أو تمام النور، وكلمة أهورا هي نفسها آسورا في الفيدية والتي تعني الرب أو السيد، وكان اسماً هندو-أوروبياً يحمله الآلهة البارزون في البانثيون.

وبعد أن وضع نفسه في معارضة تامة للدين الشعبي السائد، فقد أرسى زرادشت لدينه الجديد منظومة حددها بعدة مفاهيم واضحة قاطعة:

أولاً: من البداية تميز بثبات موقفه ورسوخه معتمداً على الوحي الذي تلقاه. وكانت أسافر الغاثا مرة تلو الأخرى منطلق إدعائه أن أهورامزدا بذاته قد دعاه ليقوم بالتبشير، وأن الدين الذي تلقاه هو الدين الأخير ودين الحق.

ثانياً: كان ولاؤه المطلق لإله أوحد. وكان أهورامزدا بالنسبة إليه هو الإله الأسمى، بعبارة أخرى، هو سيد الخلق، العلي في قدره، والعلي في احتسابه ليوم القيامة الأخير والذي من خلاله سوف يسحق الشر كله وللأبد، ويثبت الحق والحقيقة. وخلافاً لبعض أتباعه اللاحقين، آمن زرادشت أنه بإرادة الرب العلي مزدا قد ظهر كل شيء إلى الوجود. وكما تخبرنا العبارات التالية من الغاثا فإن مزدا هو موجد الظلمة والنور معاً.

من هو بالإحداث موجد الحق في البدء؟

من اختط للشمس مسارها وللنجوم؟

من جعل القمر بدراً فهلالاً فمحاقاً؟

من أرسى الأرض ورفع السماء؟

من أجرى الماء وأنبت الزرع؟

من سخر الرياح تجري بالسحاب؟

أي فنان مبدع أوجد النور والظلمة، النوم والصحو؟

من أوجد الصبح والظهيرة والليل تذكرة لذوي الألباب؟

ربي! يا مبدع كل شيء! أعني على معرفتك من خلقك، يا خالق الأشياء طراً من الروح القدس.

ثالثاً: امتلك زرادشت مفهوماً كاملاً عن طريقة إتمام أهورامزدا لعمله حيث يعبر أهورامزدا عن إرادته من خلال الروح القدس، سبينتامابنو، وعبر وسائط متنوعة للفعل الإلهي، تدعى الكائنات الخالدة القدسية، الأميشاسبينتا. وهذه الأحوال للفعالية الأخلاقية تحمل أسماء مثل: فوهومانا، الفكر الخير أو الحسن،

آشا الحق، كشاترا القوة أو السيطرة، هور فاتات الرخاء، أرمايتي التقوى أو الورع، وأميريتات الخلود. آشا (أو آرتا) وهو ريتا الفيدي. وفوهومانا هو الوسيط الإلهي الذي هدى زرادشت إلى أهورامزدا في أول وحي أنزل عليه. أما أرمايتي وكشاترا وهور فاتاتات وأميريتات فهي نعم من أهورامزدا إلى الإنسان وتمثل قوى وحقائق في جوهرها. وهي بأسمائها تمثل صفات وحالات مجردة. غير واضح كيف كان زرادشت يتصور هذه الأشكال. هل ظنها أرواحاً خيرة من الجن من ذات أهورامزدا بكينونتها وفردانيتها، أم أنه قصد أن يقدمها كتجريدات مشخصنة. وقدم أشكالاً أخرى من التجليات الإلهية بالأضافة إلى الأميشاسبينتا مثل سراوشا الطاعة، وخالق الثور أو الروح التي تحمي الأبقار (جيوس أورفا)، وأسماء غيرها، لكن لا أحد من هؤلاء قد تميز ككائن إلهي ذي شخصية مستقلة. في جميع الأحوال فقد بقيت جميعها تابعة لأهورامزدا كوسطاء للتعبير عن ذاته الإلهية. يقدم لنا زرادشت باختصار مفهوماً غنياً عن الإله دون التخلي عن التوحيد.

رابعاً: ولكن، وعلى الرغم من أن أهورامزدا هو الأسمى فإنه ليس بلا معارض. وهذا أحد أركان معتقد زرادشت. هناك في السموات يقف دروج، الكذب، ضد آشا، الحق أو الحقيقة. فالحق يواجه الباطل، والحياة يواجهها الموت. والروح الخير سبينتامانيو يعارضه الروح الخبيث أنغرا ماينو. ليس غريباً أن تؤكد أناشيد الغاثا مراراً وتكراراً على الانقسام الأساسي في عالم الطبيعة وفي حياة البشر ما بين الحق والباطل، وما بين الدين الحق والدين الباطل. لقد بدأ هذا الشقاق في اللحظة التي خلق فيها أهورامزدا العالم ومنح الحرية لمخلوقاته. وعلى حد قوله في الغاثا:

«والآن فإن الروحان البدئيان اللذان تجليا كتوأمين يمثلان الخير والشر في الفكر والقول والعمل. ومن بين الاثنين فإن العاقل يختار الحق، بينما الأحمق لا يفعل ذلك. وعندما ظهر هذان الروحان في البدء أسستا الحياة وعدم الحياة. وفي النهاية سوف يكون الجحيم من نصيب أتباع الباطل والفردوس من نصيب أتباع الحق. ومن اتبع الروح الخبيث فقد وقع في شر أعماله ومن اتبع الروح الخير فله الجنان العلا».

وأيضاً:

«سأحدثكم عن الروحين في بدء الخليقة، حيث قال الروح القدس لغريمه: لن يكون وفاق بيننا، لا في الفكر ولا التعاليم، لا في الإرادات ولا المعتقدات، لا في الأقوال ولا في الأفعال، لا في النفس ولا في الأرواح».

هكذا مع بدء الخليقة تقابل الروح الخبيث مع الروح الخير الصادر عن أهورامزدا وعارضه، وقد أطلق على الروح الخبيث في العهود اللاحقة اسم «شيطان» (واللفظ كما هو في العربية تماماً).

خامساً: يقوم مبدأ زرادشت الأخلاقي الأول على أن روح كل إنسان هي مركز الجهاد بين الخير والشر. وهذا الجهاد الذي في الصدر ذو أهمية مصيرية. عندما خلق أهورامزدا الإنسان منحه الحرية ليقرر أفعاله، ومن ذلك القدرة على الاختيار بين الحق والباطل. وعلى الرغم من أهورامزدا ينشد دائماً أن يرعى الحق بواسطة روحه القدوس سبينتامابنو، ومن خلال فوهومانا، فإنه لم يجعل الإنسان محصناً تجاه إغواءات أنغرا ماينو الشريرة. لذلك المطلوب من كل إنسان أن يتخذ قراره في صدره. ويختار إما الخير أو الشر، والرجل الصالح يختار الحق.

سادساً: الخير والشر غير محددين بوضوح، لكننا لا يمكن أن نتوقع من الغاثا، التي هي في الأصل أناشيد مكرسة للعبادة والصلاة، وليست رسائل بحثية لاهوتية، أن تكون محكمة ودقيقة. وتقدم لنا أناشيد الغاثا، بأي حال، إشارة إلى الاختلاف المحسوس بين الحق والباطل. فالناس الأخيار بالنسبة لزرادشت هم أولئك الذين قبلوا الدين الحق، والناس الأشرار هم أولئك الذين رفضوا هذا الدين، ولا سيما أولئك الذين استمروا في ممارسة طقوس الديانة الشعبية بالإضافة لعبادتهم للآلهة القديمة المدعوة بالديفا. وقد ربط هؤلاء الديفا مصيرهم، كما يبدو واضحاً، بأنغرا ماينو، الروح الخبيث، لذلك كانت حياة الذين تبعوهم محفوفة بالشر. أناس كهؤلاء لا يجب تجنبهم فقط وإنما مقاومتهم بالسلاح.

وإذا كان من الخير دائماً أن تتكلم الصدق وأن تساعد أولئك الذين يتبعون آشا وفوهومانا، فإنه من الشر مساعدة السيئ، أو أن تقدم له معروفاً أو هدايا. فالأخيار يحرثون الأرض ويزرعون الحبوب ويغرسون أشجار الفاكهة ويجنون البذور ويستصلحون الأراضي البور ويروون الأرض الجدباء، ويحسنون معاملة الحيوانات ولا سيما البقر، وفي كل ذلك خدمة للمزارعين. وعلاقاتهم الشخصية قائمة على الصدق، فهم لا يكذبون أبداً. والأشرار لا زراعة عندهم، وتلك هي رذيلتهم.

لقد مثل البدو الطورانيون الشر بأسوأ أشكاله. فقد كانوا يعدون لغاراتهم من خلال الصلاة للديفا، آلهتهم، بعد ذبحهم الأثيم للماشية كقرابين على المذبح. وينقضون على الحقول ويدمرون المحاصيل. هذا هو الشر الذي يتوقعه المرء من عبادة الديفا!

والإنسان الصالح يتلو هذه المقاطع من شهادة الإيمان الزرادشتي، لدى دخوله الدين الجديد:

إنني أنكر الديفا
وأشهد بأني عابد للإله أهورامزدا
مؤمن بزرادشت عدو الديفا ونبي الله
حامد وعابد للكائنات القدسية الخالدة، الأميشاسبينتا
ومعاهد الرب الحكيم على بذل ما استطعت من خير

سابعاً: لم يتبق من طقوس الاحتفال الدينية إلا القليل. لقد تمت تنقية الطقس الآري القديم بالكامل من السحر والوثنية، وألغيت الأضاحي الحيوانية تماماً، وأصبح طقس السكر المصاحب لشرب عصير الهاوما من المنكرات[1].

---

(1) لم يستهجن زرادشت تأثيرات الهلوسة الناجمة عن شرب عصير الهاوما فحسب، بل أدان الممارسات التي كانت موجودة أيضاً في الطقوس الهندو ـ آرية وطقوس آسيا الوسطى، حيث كان يجمع العامة بول الكهنة الشاربين لعصير الهاوما ويشربوه. واضح أن السوما أو الهاوما تسري خلال أجسام الكهنة الذين يشربونها وتخرج مخففة من أجسادهم. وعندما يشرب العامة البول يحسون بتخدير معمق للأحاسيس نتيجة ذلك. ويرد في الأفيسا (ياسنا 48: 10) سؤال زرادشت الساخط: «متى سوف تنبذون بول السكر الذي يخدع الكهنة الناس به؟».

لكن زرادشت أبقى على ظاهرة واحدة من الطقس القديم، وهو طقس النار المقدسة. وقد مر معنا حسب ما يروي التراث أنه تعرض للقتل بينما هو يؤدي صلاته أمام النار المقدسة. وسمعناه يقول في اقتباس سابق من الغاثا: «في كل تقدمه لنارك سوف أذكر نفسي بالحق طالما أنا أمتلك القوة لفعل ذلك». ويصرح زرادشت في مكان آخر أن النار المقدسة هي هبة من أهورامزدا إلى البشرية. لكن زرادشت نفسه لم يعبد النار كما فعل أسلافه أو كما فعل بعض من أتباعه فيما بعد. لقد كانت النار بالنسبة له رمزاً عزيزاً لأهورامزدا، ليس أكثر، والتي من خلالها أمكنه إدراك طبيعة وجوهر الرب الحكيم. وهكذا يبدو أن لغته ومنطق محاكمته قد قاداه إلى هذا الإيمان.

ثامناً: في النهاية، ما هي محصلة الصراع الطويل بين الخير والشر؟ وهل سيبقى هناك معارضون لأهورامزدا إلى الأبد؟ وهل سيبقى أنغرا ماينو، الكذاب، يبتلي الإنسان ويقوده إلى الضلال؟

مهما تكن الشكوك التي لدى أتباعه اللاحقين حول الموضوع، فإن زرادشت لم يكن لديه أدنى شك بأن أهورامزدا سوف يقتلع الشر مزدهياً بالنصر وذلك في اكتمال دورة الزمن. إنه لا يؤمن أن سلطة الشر أبدية كما سلطة الخير. كان متفائلاً بالمطلق أن الخير هو الذي سيدوم ويهزم الشر في النهاية.

حسب تعاليم زرادشت فإن بعثاً شاملاً سوف يحدث في النهاية. عندها سيخضع الأخيار والأشرار لتجربة النار والمعدن المذاب الذي يجتاح العالم على شكل تيار دافق يطال كل كائن حي. فأما الأخيار فيعبرونه كمن يخوض في نهر حليب دافئ، وأما الأشرار فيحترقون وينجرفون في التيار الذي يفنيهم. وفي هذه الأثناء يكون جند الظلام قد اندحروا أمام جند النور، فيغوص نهر النار إلى أعماق الجحيم حيث لجأ الشيطان أنغرا ماينيو ومن بقي معه، فيلتهمهم جميعاً ويتم التخلص من آخر بقايا الشر.

قبل حلول اليوم الأخير تخضع النفوس التي ذاقت الموت إلى الحساب الفردي الذي يقرر الوضع الذي يتبقى عليه إلى أن يحين البعث الشامل. وهذا الحساب يلي

الموت بفترة قصيرة. فكل روح مواجهة الحساب على الجسر الفاصل، جسر شينفات، الذي يمتد فوق هوة جهنم، وفي طرفه الآخر ينفتح على الفردوس. وتتلى على هذا الجسر أعمال الروح. ويؤتى بميزان الحسنات والسيئات، وإذا ما رجحت كفة الأعمال الحسنة على السيئة فإن يد أهورامزدا، تشير صوب الفردوس، ولكن إذا ما رجحت كفة السيئات على الحسنات فإن اليد سوف تشير إلى الهوة تحت الجسر. ويصور عبور الجسر بصورة غاية في الدرامية. فالصالحون الذين اهتدوا بزرادشت لن يجدوا صعوبة في العبور بينما الطالحون الذين أدينوا بأعمالهم سوف يجدون أنفسهم في وضع لا يمكنهم أن يتجاوزوا من خلاله وسط الجسر.

ونتيجة لصدمتهم بضمائرهم الآثمة فسوف يسقطون بأنفسهم إلى مصيرهم المحتوم. وسوف يستقرون في موطن الكذب الذي هو جحيم الغاثا، مكان يطلق عليه «أردأ الوجود»، وهو مقر «أسوأ الفكر»، إقليم ذو رائحة مقززة، مرعب في فظاعته، وتضج الأصوات الحزينة في أغواره السحيقة المعتمة، حيث يعاني كل معذب وحيداً هناك. بينما في الجانب الآخر فإن الصالحين سوف يستقرون بعد الجسر العظيم في موطن الأناشيد، فردوس الغاثا المسمى «أفضل الوجود»، مقر «أفضل الفكر» حيث نور الشمس أبدي. ويتمتع الصالحون هنا بنعيم روحي دائم.

لقد آمن زرادشت بصدق أ الدين الخير لأهورامزدا سوف يكسب ما يكفي من الأنصار الموالين ليوقعوا الهزيمة النهائية بالشر، وقد امتلك أملاً راسخاً بأن كثيراً من أنصاره سوف يكونون مثله من المخلصين. لذلك لم يكن لديه أدنى شك في انتصار أهورامزدا النهائي.

3- ديانة الأفيستا اللاحقة:

إلى هنا نجد في قصة الإصلاح الزرادشتي ما يدعمها من الحقائق التي زودتنا بها أناشيد الغاثا. لكننا الآن على وشك الدخول في مرحلة من عدم اليقين، حيث أننا بحاجة إلى بحث أوسع ومعطيات إضافية أكثر. لقد اختفت السجلات القديمة نتيجة الاضطراب والفوضى على مدى ألف عام من 300ق.م إلى 700ميلادي. وربما لن يعاد سد الفجوة القائمة أبداً.

من المستحيل أن نتأكد، عند هذه النقطة، أي الاحتمالين اللذين سنسوقهما أقرب إلى الواقعة التاريخية الحقيقية. المؤلف هنا يؤيد الاحتمال الأول.

1- هل كان الإصلاح الزرادشتي، الذي رفع أهورامزدا إلى مرتبة العلي الأعلى ربما للمرة الأولى في تاريخ الأديان، قد شق طريقه كديانة توحيد أخلاقية وسط أمراء شرق إيران، وبعدها نزلت إلى حوض ما بين النهرين حيث تم تعديلها من أجل أن تتكيف مع الديانات متعددة الآلهة هناك؟

2- هل وُجد إصلاح توحيدي يماثل إصلاح زرادشت في إيران الغربية، من خلال جهود الماجي (المجوس) ونال دعم داريوس وخلفائه من بعده، إصلاح وضع إلهاً خيراً مثل أهورامزدا في تضاد مع أهريمن في معترك كوني يعج بالآلهة الهندو-إيرانية الثانوية والشياطين القادمة من الماضي السحيق، وتضمن مفهوماً عن زروان، أو الزمان اللانهائي، الذي كان الموجد أو الأرضية الذي منه أو إليه يعود كل من الإله الخيّر وأهريمن؟

يفترض الاحتمال الأول أنه عندما دخل الإصلاح الزرادشتي حوض ما بين النهرين وأصبح معروفاً بين الميديين في شمال غرب إيران، كان قد حظي بالدعم المؤثر للمجوس الذين ما تزال هويتهم تشكل لغزاً كبيراً هناك. ربما لم يكونوا من أصل آري، لكنهم كانوا معروفين حتى حدود القدس وأثينا في الغرب، بمهاراتهم في ممارسة فنون السحر، وكلمة ماجيك Magic مشتقة بالطبع من اسمهم. لقد عرفتهم بابل، حتى قبل السقوط المدوي لبابل على يد قورش نتيجة هجوم صاعق.

أما الاحتمال الثاني فيفترض أن المجوس قد قاوموا الزرادشتية كديانة منافسة عندما ظهرت على الساحة، ولكن لدى اقتناعهم بأن مواهبهم ككهنة يمكن استخدامها في تمثل هذه الديانة واستيعابها، عمدوا إلى اعتناقها وأصبحوا على رأس شارحي ومفسري الديانة في عالم ما بين النهرين.

من المعتقد أن قورش الذي استولى على بابل وأنهى الإمبراطورية الكلدانية كان على دين زرادشت، لكنه لم يكن ذاك المؤمن الصادق، لأنه، ولأسباب

سياسية، لدى بسطه سلطته على الكلدانيين فقد اشترى مساندتهم بإظهاره أنه من عبدة الإله البابلي مردوخ. لكن داريوس الأول أو أحشورش من بعده كانا أقل مساومة، لأنهما كانا من عبدة أهورامزدا، الذي يوصف في الكثير من نقوشهم الكتابية بالإله العلي للسماء والأرض. لم يكن دينهما كما هو دين زرادشت المطروح في الغاثا. لكنهما آمنا أن أهورامزدا وملائكته المتوسطين المكلفين بإدارة عمله الإلهي وخدمته كانوا إلى جانبهما.

لقد صدف أن العالم كان معلقاً في يد القدر في تلك الفترة. لقد اتجه كل من قمبيز الأول وداريوس وأحشورش إلى غزو العالم. وقد استطاعوا غزو بلاد الإغريق بتسخير موارد الإمبراطورية الفارسية الجديدة الهائلة. وربما تكون كارثة جزيرة سلاميس هي التي منعت الديانة الزرادشتية أو ديانة معدلة عنها من أن تصبح الديانة الأعظم في العالم الغربي.

تقهقر الفرس إلى داخل آسيا الصغرى عام 479ق.م بعد 150 سنة من ذلك التاريخ أطاح الاسكندر بالإمبراطورية الفارسية. وبقدومه أصبحت الثقافة الهيلينية هي التي تلقى الدعم الرسمي. ولم يتراجع نفوذ الثقافة الهيلينية حتى القرن الأول الميلادي. وصل الأرشاقيون إلى السلطة في فارس أثناء ذلك. وهم بارثيون من إيران الشرقية يتكلمون لغة تدعى البهلوية. وقد حكموا من 250ق.م إلى 226 ميلادي؛ وأخفق الرومان في إخضاعهم. أطاح بهم الساسانيون في النهاية وهم قوم من فارس Fars، وقد حكمت سلالتهم من 226 إلى 651م. حتى أطاح بهم المسلمون.

خلال هذه العهود الطويلة، سادت زرادشتية معدلة، فقد فيها أهورامزدا تقريباً كامل حضوره لصالح ميترا المتجدد وآناهيتا الآسرة. لقد كان ثمن صعود الزرادشتية الواسع من خلال الإمبراطورية غالياً. هذه الديانة التي كان زرادشت أعظم شارح لها. يمكننا أن نسأل هنا ما هي التغييرات التي حدثت؟

دون التحيز لأي من وجهتي النظر الآنفتي الذكر، فإن الرواية التالية سوف تبحث فيما هو مشترك بين وجهتي النظر، وهو أن الإصلاح الزرادشتي قد ساد في حوض ما بين النهرين وأنه في سيرورة اعتناقه قد خضع لتعديلات كبيرة.

سنراجع الآن هذه التغييرات، وهي تغييرات لا بد أنها تحدث في أي ديانة وتأسست على رؤى نبوية شخصية، ولكنها انتشرت في عصر لاحق في أرض غريبة عن طريق كهنة وملوك.

1- لنبدأ بالتغيرات المبكرة أولاً. فلقد أصبح زرادشت في عيون أتباعه شخصية شبه إلهية تجلى وجودها بظواهر خارقة. مجيئه معلوم وثم التنبؤ به قبل ثلاثة آلاف عام من قبل الثور البدئي الأسطوري، والملك ييما Yima، اللذين حذرا في العصر الذهبي الشياطين بأن هزيمتهم قد دنت. وبإنذار الشياطين المسبق فقد جاهدوا لمنع حدوث ما كانوا يخافونه أشد الخوف. لقد راقبوا بهلع الطريقة التي سوف يولد بها زرادشت. فلقد توحد مجد أهورامزدا مع الأم المستقبلية لزرادشت لحظة ميلادها، وهيأها لتحمل بالنبي. وفي الوقت نفسه تم غرس أرومة محمية بفعل إلهي من نبات الهاوما مع روح النبي القادم السابقة لوجوده، الفرافاشي، Fravashi[1]، وسوف يشرب والدا زرادشت العصير ممزوجاً بحليب مركز في الوقت المناسب. وقد سمعت الشياطين عبثاً أن تتلف هذا العصير الذي كان يحوي الماهية الجسدية، بروتو بلازما الجسم، التي سوف يتشكل منها الطفل في لحظة الحمل. فرحت الطبيعة بكل ما فيها نتيجة مولده. وفي اللحظة نفسها التي ضحك فيها غالباً، طوقته الشياطين والسحرة المعادين بكل أنواع الشرور والأخطار. وكاد الطفل أن يقتل في مهده، حيث حُرق بنار مضطرمة ووطئ حتى كاد أن يموت بقطيع من الأبقار، لكن ثوراً يقود القطيع خرج ووقف فوق الطفل وحماه بالكامل. بعدها نقل إلى كهف ذئاب قتلت صغارها، وكم كانت بليته عظيمة لو لم تسمح هذه المخلوقات المتوحشة لنعجة أن تدخل وترضعه.

---

(1) الفرفاشي fravashi: نفس الإنسان السابقة لوجوده أو روحه والمرتبطة بالذات العلية أهورامزدا من البدء وتتشارك هذه الأرواح أو النفوس مع أهورامدا في طبيعته ونوره الصافي.

وبحسب ما يرويه التراث فإن هذا النوع من المعجزات لازمته في حياته الراشدة، حيث تخبرنا الزراتشت نامة zartusht namah، المكتوبة نحو 1200م اعتماداً على رواية أقدم، عن شفاء فرس الملك فيشتاسبا على يد زرادشت. فلقد حكم على زرادشت بالسجن نتيجة لمكيدة دبرها له النبلاء المعادين (الكافيس kavis) وكهنة الدايفا (الكاربان karbans). بعد ذلك سقط فرس فيشتاسبا أرضاً غير قادر على الحركة حيث دخلت قوائمه في بطنه. أرسل زرادشت رسالة من السجن أنه بإمكانه شفاء الفرس، وتعهد القيام بذلك تحت شرط واحد، هو أن يسبغ الملك نعمة مقابل عودة كل قائمة إلى وضعها الطبيعي. ومثل زرادشت أمام الملك. وكان الشرط الأول أن يسلم الملك بصحة الدين الزرادشتي، وعندما وافق الملك استقامت القائمة الأمامية اليمين. وحالما التزم الملك بالشروط الثلاثة المتبقية، التي هي أن يقاتل ابن الملك اسفندار نصرةً للدين، وأن تتحول زوجة الملك إلى الدين الجديد، وأن تكشف أسماء المتورطين في المكيدة ضد زرادشت وينالوا جزاءهم. استقامت قوائم الفرس المرتعشة على امتدادها وقفز على حوافره بكامل قوته واندفاعه. استطاع زرادشت بضربة واحدة أن يهزم أعداءه ويضاعف المهتدين إلى دينه.

كان تعظيم زرادشت كبيراً في الزمن القديم، حيث أعجب الإغريق والرومان أيما إعجاب بما سمعوا عنه وعن دينه. ويدل على ذلك الإعجاب العظيم الإشارات العديدة إليه في أدبهم الواسع، وبحقيقة أن أفلاطون كان يخطط للسفر إلى فارس لدراسة الزرادشتية ولكنه امتنع بسبب اندلاع الحرب بين إسبارطة وفارس عام 386ق.م، وذلك بعد وفاة سقراط بفترة وجيزة، هذا حسب ما يشاع.

2- لقد اعترى توحيد زرادشت بعض التغيير. فمن حيث المبدأ وبحسب العقدية الرسمية للأفيستا اللاحقة، فإن أهورامزدا كان يعبد على أنه الإله العلي الذي لا كفء له. كان على مستوى من العظمة والقدسية بحيث لا يشبه أو يصور في تماثيل من الخشب أو الحجر. لكنه لم يستمر على هذا المنوال باعتباره الإله الأحد غير المتجزئ. لقد دلفت آلهة الطبيعة عند الآريين عائدة، تلك الآلهة التي أنكرها زرادشت وحاربها، عادت ودخلت في الدين وأحاطت بأهورامزدا وقاسمته النفوذ. وهكذا أصبح فوهومانا، الفكر الخير، الإله الوصي على الماشية بالإضافة إلى توليه مهام زراعية معينة. وأصبح آشا، الحق، الإله الوصي على النار. وأصبح كشاترا،

المسيطر، رب المعادن. ولأن بقية الأميشاسبينتا كانت تحمل أسماء مؤنثة فقد أصبحت من الملائكة الإناث المقربين. فأصبحت أرمايتي، التقوى الإلهة الأرض، وأصبحت هورفاتات، الازدهار، إلهة المياه، وأميريتات، الخلود، إلهة النبات.

لكن هذه الكائنات الخالدة القدسية (الأميشاسبينتا)، وربما لخاصية معينة فيها تجعلها غير ملائمة للميثولوجيا الشعبية، بدت أقل أهمية من اليازاتا yazatas أو الملائكة التي نعرف من أسمائها أربعين، والتي عادت من الماضي الآري ودخلت الزرادشتية تجر أذيال المجد. وسوف نأتي فيما يلي على ذكر أبرزهم:

أ- أعظمهم طراً كان الإله ميترا. وعلى الرغم من أن زرادشت لم يعط أهمية تذكر لهذا الإله النير، فإن الناس تعلقوا به وتمسكوا، وعاد في نصوص الأفيستا اللاحقة إلى سابق عهده في الشهرة والظهور. ويذكر اسمه بانتظام مع أهورامزدا في النقوش الكتابية للملوك الأخمينين اللاحقين ومنهم أرتحشتا على سبيل المثال. لاهوتياً كان يتبع أهورامزدا بالطبع، لكنه اكتسب في الدين الشعبي منزلةً كإله للنور، ومثيب للصادقين والحافظين الدين، وهو السند الرئيس للمتكلين عليه لعونهم في الصراع مع قوى الظلام في هذه الحياة والتي تليها. أقرانه هم راشنو، ربما هو الصيغة الإيرانية من فيشنو، وساراوشا، الطاعة، الذي يتولى رئاسة الجسر الفاصل، كما سنرى لاحقاً[1].

---

(1) لقد أصبح ميترا الشخصية المركزية في ديانة تدعى الميترانية وقد انتشرت في القرن الثاني الميلادي غرباً حتى وصلت إلى بريطانيا، ولا سيما بين الجند الرومان وقد رمز إلى الشمس المنيعة. وحسب الروايات الأسطورية أنه ولد في مغارة حيث قدسة الرعاة. قام ببعض المعجزات في سن البلوغ، وصعد إلى السماء أخيراً. ولأنه ولد في واحدة من المغاور فإن أتباعه واصلوا عبادته في المغاور الطبيعية أو التي من صنعهم وسميت ميترا يومات Mithraeums. وقد صور في منحوتات نافرة، نجا الكثير منها، إجلالاً لمأثرته البطولية في ذبح الثور المقدس ليخصب الأرض بدمه، كما صور كشاب وسيم مرتدياً طاقية فريجية ورداءً متطايراً، وهو جاث على ثور يحز له رقبته. هناك جانب من طقوس التلقين الطويلة المفروضة حيث يقف المبتدئ الجديد تحت منصب حديدي مشبك بينما دم الثور المذبوح ينفسخ على جسده العاري. كانت الميترانية منافسة للمسيحية حتى قمعت في القرن الرابع بعد أن أصبحت المسيحية هي الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية.

ب- أعيدت أيضاً الهاوما، الخمرة المقدسة، باعثة الحياة، الشافية، الجميلة، الجليلة ذات العينين الذهبيتين، ولكن بشكل ملطف. وقدمت الأضاحي الحيوانية لزرادشت، وهذا ما كان يثير الرعب في نفسه خلال حياته.

ج- أشد الآلهة عدوانية وجبروتاً فيري تراجنا Vere Thragna، المعروف لدى آريي الفيدا باسم إندار، قد تقمص عبر أزمن متعددة في عشر مخلوقات قوية: ثور بقرنين ذهبيين، حصان أبيض، جمل، خنزير بري، كبش بري، صقر، وعل فحل، ريح نشطة، شاب وسيم، ومحارب قيل إن هديته لزرادشت كانت حدة البصر والهمة العالية.

د- ولدينا أيضاً إله الريح فايو Vayu، الذي ظهر تحت الاسم نفسه في الفيدا، وقال الزرادشتيون أنه يحمل طبيعة مزدوجة، خيرة من جانب وشريرة من جانب آخر، ويعود إلى بداية الزمان. فقد حمى الصالحون في ظهوره الخير وصحبهم كريح عطرة فوق الجسر الفاصل إلى الفردوس. وآذى الروح الخبيثة في ظهوره الشرير وخفرها إلى هوة مرعبة في جهنم.

وأحد السمات الغريبة في هذه الزرادشتية المتأخرة هو الادّعاء العجيب أن أهورامزدا نفسه يقدم الأضاحي إلى ميترا وآناهيتا، وأن كلاً من أهورامزدا وميترا يعبدان فايو، الريح! وهذا موجود في الياشت، النشيد، 10: 123 و15: 2-4. ولا عجب أن يعلق أحد الباحثين البارزين قائلاً: «لا بد من الإقرار أن التوحيد قد عانى من عناء شديد، وذلك عندما نجد أن أهورامزدا نفسه يؤدي العبادة لملائكة كهؤلاء».

وهناك أيضاً الفرافاشي. وبحسب تعريف الموسوعة البريطانية لها هي الأرواح الأزلية أو سابقة الوجود. هذه الكائنات التي من الصعب توصيفها نتيجة طبيعتها المختلطة، تبدو في الأساس أنها أرواح الأسلاف التي تحرس الأحياء، وبدورها تتوقع منهم أن يقدسوها. لكن أهميتها ازدادت فيما بعد حتى أصبحت بمقام الذوات العلية. والتي كانت أيضاً الجن الحارسة لكل من البشر والآلهة. وكان يعتقد أن كل إنسان حي لديه روحه الأزلية أو نفسه السابقة لوجوده،

أو العنصر الخالد في النهاية. واعتقدوا أيضاً بكائنات لم تولد وهي الساوشيناط، المخلصون، والتي سترد العالم إلى سابق عهده. وأكثر من ذلك، فإن لكل من الأميشاسبنتا واليازاتا وأهورامزدا روحه السابقة لوجوده! لنحدد أو نحصر ما يعني ذلك وبحذر، فنصل إلى استنتاج أن هذه الفرافاشي هي أجزاء روحانية خالدة من الشخصيات الحية. وهي كما الأرواح البشرية في فلسفة أفلاطون موجودة قبل الولادة وتبقى حية بعد الموت.

لكنها في الزرادشتية المتأخرة تملك وظيفة إضافية وهي العيش كذوات علية مفصولة عن البشر وترفعهم إلى السماء عالياً وبعيداً عن الخطر. كما أن تقديم الصلاة والقرابين لهذه النفوس الأزلية هي خدمة لا غنى عنها من أجل فعل الخلاص.

وهكذا كان، حيث انتفع الفرس من الفرص المتوفرة خارج نظام التدبير الآري في أن زودوا مملكة أهورامزدا بآلهة مساعدة، يظهر ذلك في أحد النقوش الكتابية لأرتحششتا الثاني 404 - 358ق.م، حيث تذكر إلهة أنثى تحت اسم آناهيتا، الطاهرة، لأول مرة. وتقدير أرتحششتا العالي لهذه الإلهة واضح كحقيقة من خلال المنحوتات النافرة التي أقيمت لها في بابل وسوسا وإكبتانا (همدان حالياً)، ودمشق وسرديس قرب أزمير حالياً. إنها من أصول هندو ـ إيرانية ويمكن مقارنتها بسارسفاتي الفيدية إلهية المياه، لكنها مع الزرادشتين المتأخرين، أصبحت على ما يبدو أحد التجليات الكثيرة التي أخذتها الإلهة عشتار البابلية والتي صادفناها في مناسبات كثيرة. وقد تجلت في هذه الحالة بظهور طاهر. وفي الياشت ترتل لها المدائح بوصفها إلهة المياه المنسكبة من السماء لتخصب الأرض بالثمر في أقاليمها السبعة، رقيقة الخصر هي وواسعة الصدر، وحذاء ذهبي في قدميها. وهي التي تجلب الخصب للنبات والماشية والقطعان. وقد أيقظت في الكائنات البشرية قوى التوالد. شبيهة عشتار هذه قد استقرت نعمتها لا سيما في النساء اللواتي سينجبن بيسر ويتمتعن بغزارة الحليب.

نرى في كل هذا أن التوحيد قد ارتكس إلى التعدد، وهذه حقيقة متكررة وشائعة في تاريخ الأديان. حيث كل إصلاح عادة يعقبه نكوص فيحصل ارتداد عن الأفكار السامية والأفعال النبيلة إلى حالة من التوفيق المريح للعقيدة مع سبل العامة.

3- لقد تطورت عقيدة الشر بشكل متزايد واقتربت من ثنوية أخلاقية كاملة تقريباً. وكما ملائكة الخير فإن الأرواح الشريرة غدت أكثر تشخيصاً مما كانت عليه أيام زرادشت. وقد أصبح أنغرا ماينو، الذي تحدث عنه زرادشت بمرارة، ولكن ليس بكلام ملموس محدد، باعتباره معارضاً منذ بدء الخليقة لنفس أهورامزدا الخيرة؛ أصبح الآن الشيطان الأكبر وقد صار نظيراً لأهورامزدا بطريقة ثنوية. وقد صورت أجزاء من الأفيستا المتأخرة أنغرا ماينو نداً لأهورامزدا في الضدية ومساوياً له. فقد اعتُبر العالم خلقاً مشتركاً بينهما على سبيل المثال. ويصور أهورامزدا في الفيديفدات وهو يروي لزرادشت قصة صراعه مع أنغرا ماينو على خلق العالم، ويصور نفسه يخلق الأقاليم الإيرانية المتعددة واهباً إياها كل فضيلة، ولكن لسوء الحظ، كما يعترف، كان أنغرا ماينو حاضراً أيضاً حيث خلق مضرة مقابل كل منفعة خلقها أهورامزدا. ومن منافع أهورامزدا القضاء على الصقيع والقيظ والأفاعي والجراد والنمل وفاحشي الثراء والسحرة الأشرار وملاك الأراضي غير الآريين والرذائل البشرية والشهوات الجنسية المفرطة والعرافة والشك والجحود وما إلى ذلك، ناهيك عن آثام لا تغتفر كدفن الميت أو طبخ الجيفة، وهي ممارسات تعافها نفوس الزرادشتيين مستقيمي الإيمان. لقد كانت قدرة أنغرا ماينو على الأذى لا حدود لها في الواقع، حيث يعدد الفصل الثاني والعشرون الأمراض التي خلقها أنغرا ماينو والتي تصل إلى نحو 99.999، وهو رقم هائل لبشر تلك الأيام. وكان له ضربته الأخيرة لأنه هو من أوجد الموت.

لقد تضاعفت قوة الشر التي امتلكها أنغرا ماينو بوجود الشياطين الذين خلقهم لمساعدته، مثل آكامانا، الفكر السيئ، وأندرا الذي هو إندرا الفيدي، وناون هيثيا، الذي هو ناستياس الفيدي، «التوأم السماوي الذي اختُزل إلى كائن واحد، وساورو وفاورو وزايري وأخرون. بالإضافة إلى هؤلاء كان هناك أعداد لا تحصى من الأرواح الشريرة والديفات الشياطين، كلهم في خدمة أنغرا ماينو. ويجب ألا نغفل دروج، الكذب، الذي يظهر الآن على شكل شيطانة أنثى تفسد التقوى في الرجال، حتى أن أهورامزدا يهتف في أحد أناشيد الياشتا قائلاً: لو لم تقدم لي نفوس المؤمنين الأزلية يد العون..لأصبحت السيادة من نصيب دروج ولانتمى العالم المادي إلى دروج بالكامل».

هذه هي إحدى الطرائق لحل مشكلة الشر، أن نقول أن الخير كله يأتي من الله، ولكن الشر يأتي من الشيطان. ولكن التوافق المنطقي يقتضي إذا ما كان الشيطان هو خالق الشر فلا بد أن يكون شريكاً في الأزلية مع الله مع بدء الزمان، وإلا يكون الله هو الذي خلق الشر من البداية. وقد اعتنق هذه النتيجة المنطقية الحتمية قلة من الزرادشتيين.

4- هنالك حل آخر لهذه المعضلة قدمته الزروانية. فقد عمدت جماعة متنفذة من الماجي (المجوس) في محاولة تجنب الاستنتاج السابق غير المقنع، إلى تقديم معتقد يعود إلى أوائل القرن الرابع ق.م أنكرته الكتلة الرئيسة من الزرادشتيين. ولكن هذا المعتقد يبدو لنا الآن بمثابة استباق لنظرية فيزيائية حديثة. حيث اقترحوا أن كلاً من أهورامزدا وأنغرا ماينو قد طلعا كتوأمين من أحادية أصل العالم والذي هو زروان (المكان والزمان اللامحدان، أو الزمكان)؟ وهكذا أصبح كل من الإله والشيطان متساويين في قدم الأديان. ولكن حتى في هذه الصيغة التي تجسد زروان على أنه الأب لكل من أهورامزدا وأهريمن، فإن النصر النهائي مقرر ومعلن لأهورامزدا. والوقوف ضد الشر ما زال الواجب الأول لكل إنسان قويم التفكير[1].

5- على الرغم من تصوير صراع الإنسان مع الشياطين في ميدان معركة الحياة الحافل على أنه صراع أخلاقي، فقد تحول في الأفيستا اللاحقة ولا سيما في الفيديفدات إلى صراع ضد المسعى الشيطاني من خلال الرقي والتعاويذ السحرية التي يقوم بها الإنسان، ونتيجة تحول الاهتمام هذا فقد تخصص ساعون مبدعون قدماء في صون الحياة عن طريق السحر شاقين طريقهم إلى دين

(1) يعتقد بعض الباحثين أن فكرة زروان متأخرة عما هو مشار هنا، مجادلين على أنها قد نشأت في عقول مثقفي الطبقة العليا في العهود الساسانية لكي تقدم جواباً عن الثنوية الزرادشتية يكون مقنعاً للنقاد البابليين والإغريق، لكن ذلك لم يؤد إلى سنن دينية واضحة ولا إلى منع سقوط السلالة الساسانية. من جانب آخر فإن عدداً من الباحثين يعتبر أن الفكرة قديمة، معتقد آمن به الماجي في الواقع قبل عصر زرادشت كما أشرنا في النص.

زرادشت. ولم تقدم الفيديفدات تدريباً أخلاقياً وخلقياً لمقاومة نفوذ الشياطين على الإنسان بل توجيهات من أجل استخدام الزمزمات[1] شديدة التأثير والفعالة (المانثرات Manthras).

ويمكن مقارنة ذلك بالمانترات الفيدية والهندوكية، ولكنها هنا عبارة عن مقاطع مأخوذة من غاثا زرادشت لاستخدامها كرقىً وتعويذات. وقد أصبحت كل نصوص الغاثا في الواقع مفيدة أساساً كتعويذات تفوق الوصف في قدرتها، تكرر وتعاد من دون نقصان من قبل رجال ربما يفهمونها أو لا يفهمونها.

بالإضافة إلى الزمزمات كان هناك وسيلة فعالة لإبعاد الشر وتجنب ملامسته وهو الذي يدنس كالقطران. كان يتم ذلك من خلال تقدمة عصير الهاوما إراقةً وسكباً. وإلى هذا اليوم كما سنرى لاحقاً، فإن البارس في الهند ما زالوا يأخذون الأغصان من نبات مقدس ويمزجون عصيره مع الحليب والماء المقدس، ويقدم قسم من السائل الناتج سكباً ويشرب الكهنة المسؤولون الجزء الباقي. وما زال هذا الإجراء يؤدى بالطريقة نفسها التي كان يؤدى بها قبل آلاف السنين من قبل آريي الهند على ضفاف نهر السند.

لكن الأكثر بروزاً بين كل ذلك هو وسائل تنظيف الشخص لذاته من النجاسة، وبذلك يتخلص من الأثر الملوث. وبحسب الفيديفدات فإن ملامسة جسد الميت هو أعظم مصدر للتلوث، فإذا ما لمس أي إنسان جثةً ما، فإنه يجب أن يطهر نفسه على الفور بمطهرات مع ماء، وإذا لم يتوافر ذلك لسبب ما فإنه يستعمل بول البقر. وكانت الجثث وما زالت مصدر دنس بالنسبة للبارثيين القدماء والمعاصرين. لذلك يجب ألا تُدفن في الثرى كي لا تدنس سطح الأرض،

(1) جاء في لسان العرب: قال الجوهري: الزمزمة كلام المجوس عند أكلهم. وفي حديث الخليفة عمر في كتاب لأحد عماله في أمر المجوس: وانههم عن الزمزمة، قال، هو كلام يقولونه عند أكلهم بصوت خفي. والزمزمة صوت خفي لا يكاد يفهم، وأصل الزمزمة صوت المجوسي وقد حجا، ضن بالكلام أو لم يفصح، والزمزمة صوت الرعد. قال أبو حنيفة: الزمزمة من الرعد ما لم يعل ويفصح، وسحاب زمزام، والزمزمة: الصوت البعيد تسمع له دوياً ـ المترجم.

ولا يجب أن ترمى في الماء لئلا تجعله غير صالح للاستخدام، ولا يجب أن تحرق على محرقة، لئلا تدنس اللهب. كان الميت يوضع، في العهود الأولى للزرادشتية، على فراش من الحجر أو طبقة من الكلس أو يغلق عليه بالحجارة ليبقى معزولاً عن التربة والماء. بينما توضع الجثث، في الوقت الراهن، في أبراج الصمت الحجرية المفتوحة على السماء، حيث تلتهمها الكواسر. ويعتبر أي جزء من جسدٍ ميتٍ حي مثل قلامات الأظافر وبقايا الشعر المقصوص من الرأس أو اللحية. ومحرم البصق أيضاً لا سيما بحضور إنسان آخر.

حتى نفس الزفير يعتبر دنساً، لذلك يغطي الكهنة أفواههم بقطع من القماش أثناء خدمة النار المقدسة حتى يومنا هذا. ومكروهة المخلوقات التي تتغذى على لحم الميت مثل الديدان والذباب والنحل، كما الثعابين والضفادع؛ إنها مخلوقات أنغرا ماينو الشيطانية. لقد قتل المجوس في العصور الغابرة مئات الآلاف منها كجزء من فعل تعبد وولاء. وتقتضي ملامسة أي من هذه المخلوقات التطهير والتنظيف دون تأخير.

يَسِمُ هذا التحول من الاهتداء الروحي الأخلاقي، إلى موجبات التكاليف الطقسية الخاصة بالطهارة، معظم تاريخ الزرادشتية.

6- تطورت الزرادشتية في منحىً أكثر من آخر وصارت أكثر تفصيلاً: لقد تم توضيح عقدية الحياة الثانية بتفاصيل تصويرية تثير الخيال إلى حد بعيد، حيث وجهت عناية أكبر إلى مسألة الحساب العصيبة على الفرد. ومن المفترض ألا يقع هذا قبل اليوم الرابع بعد الوفاة. كان من المعتقد أن روح الميت تمكث عند رأسه وتتأمل لمدة ثلاث ليال في ماضيها وفي معتقداتها وأقوالها وأعمالها الصالحة والطالحة. ويتم مواساتها أثناء ذلك، إذا ما كانت روحاً صالحة، بواسطة ملائكة الخير، وتعذب إذا ما كانت روحاً خبيثة على يد الشياطين المحمومة والجاهزة لجرها لتنال عقابها. تأخذ الروح طريقها إلى الجسر الفاصل في اليوم الرابع لتقف أمام قضاتها ميترا وصاحبيه سراوشا وراشنو، ويمسك هذا الأخير بالميزان الرهيب الذي يزن الحسنات والسيئات، ويرفع القرار ويصدر الحكم، بعدها تذهب الروح إلى الجسر الفاصل. هنا وعند منتصف الجسر، طبقاً لنص بهلوي يدعى بونداهيشن، وتعني الخلق الأول في اللغة البهلوية، لدينا الوصف التالي.

«هناك شفير ماضٍ يقف كحد السف... وجهنم تحت الجسر. وتحمل الروح إلى حيث الشفير الحاد. فإن كانت صالحة تحول على طرفه العريض...وإن كانت خبيثة يبقى على الجانب الحاد منه ولا يسمح بالمرور..وبالثلاث خطوات التي تتقدمها الروح والتي تمثل أفكارها وأقوالها وأعمالها الشريرة، يطاح بها من أعلى الجسر وتهوي في غياهب الجحيم».

ويصور النص كيف تقاد الروح الصالحة فوق الجسر من قبل الداينا التي تخصها والتي هي ضميرها، فتظهر هذا الداينا بصورة عذراء جميلة، بينما الإنسان الخبيث يصطدم بعجوز شمطاء هي تجسيد لضميره السيئ. يقدم لنا نص متأخر هذا الوصف التفصيلي:

«عندما تخطو الروح الصالحة فوق الجسر الفاصل، تهب عليها ريح طيبة الرائحة من الفردوس، ريح برائحة المسك والعنبر، وتبعث تلك الرائحة الفواحة أعظم مسرة تواجهها الروح. بوصول الروح إلى منتصف الجسر ترى طيفاً جميلاً لم ترَ جمالاً يبذه.. يواجه الروح الطيف ويكلمه: "من أنت يا ذا الحسن الذي لم أرَ له مثلاً؟" يجيب الطيف: " أنا أعمالك الخيرة. أنا نفسي كنت صالحاً، لكنك بأعمالك جعلتني أكثر صلاحاً". ويطوقه الطيف ويغادر كلاهما بأتم المسرة واليسر إلى الفردوس».

أما إذا كانت الروح روح إنسان خبيث:

«ما إن تخطو فوق الجسر الفاصل حتى تأتيها ريح حروة[1] من جهنم، نتنة بشكل لم يعرفه إنسان في العالم الأرضي. رائحة خبيثة هي من السوء بحيث لا يتحملها كائن. وما إن تصل منتصف الجسر الفاصل حتى ترى طيفاً لم ترى ببشاعته وترويعه، يرعب الروح الخبيثة أعظم مما ترتعب النعجة من الذئب. ويقول الطيف: "إلى أين المفر؟" وترد الروح: "من أنت يا ذو البشاعة والترويع الذي يتجاوز كل بشاعة وترويع في أي كائن، بشاعة وترويع لم أرَ مثلهما في

(1) حروة: ريح كريهة مع حدة

العالم الدنيوي؟" يرد الطيف: "أنا أعمالك السيئة، كنت بشعاً، وجعلتني أكثر بشاعة يوماً بعد يوم. وقد رميتني أنا ونفسك في البؤس والخسران وسوف نجازى إلى يوم القيامة". ويطوقه ويهويان سوياً من على الجسر الفاصل إلى جهنم».

وهكذا أسهب الزرادشتيون اللاحقون في شرح عقيدة معلمهم التي تحدد أن الإنسان نفسه مع وعيه الأخلاقي الخاص به هو من يقرر مصيره المستقبلي.

كان من المعتقد من خلال تلك الروايات المتأخرة أن من تتساوى حسناته وسيئاته يرسل إلى هاميستاكان، برزخ منسي يقع بين الأرض والنجوم. ولجهنم عدة طبقات كما كانوا يعتقدون، يقع أدناها في أحشاء الأرض حيث بالإمكان القبض على الظلمة باليد من شدة كثافتها، وحيث النتن لا يحتمل. بينما تمثلت الجنة بطبقات متعالية مطابقة للأفكار الخيرة والقول الصالح والأعمال الصالحة، وتقع بحسب الترتيب في أقاليم النجوم والقمر والشمس. وتمر الروح عبر هذه المحطات المتصاعدة حتى تصل إلى أعلى سماء، غاروتمان أوغاروديمانا، وهي موطن الغناء، مملكة حيث يستوطن الفكر الخير وحيث تتمتع الروح بنعيم يتجاوز متع الأرض بما لا يوصف، وتبقى هناك حتى يوم النشور ويوم الحساب الأخير لكل الأرواح.

وقد طور الزرادشتيون اللاحقون، في توقعهم لزمن الحساب الأخير، نظرية عن عمر الدهور التي تدوم كل فترة منها ثلاثة آلاف عام. وقالوا أن زرادشت قد ظهر في بداية آخر دهر. وسوف يأتي بعده ثلاثة مخلصين بين الواحد والآخر ألف سنة. أولهم أوشيتار الذي يولد بعد ألف سنة من زرادشت، والثاني أوشيتارماه يولد بعد ألفي سنة من زرادشت، والأخير هو سوشيانس أو ساوشيانط الذي سوف يظهر في نهاية الزمان. وجميعهم سوف يكون زرادشت والدهم، لأنه قيل أن بذور زرادشت قد حفظت بمعجزة في بحيرة في فارس. وبفواصل زمنية مدة كل واحدة ألف سنة سوف تستحم ثلاثة عذراوات وتحبل بالمخلصين العظام، ومع ظهور المخلص الأخير سوشيانس تبدأ دورة آخر الزمان ويبعث جميع الأموات وتخلى الجنة وجهنم من ساكنيها لكي يستعد الجميع للحساب الأخير الذي سيمر على الأرواح كافة.

وسوف يفصل الصالحون عن الأشرار، وينسكب طوفان من السائل الناري على الأرض ويهدر خلال جهنم مطهراً كل الأقاليم بناره المصطلاة، وعلى كل روح حية أن تسير عبر هذا النهر الملتهب، الذي سيكون للصالحين كما الحليب الدافئ لأنه لا توجد شائبة خبيثة فيهم لتحترق. أما بالنسبة للأشرار فإن اللهيب المستعر سيأتيهم عذاباً مبرحاً، ناراً مطهرة على قدر شرورهم، ناراً سوف تحرق كل الشر الذي صدر عنهم ولن تبقي إلا الخير فيهم. وفي صراع أخير ونهائي سوف يطيح أهورامزدا وملائكته بأهريمن وشياطينه في النيران الملتهبة حيث يفنون كليةً. بعد ذلك سوف يحيا كل الناجين من المحاكمة النارية سوية في السموات الجديدة والأرض الجديدة في أسمى متعة وسعادة. وسوف يبقى البالغون في عمر الأربعين، والأطفال في عمر الخامسة عشرة إلى الأبد. وسوف يلتم شمل الأصدقاء والأقارب. حتى جهنم التي أصبحت نقية في النهاية سوف تستعاد من أجل توسيع العالم. ويصبح العالم بكليته أبدياً وخالداً وأزلياً.

4- زرادشتيو العصر الراهن:

بدأت التحولات الكبرى التي تحدثنا عنها في المعتقد الزرادشتي أثناء حكم الملوك الأخمينيين، واستؤنفت بعد عهد طويل من الاضطراب والفوضى، الذي سببه غزو الاسكندر الأكبر في عهد السلالة الساسانية (226-651م). وقد سيطر التأثير الزرادشتي هذه المرة على اليهودية الأرثوذكسية وعلى العرب قبل الإسلام. من بين أولئك قائد قوافل شاب من مكة، كان جليل الشأن في أفكاره. لقد كان هذا الشاب مسكوناً بالرؤى حول اقتراب يوم الحساب كما تنبأ الزرادشتيون واليهود والمسيحيون، حتى أصبح نبياً نذيراً بين مواطنيه اللاهين الهازئين. وبعد فراره من موطنه الأصلي تحول إلى نبي محارب وبتأثيره لم تتحول الجزيرة العربية فحسب، بل خلخل أركان العالمين اليهودي والمسيحي وكادت الزرادشتية أن تختفي.

تأثيرات الفتح الإسلامي:

أدار أتباع محمد فتوحاتهم بسرعة وإحكام يفوقان الوصف، حيث استولوا على سورية عام 636م، وعلى مصر عام 639. وخلال العقد الذي تلا العام 637 كانت قد تهاوت الإمبراطورية الساسانية، وفي عام 651 أو 52 سقط آخر الملوك الساسانيين وقتل، وتلقت الزرادشتية ضربة مميتة إثر ذلك. لكن لم يتبع العرب الفاتحون أساليب شمولية ليجبروا الناس على التحول إلى الدين الجديد على مدى قرن أو أكثر من الزمن. وذلك لأن القرآن كان قد نص على أن يُعامل أهل الكتاب بالحسنى، وكان الزرادشتيون كما اليهود والمسيحيون أهل الكتاب، في الحقيقة مكتبة كاملة من النصوص المقدسة. لكن الضغط قد حل بعد ذلك ولم يكن العرب مسؤولين بشكل مباشر عن ذلك. مع ذلك قرر عدد كبير من الزرادشتيين مغادرة بلاد فارس خلال مئة سنة من الحكم العربي، وانتقلوا في البداية إلى مدينة نائية على الساحل قرب مدخل الخليج الفارسي، ومن هناك انتقلوا إلى جزيرة قريبة من الساحل الهندي وأخيراً إلى الهند نفسها. وانضمت إليهم جماعات أخرى مهاجرة من الزرادشتيين. وقد سمح لهم أن يوصلوا طقوسهم وواجباتهم الدينية بحرية بين الهندوس المتسامحين الذين أطلقوا عليهم اسم البارس (البارسييين = الفرس). لم يكن شركاؤهم في العقيدة الذين بقوا في إيران محظوظين مثلهم.

الكفار:

لم يطلق زرادشتيو فارس على أنفسهم اسم الكفار، ولكنها صفة ألصقها المسلمون بهم والتي تعني في معناها الواسع غير المؤمن بالإسلام. لقد أطلقوا على أنفسهم اسم الزرادشتيين أو الباهدينيين التي تعني في البهلوية، أصحاب الدين الخير. ولكن طول الاضطهاد جعلهم يحتفظون بهذه التسمية لأنفسهم ويحجبون نارهم. وتتميز ملابسهم بالخشونة واللون الأصفر الأكمد، ويخضعون في آداب سلوكهم لقواعد صارمة. وهم شديدو التمسك بدينهم. وما زال كهنتهم يُرسمون بحسب الطقوس القديمة ويحافظون على النار متوقدة في معابدهم

البسيطة المتواضعة، ويتبعون قواعد صارمة في تأدية جميع عباداتهم. وعامتهم أوفياء جداً للطقوس القديمة، ولا يقبلون أي اختصارات في ما يخص الاحتفال الديني وخلع الكسوة على أولادهم مع القميص المقدس: السودر، والحزام المقدس: الكوستي، وهو عبارة عن حزام ثلاثي الضفائر يرمز إلى الفكر الخير والقول الخير والعمل الخير ويلبس كنطاق. ويقومون بطقوس الزواج والجنازة كاملة، حيث تنتهي الجثة إلى برج الصمت لتأكلها النسور. وهم حريصون على اتباع طقوس الطهارة القديمة عندما يتلوثون نتيجة ملامسة أشياء دنسة أو أشخاص دنسين. ولقد عانوا لقرون من الاضطهاد الديني، وجعلتهم معاناتهم كتومين، وأدى بهم كتمانهم إلى شك الآخرين بهم. ولكنهم الآن أكثر راحة مع حكومة أكثر تسامحاً في إيران المعاصرة حيث أزاحت عنهم الحيف وأعادت لهم شرعيتهم الدينية. عددهم الآن نحو 18 ألف نسمة. لكن المرء يتساءل كيف ستؤثر حريتهم الجديدة في تماسكهم.

البارسيون في الهند:

كان البارسيون في الهند أكثر حظاً من الذين بقوا في إيران. يصل عددهم اليوم نحو 125 ألف نسمة. ويعيش معظمهم في بومباي والمناطق المجاورة. وأي زائر غريب لبومباي سوق يميزهم مباشرة، ليس فقط من خلال بشرتهم الفاتحة نسبياً وملامحهم الآرية فحسب، بل من خلال لباسهم الوقور الذي يمزج بين القديم والحديث. ويلبس الرجال عادة ملابس أوروبية، مع أنهم يلبسون عادة سراويل بيضاء أنيقة على مقاس الجسم. وهم لا يظهرون حاسري الرأس داخل أو خارج بيوتهم ما عدا الأكثر تقليداً للغربيين منهم. وغطاء الرأس الشائع عندهم عبارة عن طاقية لماعة من القماش المقسى ذات ألوان غامقة ومن دون حواف وتميل إلى الخلف قليلاً بعيداً عن الجبهة. وتسدل النساء الساري الهندي الزاهي الألوان فوق ملابسهن الأوربية الطراز ويتجولن بحرية كاشفات وجوههن. بينما يرتدي الكهنة العمامة البيضاء مع لحىً غير مشذبة متجمعين في المساءات على رمال خليج المدينة لكي يستقبلوا الشمس الغاربة، ويمجدوا لبضع دقائق المياه المتألقة والمتماوجة جهة الغرب، بحسب الأعراف القديمة.

وهم أثرياء كطبقة ويتمتعون بسمعة حسنة كجالية متعلمة ومنظمة في الهند. ويوصفون غالباً بأنهم أفضل رجال الأعمال في الهند، وبأنهم أهم الصناعيين الأكفاء. ويقال إنهم يسيطرون على أفضل الفنادق وأضخم المخازن ومعظم مصانع القطن والجوت والفولاذ، وعلى خدمات الطيران الحديثة. لا يمكنهم جمع الثروات فحسب، بل إنهم مشهورون بتبرعاتهم السخية والكثيرة. مع ذلك فإنهم في تعاملهم مع غير الزرادشتيين ما زالوا يحافظون على نوع من حماية الذات، نوع من التعامل الرسمي يتسم بالبرود. وهم كما كفار إيران، لا يسمحون للغرباء، مهما كانوا موثوقين، أن يشاركوهم في طقوسهم المقدسة، أو أن يتفرجوا على نارهم القدسية وهي تتوقد في معابدهم.

على أنهم بدؤوا في بومباي يبدون اهتماماً في تخفيض أعدادهم. فقد خفضوا ولاداتهم وكانوا من بين الأوائل الذين ألغوا زواج الأطفال متأثرين بالمعايير الأوروبية، وأخروا الزواج عند الذكور والإناث على السواء حتى إكمال تعليمهم العالي. هذه العوامل بالإضافة إلى القوانين التي تحرم الزواج من خارج الجماعة وترفض أن يتحول أي شخص إلى الزرادشتية بقصد الزواج، كل ذلك قد أدى إلى تقلص أعدادهم.

معابد النار:

يتحكم الكهنة بالحياة الاحتفالية الدينية للبارسيين ونظمونها، وهي متوارثة وتعود بأصولها إلى جماعة الماجي (المجوس) القديمة. ويلقب كبار كهنتهم بالدساتير، وكثير منهم رفيع التحصيل العلمي. ومع ذلك فإن المراسم الاحتفالية في معابد النار لا تؤدى من قبلهم، بل تؤدى من قبل جماعة من الكهنة مدربة خصيصاً وتدعى الموبيد، حيث تكون طقوس تلقين المبادئ قاسية ومجهدة، ويحافظون على طهارتهم باستمرار من خلال طقوس التطهير. ويحفظ هؤلاء الكهنة نصف الأفيستا عن ظهر قلب دون فهم أي كلمة منها لأن تعتبر بمثابة اللغة الميتة الآن. وهم في ذلك لا يختلفون كثيراً عن المتعبدين العاديين الذين يحفظون أيضاً معظم نصوص الأفيستا المقدسة ويرددونها أثناء أداء السنن الدينية الرسمية.

لا يمكن تمييز معبد النار، في كل من إيران والهند، عن أي مبنى من الخارج لدى مشاهدته من الشارع. لكن المتعبدين يعرفون أن النار محفوظة في الداخل، وأنه من الأفضل عدم إثارة فضول الغريب بمظهر خارجي واضح. وفي إيران يمكن أن يكون المعبد مجرد غرفة في ركن هادئ من دار. أما في الهند فإنه يخصص كامل البناء عادة لحفظ النار وممارسة الطقوس الدينية الرسمية. ولا تتساوى جميع المعابد في مستوى القدسية في الهند. حيث يعتبر بعضها الذي يحتوي على أقدم نار وأطهرها هو الأقدس. وقضية تطهير النار هي ملمح زرادشتي بارز وتلقى اهتماماً غير عادي. ويجب أن تتضمن أقدس نار ست عشرة ناراً مختلفة، جميعاً مطهرة ونتاج طقس معقد وطويل. ويتم الحصول على نار كهذه من النار التي يحرقون بها الجثة، حيث توقد قطع خشب صندل كبيرة لإحراق الجثة. بعد ذلك ومن فوق اللهب ومن دون ملامسته تمسك ملعقة معدنية مثقبة ثقوباً صغيرة وتحتوي على رقاقات من خشب الصندل، وعندما تشتعل هذه الرقاقات يحصلون على نار جديدة. وتكرر هذه العملية إحدى وتسعين مرة بمصاحبة ابتهالات مرتلة.

ويمكن الحصول على نيران أخرى مطهرة بدرجة أكبر أو أقل وباستعمال الملاعق من خلال نار متوقدة نتيجة صاعقة، أو من نار ناتجة عن حجر القديح، أو من نيران معابد الأوثان، أو من نيران معامل التقطير أو من المنازل. ويحضر الكهنة الستة عشر ناراً مطهرة في النهاية حيث ينقلونها سوية في مرمدة لتستقر في حجرة النار في المعبد، مع الانتباه إلى وجود قطعة القماش الواقية على الفم لكي لا تتلوث النار.

وتوضع النار في وسط غرفة داخلية في إناء يشبه المبخرة يقوم على عمود قاعدته أربعة أرجل. وتلقم النار بقطع من خشب الصندل على الدوام من قبل الكهنة المختصين والمكلفين بذلك مع وجود قطعة القماش على أفواههم طوال الوقت، بينما هم يقومون بواجباتهم في حجرة النار لمنع أي نفس زفير يصل إلى النار بشكل مباشر ويلوث اللهب الطاهر. ولا يجوز أن يسعلوا أو يعطسوا وهم قريبون من النار تحت أي ظرف.

يأتي المتعبدون فرادى، وفي أي وقت يرغبون. ويغسل الفرد الأجزاء المكشوفة من جسده في المدخل ويتلو صلاة الكوستي بالأفيستية، بعد ذلك يخلع

حذاءه ويتقدم حافي القدمين عبر القاعة الداخلية حتى عتبة باب حجرة النار، حيث يقدم للكاهن تقدمته من خشب الصندل والنقود، ويتلقى مقابل ذلك مغرفة من الرماد من المرمدة المقدسة، ويفرك به جبهته وجفنيه، ويتلو صلواته وهو منحنٍ صوب النار، ليس للنار لأنها مجرد رمز. بعد ذلك ينسحب متراجعاً بهدوء ووجهه للنار حتى يصل حذاءه فينتعله ويعود إلى منزله.

وأهم زيارة لمعبد النار هي في رأس السنة البارسية الجديدة. يستيقظ المتعبدون باكراً في هذا اليوم، فيستحمون ويرتدون ملابس جديدة ويذهبون إلى معبد النار ليتعبدوا. وبعد تقديم الصدقات للفقراء، يمضون بقية يومهم في تبادل المباركات وفي إقامة الولائم.

على الرغم من أن زرادشت قد حرم شرب الهاوما وطقس استخلاصها في عصره، فقد عاد هذا الطقس في العصر والسكب والشرب ولكن بشكل مخفف. ونتيجة لضياع هوية النبات الأصلي والاعتقاد أنهم قد وجدوا نباتات تحمل الخواص نفسها وهي نباتات من جنس الإفيدرا Ephedra والتي يقوم الطقس عليها الآن عصراً وسكباً وشرباً، حيث يعصر لب هذه النباتات والتي يظن أنها من النباتات التي كانت تنتج الهاوما. وتنتج العصرة الأولى وتمزج بالماء المطهر وعصير براعم الرومان المهروسة. أما العصرة الثانية من الهاوما فتمزج مع الحليب والماء. يعتقد الزرادشتيون أن شرب العصير من قبل الكهنة المختصين أولاً ومن بعدهم المتعبدين بعد أن يعرضوها للنار، بأنهم يمكن أن يشاركوا الآلهة الحياة الأبدية ولكن شرط الإيمان بذلك.

هذه الممارسات البارسية مستقاة في العموم من الأفستا اللاحقة وليس اعتماداً على ديانة زرادشت نفسها، وهذا واضح من خلال الدراسة الموجزة للطقوس الاحتفالية السنوية. وهناك عيد لتكريم الإله ميترا الذي موطنه الشمس، والذي يوصي المخلصين له بالصدق والصداقة والمحافظة على الإيمان. ويقام عيد وحيد على شرف فارفادين Farvadin الإله الذي يرأس الفرافاشي لزيارة مواطن أنسالها لترحب بالمتعبدين الذي يحضرون المراسم الاحتفالية الخاصة بالموتى على التلال أمام أبراج الصمت. ويبقى عيد آخر لتكريم فوهومانا الذي

يعتبر حامي الماشية. ويتعامل البارسيون مع الحيوانات معاملة خاصة تتميز بالرفق الشديد أثناء هذا العيد. وتقام أعياد أخرى لإحياء ذكرى أوجه الخلق الستة: السماء والماء والأرض والأشجار والحيوانات والإنسان.

أبراج الصمت:

تقدم الداخمات أو أبراج الصمت[1] طريقة لائقة للبارسيين للتصرف بموتاهم دون تلويث تربة سطح الأرض أو الماء بالجسد الفاسد. ويتكون الداخما عادةً من أرض حجرية محاطة بجدار دائري من القرميد أو الحجر. وترصف الأرض بالحجارة مع حفرة في الوسط. والدخما ثلاثة مستويات، المستوى الأعلى للرجال والأوسط للنساء والأدنى للأطفال. تحمل الجثة إلى الداخما بواسطة ستة رجال، ويمشي وراءهم المشيعون وجميعهم يلبسون الأبيض. بعد إلقاء النظرة الأخيرة على الميت تحمل الجثة إلى داخل البرج وتوضع في حفرة سطحية على استقامتها ومكشوفة جزئياً من خلال شق طولي كامل للثياب باستخدام المقص، وتتابعُ العملية كالتالي:

«حالما يغادر حاملو الجثة البرج، تنقض الكواسر من مواقع مراقبتها حول الجدار، وخلال نصف ساعة لا يبقى من الجثة غير الهيكل العظمي. تجف العظام سريعاً، ويعود حاملو الجثة ويدخلون على البرج بعد بضعة أيام ويرمون بالعظام في الجب المركزية».

ويتم اختيار أبراج الصمت على قمم تلال في أرض خلاء وذلك لأسباب وجيهة. ويوجد سبعة منها في المناطق المجاورة لبومباي حيث الوفيات المتواصلة تجذب الكواسر باستمرار. في المناطق الأخرى من الهند حيث عدد البارسيين قليل كما في كلكوتا، توجد صعوبة في جذب الكواسر في الوقت المناسب. وعند الجماعات التي هي قليلة العدد جداً وحيث لا يوجد داخما، فإن الدفن يتم في توابيت رصاص أو في حجرات حجرية أو إسمنتية.

---

(1) الداخما في الفارسية المعاصرة تعني القبر أو الضريح - المترجم

الفصل الثاني

ماني والمانوية

تأليف: Gherardo Gnoli

J.G.Daves

ترجمة: عبد الرزاق العلي

ماني

ماني هو نبي المانوية ومؤسسها: ديانة غنوصية تأثرت بالمسيحية واليهودية والزرادشتية والبوذية. ولد ماني سنة 216م قرب مدينة طيسفون الواقعة على الطرف الغربي من نهر دجلة في إقليم آشور ستان البارثي في بلاد الرافدين. وقد سمي بالبابلي، حيث أعلن نفسه «رسول الله المبعوث من بابل، والنطاسي القادم من أرض بابل». ولكنه لم يكن من أصول بابلية، حيث كان والداه إيرانيين. كان والده فاتك[1] من همدان وأمه مريم[2] ؟ كانت من أسرة نبلاء ذات صلة قرابة بالسلالة الأرشاقية الملكية. ربما يكون أصل اسمه سامياً. أما الاسم الهليني الذي عرف به أي مانيخيوس فهو تحوير للاسم الآرامي «ماني حياة» أي ماني الحي. لُقب ماني أيضاً ب«مار» وتعني السيد باللغة الآرامية، أو «ماري» وتعني سيدي في السريانية. واسمه في الصينية، موموني، وهي ترجمة ل«مار ماني»، وتعني السيد ماني.

إن البيئة الغنية والشديدة التنوع، التي أمضى فيها ماني سنين شبابه، تفسر لنا الطابع التوفيقي لديانته، حيث وجد عدد هائل من الديانات المختلفة في بلاد الرافدين – في القرن الثالث الميلادي: طوائف غنوصية، وجماعات باطنية خاصة، ومدارس فلسفية ودينية جمعت بين الفكر الإغريقي وعلم الفلك الكلداني. بل أكثر من ذلك، فإن بابل والأقاليم المجاورة لها، والتي كانت جزءاً من الإمبراطورية البارثية، ومن منظور سوسيوثقافي، قد تميزت بحضارة مدنية متطورة جداً إذا ما قورنت بالهضبة الإيرانية خاصة. وقد ارتبطت بابل بعلاقات تجارية قوية مع المناطق المحيطة بها: الإمراطورية الرومانية في الغرب وفي الشرق، آسيا الوسطى والصين والهند.

---

(1) ذكر ابن النديم في الفهرست عن محمد بن إسحق اسمه: ماني بن فتق بابك بن أبي برزام. وكذر الشهرستاني في الملل والنحل اسمه: ماني بن فاتك الحكيم.

(2) ذكر ابن النديم اسم أمه: ميس، ويقال أوتاخيم، ويقال مريم.

وقد أثر انتشار الغنوصية في ذلك الزمن أيضاً في محيط أسرة ماني. كان والده متأملاً دينياً يبحث عن الخلاص من خلال تطهير النفس والعرفان الذي يقود إلى التحرر. وقد التحق بجماعة عرفت باسم المغتسلة، نسبة إلى طقوس التعميد التي كانت تمارسها. وكانت تُمارس عبادتها في محيط معبد وثني، وذلك بحسب الموسوعي ابن النديم. هذه الجماعة تعففت عن ممارسة الجنس واتبعت نظاماً غذائياً قاسياً محرمّة اللحم والخمر. وبحسب التراث، فإن تحول فاتك قد جاء عندما كانت امرأته حاملاً بماني، ابنها الوحيد. ونستطيع اليوم أن نتعرف على هذه الجماعة، بأنها فرقة مسيحية يهودية من المعمدانيين الذين تبنوا هذه العقدية في القرن الثاني الميلادي، وقد انتشرت بشكل رئيس عبر نهر الأردن، ثم انتقلت إلى سورية وفلسطين وبلاد الرافدين. وبحسب ابن النديم، فإن مؤسس هذه الطائفة هو الحسح[1] الذي يطلق عليه الباحثون في الهرطقة المسيحية إلكساي Elkesai ويدعى في مخطوط كولون الذين ينسب إلى ماني ألخاسايوس Alkhasaios.

لا بد أن تبقى هذه الحقائق في الذهن ونحن نحاول إعادة تركيب المناخ الروحي الذي تربى فيه ماني الشاب. لكننا سنقع في خطأ جسيم إذا ما اعتبرنا أن العنصر اليهو ـ مسيحي هو العامل المقرر في تشكيل مستقبل رسول بابل.

---

(1) ما زالت هذه الكلمة تثير اللغط في كل اللغات التي نقلت إليها فإذا عدنا إلى ابن النديم فحسب الطبعات التي بين أيدينا نرى أنه في طبعة دار المعرفة 1994 ورد ذكر الحسح تحت طائفة المغتسلة: «ويقولون بالاغتسال، ويغسلون جميع ما يأكلونه ورئيسهم يعرف بالحسح، وهو الذي شرع الملة»..أما في طبعة دار الكتب العلمية الطبعة الثانية 2002 فجاء: «يقولون بالاغتسال، ويغسلون جميع ما يأكلونه. ورئيسهم يعرف الحسيح، وهو الذي شرع الملة». وجاء في طبعة طهران ص404 المحسح. أما في طبعة فلوجل الألمانية فقد أوردت اسم من وصفه ابن النديم برئيس الطائفة على أنه الحسح، وليس الحسيح، وطبعة فلوجل هي المعتمدة لدى الباحثين. وقد أثار خلو الاسم من أحرف العلة والنقاط بعض التكهنات في تفسيره وذهب بعضهم إلى أنه «الحسيح»، وحدث التحريف بفعل النسخ..إلخ. وأورد كُتاب المسيحية الأوائل والمؤرخون القدامى اسمه بصيغ متباينة باللغة اليونانينة - المترجم.

ولا يجب أن نستبعد أيضاً عناصر أساسية بالأهمية نفسها، منها على سبيل المثال: المحيط الديني والثقافي الشديد التنوع في بلاد الرافدين في تلك الفترة، والذي كما نعلم، سمح بولادة حركات دينية كهذه ومنها المندائية. لقد تضافرت الأصول اليهودية للمندائية، هذه الطائفة التي حافظت على وجودها إلى الآن في جنوب إيران (العراق)[1]، مع المعتقدات التي تأثرت بقوة بالغنوصية الإيرانية. كما إننا لا يجب أن نهمل حقيقة تأثير الثنوية الإيرانية في كل من معلمي الغنوصية الكبيرين مرقيون بنطس المتوفى نحو 160م، وبرديصان الرها (154-222م)، حيث أسس كل منهما مدرسته.

انضم ماني إلى ديانة المعمدانيين، المغتسلة، في سن الرابعة، وجاءه الوحي وهو في الثانية عشرة، وبالتحديد في الأول من نيسان عام 288م، وكان ذلك بعد عامين من سقوط سلالة الأرشاقيين وبداية حكم أرشير مؤسس السلالة الساسانية الفارسية. وقد أتاه الوحي عن طريق ملاك يدعى التوم والتي تعني التوأم، ويترجمه ابن النديم بالقرين وهو من اللغة النبطية. وقد أمره التوم بهجر الجماعة، ولكن عليه تأجيل ذلك حتى يبلغ سن الرشد ويقتدر. في سن الرابعة والعشرين وبالتحديد في 19 نيسان 240م. وبعد تتويج شابور الأول بن أردشير ملكاً بسبعة أيام، تلقى ماني أمراً ملائكياً ليظهر إلى العلن ويبلّغ رسالة الدين الصحيح. لكنه لم يحقق النجاح في دائرته الضيقة. فبعد منازعات من النافذين في جماعته تركها بصحبة أبيه واثنين من الأتباع. لقد أصبح الآن رسول النور، الذي تقمص فيه البارقليط أو الفارقليط من أجل إنجاز مهمة الرسالة الكونية ليقدم الخلاص والأمل للبشرية المعانية جمعاء. وبسبب القيود الصارمة في الطقوس والتشريعات لجماعة والده لم تكن تلك الجماعة قادرة على استيعاب الروح الجامعة والمعادية للطقوس في الرسالة الجديدة. فالطهارة لا تأتي، كما أعلن، من التعميد أو الاستحمام أو الاغتسال، لكنها تأتي من خلال فصل النور عن الظلمة والحياة عن الموت، والماء الجاري عن الماء الراكد.

---

(1) إضافة ـ المدقق.

لقد اتخذ الدين الجديد رؤياه الأساسية من الثنوية الراديكالية ذات الأصل الإيراني. وقد وضع ماني مخططاً محكماً لخلق كنيسة قائمة على عقيدة نبوية وكونية، وفي وعي مضاد وغير منقوص للتقاليد الاصطفائية السائدة إلى الشرق وإلى الغرب من امتداد الإمبراطورية الساسانية. من وجهة نظر ماني، فإن هذه التقاليد الاصطفائية جاءت نتيجة التفسيرات الزائفة والمنحرفة للرسالات الأصلية لأنبياء الماضي العظام مثل بوذا وزرادشت ويسوع، الذين دعوا جميعاً إلى الحق، كل واحد منهم في بقعة واحدة من العالم وبلغة واحدة. بينما هو – ماني خاتم الأنبياء – قد جاء برسالته للعالم أجمع، وبلغة تبليغ سوف تُفهم في كل اللغات، وهذا ما سيثبت تفوّق كنيسته.

لقد كرس النبي ماني كامل حياته للعمل الرسولي الذي أدّاه بحيوية خارقة، مستفيداً من وسائل تواصل لاءمت بشكل واسع انتشار الرسالة ودعوتها: لقد قام بكتابة نصه بنفسه موضحاً بالرسوم. وقام هو شخصياً بإنجاز الصور الفنية والغرافيكية، والكتابة بخط جميل، وكل ذلك كان في غاية الإتقان. وقد استمرت سمعته كمصور عظيم لقرون لاحقة. وقد قام حواريوه وأتباعه بما قام به ماني نفسه أثناء نقل مخطوطاته. لقد كان من المُلحّ والضروري حفظ الدين في صيغة مكتوبة، وترجمتها إلى أكبر عدد من اللغات في عصره، وذلك من اجل تسريع انتشاره. لم يفعل بوذا وزرادشت ويسوع ما فعله ماني، لأن آخرين هم الذين كتبوا أناجيلهم، وهذا ما أدى إلى الخلافات وسوء الفهم والتشوهات والأخطاء. لقد كان ماني مجدداً أيضاً فيما يخص اللغات الإيرانية، ولا سيما الفارسية الوسيطة والبارثية، وذلك من خلال استخدامه للأدوات اللغوية بطريقة جديدة. لقد أصلح في الواقع منظومات الكتابة الصعبة لهذه اللغات، والتي لم تكن تملك العدد الكافي من الرموز، بالإضافة إلى استخدام عدد هائل من الرموز الكتابية الآرامية. وقلص بشكل كبير المسافة بين الكتابة ونظام النطق في اللغة، وجعلها أسهل لاستيعاب اللغة الحية المكتوبة، مبتعداً عن الكتابة المقطعية ومستعيضاً عنها بالأبجدية السريانية الشرقية.

كتب ماني القسم الأكبر من مؤلفاته باللغة الآرامية الشرقية وليس باللغة الإيرانية، وقد كتب بالفارسية الوسيطة كتابه الشابورقان وأهداه إلى شابور الأول. تشتمل مؤلفاته القانونية على الأعمال التالية: الإنجيل الحي، وكنز الحياة، وسفر الأسرار، والرسائل، وسفر الجبابرة، والمزامير والابتهالات. وخارج الأعمال القانونية يوجد كتاب الصور، وهو ألبوم من اللوحات الملونة أراد منها توضيح المبادئ الأساسية في عقيدته، بالإضافة إلى الشابورقان الذي بقي خارج القانون نتيجة الأحداث المأساوية التي أثرت في العلاقة بين النبي والسلالة الحاكمة. وكل ما تبقى من أعماله هو شذرات هنا وهناك ونصوص اقتبسها بعض المؤلفين الآخرين وجداول بالمناقشات التي تداولوا بها.

ما نعرفه من هذه المؤلفات، وما يمكننا استنباطه من الشروحات المعتقدية في المانوية، يجعلنا نقرّ أن ماني كان شخصاً واسع الثقافة، فلقد درس بالتأكيد الأناجيل الأربعة الرسمية ورسائل بولس، إضافة إلى الرؤى المنحولة مثل: رؤيا آدم، وشيث، وإخنوخ، ونوح. والأعمال المنحولة مثل أعمال يوحنا، وبطرس وبولس، وأندراوس. وفوق ذلك كان توما الرسول الذي ذهب للتبشير في الهند يعتبر نموذج المبشر الرسولي العظيم بالنسبة إلى ماني. ويبدو أنه كان على اطّلاع على مؤلفات برديصان الفلسفية والشعرية، حيث يتحدث عنه في كتاب الأسرار، وعلى كتاب نبوءات فيشتاسبا. بالإضافة إلى كل ذلك فقد كان ماني على اطلاع كامل على التراث الزرادشتي، على الرغم من أن القليل منه كان قد دوّن في تلك الفترة، وعلى الرغم من التغييرات التي طرأت على الديانة الزرادشتية بتأثير الماجي (المجوس). فيما بعد وأثناء رحلاته التبشيرية احتك باكثير من التقاليد الحية. ولا يوجد أدنى شك أنه قد وجد الفرصة لدراسة بوذية المهايانا.

كانت المهمة التبشيرية الأولى لماني باتجاه الهند، حيث سافر على طول سواحل فارس ومكران ودخل بلوشستان والسند بين سنة 240-242. استطاع

أثناء ذلك استمالة ملك طوران[1] البوذي وحاشيته حيث اعتنقوا الـدين الجديـد. ساهمت هذه المهمة التبـشيرية الأولى في اختـراق المجـال البـوذي، وربمـا في الفوز على الـدين المـسيحي الجديـد الـذي أسـس لـه الرسـول تومـا. وتخبرنـا مخطوطة ال«كيفاليا» القبطية عن عودة ماني إلى فارس وبابل في السنة التي اعتلى فيها شابور الأول العرش خلفاً لوالده أردشير. وأثناء رحلة العودة اسـتمال مـاني جماعات كثيرة مـن فـارس إلى دينـه الجديـد بـين 242 و 244م، ومـن شوشـة وميسان بين 245 و 250م. استطاع ماني المثول أمـام الملـك شـابور مـن خـلال مهرشاه وفيروز شقيقي الملك، اللذين دخلا في دين مـاني. انـضم إلى الحاشـية الملكية نتيجة ذلك ومُنح صلاحية الوعظ بحرية علـى امتـداد الإمبراطوريـة بـين عامي 250 - 255م. وقد كتب أثناء ذلك الـشابورقان وهـو في رفقـة الملـك في حملته ضد الإمبراطور الروماني فاليران 255 - 256م. وارتحل ماني بـين عـامي 258 - 260م في شمال شرق إيران وبارثيان وخراسان ناشراً دعوتـه. بعـد ذلـك استقر في منطقة Weh-Ardakhir على الضفة الغربية لدجلـة، وتفـرغ مـن أجـل تنظيم كنيسته، والعمل على رسوماته وتدوين رحلاته التبشيرية. بعد فتـرة عـاود الترحال حتى 270م حيث وصل إلى حدود الإمبراطورية الرومانية وبالتحديد إلى المقاطعات الشمالية الغربية التي كانت تحت السيطرة الساسانية.

ولأنه يعود الفضل في انتشار دين النور إلى شابور فقد أهداه كتاب الشابورقان، ربما على أمل أن يؤدي هذا إلى أن تتبنى الطبقة الحاكمـة العقيـدة الجديـدة كديانـة رسمية للإمبراوطورية، وذلك كجزء من برنامجه السياسي الكوني.

كان موت شابور نحو 272م الخط الفاصل لبداية سقوط ماني وديانته. حيث إن هرمز 273 وبهرام 273-277، الإمبراطورين اللذين خلفا شابور لم يكونا على دين زرادشـت فحـسب، بـل خـضعا أيـضاً إلى التـأثير المتزايـد لرجـال الـدين الزرادشتيين، الماجي، برئاسة كاهن متعصب يدعى قيردير، صاحب مخطوطات مهمة تم الحفاظ عليها لوقت طويل.

---

(1) طوران: مقاطعة في شمال بلوشستان تقع جنوب كوينا الحالية علـى الحـدود الباكـستانية الأفغانية، المترجم.

تزايدت ردود فعل الماجي، الذين كانوا متوجسين من نجاح ماني المتزايد، وأصبحوا أكثر عنفاً تجاه الدين الجديد، ونجحوا في استمالة الإمبراطور بهرام إلى جانبهم. لم يعد باستطاعة ماني إكمال رسالته أو السفر إلى المقاطعات الشرقية من إمبراطورية كوشان، فقد سبقه أمر ملكي يأمره بالعودة إلى جنديسابور في سوسة حيث كان يقيم الملك، وبعد إخضاعه لاستجواب مذلّ بتحريض من قيردير، حيث اتهم باستمالة أمير أسمه بات إلى ديانته، حكم الملك بهرام على ماني بالموت. وبحسب التراث فإن استنطاق ماني قد استمر لمدة شهر مع عذاب شديد، مات ماني بعدها وهو مقيد بالسلاسل. وقد حدث ذلك على الأرجح عام 277م في عمر الستين تقريباً.

إن ما بقي من ذكرى ماني بعد ذلك ملفت للنظر. فقد اعتبره الزرادشتيون والمسيحيون والمسلمون فيما بعد على أنه مهرطق لا مثيل له في التاريخ، وقد استمر لقرون هدفاً لحقد عنيد.

Gherardo Gnoli

المانوية

إن العقيدة التي جاهر بها ماني وطريق الخلاص الذي أبانه هو شكل من أشكال الغنوصية. جذور هذه العقيدة نشأت في الأصل في النصف الأول من القرن الثالث الميلادي في بلاد الرافدين الخاضعة للإمبراطورية البارثية في ذلك الوقت. وكانت تلك المنطقة تعج بالمدارس الدينية والفلسفية الناشطة، ولا سيما المسيحية منها واليهودية والزرادشتية. وقد أظهرت الطوائف والملل في هذه المنطقة تأثراً بهذه المدارس إلى هذه الدرجة أو تلك، مع احتفاظها بتوجه غنوصي واضح.

وكانت الهيلينية منتشرة ومتجذرة في بلاد الرافدين، كما في سورية المجاورة، ولا سيما في المراكز الحضرية ذات الأصل السلوقي. وبما أن إقليم بلاد الرافدين كان الأكثر انفتاحاً على التبادل التجاري والثقافي من بقية أقطار الإمبراطورية البارثية. فقد كان الأقرب إلى التشبع بالتوجهات التوفيقية والاصطفائية[1]، الثقافية منها والروحية. لم تكن المانوية غنوصية بالمعنى الضيق للمفهوم، بل كانت ديانة غنوصية كونية. الديانة الكونية الكبرى والوحيدة التي برزت من التراث الغنوصي للشرق الأدنى. ولم تنجح مدرسة غنوصية كما نجحت المانوية. ولم يكن لديانة أخرى هدف، كما المانوية، أن تؤسس لديانة كونية بحق، تأسست وترعرعت عن طريق روح رسولية مقدامة.

وكما في كل الحركات الغنوصية، تعتقد المانوية أن المعرفة هي التي تقود إلى الخلاص، ويتحقق ذلك من خلال انتصار النور الخيّر على الظلام الخبيث.

---

(1) الاصطفائية: نظرية لاهوتية تقول إن الخلاص بالمسيح مقصور على النخبة فقط وتعني أيضاً عقيدة دينية بأن اللطف الرباني مقتصر على المصطفين من العباد.

وكما في الغنوصية بالعموم، فإن المانوية متشبعة بالفكر التشاؤمي الراديكالي العميق فيما يخص العالم الذي يبدو أنه تحت سيطرة القوى الشريرة. ومن خلال الرغبة القوية في تحطيم السلاسل التي تقيد المبدأ الإلهي النيّر المحبوس في عالم المادة والجسد، فإن المعرفة هي التي تقودنا إلى الخلاص، وذلك من خلال إدراك المنتمي الجديد إلى الدين أن روحه ما هي إلا ذريرة نور متماهية مع الإله المنزه الذي لا يدركه عقل.

الأدب المانوي ومصارده:

لم يبق إلا القليل من الأدب المانوي المتنوع. ونحن نعرف عنه بشكل عام من خلال عناوين بعض الأعمال والتي ينسب سبعة منها إلى ماني نفسه، بالإضافة إلى بعض الشذرات الباقية والمقتبسة من قبل مؤلفين آخرين كانوا يكنون العداء للمناوية. هناك بعض النصوص التي وصلت إلينا كاملة تقريباً، مثل الإنجيل الحي الذي ترجم من السريانية إلى الإغريقية، ومن كتاب كنز الحياة وصلنا ما اقتبس منه أوغسطين والبيروني، وهناك كتاب الأسرار الذي نعرف بعض أبوابه عن طريق ابن النديم، بالإضافة إلى بعض الفقرات التي حفظت في مؤلفات البيروني. وهناك الأطروحة وكتاب الجبابرة والرسائل، الذي قدم لنا بها ابن النديم كشفاً إضافة إلى المزامير والأدعية. تنسب كل هذه الأعمال إلى مؤسس الدين، وهنالك شذرات مبعثرة ونادرة منها، بقيت محفوظة في نصوص مانوية وجدت في طرفان[1] في آسيا الوسطى والفيوم في مصر. وهناك عملان ينسبان إلى ماني ولكنهما خارج القانون وهما كتاب الصُور وكتاب الشابورقان الذي أهداه إلى الملك شابور الأول. وكانت الغاية من كتاب الصور توضيح الموضوعات الأساسية في العقيدة بطريقة سهلة وواضحة حتى لأولئك الذين لا يجيدون القراءة. وكتاب الشابورقان وهو الكتاب الوحيد الذي كتبه ماني

(1) طُرفان: مدينة في غرب الصين حالياً، تركستان الصينية سابقا، عند الجزء الجنوبي من نهر تيان شينا، كانت حاضرة الويغور ومركزاً لحركة ترجمة كبيرة أدت إلى وضع الخط الويغوري قيد التداول - المترجم.

بالفارسية الوسيطة (لأن ماني كان يكتب عادة باللغة السريانية أو الآرامية الشرقية) يناقش مسائل علم الكون وعلم أصل الإنسان وعلم الآخرة. ونعرف منه شذرات حفظتها لنا مخطوطات طرفان، ومقتبسات للبيروني حول موضوع خاتم النبوة.

إن أعمال رسل ماني معروفة لنا أكثر من أعمال ماني نفسه. وذلك من خلال النصوص التي اكتشفت في طرفان نحو بداية القرن العشرين، وفي الفيوم بمصر عام 1930. وذلك بالإضافة إلى مخطوط كولون، وهو ترجمة يونانية عن أصل سرياني تعود إلى القرن الخامس الميلادي، ولدينا أيضاً بالقبطية كتاب المواعظ وكتاب الكافاليا. وفي جنس التراتيل لدينا المزامير القبطية وكتب التراتيل الإيرانية من طرفان، والتراتيل الصينية التي وجدت في تون هوانغ. ولدينا أيضاً المختصر الجامع لعقائد وشرائع بوذا النور ماني، الذي وجد في تون هوانغ أيضاً.

بهذا الشكل تكون مكتشفات القرن العشرين قد أظهرت لنا ولو جزئياً أدباً متميزاً ببلاغته وقيمته الأدبية، وبمتانة ورقة حساسيته الشعرية، ولا سيما في مزاميره وتراتيله، مخطوطات تحدد بشكل جوهري صورة المانوية التي كان الباحثون قبل نهاية القرن التاسع عشر يعيدون بناءها اعتماداً على مصادر غير مباشرة.

ولا تزال هذه المصادر غير المباشرة تحتفظ بقيمتها وتساهم بإعادة تركيب المانوية بشكل متوازن من الناحية التاريخية والاعتقادية. وهي مؤلفات عديدة وجميعها من مؤلفين معادين: وهم أفلاطونيون جدد ومسيحيون وزرادشتيون ومسلمون. فلدينا مصادر إغريقية من الكاتب اسكندر نيكوبوليس وصولاً إلى كتاب أعمال آركيلاوس Acta Archelai، ومصادر لاتينية من ماريوس فكتوريوس إلى أوغسطين. ومصادر سورية من أفراهاط وأفرام السريانيين السوريين في القرن الرابع الميلادي إلى تيودور بارقونية في القرن الثامن. ومن مصادر باللغة الفارسية الوسيطة والبهلوية من نصوص في الدينكارد وتعني تشريعات الدين، إلى فصل من كتاب الحل الحاسم للشكوك، وهو بحث في علم اللاهوت التأويلي الزرادشتي في القرنين التاسع والعاشر. ومن مصادر إسلامية عربية وفارسية، من اليعقوبي في القرن التاسع والشهرستاني في الثاني عشر وأبي الفداء وميرخواند في القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

لقد كانت مؤلفات أوغسطين والبيروني وابن النديم وأعمال أركيلاوس Acta Archelia هي الأساس في الدراسات المانوية حتى أعيد اكتشاف مخطوطات الأدب المانوي في القرن العشرين. ورغم أن الوضع قد تغير بشكل كبير. ويعود الفضل في ذلك إلى المكتشفات الأكثر حداثة، فإن روايات بعض المؤلفين المعادين للمانوية ما زالت ذات أهمية كبيرة، لا سيما إذا ما جرت دراستها بالتوازي مع تلك النصوص المانوية، والتي تبحث في موضوعات متطابقة أو متشابهة. وقد أصبح التمييز أيسر بين تلك النصوص المكتوبة بحمية المجادل والمبرر بين تلك النصوص التي تحتوي معلومات دقيقة وعقلانية تجاه المعتقدات المانوية. بعض هذه المصادر يتمتع بمصداقية عالية، لا سيما عندما تقدم حقائق قيّمة متوقعة. مثال على ذلك رسالة التأسيس لأوغسطين، وعلم نشوء الكون المانوي لتيودور بارقونيا، بالإضافة إلى بعض المقتبسات والمقتطفات للبيروني وابن النديم.

العقائد الأساسية:

تولي العقيدة المانوية عظيم الأهمية لمفهوم الثنوية الراسخة الجذور في الفكر الديني الإيراني.

الثنوية:

مثل علم نشوء الكون الزرادشتي الذي عرفناه من خلال نصوص متأخرة نسبياً في القرن التاسع، فإن الثنوية المانوية قد قامت على عقيدة الأصلين أو المبدأين: وهما النور والظلمة، وثلاث مراحل للتاريخ الكوني: وهي المرحلة الذهبية قبل امتزاج الأصلين، والمرحلة المتوسطة أو الممتزجة وهي مرحلة العصر الحالي، حيث تتصارع قوتا النور والظلمة من أجل السيادة النهائية على الكون، والمرحلة الأخيرة حيث يتم فصل الممتزج، وبالتالي الفصل بين أتباع الخير وأتباع الشر، ويكون هذا زمن الإصلاح ورد الاعتبار، حيث ينفصل القطبان عن بعضهما، الخير والشر. ويتجلى ذلك في الكتب المقدسة التي ألفها ماني بنفسه، حيث تكلم بوضوح عن الأصلين والمراحل الثلاثة. والأصلان هما

النور والظلمة، والمراحل الثلاثة هي الماضي والحاضر والمستقبل. حصلنا على هذه المعلومة من شذرة من نص صيني، وهذه هي العقيدة التي يشير إليها أوغسطين وهي البداية والوسط والنهاية، وذلك في بحثه ضد المانوية تحت عنوان: ضد فيليكس وضد فاوستوس. كما ويتم التعبير عنها بوضوح في نص صيني آخر: «لا بد أن نفرق أولاً بين الأصلين. إن الذي يرغب في الانضمام إلى هذا الدين لا بد أن يدرك أن أصلي النور والظلمة من طبيعيتين مختلفتين كلياً. وإذا لم يستطع أن يميز ذلك فكيف له أن يمارس العقيدة؟ كما أنه من الضروري أن يفهم المراحل الثلاث: وهي السابقة والمتوسطة واللاحقة. في المرحلة السابقة لم تكن السماء والأرض قد وجدتها بعد هناك، فقط النور والظلمة وكل منهما منفصل عن الآخر. وطبيعة النور هي المعرفة، وطبيعة الظلمة هي الجهل. وهما متعارضان في كل حركة وركون. اقتحمت الظلمة النور في المرحلة الوسيطة، واندفع النور إلى الأمام طارداً الظلمة إلى الوراء. ونتيجة لذلك دخل النور نفسه في الظلمة وهو يعمل بكل ما يستطيع لطردها. وخلال هذه الكارثة العظيمة اكتسبنا النفور والقرف الذي يقودنا بدوره لنفصل أرواحنا عن أجسادنا. وفي الموطن المضطرم يبرم العهد على محاولة النجاة».

«الكارثة العظمى» استعارة ترمز إلى الجسد، والموطن المضطرم هو العالم الموجود، الذي يُرعى كبيت مشتعل ينجو منه الإنسان عن طريق الفرار. ويتابع النص: «تتحقق المعرفة والهداية في المرحلة الأخيرة، حيث تعود الحقيقة والزيف كل إلى أصله. فقد عاد النور إلى النور العظيم والظلمة عادت إلى كتلة الظلمة. ويعود المبدآن إلى أصلهما».

والأصلان ليسا محدثين، ولا شيء مشترك بينهما، إنهما ضدان غير قابلين للتحول ولا بأي حال. فالنور هو الخير المتساوي مع الله. والظلمة هي الشر المتساوي مع المادة. ولأن الخير والشر قد نشأا في وقت واحد فقد حُلّت مشكلة أصلة الشر بطريقة راديكالية محسومة (وهي المشكلة المستعصية في العقيدة المسيحية).

لا يمكن إنكار الشر كوجود، إنه في كل مكان، وهو أبدي، ويمكن هزيمته بالمعرفة المنجية (=الغنوص Gnosis) التي تقود إلى الخلاص عن طريق فصل النور عن الظلمة.

تُذكرنا الطريقة التي يتمثل بها الأصلان هنا بالروحين البدئيين في المفهوم الزرادشتي، وهما سبينتامانيو وأنغرامانيو، الضدان في كل شيء، واختيارهما بين الخير والشر، بين آشا الصدق ودروج الكذب، وهو نموذج الاختيار نفسه الذي يجب أن يتبعه الإنسان. إن القيمة الأخلاقية للثنوية المانوية ليست أقل متانة، على الرغم من أن جوابها عن مسالة الشر قائم على نموذج غنوصي. لقد رفض المانويون اعتبار أهورامزدا وأهريمان المكافئين البهلويين للروحين البدئيين، بمثابة شقيقين يعارض أحدهما الآخر. ويصرح النص الويغري: «وإذا ما جاهرنا مرة أن خورموزتا (أهورامزدا) وشينمو (أهريمان) هما شقيقان، أحدهما الأخ الأصغر والثاني البكر.. فإنني أندم على ذلك.. وأرجو المغفرة على هكذا خطيئة».

وبهذا القول فإنهم لا يعارضون ثنوية الغاثا بقدر ما يعارضون ثنوية الزروانية التي حطت من مكانة أهورامزدا إلى مستوى أنغرامانيو، والتي أحلت زروان محل أهورامزدا ومثلته بالزمان اللانهائي، وهو فوق المعادلة الثنوية. من المهم أن نلحظ هنا كيف أن المانويين أعادوا أهورامزدا إلى دور مركزي في دراما الخلاص وفي المقاربة الغنوصية لمفهوم الإنسان الأول protos anthropos أو الإنسان القديم، واعتبروا أن زروان هو أحد الأسماء. الاسم الإيراني الآخر كان سروشو رب العظمة وإله نور السماء العلي وإله الصدق، وهو يعتبر أحد طرفي المعادلة الثنوية. الأسماء في الطرف الضد هي إبليس والشيطان وأهريمن وشيمنو وهيُولي والمادة والشر والأركون العظيم وأمير الظلام.

وبدلاً من التأمل الميتافيزيقي فإننا نجد في أصل الثنوية المانوية تحليلاً صارماً للشرط الإنساني، تشاؤمية معممة على كل أشكال الغنوصية والبوذية. وبمجرد أن الإنسان يتقمص فإنه يعاني، إنه فريسة الشر، ونسَّاء، نَسَّاء لطبيعته

النورانية طالما هو نائم ويعميه الجهل في سجن المادة. وطالما بقي الأصلان ممتزجين فإن كل شيء ما هو إلاّ ضياع وعذاب وموت وظلمة: «حررني من هذا العدم السحيق، من هو الضياع المظلمة التي هي مجرد عذاب وأذيّات حتى الموت، وحيث لا منقذ ولا خدين. ومحال الخلاص في هذه الدينا، فكل شيء ظلام.. ولا شيء سوى السجون، ولا مخرج». (شذرة بارثية)

هذا الموقف التشاؤمي تجاه العالم وتجاه الحياة قد لازم المانوية طوال تاريخها، وازداد حدة نتيجة المواجهات المريرة، وغالباً العنيفة، بين أتباعها وأتباع الديانات التي ترسخت رسمياً في إمبراطوريات الشرق والغرب، والذين لم يروا في المانويين إلا جماعة هدامة لم يستطيعوا أن يروا شيئاً خيّراً في عالم مليء بالرعب والشر والظلم. وربما كان ذلك أيضاً سبباً مهماً للاضطهاد الشرس الذي عانوا منه، ورفضهم الامتثال للأعراف والممارسات التقليدية القائمة. وهذا ما ساعد أيضاً على جلب اللعنة على ماني والمانوية.

المعرفة طريق للخلاص:

هنالك ميزة أساسية في المانوية هي غنوصيتها، التي هي مزج للدين والعلم في حالة من الصوفية. لقد حاولت المانوية أن تقدم تفسيراً كونياً للعالم، ولم تكون تؤمن أن مجرد الإيمان والدوغما وسيلتان فعالتان في البحث عن الخلاص. بل العكس هو الصحيح، فقد كانت عقيدة الخلاص المانوية مبنية على المعرفة. لذلك نتفهم كيف أن أوغسطين قد اعترف أن أكثر ما شده بالتحديد هو هذا الجانب من المانوية في سنوات الالتزام بها من 377 حتى 382م. أي الوعد بأن تحرر الإنسان من سلطة الإيمان والتراث، وبالتالي العودة إلى الله، هي ببساطة عن طريق قوة العقل.

لم تقبل المانوية بالتراث كما هو في العهد الجديد أو في الكتب الزرادشتية (مخطوطة، كيفاليا 7) دون التمييز أولاً بين ما يعتبر صادقاً وأصيلاً فيها، وما هو في رأيهم قد حصل ببساطة نتيجة التلاعبات والإقحامات الخادعة التي أتى بها الحواريون الجهلة. حجة ماني فقط هي الجديرة بالثقة، حيث أنها مبنية على العقل

ومستقاة من الوحي. ودوّن ماني بنفسه وبعناية فائقة وبقصدية المدقق كل تعاليمه من أجل ألا يسمح بأن تحرف تعاليمه أو تشوه. لذلك يتباهى المانويون في عدم تأكيد أي حقيقة دون برهان منطقي أو عقلي مقنع، ومن دون فتح أبواب المعرفة أولاً.

في النهاية كانت معرفة كهذه بمثابة تذكرة وصحوة وإدراك. إنها معرفة للذات الحقيقة، وفي الوقت نفسه هي معرفة لله. فالنفس هي من جوهر الله، وشرارة من النور وقعت في إسار المادة في امتزاج مبهم. وهكذا يكون الله هو المخلِّص والمخلَّص[1] في آن معاً. وهو المبدأ المنزه والنير، وهو النفس أو العقل (نوس nous). إنه الجزء الأسمى في أنا الإنسان المتغربة في الجسد، وهو موضوع فعل المعرفة: معرفة أين نحن، ومن أين أتينا، وإلى أين نحن ماضون. لقد نسي الإنسان طبيعته التي هي مزيج من نور وظلمة، روح ومادة. إن قوة المعرفة المنيرة تجعله يفهم طبيعته الخاصة وطبيعة الكون ومصيرها. لذلك فإن هذه المعرفة هي علم كوني، يؤلف بين علم اللاهوت وعلم نشوء الكون وعلم أصل الإنسان، وعلم الآخرة. إنه يتضمن كل شيء، الطبيعة المادية بالإضافة إلى التاريخ. والعقل يستطيع أن ينفذ إلى كل شيء: «لا يجب أن يؤمن الإنسان حتى يرى الشيء بأم عينيه». (كيفاليا 142).

أساطير علم نشوء الكون وعلم أصول الإنسان:

يبدو من المفارقة أن نجد العقيدة المانوية المتأسسة على العقل الذي يشاد بقدرته وجلاله، وقد تم التعبير عنها بلغة الأسطورة الحافلة بالأشكال والصور المثقلة بالألوان القاتمة. تبدو في الحقيقة ميثولوجيا هذه العقيدة التي ابتدعها ماني بنفسه عقليةً وتأملية ومجازية بطبيعتها: إن الأساطير المانوية تخدم هدف توضيح الحقيقة فيما يخص دراما الوجود بشقيه الكون الأكبر والكون الأصغر. وتحقق هذه الاساطير غايتها بمساعدة الصور شديدة التأثير، والتي في معظمها مأخوذة من الإرث الميثولوجي للتراثات السابقة ـ حقيقة قد أمدت العقيدة بثقل وحجة

---

(1) المعنى هنا أنه بما أن روح الإنسان التي يعمل الله جاهداً من أجل تخليصها هي شرارة من نوره وقبس من ذاته، فإن الله بطريقة ما يعمل على تخليص ذاته – المحرر.

عظيمين ـ مع استخدام الشخصيات الإلهية بشكليها الإلهي والشيطاني، والتي هي مألوفة ولو جزئياً للمخيلة الشعبية. ولأن تعاليم ماني كانت موجهة إلى شعوب الأرض كافة، فإن الممثلين في المسرحية العظيمة بإمكانهم أن يتخذوا أسماء مختلفة في بلدان مختلفة مستنبطة من البانثيونات المحلية، وهذا ما يجعلها أيسر على الفهم. وهكذا فإن الميثولوجيا المانوية هي بمثابة ألبوم صور عظيم مرتب في تتابع يهدف إلى إيقاظ ذكريات الماضي الحافلة بالخبرات والبصائر الثاقبة التي ستقود إلى المعرفة. ولا نستغرب إذاً أن ماني الذي كان مشهوراً بلوحاته استخدم كتاباً مصوراً عنوانه الصور لإيصال عقيدته، وكذلك فعل حواريّوه من بعده خلال أنشطتهم التبشيرية.

ميثولوجيا كهذه لا بد أن تمتلك مفاتيح تأويليها. وأول هذه المفاتيح هي الفكرة الحاضرة المسيطرة، عن الروح التي حلت في عالم المادة والتي سوف تتحرر بواسطة العقل: نوس.

ثانياً: لكي نفهم ما يوصف عادة على أنه غرابة في الأساطير المانوية (أكل لحوم البشر، والممارسات الجنسية المصاحبة لذلك، والتهام المادة لنفسها بفعل تدمير ذاتي)، علينا أن نضع في ذهننا مفهومين: الأول الفكرة الهندو – إيرانية عن المساواة بين الروح، والنور، والبذرة (التي في داخل الإنسان، والتي عن طريقها ينتقل عنصر النور من جسد إلى آخر بواسطة التقمص). والثاني هو تصفية واستخلاص النور من جسد إلى آخر بواسطة التقمص). والثاني هو تصفية واستخلاص النور من خلال آلية الهضم عند المجتبين(أي عند النخبة المعدة للخلاص)[1]. وهذه العملية هي النموذج المصغر لعملية تصفية واستخلاص العناصر النورانية التي سرقها الإله الديميرج[2] وأولاده في بداية الزمن. وهنا فإن

---

(1) يعتقد المانويون بأن بعض الأطعمة، مثل البطيخ الأصفر، تحتوي على عنصر النور أكثر من غيرها، ولذا فإن النخبة المختارة للخلاص تعمد إلى أكلها ـ المحرر.

(2) الديميرج هو خالق العالم، ويدعى بالأركون العظيم وهو إله أدنى من الله العلي الذي لم يتدخل في خلق هذا العالم المادي الناقص ـ المحرر.

حجة المفهوم الأول هي أن النور يقيم في البذرة، وعن طريق التوالد ينتقل من جسد إلى آخر مكابداً دورات الميلاد والموت (أي السمسارا بالسنسكريتية)، وفق مبدأ التناسخ، وهي عقيدة من أصل هندي اعتمدها ماني محوراً مركزياً في منظومته. أما حجة المفهوم الثاني، فهي أن المعدة تشبه إنبيق الكيميائيين، ومن خلالها يستطيع المجتبون (أو الصديقون) الذين وصلوا إلى درجة عالية من الطهرانية، أن يستخلصوا النور الموجود في الطعام من خلال دارة مزدوجة من التصفية. وهذه الدارة الصغيرة تشبه الدارة الكبيرة على مستوى الكون، حيث تقوم الأجرام المنيرة باستصفاء النور الحبيس في مادة العالم[1].

تقوم أسطورة الأصول المانوية على عقيدة الأصلين: النور والظلمة، ومراحل الخلق الثالث، وقد تجسد الأصلان في «العظيم الأول» و «أمير الظلمة» أثناء المرحلة الأولى من الوجود، كل منهما منفصل عن الآخر ويقيمان بالترتيب: الأول في الشمال والثاني في الجنوب. إنهما مفصولان بحدود بين مملكتيهما. يحاول أمير الظلمة (الذي يُعبّر عن المادة المضطربة غير المنظمة) أن يخترق مملكة العظيم الأول، وهنا تبدأ المرحلة الثانية حيث يقرر العظيم الأول محاربة أمير الظلمة فيُحدث تجسيداً من ذاته، أُم الحياة، والتي بدورها ولدت الإنسان القديم. غير أن أمير الظلمة يقهر الإنسان القديم ويفترس أبناءه الخمسة. ولكن نهم وجشع أمير الظلمة يسببان له الانهيار، لأن أولاد الإنسان القديم الخمسة كانوا بمثابة السم داخل معدته.

يرُدُّ العظيم الأول على ذلك بخلق كائن آخر هو «الروح الحي» الذي يعادل الفارسي ميترا. يواجه الروح الحي والإنسان القديم شياطين قوى الظلمة. وهكذا

---

(1) وعلى حد قول ابن النديم في الفهرست فإن الأجزاء النورية ترتفع في درب الحجرة إلى فلك القمر، فلا يزال القمر يقبل ذلك من أول الشهر إلى النصف فيمتلئ ويصير بدراً، ثم يؤدي إلى الشمس حتى آخر الشهر. فتدفع الشمس إلى نور فوقها في عالم التسبيح، فيسير في ذلك العالم إلى النور الأعلى الخالص. ولا يزال يفعل ذلك حتى لا يبقى من أجزاء النور شيء في هذا العالم ـ المحرر.

يبدأ فعل الخلق المادي: فمن أجساد الشياطين تنشأ السماء والجبال والأرض، وأخيراً ومن جزء من نور محرّر تنشأ الشمس والقمر والنجوم. يخلق العظيم الأول بعد ذلك كائناً ثالثاً يدعوه الرسول، والذي يجسد العقل، ويدعى أيضاً واهمان العظيم، إله الفكر (المعادل لفوهومانا). فيستنهض الرسول عذراوات النور الاثني عشر، حيث يظهرن عاريات أمام الشياطين، الأمر الذي يدفع الشياطين إلى فعل القذف الجنسي لرؤية جمال كهذا. وهكذا تتحرر عناصر النور التي امتُصت وسُجنت فيهم منطلقة. وتمنح البذور المنثورة على الأرض الجافة الحياة لخمس أشجارٍ: وبهذا الشكل يكتمل خلق العالم.

يحدث خلق العنصر البشري وفق ما يلي: حبلت الشيطانات، والفضل في ذلك يعود إلى تدبير من الرسول، وأنجبت مسوخاً، وابتلعت هذه المسوخ النباتات لتمتص النور الموجود فيها. بعد ذلك ومن أجل احتباس النور بطرية أكثر أمناً، فإن الظلمة (المادة) تتجلى في هيئة آز[1] الذي هو تجسيد للشبق، وتدفع الشيطان آشاغلوم والشيطانة نمرائيل إلى التهام الممسوخ، ثم إلى التناكح، فيلد منهما الزوجان البدئيان آدم وحواء. عند هذه النقطة يبدأ عمل الخلاص. فآدم الذي أُبقي في حالة جهل ضمن شراك المادة، يجري إيقاظه من غفلته عن نفسه بواسطة مخلص هو ابن الله الذي أرسلته القوة العلوية، والذي يتطابق مع الإنسان القديم، أو مع يسوع بعد ذلك، ومع إله العقل (النوس) يقوم المخلص بتنبيه آدم من رقدته ويطلعه على الحقيقة ويريه روحه التي تعاني في عالم المادة، ويكشف له الأصول الشيطانية لجسده والأصول السماوية لنفسه. عندها يعرف آدم ذاته وروحه بفضل العرفان ـ الغنوص ـ ويصحو من غفوته.

المرحلة الثالثة: هي الحرب الكبرى بين قوى الخير وقوى الشر، حيث يحاول أمير الظلام يائساً نشر الشر في العالم من خلال التوالد الذي يأتي إلى العالم بأشخاص ماديين من أجل احتباس مزيد من عناصر النور. وبالمقابل يحاول العظيم الأول نشر الخير من خلال قواعد الدين الصحيح. ومن خلال

---

(1) أز تعني في الإيرانية الحديثة أمنية، ميل، نزعة.

إعاقة دورة التناسخ يجري تحرير النور، عندما تتحرر الروح من خلال المعرفة. بعد أن تنتصر كنيسة الحق سوف تحاسب الأرواح ويصعد المصطفون إلى السماء. بعد ذلك سوف يتطهر العالم من خلال نار مضرمة مدمرة تدوم 1468سنة. وسوف تتصفى جميع ذرات النور أو معظمها. وتحبس المادة وكل تجسداتها مع ضحاياها الخاسرين في كرة داخل فوهة عملاقة تغطى بحجر. وهكذا يتحقق فصل الأصلين إلى أبد الآبدين.

الأصول:

الآن نعرف عن أصول المانوية أكثر من السابق، وذلك من خلال مقارنة مخطوطة كولونيا المانوية مع مصادر أخرى متوافرة، ولا سيما المصادر العربية. لقد تربى ماني في بيئة طائفةٍ يهومسيحية غنوصية معمدانية. هذه الطائفة التي تنسب إلى شخصية أسطورية أكثر منها تاريخية. واسم هذه الشخصية إلكساي، وفي الإغريقية ألخسايوس، وفي العربية الحسيح. كانت الحسيحية حركة واسعة الانتشار، لا سيما في القرنين الثالث والرابع في سورية وفلسطين وبلاد الرافدين وشرقي الأردن وشمال الجزيرة العربية. واستمرت لقرون عديدة بعد ذلك. وقد ذكر الموسوعي ابن النديم أنها كانت موجودة في القرن الرابع الهجري فيما يعرف الآن بجنوب شرق العراق.

على أي حال، من الخطأ أن ننظر في أصل المانوية اعتماداً على معلومات كهذه فقط، لأن المرء يمكن أن يستنتج عندها وبشكل خاطئ أن الملهم الأصلي للعقيدة المانوية كان الغنوصية اليهومسيحية. ما تزال أصول المانوية مفتوحة على الأسئلة، كما هي الغنوصية في الحقيقة. والتفسير الأكثر احتمالاً يجب أن يقر بالأثر المهيمن للثنوية الإيرانية، هذه الثنوية التي شكلت محوراً أساسياً في فكر ماني وفي تعاليمه وطقوس كنيسته. ولا بد من أخذنا بالحسبان وجود ثلاثة أنماط اعتقادية في المانوية: النمط الإيراني الذي هو في الأساس زرادشتي، والنمط المسيحي أو اليهومسيحي، وبوذية الماهَيانا. من بين هذه الثلاثة فإن النمط الإيراني هو الذي مسك بمفاتيح المنظومة المانوية، وقدم لها مفهوماً دينياً كونياً

جديداً نشأ عن الأفكار الرئيسة للغنوصية. ونحن إذا حاولنا أن نفصل المانوية كمنظومة عن عناصرها المسيحية والبوذية فإنها لن تعاني من خلل كبير.

تم الاعتقاد طويلاً أن المانوية ما هي إلا بدعة مسيحية. ولكن تم التخلي عن هذا المعتقد مع نهاية القرن التاسع عشر، والآن تم رفضه بالكامل، بالطريقة التي يجب أن ننبذ بها المقاربة التي تعتبر أن المكونات اليهومسيحية قد تأثرت بقليل أو كثير بالهلينية كعامل أساسي. توجد نزعة واسعة الانتشار اليوم تعطي تأكيداً موازياً لما أطلقنا عليه الأنماط الثلاثة المؤثرة في المانوية وتعتبرها ديانة كونية عظيمة ومستقلة، على الرغم من أن هذه المقاربة ما تزال تثمن قيمة العلاقة بين المانوية والمسيحية أحياناً.

مهما يكن، فنحن إذا قللنا من أهمية الاختلافات الواضحة، فإننا نستطيع تأكيد أن جذور المانوية قائمة في التراث الديني الإيراني، وأن علاقتها بالمزدكية أو الزرادشتية هي مثل علاقة المسيحية باليهودية، تقل أو تكثر.

التاريخ:

نستطيع متابعة بدايات هذا الدين إلى الوحي الثاني الذي هبط على النبي في سن الرابعة والعشرين. وذلك في شهر نيسان من عام 240م، عندما ظهر له الملاك، توأمه، الذي كان على حد وصف ماني «المرأة الجميلة والسامية لوجوده». عقب ذلك بدأ ماني مهمته النبوية والتبشيرية منقطعاً عن الحسحية، التي يطلق ابن النديم على أتباعها اسم المغتسلة، وطقوسها السلفية الصارمة. قدم نفسه على أنه خاتم الأنبياء، وأنه يبشر بعقيدة جديدة تستهدف جميع البشر: البوذيين والزرادشتيين والمسيحيين. تدفعنا عدة عوامل إلى الاعتقاد أنه في بداية بعثته النبوية رأى ماني أن الديانة الكونية التي بدأ بتأسيسها يمكن أن تتبنى الواقع السياسي الجديد للإمبراطورية الساسانية الفارسية التي أقامها أردشير الأول. وقد أهدى ماني عملاً إلى الإمبراطور شابور مكتوباً باللغة الفارسية الوسيطة، وفي ذلك مهد لإعلان الفكرة الكونية عن خاتم النبوة. إن أي طموحات لحاكم ساساني عظيم من أجل بناء إمبراطورية كونية لا بد أن تتوافق مع عقيدة دينية تقدم نفسها على أنها خلاصة وكمال التراثات الدينية العظيمة السابقة.

حركت روح تبشيرية المانوية منذ بداياتها. انطلق ماني أولاً باتجاه بلاد الهنود، وربما سار على خطى الرسول توما، على أمل تحويل الجماعات المسيحية الصغيرة المنتشرة على ساحل فارس وبلوشستان إلى الدين الجديد. وربما أيضاً الوصول إلى أقاليم كانت قد انتشرت فيها البوذية منذ فترة قريبة. ويتكلم التراث المانوي عن هذه المهمة الرسولية الأولى بتحول طوران شاه، حاكم طوران البوذي إلى المانوية. وطوران هي مملكة في جنوب شرق إيران. كانت تلك المهمة الرسولية قصيرة نسبياً بسبب التحولات التي حدثت في الإمبراطورية الساسانية. وهي موت أردشير واعتلاء شابور العرش. وبدأت مرحلة جديدة مع شابور، حيث انتشرت المانوية في تلك الفترة في إيران وحظيت بمكانة مهمة، والفضل في ذلك يعود إلى دخول موظفي البلاط الكبار، وحتى أعضاء من الأسرة الملكية في الدين الجديد. كما كان لدعم الملك الدور الأبرز في انتشار الدين. لقد كادت المانوية أن تغدو الدين الرسمي للإمبراطورية الفارسية، وأصبح ماني نفسه يتمتع بمكانة عالية بعد أن حظي بمقابلة الملك شابور وانضم إلى حاشيته. وحصل ماني على موافقة تسمح له التبشير بالعقيدة الجديدة في كل الإمبراطورية وتحت حماية السلطات المحلية. كتب ماني كتابه الشابورقان في هذه الفترة الذهبية للمانوية وأهداه إلى جلالة حاميه، لكن لم يصل إلينا من هذا الكتاب سوى شذرات.

وحالما ترسخت المانوية كنيسةً حقيقية من خلال مؤسسها، بدأت بالانتشار خلف حدود فارس غرباً في الإمبراطورية الرومانية، وفي اتجاه الشرق والجنوب الشرقي والجنوب. وكتب ماني معلناً: «أملي أن تصل الكنيسة المانوية إلى شرق الأرض، وإلى كل الأقاليم المسكونة على الأرض شمالاً وجنوباً...لا أحد من الرسل السابقين قد أنجز شيئاً كهذا». (كيفاليا 1).

استمر الخط السياسي المزدهر للمانوية بضع سنوات فقط. لقد بدأ عداء دين الدولة الرسمي بالتزايد، وهو الزرادشتية، حيث قاد الإكليروس المجوسي بزعامة كبير الكهنة النافذ قيردير حملة ضد المانوية، وذلك من خلال كنيسة وطنية تتمتع بروح قومية غيورة قوية وأرثوذكسية صارمة.

وأسباب النزاع بين زرادشتية الماجي والمانوية في القرن الثالث متعددة: أولها، وجود طبقة كهنوتية وراثية ضمن تركيبة اجتماعية تراتبية قائمة على الطبقات، وذات نزعة محافظة وتقليدية. ثانياً، الآفاق الثقافية والروحية للمناطق الشرقية للإمبراطورية الشرقية التي تتميز بالمحدودية والضيق، حيث يوجد مجتمع زراعي وأرستقراطي نمطي في الهضبة الإيرانية، وهو كبير الاختلاف عن المجتمع متعددة الإثنيات والثقافات، والمركب الموجود في الأقاليم الغربية البعيدة في الإمبراطورية، حيث نشأت حضارة مدنية كوزموبوليتية مزدهرة. ثالثاً، التحالف بين العرش والماجي والذي بقي متيناً على الرغم من التباينات الداخلية على امتداد الفترة الساسانية، لم يتح للمانوية أن تسيطر، بالإضافة إلى تعرضها للاضطهاد الدوري والشرس. كل ذلك أدى إلى إضعافها وإبقائها في موقع الأقلية.

عكست المانوية بدقة الهموم والتطلعات الدينية لتلك الفترة، وذلك من خلال عقيدتها في الخلاص، وفكرة المعرفة المحرِّرة، والقيمة التي أعطتها للتجربة الشخصية مع القدسي. هذا من جانب، ومن جانب آخر فقد عكست الزرادشتية المعاد إليها اعتبارها، توجهاً ساد أثناء القرن الثالث في كل من الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية، نحو تشكل ثقافة قومية. من هذا المنظور نستطيع أن نرى المانوية باعتبارها وريثاً للانتقائية والتوفيقية البارثية، أكثر من كونها مفسراً للتحولات الثقافية والسياسية الواسعة التي شهدتها إيران مع صعود السلالة الساسانية إلى السلطة.

بدأ أول اضطهاد ضد المانوية بعد موت شابور وخليفته هرمز الأول، ومع قتل ماني بأمر من بهرام الأول، ربما في بدايات العام 277م. تتالت بعدها أحداث كثيرة مؤثرة ضد الجماعات المانوية في كل أقاليم الإمبراطورية، من خراسان إلى سلوقية في بلاد الرافدين وطيسفون التي كانت مركز البابوية المانوية. على أي حال، لم تستأصل المانوية كلياً من العالم الإيراني، فقد استمرت لقرون بعد ذلك. واستمرت في تلك الأقاليم الساسانية في ظل حكم الخلفاء الأمويين على الرغم من الانقسامات الداخلية والجدل المنضبط.

انتقلت المانوية غرباً في القرنين الثالث والرابع إلى داخل الإمبراطورية الرومانية، وانتشرت في مصر وشمال أفريقيا وفلسطين وسورية وآسيا الصغرى ودلماطية وروما وصولاً إلى جنوب بلاد الغال وأسبانيا. وتعرَّض اتباع المانوية للاضطهاد على يد السلطات المركزية وسلطات الأطراف الإمبراطورية، ولاقوا في كل مكان العداء من قبل المؤسسات الدينية والسياسية. لقد تعاملت روما مع المانويين على أنهم عنصر هدام خطير، وكانوا غالباً يصنفّون على أنهم عملاء للسلطة الفارسية الغريمة. وعلى الرغم من الاضطهاد والمراسيم الإمبراطورية التي صدرت ضدهم فقد ظل الدين مستمراً، ما عدا بعض المناطق الغربية من الإمبراطورية الرومانية. مثال على المراسيم المرسوم الذي أصدره ديو قليتيانس سنة 297م ضدهم.

صُورّت المانوية على أنها تهديد جدي وصولاً إلى الحقبة المسيحية. لذلك تكرر اتخاذ الإجراءات القمعية من قبل السلطات الإمبراطورية الرومانية والكنيسة، ولا سيما من جانب البابا لاون الكبير 445م. وقد أحس الإمبراطوران جوستين وجوستنيان بالحاجة لإصدار قانون ينزل عقوبة الموت بكل من يتبع تعالم ماني.

كان الإسلام متسامحاً في البداية مع المانوية كما تسامح مع الزرادشتية والمسيحية، لكن في النهاية تعامل معها بعنف كما الزرادشتية والمسيحية أيضاً.

وتميزت مرحلة الخلافة العباسية بتجديد إجراءات القمع الدموية، والتي نجحت في دفع المانويين شرقاً باتجاه الصغد، وذلك في القرن العاشر الميلادي. استطاعت الديانة المانوية الانتشار في خراسان وخوارزم وبلاد الصغد(1)، واكتسبت بعض القوة، ومن هناك استطاع المانويون نشر إنجيل ماني وصولاً إلى

---

(1) السغد أو الصغد هي بلاد ما وراء النهرن أي ما وراء جيحون أو أمودريا حالياً، وفيها بخارى وسمرقند، وقد جاءت تسميتها كذلك من شعب الصغد الذي سكنها، وهؤلاء مجموعة إيرانية دخلت تحت طاعة الفرس أيام داريوس الأول 522-486ق.م وذكرها البيروني بين شعوب ما وراء النهر ـ المترجم.

الصين وآسيا الوسطى. عانت الديانة المانوية من الانشقاق في العقود الأخيرة من القرن السادس بسبب من كانوا يُدعون الأوصياء على الدين القويم، وهم يمثلون مذهباً متشدداً وتطهرياً في المانوية. وأصبحت سمرقند مقراً للسُدة البابوية المانوية الجديدة في تلك المرحلة.

قبيل انتهاء القرن السابع كانت المانوية قد وصلت إلى الشرق الأقصى. وبينما أعيد فتح طريق القوافل العظيم من كشغار إلى كوتشا إلى كاراشهر متبعاً طريق الغزو الصيني لتركستان الشرقية، عاودت المانوية الظهور في الصين وذلك عن طريق البعثات التبشيرية بشكل خاص. وصدر مرسوم إمبراطوري عام 732 منح المانويين حرية ممارسة ديانتهم في تلك المنطقة. امتدت الديانة المانوية إلى آسيا الوسطى ومنغولها، وإلى إمبراطورية الويغور الواسعة، حيث اتخذ أباطرتها المانوية كديانة رسمية للإمبراطورية في عام 763. غير أن الأحداث السياسية والعسكرية التي تلت سقوط إمبراطورية الويغور في عام 840، كانت السبب في نهاية سيادة المانوية في آسيا الوسطى، ومع ذلك فقد استمرت بطريقة ما حتى القرن الثالث عشر. وفي الصين حيث عانى المانويون من الاضطهاد أثناء القرن التاسع، وحيث منعت المانوية بمرسوم في عام 843 مباشرة بعد انهيار إمبراطورية الويغور، استطاعت الاستمرار على الرغم من كل ذلك حتى القرن الرابع عشر بحماية جمعيات سرية، جنباً إلى جنب مع الطاوية والبوذية.

الكنيسة المانوية:

يوجد فصل بارز في البنيان الإكليروسي المانوي بين طبقات رجال الدين، حيث قُسم الإكليروس إلى أربع طبقات: ضمت الطبقة الأولى المعلمين أو الرسل، وعددهم الإثنين والسبعين، أما الطبقة الثالثة فضمت القهرمانات أو الشمامسة القيمين والذين لم يتجاوزا الثلاثمئة والستين. وضمت الطبقة الرابعة المجتبين أو الصديقين، وشكلت الطبقة الخامسة العامة من الملة ويدعون بالسماعين. فقط الرجال يستطيعون أن ينتسبوا إلى الطبقات الثلاث الأولى وهذا هو الإكليروس الحقيقي. ويوجد فوق هؤلاء جميعاً زعيم

المؤمنين البابا المانوي. عاش رجال الدين في أديرة في المدن واعتاشوا من خلال تقدمات العامة والمؤسسات الوقفية. هذا النظام مشتق بوضوح من نظام الرهبنة البوذية أكثر منه من المسيحية. وقد حكمت مجموعة قوانين أخلاقية مختلفة كلاً من رجال الدين وعامة الشعب. كان على رجال الدين أن يتبعوا الوصايا الخمس: الصدق وعدم العنف والامتناع عن الجنس والامتناع عن اللحم، والامتناع عن زمرة الطعام والشراب التي اعتُبرت دنساً، والتزام الفقر. وكان على العامة أن تتبع أولاً القوانين العشرة للسلوك الحسن، والتي من بينها الالتزام الصارم بالزواج بواحدة فقط، والامتناع عن كل أشكال العنف ضد الناس وضد الحيوانات. ثانياً أن يؤدوا الصلاة أربع مرات في اليوم، وهي صلاة الفجر ومنتصف النهار والمغرب والليل، وذلك بعد اتّباع الطقوس الخاصة للتطهير.

ثالثاً أن يساهموا بالعُشر أو السُبع من أموالهم لإعانة رجال الدين. رابعاً الصيام يوم الأحد من كل أسبوع وثلاثين يوماً من كل سنة وهي الأيام التي تسبق الاحتفال بالعيد الكبير المقدس المدعو بيما bema. وخامساً الاعتراف بالخطايا في يوم الاثنين من كل أسبوع، بالإضافة إلى الاعتراف الجماعي الكبير الذي يأتي في نهاية شهر الصيام.

يتميز القداس المانوي بالبساطة، حيث تتلى فصول من حياة ماني وعذابه واستشهاده وفصول من حياة الرسل الأوائل. والعيد الكبير عندهم هو عيد بيما الذي يأتي مع الاعتدال الربيعي، حيث يحتفلون بذكرى آلام ماني من خلال صلاة الرسول، والاعتراف الجماعي بالذنوب، وترتيل ثلاثة أناشيد لراحة ماني، وتلاوة «عهد الرسول الروحي» و «رسالة خاتم الأنبياء»، و«ترانيم تمجد انتصار الكنيسة»، وبعد ذلك يقدم السماعون وليمة للصفوة. من بين الاماكن المقدسة البيما أو الحرم المقدس، وهو عرش على علو خمس درجات، وقد ترك خالياً كذكرى للذي غادر العالم على الرغم من أنه بقي كهادٍ وحاكم خفي للكنيسة. من المحتمل أن العرش الخالي رمز بوذي في الأصل.

التراث والعناصر الحية:

إن بقاء المانوية بمثابة مصدر إلهام لعدد من هرطقات العصر الوسيط في الغرب، يطرح أسئلة معقدة. فقد اعتُبرت الثنوية المانوية على أنها أصل العلة في تلك الحركات المهرطقة القائمة على الثنوية وعلى الزهد الأخلاقي. وجاءت الاتهامات للمانوية أساساً من المناوئين للهراطقة ليبنوا علاقة هؤلاء بمعتقدات ماني، على الرغم من أن صلة كهذه من الصعب إثباتها ببرهان لا يقبل الشك. ذلك أن المذهب البريسلياني الذي ظهر في أسبانيا في نهاية القرن الرابع لم يكن له علاقة بالمانوية، على الرغم من أن البولسية التي ظهرت في أرمينيا في القرن السابق والبوجوميلية في بلغاريا قد يكون لهما صلة بالمانوية. ظهرت البوجوميلية في بلغاريا في القرن العاشر، وانتشرت عبر شبه جزيرة البلقان حتى آسيا الصغرى الساحلية، بالإضافة إلى الحركة الكاثارية في جنوب فرنسا وشمال إيطاليا أثناء القرنين الثاني عشر والثالث عشر، والتي اعتُبرت جميعها حلقات في السلسلة نفسها، يمكن أن نطلق عليها مانوية العصور الوسطى، أو المانوية الجديدة. والاحتمال أن يكون هناك رابط بين هذه الحركات قائم. وفي الحقيقة فإن رابطة ما قد تكون موجودة بين البوجوميليين والكاثار. ولكن من غير الممكن إثبات أن أصلهما مانوي. إن الخصائص العامة والبيئة الاجتماعية التي تطورت من خلالها هذه الحركات، بالإضافة إلى الطبيعة الغنوصية للمانوية، توحي جميعاً بتأثير عام أكثر من كونه تأثيراً مباشراً. وهذا يعني قاعدة إلهام من الديانة الثنوية العظيمة للعهود القديمة المتأخرة. ويبدو من المؤكد لنا الآن أنه في فترات قصيرة معينة تواجدت المانوية ذاتها في الغرب في مجموعات سرية أو في أشكال سرية، ولا سيما في أفريقيا الرومانية، على الرغم من الحظر والاضطهاد في القرن السادس. ما تعرضت له المانوية في الشرق كان مماثلاً لما تعرضت له في الغرب باستثناء الصين حيث نعلم أن المانوية قد استمرت حية متخفية بمسوح التاوية والبوذية حتى القرن الرابع عشر.

ترجع المزدكية في أصولها إلى المانوية، وهي حركة اجتماعية دينيـة في إيران الساسانية بين القرنين الخامس والسادس، ولا يمكن إنكار تأثير المانوية في هذه الحركة بنسبة ما، على الرغم من أن الحركة تصنّف على أنهـا صـيغة هرطوقية من الزرادشتية. وكان هناك محاولة من حين لآخر لتصنيف المـانوي على أنه مسلم زنديق. في العربية مهرطق وتعني المفكر الحر. والكلمة مشتقة من الفارسية الوسيطة Zandig، وقد استعملها الزرادشـتيون ليـصفوا أولئـك الذين استعملوا كاب الزند، وهو ترجمة فارسية وسـيطة مـع تعليقـات علـى الأفيستا بأسلوب ابتداعي مهرطق. وعلى الرغم مـن أن كلمـة زنـديق كانـت تستخدم للدلالة على المانوي، فإن معناها في الواقع أوسع من ذلك، وهكذا لا يمكن حصر الزندقة بالمانوية.

استمرت المانوية في العلم الإسلامي على الرغم من ملاحقـات العباسـيين. وقد مارست بعض التأثير في التيارات الغنوصية في هذا العالم. أخيراً يوجد تشابه كبير وصلة مباشرة ما بين المانويـة وبعـض المفـاهيم الكونيـة التيبتيـة الـتي مـن المفترض أنها انتقلت عبر الهندوس الكوشيين.

Gherardo Gnoli

المانوية والمسيحية

تعالم ماني من حيث الأساس غنوصية، وعناصرها المكونة مشتقة من الديانة الإيرانية، ولا سيما الزرادشتية في صيغتها الزروانية. لقد والفت بين أفكار مأخوذة من مرقيون بنطس المتوفى 160م، وبين أخرى مأخوذة من الغنوصية اليهو ـ مسيحية المتمثلة في برديصان الرها (154-223م). وعلى الرغم من هذا النسب الثاني، فإنه من المشكوك فيه اعتبار المانوية على أنها هرطقة مسيحية. وفي حال اعتبرناها كذلك يمكن الاستناد إلى أن ماني قد أعلن نفسه واحداً من رسل يسوع المسيح والفارقليط الذي بشر به يسوع. وإلى أن المانويين المتواجدين في الإمبراطورية الرومانية قد اعتبروا أنفسهم المؤمنين الحقيقيين، ونظروا إلى بقية أعضاء الكنيسة المسيحية على أنهم أشباه مؤمنين.

آمن ماني أنه كان ينشر ديناً كونياً جديداً سوف يحل محل كل الأديان الأخرى. بهذا المعنى، وبعكس أتباعه في الغرب، لم يكن ماني يعتبر نفسه مسيحياً. وأكثر من ذلك، عندما اتجهت المانوية شرقاً اختلفت طروحاتها بشكل كبير. لقد تقمص ماني في الصين الجنوبية شخصية لاوتسو مؤسس الطاوية، وكان بالنسبة لآخرين بوذا النور. بمعنى آخر فإن المانوية الشرقية لم تكن تتطابق مع المانوية الغربية. والأناشيد الدينية القبطية التي كانت تعبر عن الدين المنتشر في مصر في القرن الرابع الميلادي، لم تكن بمجملها إلا صيغة لا يمكن تمييزها عن مثيلاتها التقليدية. أما التراتيل البارثية التي تشير مراراً إلى «مخلص» فإنها لا تذكر هذا المخلص بالاسم. ربما كان ذلك نتيجة لفقدان العديد من الوثائق المانوية، ولكن الأرجح أن عدم ذكر اسم المخلص كان أمراً مقصوداً، بحيث يمكن أن يتطابق مع كل المخلصين:

زرادشت أو المسيح أو بوذا أو لاوتسو أو ماني. وبهذا تستطيع المانوية كدين توفيقي ان ترفع من شأن المسيح آناً ومن شأن بوذا آناً آخر، لتتلاءم مع الوضع الذي تجد نفسها فيه.

كانت المانوية ثنوية أساساً. اعتقدت أنه يوجد أصلان أزليان: النور / الروح، والظلمة / المادة. وتشكل الوجود الحالي نتيجة الامتزاج بين هذين الأصلين، وحدث ذلك نتيجة مهاجمة الظلمة للنور، مما أدى إلى بعثرة ذريرات النور. وهذا التجزؤ للماهية الروحية وإحاطتها بالمادة أدى إلى وجود الروح في الكائنات البشرية أو الحياة في النبات. وهذه كلها تعاليم غنوصية بالكامل تُختزل في المفهوم المحوري: «ذهب في الطين»، أي الروح الحبيسة في المادة. ويعني هذا أن العنصر الثمين بحاجة لأن يتحرر ويعود إلى مصدره. يتم هذا التحرر في المانوية المسيحية في جزء منه بعون من يسوع الذي يعتبر كائناً سماوياً منزهاً، وتجسيداً للعقل المفكر. وهو الذي جاء بالغنوص المخلص إلى فلسطين. لكن يسوع هذا ما هو إلا شكل شبحي يبدو على هيئة إنسان من لحم ودم. فهو لم يمر في مرحلة الولادة، ولم يصلب في الحقيقة، لذلك ليس هناك من حاجة لينهض من بين الأموات. وإذا ما حافظت المانوية على مفهوم آلام يسوع فقد ربطت ذلك بمعاناته المفترضة في كل ثمرة على كل شجرة. وسيبقى يسوع في عذاب حتى نهاية العالم عندما يجيء قاضياً: عندها سوف ينفصل النور عن الظلمة ويعود كل شيء إلى أصله.

هذه التعالم المختلفة عن المسيحية القويمة، تدعمها كتابات ماني نفسه وكتابات رسله الاثني عشر، كما تدعمها نسخة من كتاب العهد الجديد أعدها المانويون، بعد تعديلها على طريقة المسيحي الغنوصي مارقيون[1]، بحيث

(1) كان مارقيون قد أعد نسخته الخاصة من العهد الجديد نحو عام 150م، احتوت على إنجيل لوقا فقط، بعد أن حذف منه قصة الميلاد وسلسلة نسب يسوع، إضافة إلى عشر رسائل لبولس – المحرر.

احتوت على نصوص معدلة للأناجيل، إضافة إلى أسفار أخرى من العهد الجديد نالها التعديل أيضاً.

تدين المانوية الغربية بنسبة ما للمسيحية الأرثوذكسية في تنظيمها التراتبي، حيث يوجد الأساقفة والخوارنة والشمامسة، بالإضافة إلى الاثني عشر رسولاً. ويوجد تأثير من المحتمل أنه قادم من البوذية، حيث توجد فئتان هما المجتبون والسماعون. ويخدم السماعون المجتبين المحكومين بالعهود الثلاثة: لا يشاركون في شهوات الجسد وشرب الخمر، ولا ينشغلون بأشياء خارجية مثل حراثة الأرض، ولا يكون لهم علاقات جنسية أو يتزوجون.

لقد تقدمت المانوية سريعاً في العقود الأخيرة من القرن الرابع في كل من مصر وسورية وشمال أفريقيا، ولكن في عام 439 أصبح الكثير من أتباعها لاجئين نتيجة الحملة العنيفة للفاندال هناك. وقد جدّ البابا لاون الكبير من 440 حتى 460 في طلب اللاجئين المانويين لإخضاعهم. وقد كان هناك دعاوى قضائية ضدهم في القسطنطينية حتى 527م. مهما يكن، فقد استمر وجود بعض المانويين في شمال أفريقيا حتى القرن الثامن على الأقل. أما في الشرق، ولا سيما في تركستان الصينية، فقد وُجدت أدلة على نشاط المانويين حتى القرن الثالث عشر.

وُجدت نصوص لكُتاب مسيحيين في العصور الوسطى تبين أن المانوية قد حافظت على وجودها في الغرب. فقد اتهم كل من البولسيين والبوغوميليين والكاثار وأتباع بريسكليان بكونهم مانويين. لقد استخدمت كل السلطات القائمة المانوية كمرادف للثنوية، وكل تعاليم تظهر نزعة تجاه الثنوية قد صنفت مانوية طبقاً لذلك.

إن تعالم بريسكليان وأتباعه (نحو 370م) من الصعب تحديدها بدقة، ولكن من الصعب أن نطلق عليها صفة المانوية. والبولسيون الذين ظهروا أولاً في أرمينيا في القرن السابع، يبدو أنهم من الغنوصيين التقليديين ولهم تأثيرهم

المباشر في البوغوميليين الذين ظهروا في بلغاريا في القرن العاشر. وبدأ الكاثـار في اكتساب سوء السمعة في القرن الحـادي عـشر في كـل مـن إيطاليـا وألمانيـا وفرنسا. وقد أطلق عليهم اسم البيجيين في فرنسا. لكن لا يبدو أن هناك أي رابط بين هذه الحركات وبين قدماء المانوية.

J.G.Daves[1]

---

(1) تمت ترجمة هذه المقالات الثلاث في المانوية عن:
M. ELIADE, EDT, ENCYCLOPEDIA OF RELIGION, Macmillan, London, 1987

الفصل الثالث

اليهوديـة

تأليف: John B.Noss

ترجمة: عبد الرزاق العلي

يمكن القول إن موضوعاً وحيداً عظيماً يهيمن على مسار الديانة اليهودية، ألا وهو وجود إله فرد عادل، هو من يسيّر النظام الاجتماعي والطبيعي. لم يصل الموضوع إلى هذا التبلور من لحظته، لكنه كان حاضراً ضمناً منذ البداية. ولا يمكن إلا للعقول الرهيفة أخلاقياً واجتماعياً أن تتصور التاريخ ضمن سياق كهذا، أو أن تطور وعياً جمعياً حول إله كهذا.

ونتيجة للحساسية الاجتماعية للعبرانيين، فقد كانوا ذوي نزعات تاريخية في التفكير. وتحتاج هذه الحقيقة إلى تأكيد. وتعتبر أسفار العبرانيين الكاملة بمثابة سجل لتاريخ الأمة بقدر ما تمَكّن المؤرخون العبرانيون من فعل ذلك. إن قيام عمل أولئك المؤلفين على أسس سليمة يزداد لدينا تأكداً من خلال متابعة البحث الأركيولوجي مهمة كشف آثار الحضارات الفلسطينية المبكرة. ولا يجب أن نغفل في الوقت ذاته أن العبرانيين كتبوا تاريخهم بناءً على أسس دينية وليس دنيوية. وأن الحقائق التي استشهدوا بها والتقاليد التي أحيوها لا تملك القيم نفسها بالنسبة لنا كما بالنسبة لهم. تحوي مروياتهم، في الواقع، معاني ودلالات مخبوءة لم يعيروها أي اهتمام لأنهم اعتبروها مسلمات. غير أننا لا بد أن نخرج هذه المسائل إلى دائرة الضوء لما لذلك من أهمية قصوى، حيث أننا كلما قمنا بمزيد من الشروحات وإعادة التركيب كلما اكتسبت الاسفار معاني جديدة.

إن الكتاب المقدس العبراني، والمعروف لدى المسيحيين بـ«العهد القديم»، قد أعتُبر «كلام الله»، لأنه في اعتقاد المؤمن أن هذه النصوص ما هي إلا وحي لمشيئة الإله، ليس لليهود وحدهم بل للبشرية جمعاء. والعهد القديم بمجمله، من سفر التكوين إلى سفر ملاخي، يشكل التراث الديني المقدس المسلّم بصحته كأمهات نصوص تعبر عن جوهر الدين، وقد مرت باختبارات عديدة لإثبات صدقيتها، وبأنها وحي من عند الإله ومطلقة الصدقية.

وسوف نرى لاحقاً كيف ومتى كُتبت هذه النصوص، حيث دونت الأسفار الأخيرة بعد قرون عديدة من الأولى. وقد جمعت كلها في الكتاب المقدس الحالي في مجمع للحاخامات عقد في (يبنه) في فلسطين نحو 90 ميلادية. وتم تثبيت الأسفار على ما هي عليه من ذلك التاريخ بحيث لم تعد خاضعة لأي تغيير أو إضافة أو حذف. غير أن بعض الأسفار التي تم رفضها، لأنها لم تكن تلبي معايير الوحي الحقيقي بالكامل، قد احتوت من القيمة ما يجعلها تكتسب منزلة النصوص شبه المقدسة والمعترف بصدقيتها بنسبة ما. وقد أطلق المسيحيون على هذه النصوص التسمية الإغريقية أو كريفا – Apocrypha) والتي تعني النصوص أو الأحاديث المشكوك بصحتها، ويقصدون بها الأربعة عشر سفراً في التوراة السبعينية[1] المرفوضة من اليهود، ولا يعترف بها البروتستانت، ولكن الكاثوليك يعترفون بأحد عشر منها. وقد أقرت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية هذه الأسفار وضمتها إلى كتابها المقدس كمجموعة منفصلة.

خضع الكتاب المقدس اليهودي، كما العهد الجديد، إلى التمحيص الدقيق من خلال النقد النصي أو النقد التاريخي والأدبي. وفي هذا السياق جرت دراسة كل سفر على حدة، وفككت أجزاؤه التي تم اختبارها على نتائج البحث الأركيولوجي، وإحالتها إلى هذه الفترة من التاريخ أو تلك. والمؤرخون اليوم واثقون من أن الكتاب المقدس العبري والمسيحي هو في وضع أفضل من أي وقت مضى من حيث فهمه والعلم به.

(1) وهي ترجمة يونانية للتوراة تمت في الإسكندرية في القرن الثاني ق.م.

1- دين العبرانيين قبل موسى

ربما يرجع أصل العبرانيين التوراتيين، الذين ينتمون إلى الشعوب التي تكلمت اللغات السامية، إلى الصحراء السورية العربية، حيث ظلوا يتنقلون لقرون هناك بين جنبات تلك الصحراء. وكما فعلت جماعات سامية أخرى قبل وأثناء ذلك، فقد خيموا في البوادي العربية الشمالية على تخوم الواحات أو في المناطق التي كانت تغطيها بعض النباتات، عابرين القفار المتحدبة والمغطاة بالصخور المسطحة أو بالحصى والرمال المتحركة. كانت خيامهم عبارة عن جلود جمال أو ماعز ينصبونها على ارتفاع منخفض من سطح الأرض، وتحت ملجأ كهذا كانت تسير حياتهم الجماعية في مجراها مستقلة أو مكتفية بذاتها. وعاشت كل عشيرة مكتفية بذاتها ولذاتها، وكان روتين الحياة اليومي ينظمه شخص فرد مسيطر وهو الشخص الحاكم الأكبر سناً أو شيخ العشيرة، والذي ما زالت المفردة العربية «شيخ» تستعمل حتى الوقت الحاضر للدلالة عليه. كانت أدواتهم وأسلحتهم مصنوعة من الحجر في تلك العهود الغابرة، كما وكانت معتقداتهم في شكلها البدائي الأول. وعلى الرغم من ارتيابهم بالغرباء فقد كانوا سمحاء تجاه الغلط الذي يرتكبه الغريب في مضاربهم. كانوا يتجمعون معاً في اتساع الصحراء المترامية الأطراف متكافلين في مواجهة العالم الضنين القاسي المحيط بهم.

تراث العبرانيين الصحراوي:

يدين العبرانيون التوراتيون أو (الإسرائيليون) بالكثير لأسلافهم الذين نشؤوا في الصحراء. ومع أن دينهم التوحيدي قد واجه تناقضاً حاداً مقابل التراث الصحراوي الذي يؤمن بتعدد الآلهة، فقد تراجع هذا التناقض إلى الحد الأدنى بحيث ظل يوجد شكل من التعدد في الدين الإسرائيلي لفترة طويلة من الزمن. وعندما يقرأ المرء التوراة يجد آثاراً لهذه المعتقدات والممارسات، ونكراناً أيضاً، وهذا ما سنراه لاحقاً.

تميز سكان الصحراء الساميّون، في نحو 2000ق.م، بتعظيم الحجارة والنصب، وكان ذلك معتقداً عالمياً. وكان يُنظر إلى الرُجمات (أكوام الحجارة) باحترام خاص. كما أنهم بجلوا معالم الصحراء، وقد سموا الصخرة الشبيهة بالنُصب «المذبح» المقدس الذي غالباً ما تكرر على ألسنة العبرانيين الأوائل. وكانوا يرددون كلمة «جلجال» التي استخدمت فيما بعد من قبلهم كاسم لمدينة في فلسطين، والتي تعني سلسة على شكل حلقة من الأعمدة. وقد أدت الحجارة والنصب أهدافاً محددة بحيث خدمت المراسم الدينية والأضحيات، وقد كان لها في الأصل مكانتها المهيبة، ربما نتيجة لشكلها الغريب، أو ربما لمظهرها الذي يوحي بالهيئة البشرية، أو بسبب موقعها الملفت للنظر على قمة جبل، أو معترضة طريق المسافرين. وكان من المعتقد أن الآلهة المحليين والإلهات تقيم في تلك الأماكن.

وكان من الطبيعي بين سكان الصحراء، غير المعتادين على رؤية الكثير من الآبار والينابيع والجداول، الاعتقاد أن هذه الأماكن لها شخصيتها المقدسة الخاصة، والتي كانت تعزى إلى قدرة الأرواح الخلاقة أو إلى الآلهة التي قد أوجدتها، والتي باستطاعتها تجفيفها ثانية بسهولة إذا ما تم إغضابها. كانوا يشعرون أن الأشجار، ولا سيما دائمة الخضرة، تزخر بطاقة روحية، بحيث أصبحت الأحراش أماكن مقدسة. لكن الأشجار كانت مرهوبة أكثر وهي تشاهد متراقصة في الريح. وكان سكان الصحراء يخشون الوقوع في أجمة هي موطن الوحوش البرية وكمين الشياطين. بل اعتقدوا بأكثر من ذلك، اعتقدوا أن الأشجار يمكن أن تجذب البرق، كما ويمكن أن تكون هي ذاتها مخلوقات شيطانية مفعمة بالحيوية. من جانب آخر، اعتقدوا أن بعض الأشجار تهمس بالحكمة من خلال حفيف أوراقها، إنها أرواح حِمائية تمنح السكينة والمأوى، وهي قادرة على صنع المعجزات ضمن حالات استثنائية، شرط أن يوجد الفرد الاستثنائي الذي يستطيع فهم لغتها عندما يسمعها.

أما بالنسبة إلى وحوش الأرض البراح، فقد كانوا يخافون من وحوشها الثعابين التي كانت مبجلة عند كل الشعوب، لكونها تتميز ببراعة شيطانية في

الاختفاء. واعتقدوا أن الماعز تجسيد للشياطين ذات الشعر (في العبرية سي إيريم). واعتقدوا أيضاً أن قطعان المخلوقات البرية غير القابلة للتدجين، مثل الفهود والنمور والضباع والثعالب والذئاب التي تستوطن الصحراء، ما هي إلا قطعان متوحشة من الشياطين في الأرض اليباب. كما إن طيور النعام السريعة الجري والطيور التي هي فرائس للوحوش ما هي إلا تجسيدات شيطانية أيضاً.

وقد آمن سكان الصحراء الساميون بأرواح كثيرة أخرى بالإضافة لهذه الأرواح: آمنوا بأرواح مخيفة لها شكل الإنسان لكنها لا تمتلك صفات الإنسان، مثل الجن في التراث العربي اللاحق. فقد كانت هناك جنية الليل المغوية، وكانت ريح الصحراء الهائجة التي تجلب العاصفة الرملية هي الشيطان الحاقد الذي لا يرحم، والذي كان يجلب الوباء والخراب. وكانت هناك أرواح أخرى مشابهة ذات نزعة شريرة، غير أن الأرواح الخيرة كانت تفوقها عدداً.

نصل هنا إلى حقيقة ذات أهمية في دراستنا الراهنة، هي أن الكثير من الارواح التي تمتلك سوية عالية من القوة والعزم والدينامية قد أُعطيت اسماً انتشر عالمياً بين الشعوب السامية، وهو إيل El، أو إيلوه Eloah ويدل على المفرد أو إيليم Elim، أو إيلوهم Elohim، ويدل على الجمع، كلمة يوحي معناها العام بمعنى «الكائن الخارق، أو فوق الإنساني، أو الإلهي». وأصبح لهذا المصطلح دلالة واسعة وشاملة بحيث أمكن استخدامه للدلالة على الآلهة الكبرى والصغرى المشابهة، وعلى الرغم من أنه قد استخدم لتحديد وتعريف قوى الخير، فقد استخدم أيضاً للدلالة على الشياطين وتعريفها. لم يشر المصطلح، كقانون دائم، إلى فرد خارق محدد ما لم يوصف بصفة ما أو يأخذ اسماً محلياً. وبقي ذلك معمولاً بين الآراميين والعبرانيين حتى صار يعني بصيغته المفردة أو الجمعية «الإله الواحد»[1].

(1) كيف يمكن أن تؤدي صيغة الجمع من إيلوه، (إيلوهم) معنى الواحد؟ أجيب على هذا السؤال على الشكل التالي: اعتبرت الآلهة المتعددة في النهاية إلهاً واحداً حقيقياً. وقد دل مصطلح الجمع فيما بعد على «الواحد الذي هو الكل» أو «الإله الكلي» أو «كلية المقدس».تدل هذه الكلمة دلالة واضحة على الإله الحقيقي في المقابل فإن الكلمة الأكثر استخداماً في النصوص العبرية للأصنام هي إيليم Elim والتي تعني الآلهة الباطلة.

أطلقت تسميات أخرى على الآلهة لدى الشعوب السامية هي «أدونيس أو أدوني» في العبرية «أدوناي» والتي تعني الرب أو السيد، وكذلك ملك Malak أو مولك Moloch وبل Bel أو بعل Baal والتي تعني سيد الأرض Land lord أو مالك الأرض، وآب Ab وتعني الأب أو رئيس الأسرة.

وتدل أسماء الآلهة هذه على حقيقة مهمة مفادها أن العلاقة بين الآلهة والبشر كانت تقارن بتلك التي بين الملوك أو مُلاّك الأرض ورؤساء الأسر وبين رعاياهم وتابعيهم. وبقدر ما ارتقى الآلهة في السموات أو بقدر ما ازداد عددهم وتطور من خلال انتشار الميثولوجيات حولهم وحول عبادتهم، بقدر ما كانت العلاقة بهم تصبح أقل قرباً وأقل خصوصية. بينما من الجانب الآخر، كانت الرابطة بين الآلهة والإنسان دافئة وحميمية وخصوصية بين قبائل الصحراء، وربما سهلت الصحراء العلاقة بين الإله والإنسان من خلال إرجاع الطبيعة إلى برية خاوية. بأيّ حال فقط اتخذ سكان الصحراء الساميون موقفاً من آلهتهم، ليس كمثل الموقف القائم على الخوف والغموض والتساؤل حول قوى الطبيعة غير المفهومة، بل هو كمثل موقف الرعايا في حضرة ملكهم، أو ربما أكثر ألفة، كأبناء أمام والدهم.

وصلت هذه القضية، مع مرور الوقت، إلى مفترق طرق تحدد من خلاله خيار البشر لآلهتهم أو خيار الآلهة لرعيتها، بحيث إنه لم يعد ممكناً لجميع الآلهة أن تكون «الأب» أو «الرب الخاص» لمجموعة بشرية محددة، كما إن الألفة لا يمكن أن تكون عامة. ونتج عن ذلك أن إلهاً أو عدة آلهة هم الذين اختاروا أو تم اختيارهم من قبل جماعة قد تكون صغيرة أو كبيرة من البشر، «عشيرة» على وجه التقريب، اختاروا رابطاً أكثر ألفةً مع مجموعة محددة من الآلهة، أو إله واحد لجماعة من البشر، بدلاً من أن يكون جميع الآلهة لجميع البشر. لقد كانت الرابطة خاصة وحميمة وغلب عليها الالتزام من كلا الطرفين.

إبراهيم والهجرة إلى فلسطين:

لدينا عن إبراهيم مفهوم جديد نوعاً ما في الوقت الحاضر، حيث إن اكتشاف الوثائق التي ظلت دفينة في الأرض لمدة طويلة من الزمن في العراق وسورية وفلسطين أدى إلى وضعه في موضع مثير على حد ما، ورجراج وغير مستقر إلى حد كبير. كما يخبرنا التراث التوراتي فإن أسلاف إبراهيم قد أُجبروا على مغادرة الصحراء كما أجبر غيرهم من الجماعات السامية. هذه الجماعات هي التي تسمت فيما بعد بالبابليين والآراميين والفينيقيين والعموريين والكنعانيين. واستقرت عشيرة إبراهيم لبرهة من الزمن في بابل قرب موقع يدعى «أور» الكلدانيين. ويحكى أن إبراهيم قد ولد في تلك المنطقة. تنقل هؤلاء الناس بقيادة شيوخهم على طول حدود سهل ما بين النهرين باتجاه الشمال الغربي وصولاً إلى «حران» حيث كانت مركز قوافل شبه مجدب على الطرف الشمالي القصي للصحراء السورية. اتخذت تلك الهجرة درب قوافل مطروق، غير أن الوضع الاجتماعي في حران كان مضطرباً، لذلك لا يبدو أن عشيرة إبراهيم قد استقرت لمدة طويلة هناك، ربما بسبب الوعد بظروف أفضل في الطرف الجنوبي الغربي البعيد، وربما بسبب الوضع الاجتماعي العام الذي يوحي بالاضطراب والهلع.

باختصار، عندما بلغ إبراهيم سن النضج تواقت ذلك مع النصف الثاني من القرن التاسع عشر ق.م، كان الشرق الأوسط بمجمله في حالة توتر وتحول دائم. وكانت مملكة ماري على الفرات الأوسط في خطر دائم نتيجة اجتياحها المتكرر من قبل الأكاديين في الشرق. وكلاهما، ماري وحران، كانتا مهددتين من قبائل الحوريين الرحل، ومعرضتين للغزو من الجبال الأرمينية في الشمال. كانت هذه القبائل البربرية الحورية مدفوعة للتحرك جنوباً وبتأثير ضغط هائل من الهندو ـ أوربيين (الآريين) المتدفقين على عرباتهم باتجاه الجنوب. كانت كل من سورية وفلسطين في حالة اضطراب. فقد تم دفع الحثيين والحوريين من آسيا الصغرى الشرقية، باتجاه الغرب بالنسبة للحثيين، وباتجاه الجنوب بالنسبة للحوريين. تزايد شعب فلسطين بسبب اللاجئين الوافدين من كل الأجناس، من الحوريين والعموريين والآراميين وشعوب أخرى غير سامية قادمة من أقصى الشمال.

من الواضح أن القبيلة البدوية الأولى التي انحدر منها إبراهيم كانت قد وصلت لتوها وكانت على وشك أن تُكتَسح في حركة الجماعات المتجهة جنوباً، والمؤلفة من حلف جماعات متنقلة، معظمها من الساميين، أطلق عليهم المصريون تسمية «شاشو Shashu» والإغريق تسمية الهكسوس، كانت تضغط باتجاه نهر النيل.

تأخذ قصة إبراهيم كما يرويها سفر التكوين شكل نسيج محبوك من مرويات متنوعة تنتمي لحقب متنوعة، وهذا ما قاد بعض المؤرخين إلى الشك بكل ما روي عن إبراهيم. غير أن هذا القدر الهائل من التشكيك يبدو بلا مسوغ، على هدي الأدلة الراهنة. من المؤكد أن إبراهيم لم يكن الزعيم القبلي الأوحد للعبرانيين (عابيرو؟) في هجرتهم، ولكن يمكن أن يكون الشخص النموذج في جماعته، بحيث تركزت الحكايات حوله فيما بعد.

مختصر الحكاية هو أن تجربة إبراهيم الدينية الخاصة قادته إلى الإيمان بمعبود واحد قادر أن يحمي، قد اختار إبراهيم بذاته، أو يكون إبراهيم نفسه قد اختاره، وهو إلهٌ ما (=إيل). أطلق عليه إبراهيم اسم (إيل شداي El Shaddai)، الذي كسف أرواح الأسلاف، أو الآلهة المحلية والتي كانت تتمثل بأصنام على شكل تماثيل من الخشب أو الحجر تحتفظ بها الأسرة من أجل ممارسة الطقوس السحرية الأهلية والعبادة. عندما شده الحنين للهجرة مع جماعته إلى أرض أكثر أمناً وأكثر عشباً باتجاه الجنوب الغربي، كان «إيل شداي» قد شجعه على الرحيل إلى هناك. من الواضح، بحسب الرواية التوراتية، أن إبراهيم قد قدم ولاءه إلى هذا الكائن بعينه، ومن خلال التزام شخصي، ألزم نفسه أن يتبع طريق «إيل شداي» الذي فرض إقامة الإحسان وممارسة العدل والتقوى، وتناسب ذلك مع إبراهيم الذي كان كريماً ومضيافاً ومتسامحاً. (مثال على ذلك، قصة شفاعته للسدوميين في سفر التكوين الإصحاح 18). تخبرنا الأدبيات أنه عندما طلب منه «إيل شداي» أن يضحي بابنه إسحق، خرج لينفذ الأمر، ولكن انتهت التجربة بأن استبدل ابنه بكبش (سفر التكوين، إصحاح 22). تعكس هذه الحكاية استخدام القرابين الحيوانية بدلاً عن القرابين البشرية. وعلاوة على ذلك فقد وعده «إيل

شداي» هو وأتباعه بالوطن الدائم في أرض كنعان. وهكذا انطلق إبراهيم في رحلة طويلة للوصول إلى أرض كنعان مع إيمان مطلق بالوعود التي قدمها له مولاه السماوي. ولقد تمتع إبراهيم بمحاباة مولاه له لدرجة أنه أُطلق عليه في التراث القديم «صديق الله». وصل إبراهيم إلى الأرض التي يقطنها الكنعانيون بصحبة قطعانه وماشيته وأعضاء عشيرته الصغيرة. ما إن وصل إلى مبتغاه بأمان حتى سكن على سلسلة الجبال الكلسية المواجهة لأرض كنعان[1]. بعد موته حل محله ابنه إسحاق وبعد إسحاق جاء يعقوب.

بعد ذلك، وكما تخبرنا التوراة، بطشت مجاعة رهيبة بالزرع والضرع. نتيجة لذلك لم يعد أتباع إبراهيم قادرين على تدبير قوت يومهم، لذلك هاجروا ثانية، هذه المرة إلى حدود مصر، وهنا تسرد لنا قصة يوسف تتابع الأحداث حيث استقروا في أرض جاسان الخصبة.

يميل المؤرخون المعاصرون حديثاً إضفاء بعض التفاصيل على هذه الرواية، فإبراهيم قد هاجر من (حران) في الوقت الذي اقترب فيه الغزو الهندو – إيراني (نحو 1750 ق.م) ويمكن أن يكون هو وعشيرته في مقدمة الجماعات المقتلعة من موطنها صوب الجنوب. بعض هذه الجماعات المتفرقة قد شكلت الغزاة الذين أطلق عليهم اسم الهكسوس ـ الحكام الأجانب؟ وبعد دخول الهكسوس إلى مصر تبعتهم عشيرة إبراهيم إلى الأراضي الأكثر خصباً في دلتا النيل، حيث تعامل الهكسوس مع عشيرة إبراهيم كحليفة. وقد استعمل الهكسوس مفردات سامية كأسماء للبلدات، وعينوا موظفين ساميين في إدارتهم (كما في قصة يوسف الشهيرة).

سار كل شيء على ما يرام لأجيال. وأقبلت الدنيا على الإسرائيليين بشكل خاص وتضاعف عددهم. بعدها ثار المصريون وطردوا الهكسوس وكان ذلك بين عامي (1580 – 1560ق.م) واستعاد المصريون السيطرة على كامل ساحل

---

(1) وهي سلسة المرتفعات الفلسطينية الشرقية التي هي بمثابة الامتداد المنخفض لسلسلة الجبال السورية الشرقية والتي صارت فيما بعد الموطن التقليدي لإسرائيل ويهوذا.

شرقي المتوسط. لم يشمل الطرد الإسرائيليين مع طبقة الحكام الهكسوس المكروهين، وعاش الإسرائيليون بعد ذلك لمدة قرن ونصف في بحبوحة ولم يتعرضوا لأي مضايقات من جيرانهم المصريين. لكن بعد قرن ونصف اعتلى عرش مصر الفرعون رمسيس الثاني (1304 - 1237 ق.م)، الذي كان همه تشييد الصروح العظيمة من مدن كاملة ومعابد هائلة الضخامة، ونتيجة لحاجته لعمال سخرة فقد التفت إلى الإسرائيليين على الحدود الشمالية الشرقية فانقض عليهم وحولهم إلى عبيد وعمال سخرة.

أجبر الإسرائيليون على العمل تحت السياط لإنجاز مشاريع الفرعون العامة. ولم يظهر من هو قادر على إنقاذهم سوى كارثة تدمر مصر، أو زعيم يظهر من بينهم لينقذهم من هذه المحنة التي أصبحوا فيها. وقد تيسر لهم أحد الشرطين، إن لم يكن كلاهما للنجاة من الفرعون.

2- موسى والميثاق مع يهوه

(نحو 1250ق.م)

يحتل موسى منزلة رفيعة في التقوى اليهودية، على الرغم من أن الأبحاث الحديثة تنكر عليه تأليفه الأسفار الخمسة والنصوص القانونية المعقدة للشريعة (التوراة)[1]، لكنها تعطيه أعلى مرتبة رفيعة في التاريخ الإسرائيلي المبكر.

كان موسى شخصية مبدعة من الطراز الأول. لقد أحدث انقلاباً كاملاً في التوجه الديني لشعبه من خلال إقناعهم بتبني المفهوم الأساسي في الديانة الإسرائيلية، وهو أنه لا يوجد إلا إله واحد ليعبده، إله مسيطر على تاريخهم وحياتهم. وقد اختار هذا الإله شعب إسرائيل ليكون شعبه، ورغب أن يلتزم بميثاق مع هذا الشعب من خلال عقد اتفاق مشترك ملزم للطرفين. نتيجة لذلك فإن الإله سوف يكون الفاعل في تاريخهم ليباركهم ويعاقبهم بحسب إيمانهم به. كان التباين مع الآلهة السامية واضحاً جداً، حيث أنه لم يعد مسموحاً التكلم عن آلهة متعددة وأساطير تؤمن بها ديانات أخرى، ولا عبادتها، ولا بد من إهمالها من الآن فصاعداً، بحيث يكون لشعب إسرائيل إله واحد فقط.

وقد وصلتنا حكاية موسى في روايتين متضافرتين تؤلفان سفر الخروج وسفر العدد. وهما الرواية J(أي اليهودية نسبة إلى يهوه) والرواية E (نسبة إلى إيلوهم). ويعود الشكل المدون لهذه المرويات إلى ما بعد 400 أو 600 سنة من تاريخ الأحداث التي تقصها، ومن ضمنها قصة طفولة موسى الشهيرة:

(1) الشريعة أو التوراة محصورة في الأسفار الخمسة الأولى من الكتاب المقدس. وبالمعنى الواسع للكلمة فإن التوراة بالنسبة إلى اليهود تدل على كامل الكتاب المقدس اليهودي.

«ثُمَّ قَامَ مَلِكٌ جَدِيدٌ عَلَى مِصْرَ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ يُوسُفَ. فَقَالَ لِشَعْبِهِ: «هُوَذَا بَنُو إسرائيل شَعْبٌ أكثر وأعظم مِنَّا. هَلُمَّ نَحْتَالُ لَهُمْ لِئَلا يَنْمُوا فَيَكُونَ إِذَا حَدَثَتْ حَرْبٌ أنهم يَنْضَمُّونَ إلى أعدائنا وَيُحَارِبُونَنَا وَيَصْعَدُونَ مِنَ الأرض»، ثُمَّ أمر فِرْعَوْنُ جَمِيعَ شَعْبِهِ قَائِلاً: «كُلُّ ابْنٍ يُولَدُ تَطْرَحُونَهُ فِي النَّهْرِ لَكِنَّ كُلَّ بِنْتٍ تَسْتَحْيُونَهَا» (الخروج 1: 8-22).

«وَذَهَبَ رَجُلٌ مِنْ بَيْتِ لاَوِي وَأَخَذَ بِنْتَ لاَوِي، فَحَبِلَتِ الْمَرْأَةُ وَوَلَدَتِ ابْنًا. وَلَمَّا رَأَتْهُ أَنَّهُ حَسَنٌ، خَبَّأَتْهُ ثَلاَثَةَ أَشْهُرٍ، وَلَمَّا لَمْ يُمْكِنْهَا أَنْ تُخَبِّئَهُ بَعْدُ، أَخَذَتْ لَهُ سَفَطًا مِنَ الْبَرْدِيِّ وَطَلَتْهُ بِالْحُمَرِ وَالزِّفْتِ، وَوَضَعَتِ الْوَلَدَ فِيهِ، وَوَضَعَتْهُ بَيْنَ الْحَلْفَاءِ عَلَى حَافَةِ النَّهْرِ، وَوَقَفَتْ أُخْتُهُ مِنْ بَعِيدٍ لِتَعْرِفَ مَاذَا يُفْعَلُ بِهِ، فَنَزَلَتِ ابْنَةُ فِرْعَوْنَ إِلَى النَّهْرِ لِتَغْتَسِلَ، وَكَانَتْ جَوَارِيهَا مَاشِيَاتٍ عَلَى جَانِبِ النَّهْرِ. فَرَأَتِ السَّفَطَ بَيْنَ الْحَلْفَاءِ، فَأَرْسَلَتْ أَمَتَهَا وَأَخَذَتْهُ، وَلَمَّا فَتَحَتْهُ رَأَتِ الْوَلَدَ، وَإِذَا هُوَ صَبِيٌّ يَبْكِي. فَرَقَّتْ لَهُ وَقَالَتْ: «هذَا مِنْ أَوْلاَدِ الْعِبْرَانِيِّينَ، فَقَالَتْ أُخْتُهُ لابْنَةِ فِرْعَوْنَ: «هَلْ أَذْهَبُ وَأَدْعُو لَكِ امْرَأَةً مُرْضِعَةً مِنَ الْعِبْرَانِيَّاتِ لِتُرْضِعَ لَكِ الْوَلَدَ؟»، فَقَالَتْ لَهَا ابْنَةُ فِرْعَوْنَ: «اذْهَبِي». فَذَهَبَتِ الْفَتَاةُ وَدَعَتْ أُمَّ الْوَلَدِ، فَقَالَتْ لَهَا ابْنَةُ فِرْعَوْنَ: «اذْهَبِي بِهذَا الْوَلَدِ وَأَرْضِعِيهِ لِي وَأَنَا أُعْطِي أُجْرَتَكِ». فَأَخَذَتِ الْمَرْأَةُ الْوَلَدَ وَأَرْضَعَتْهُ، وَلَمَّا كَبِرَ الْوَلَدُ جَاءَتْ بِهِ إِلَى ابْنَةِ فِرْعَوْنَ فَصَارَ لَهَا ابْنًا، وَدَعَتِ اسْمَهُ «مُوسَى» وَقَالَتْ: إِنِّي انْتَشَلْتُهُ مِنَ الْمَاءِ» (الخروج 2: 1-10).

وتستمر الحكاية حيث صار موسى رجلاً. وقد رأى ذات يوم مصرياً يضرب إسرائيلياً. فتملك موسى غضب طاغ وضرب المصري بقوة وقتله. وعندما انكشف أمره في اليوم التالي هرب متجهاً شرقاً إلى ما وراء البحر الأحمر إلى أرض مدين حيث اختبأ لمدة من الزمن. والتحق هناك بأسرة كاهن مديني كان اسمه يثرون أو رعوئيل، وتزوج موسى ابنة يثرون صفورة وأنجبت له ولدين. ثم «وَحَدَثَ فِي تِلْكَ الأيام الْكَثِيرَةِ أن مَلِكَ مِصْرَ مَاتَ. وَتَنَهَّدَ بَنُو إسرائيل مِنَ الْعُبُودِيَّةِ وَصَرَخُوا فَصَعِدَ صُرَاخُهُمْ إلى اللهِ مِنْ اجْلِ الْعُبُودِيَّةِ» (الخروج 2: 23).

وبعد ذلك وقع في مدين الحدث الرئيس في تاريخ العبرانيين:

«وَأَمَّا مُوسَى فَكَانَ يَرْعَى غَنَمَ يَثْرُونَ حَمِيهِ كَاهِنِ مِدْيَانَ، فَسَاقَ الْغَنَمَ إِلَى وَرَاءِ الْبَرِّيَّةِ وَجَاءَ إِلَى جَبَلِ اللهِ حُورِيبَ، وَظَهَرَ لَهُ مَلاَكُ الرَّبِّ بِلَهِيبِ نَارٍ مِنْ وَسَطِ عُلَّيْقَةٍ. فَنَظَرَ وَإِذَا الْعُلَّيْقَةُ تَتَوَقَّدُ بِالنَّارِ، وَالْعُلَّيْقَةُ لَمْ تَكُنْ تَحْتَرِقُ».فَلَمَّا رَأَى الرَّبُّ أَنَّهُ مَالَ لِيَنْظُرَ، نَادَاهُ اللهُ مِنْ وَسَطِ الْعُلَّيْقَةِ وَقَالَ: «مُوسَى، مُوسَى!». فَقَالَ: هأَنَذَا، فَقَالَ: «لاَ تَقْتَرِبْ إِلَى ههُنَا. اخْلَعْ حِذَاءَكَ مِنْ رِجْلَيْكَ، لأَنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي أَنْتَ وَاقِفٌ عَلَيْهِ أَرْضٌ مُقَدَّسَةٌ، فَغَطَّى مُوسَى وَجْهَهُ لأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الله .فَقَالَ الرَّبُّ: «إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ مَذَلَّةَ شَعْبِي الَّذِي فِي مِصْرَ وَسَمِعْتُ صُرَاخَهُمْ مِنْ أَجْلِ مُسَخِّرِيهِمْ. إِنِّي عَلِمْتُ أَوْجَاعَهُمْ، فَنَزَلْتُ لأُنْقِذَهُمْ مِنْ أَيْدِي الْمِصْرِيِّينَ، وَأُصْعِدَهُمْ مِنْ تِلْكَ الأَرْضِ إِلَى أَرْضٍ جَيِّدَةٍ وَوَاسِعَةٍ، إِلَى أَرْضٍ تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلاً، إِلَى مَكَانِ الْكَنْعَانِيِّينَ وَالْحِثِّيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَالْحِوِّيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ، فَالآنَ هَلُمَّ فَأُرْسِلُكَ إِلَى فِرْعَوْنَ، وَتُخْرِجُ شَعْبِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ...، فَقَالَ مُوسَى للهِ: «هَا أَنَا آتِي إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَقُولُ لَهُمْ: إِلهُ آبَائِكُمْ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ. فَإِذَا قَالُوا لِي: مَا اسْمُهُ؟ فَمَاذَا أَقُولُ لَهُمْ؟»، فَقَالَ اللهُ لِمُوسَى: «أَهْيَهِ الَّذِي أَهْيَهْ». وَقَالَ: «هكَذَا تَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: أَهْيَهْ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ». (الخروج 3: 1-14)

من الواضح هنا أنه قد صار للإسرائيليين اسم جديد يطلقونه على إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب. وأن موسى قد وجه شعبه لعبادة يهوه. ومن المهم أن نلاحظ هنا أن يهوه قد اعترف بعد ذلك في الإصحاح السادس بأنه قد ظهر لإبراهيم وإسحاق ويعقوب تحت اسم إيل شداي، أما بالاسم يهوه فلم يكونوا يعرفونه. وكلمة يهوه يمكن ترجمتها بمعان متعددة: «سأكون ما أريد أن أكونه»، «أنا الذي هو أنا»، «أنا هو الذي أكون»، أي الخالق. وقد اعتبر اليهود هذه الكلمة في غاية القداسة وهي أقدس من أن تلفظ، لذلك عندما كانوا يصلون إليها في قراءتهم كانوا يستبدلونها بكلمة أدوناي، أي الرب أو السيد.

إن كل ما يمكن لنا استنتاجه من وراء هذه الحكاية هو أن موسى قد خاض تجربة شخصية مباشرة مع إله قوي الشخصية ثابت العزيمة، ولكن هذا الكائن الحيوي «يهوه» ليس مجرد إله للطبيعة على الرغم من أنه يقطن المنحدرات المقفرة لجبل في البرية وينزل في وسط النار والدخان[1]. كانت عناصر الطبيعة هذه هي وسائله. وهو نفسه كان متمايزاً عنها، إله كامن وراء الأحداث، بإمكانه أن يضع أقدار أمة بأكملها تحت عنايته، وأن يعقد حلفاً مقدساً معها واعداً إياها بالسلام والرخاء والوفرة والمطر والشمس والعناية بالقطيع المنتشر على آلاف التلال والنصر في الحرب وكثرة البناء والحياة المديدة، إذا ما قدموا الولاء والطاعة في المقابل. كان إلهاً عادلاً ولكنه إله قوي المشاعر، يسعد بإخلاص وولاء الذين يطيعونه ولكنه يغضب إذا حادوا عن الإيمان به.

لم تتبلور شخصية يهوه بكمالها لموسى دفعة واحدة. لقد تعلم موسى من تجربته أن هناك مهمة لا بد من إنجازها، وهي قيادة بني إسرائيل خارج مصر إلى سيناء حيث أراد الإله أن يعقد اتفاقاً مع شعب هو بحاجة إلى إله.

ليس من الضروري هنا سرد تفاصيل القصة المعروفة لدخول موسى إلى مصر، وكيف قاد الخروج بعبوره البحر الأحمر مع شعبه قبل أن يطاردهم المصريون بمركباتهم محاولين إرجاعهم. من الواضح أن المصريين لم يكونوا يملكون العدد الكافي من المحاربين الاحتياط ليمنعوا الإسرائيليين من الهرب.

---

(1) ما ينسب إلى يهوه من قوى الطبيعة واضح بما يكفي في التوراة ففي (19:18) من سفر الخروج نقرأ: «وكَانَ جَبَلُ سِينَاءَ كُلُّهُ يُدَخِّنُ مِنْ أَجْلِ أَنَّ الرَّبَّ نَزَلَ عَلَيْهِ بِالنَّارِ» وفي سفر التثنية (4: 9-11) نقرأ مراراً «إِنَّمَا احْتَرِزْ وَاحفَظْ نَفْسَكَ جِدًّا لِئَلاَّ تَنْسَى الأُمُورَ الَّتِي أَبْصَرَتْ عَيْنَاكَ، ولِئَلاَّ تَزُولَ مِنْ قَلْبِكَ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. وَعَلِّمْهَا أَوْلاَدَكَ وَأَوْلاَدَ أَوْلاَدِكَ، فِي الْيَوْمِ الَّذِي وَقَفْتَ فِيهِ أَمَامَ الرَّبِّ إِلهِكَ فِي حُورِيبَ حِينَ قَالَ لِي الرَّبُّ: اجْمَعْ لِي الشَّعْبَ فَأُسْمِعَهُمْ كَلاَمِي، لِيَتَعَلَّمُوا أَنْ يَخَافُونِي كُلَّ الأَيَّامِ الَّتِي هُمْ فِيهَا أَحْيَاءٌ عَلَى الأَرْضِ، وَيُعَلِّمُوا أَوْلاَدَهُمْ، فَتَقَدَّمْتُمْ وَوَقَفْتُمْ فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ، وَالْجَبَلُ يَضْطَرِمُ بِالنَّارِ إِلَى كَبِدِ السَّمَاءِ، بِظَلاَمٍ وَسَحَابٍ وَضَبَابٍ». ونقرأ ما يشابه ذلك في سفر الخروج (24: 17): «وكَانَ مَنْظَرُ مَجْدِ الرَّبِّ كَنَارٍ آكِلَةٍ عَلَى رَأْسِ الْجَبَلِ أَمَامَ عُيُونِ بَنِي إِسْرَائِيلَ.»

لا بد أنه وجد مسوغ تاريخي لخروج بني إسرائيل، مثل مواجهة المصريين لكارثة ما من الشمال والغرب نتيجة للغزوات البربرية للأعداء من ليبيا ومن قراصنة البحر الذي دخلوا النيل من مصبه وعاثوا فساداً وتخريباً في المدن الثرية والمزدهرة على ضفتي النهر. وربما استغل الإسرائيليون انشغال المصريين بهؤلاء الأعداء الخطرين وفروا خارجين من مصر.

مهما يكن، فقد كان لزعامة موسى دور عظيم ليس في مصر فحسب، بل على سفح الجبل المقدس أيضاً، والذي أطلقوا عليه مرة اسم سيناء ومرة حوريب. ولا يزال النزاع قائماً حول تحديد موقع الجبل بالضبط. فهو يقع كما هو متعارف عليه في التراث بما يعرف الآن بشبه جزيرة سيناء، لكن الكثير من الباحثين المعاصرين يحددون موقعه على رأس خليج العقبة أو في منطقة (قادش ـ برينع) والتي تبعد قليلاً عن البحر الميت باتجاه الجنوب الغربي. لكن الموقع لا يهم كثيراً هنا. ما يهم في سير الأحداث هن أن موسى قد قام بدور الوسيط بين أتباعه والإله يهوه الذي أرسل موسى ليخرج شعبه من مصر. هذا الذي أنقذهم من كل المهالك، يرغب الآن أن يعقد ميثاق علاقة معهم. وبحسب التراث فإن بنود الميثاق قد تمت حسب الطريقة التالية: صعد موسى إلى الجبل تاركاً شعبه في أسفله، ليناجي يهوه، وعاد بعد بضعة أيام حاملاً وصية يهوه لبني إسرائيل. تلخصت هذه المشيئة بـ«وصايا» نقشت على لوحين من الحجر، حيث فُصّلت فيما بعد إلى نصوص عديدة في أسفار الشريعة.

تحتوي المدونات قائمتين من الوصايا، تحتوي القائمة الأولى على وصايا أخلاقية، وهي معروفة لنا بالوصايا العشر (سفر الخروج: 20) ونحن نشك الآن أنها حافظت على صيغتها الأصلية. ما يوجد بين أيدينا الآن هو الصيغة الشاملة والمفصلة التي اكتملت في العصور المتأخرة حيث وصل اليقين والإيمان إلى أقصاه بالنسبة لبني إسرائيل، وهو أن يهوه ليس إله إسرائيل العادل فحسب، بل هو خالق لكل العالم المادي، وهو مكون السماء والأرض والبحر وكل ما تحتويه. ومن ناحية أخرى فإن مضمون الوصايا يفترض وجود منازل عند بني إسرائيل. كما وأنهم يملكون قطعاناً، ويقيمون علاقات اجتماعية مع غرباء عنهم. وهذا لم يكن واقع الحال إبان ملحمة الخروج.

تتميز القائمة الثانية من الوصايا (كما هي مدون في سفر الخروج، (34: 1-3) بطقوسيتها. يرى بعض الباحثين، في حقيقة ذلك، دليلاً على أقدمية هذه الوصايا زمنياً، ففضلوها باعتبارها القائمة الأقدم. وهذا هو نصها المدون:

«ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: انْحَتْ لَكَ لَوْحَيْنِ مِنْ حَجَرٍ ..، .. وَاصْعَدْ فِي الصَّبَاحِ إِلَى جَبَلِ سِينَاءَ، وَقِفْ عِنْدِي هُنَاكَ عَلَى رَأْسِ الْجَبَلِ، وَلاَ يَصْعَدْ أَحَدٌ مَعَكَ، وَأَيْضًا لاَ يُرَ أَحَدٌ فِي كُلِّ الْجَبَلِ. الْغَنَمُ أَيْضًا وَالْبَقَرُ لاَ تَرْعَ إِلَى جِهَةِ ذلِكَ الْجَبَلِ».

وهكذا نحت موسى لوحين من حجر.. ونهض مبكراً في الصباح وصعد إلى جبل سيناء، وأخذ لوحي الحجر بيده كما أمره الرب. «فَاجْتَازَ الرَّبُّ قُدَّامَهُ، وَنَادَى الرَّبُّ. «الرَّبُّ إِلهٌ رَحِيمٌ وَرَؤُوفٌ، بَطِيءُ الْغَضَبِ وَكَثِيرُ الإِحْسَانِ وَالْوَفَاءِ، حَافِظُ الإِحْسَانِ إِلَى أُلُوفٍ. غَافِرُ الإِثْمِ وَالْمَعْصِيَةِ وَالْخَطِيَّةِ. وَلكِنَّهُ لَنْ يُبْرِئَ إِبْرَاءً. مُفْتَقِدٌ إِثْمَ الآبَاءِ فِي الأَبْنَاءِ، وَفِي أَبْنَاءِ الأَبْنَاءِ، فِي الْجِيلِ الثَّالِثِ وَالرَّابعِ»، فَأَسْرَعَ مُوسَى وَخَرَّ إِلَى الأَرْضِ وَسَجَدَ» (الخروج 34: 6-8).

يلي ذلك إعلان يهوه عن رغبته في إبرام عقد أو عهد مع الإسرائيليين وفق البنود التالية:

«لاَ تَصْنَعْ لِنَفْسِكَ آلِهَةً مَسْبُوكَةً، تَحْفَظُ عِيدَ الْفَطِيرِ. سَبْعَةَ أَيَّامٍ تَأْكُلُ فَطِيرًا كَمَا أَمَرْتُكَ فِي وَقْتِ شَهْرِ أَبِيبَ، لأَنَّكَ فِي شَهْرِ أَبِيبَ خَرَجْتَ مِنْ مِصْرَ، لِي كُلُّ فَاتِحِ رَحِمٍ، وَكُلُّ مَا يُولَدُ ذَكَرًا مِنْ مَوَاشِيكَ بِكْرًا مِنْ ثَوْرٍ وَشَاةٍ، وَأَمَّا بِكْرُ الْحِمَارِ فَتَفْدِيهِ بِشَاةٍ، وَإِنْ لَمْ تَفْدِهِ تَكْسِرُ عُنُقَهُ. كُلُّ بِكْرٍ مِنْ بَنِيكَ تَفْدِيهِ، وَلاَ يَظْهَرُوا أَمَامِي فَارِغِينَ، سِتَّةَ أَيَّامٍ تَعْمَلُ، وَأَمَّا الْيَوْمُ السَّابعُ فَتَسْتَرِيحُ فِيهِ. فِي الْفَلاَحَةِ وَفِي الْحَصَادِ تَسْتَرِيحُ، وَتَصْنَعُ لِنَفْسِكَ عِيدَ الأَسَابِيعِ أَبْكَارِ حِصَادِ الْحِنْطَةِ. وَعِيدَ الْجَمْعِ فِي آخِرِ السَّنَةِ، ثَلاَثَ مَرَّاتٍ فِي السَّنَةِ يَظْهَرُ جَمِيعُ ذُكُورِكَ أَمَامَ السَّيِّدِ الرَّبِّ إِلهِ إِسْرَائِيلَ، فَإِنِّي أَطْرُدُ الأُمَمَ مِنْ قُدَّامِكَ وَأُوَسِّعُ تُخُومَكَ، وَلاَ يَشْتَهِي أَحَدٌ أَرْضَكَ حِينَ تَصْعَدُ لِتَظْهَرَ أَمَامَ الرَّبِّ إِلهِكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ فِي السَّنَةِ، لاَ تَذْبَحْ عَلَى خَمِيرٍ دَمَ ذَبِيحَتِي، وَلاَ تَبِتْ إِلَى الْغَدِ ذَبِيحَةُ عِيدِ الْفِصْحِ، أَوَّلُ أَبْكَارِ أَرْضِكَ تُحْضِرُهُ إِلَى بَيْتِ الرَّبِّ إِلهِكَ. لاَ تَطْبُخْ جَدْيًا بِلَبَنِ أُمِّهِ» (الخروج 34: 17-26).

من الجلي أن هذا لا يمكن أن يكون الميثاق الأصلي الأولي مع يهـوه، لأن مثل الوصايا العشر، يفرض سلفاً وجـود مجتمـع زراعـي، لا مجتمـع بـدوي، وأكثر من ذلك مجتمع متوطن ومستقر في أرضه. لذلك لا يمكن استعادة البنـود المحددة للميثاق. كان التراث المتأخر قد طمس الحالة الأصلية كلياً. مهما يكن، فإن طبيعة المراسم التي تم الاتفاق عليها بين يهونه وأولئك الذي أصبحوا شـعبه فيما بعد يمكن أن تكون موثقة في هذا النص:

«فَجَاءَ مُوسَى وَحَدَّثَ الشَّعْبَ بِجَمِيعِ أَقْوَالِ الرَّبِّ وَجَمِيعِ الأَحْكَامِ، فَأَجَابَ جَمِيعُ الشَّعْبِ بِصَوْتٍ وَاحِدٍ وَقَالُوا: «كُلُّ الأَقْوَالِ الَّتِي تَكَلَّـمَ بِهَـا الـرَّبُّ نَفْعَـلُ، فَكَتَبَ مُوسَى جَمِيعَ أَقْوَالِ الرَّبِّ. وَبَكَّرَ فِي الصَّبَاحِ وَبَنَى مَذْبَحًا فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ، وَاثْنَيْ عَشَرَ عَمُودًا لأَسْبَاطِ إِسْرَائِيلَ الاثْنَيْ عَشَرَ، وَأَرْسَـلَ فِتْيَـانَ بَنـي إِسْـرَائِيلَ، فَأَصْعَدُوا مُحْرَقَاتٍ، وَذَبَحُوا ذَبَائِحَ سَلاَمَةٍ لِلرَّبِّ مِنَ الثِّيرَانِ، فَأَخَذَ مُوسَى نِصْفَ الدَّمِ وَوَضَعَهُ فِي الطُّسُوسِ. وَنِصْفَ الدَّمِ رَشَّهُ عَلَى الْمَذْبَحِ، وَأَخَذَ كِتَابَ الْعَهْـدِ وَقَرَأَ فِي مَسَامِعِ الشَّعْبِ، فَقَالُوا: «كُـلُّ مَـا تَكَلَّـمَ بِـهِ الـرَّبُّ نَفْعَـلُ وَنَـسْمَعُ لَـهُ، وَأَخَذَ مُوسَى الدَّمَ وَرَشَّ عَلَى الشَّعْبِ وَقَالَ: «هُوَذَا دَمُ الْعَهْدِ الَّـذِي قَطَعَـهُ الـرَّبُّ مَعَكُمْ عَلَى جَمِيعِ هذِهِ الأَقْوَالِ» (الخروج 24: 3-8).

تميز هذا الميثاق بميزة شرعية قانونية. لقد التزم الناس بيهوه من خلال اتفاق شرعي مقدس، تماماً كما يمكن أن يفعل الرجال في صـياغة العقـود ويوقعونهـا بدمهم.

عندما استعد الإسرائيليون لمتابعة رحلتهم واجهتهم مشكلة أساسية، ليست مشكلة ترك يهوه وراءهم على جبله (لأنهم اعتقدوا أن بإمكانـه أن يـسافر معهـم بروحه وسلطته)، ولكن المشكلة هي في إيجاد وسيط للتواصل مع يهوه. في سيناء كان موسى يصعد إلى الجبل وكان يكلمه الإله. ولكن إذا ما ارتحلوا عن الجبل، ماذا سيحدث؟ جاء الحل بالعودة إلى الطقوس القديمة مـن خـلال إقامـة مكـان لاجتماع الإله مع شعبه والذي هو على شكل مقام أو حرم، لذلك فقـد ابتكـروا خيمة الاجتماع المحمولة (خيمة الـرب)، وحـافظوا عليهـا مـن أجـل ممارسـة الطقوس المقدسة. وكانوا كلما حطوا الرحال نصبوا الخيمة ضمن طقوس يقوم بها

أشخاص محددون متخصصون بالشعائر. (يخبرنا التراث بان هؤلاء الأشخاص كانوا من سبط لاوي، الذي تحدّر منه الكهان حتى عصور متأخرة). وكان موسى في صمته الداخلي قادراً على الاستماع إلى يهوه وهو يكلمه.

لم تكن خيمة الرب فارغة من الداخل، بل احتوت على صندوق خشبي يدعى تابوت العهد، كان يضم اللوحين الحجريين اللذين نقشت عليهما عبارات العهد. وقد أدى هذا الصندوق دوراً حيوياً في التاريخ العبري اللاحق. في أيام موسى وبحسب ما يخبرنا التراث، كان الإسرائيليون يحملون التابوت أثناء ترحالهم بإجلال في مقدمة الركب، وعندما كانوا يأخذونه إلى معاركهم كان يمنح القوة لسواعد المحاربين، لذلك أصبح من القدسية بحيث لا يجرؤ الكهنة على لمسه، خشية أن يقع مغشياً عليه نتيجة سر سلطته.

وبشكل تدريجي نشأت عبادة طقسية، وتطورت وغدت أكثر تفصيلاً وإسهاباً مع مرور السنين. كانت الأصول الأقدم لهذا الطقس هي الاحتفال السنوي بعيد الفصح وعيد الراحة الأسبوعي أيام السبت. كان عيد الفصح عيداً سامياً قديماً جاء مناسباً للطقوس الإسرائيلية. من خلالها كانوا يحتفلون بذكرى نجاتهم من العبودية المصرية. كان عيداً ربيعياً يحل في ليلة اكتمال البدر السابقة على الاعتدال الربيعي. ويتم التركيز فيه على استعجال كل أسرة في تناول أضحية من الغنم أو الماعز ما بين الغسق والفجر، ويتم تلطيخ عتبة باب الخيمة، أو ساكف الباب أو عتبته في البيوت، بدم الأضحية، ويجب أن تلتهم الأضحية كاملة إما من قبل الناس أو من قبل النار بحيث لا يبقى منها أثر. وعلى ما يبدو، فإن يوم السبت أيضاً له تاريخ أقدم بكثير من زمن الخروج. فهو مستمد من عادة تخصيص اليوم الذي يكون في القمر بدراً للعبادة والراحة من العمل. وأصبح من المألوف تدريجياً أن يستريح المرء في اليوم السابع من الأسبوع كيوم راحة وإقامة الصلاة للرب.

ومن الأعياد القديمة أيضاً الاحتفال بهلة جديدة للقمر، وعيد جز الصوف، وعيد الختان أيضاً الذي كان معروفاً وشائعاً عند معظم الساميين والشعوب المجاورة. وتحريم الطعام قبل المعركة، والأخذ بثأر الدم.

مع أخذنا بالحسبان هذا النوع من تكييف الطقوس القديمة وتوجيهها نحو غايات جديدة، فإنه يجب التوكيد أن زعامة موسى للدين الإسرائيلي الجديد قد نجحت في تحويله من تعدد الآلهة إلى الوحدانية. ومع ذلك وعلى الرغم من زعامته فإن شعبه لم يكن محصناً تجاه التحول الجديد. في عصر موسى وفي العصور اللاحقة حدثت ارتدادات مؤقتة لممارسة عبادة أكثر من إله واحد. وهذا يعود جزئياً إلى التمسك بالعادات الأقدم في السلوك والممارسة، وإلى حقيقة أن توحيد موسى كان يقوم مبدئياً على الولاء والممارسة والعادة، أكثر مما يقوم على التوكيد اللاهوتي الواضح بأنه لا يوجد إلا إله واحد[1]، ذلك أن الناس في عصره لم يكونوا مستعدين تماماً للثبات في عبادتهم على ديانة توحيد صارمة أخلاقياً، وهذا ما هو واضح في سفر الخروج عندما ارتد هارون عند سفح جبل سيناء. وتروي القصة أنه عندما صعد موسى الجبل وبقي أربعين نهاراً وأربعين ليلة قلق الناس وتململوا:

«ولَمَّا رَأَى الشَّعْبُ أَنَّ مُوسَى أَبْطَأَ فِي النُّزُولِ مِنَ الْجَبَلِ، اجْتَمَعَ الشَّعْبُ عَلَى هَارُونَ وَقَالُوا لَهُ: «قُمِ اصْنَعْ لَنَا آلِهَةً تَسِيرُ أَمَامَنَا، لأَنَّ هذَا مُوسَى الرَّجُلَ الَّذِي أَصْعَدَنَا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، لاَ نَعْلَمُ مَاذَا أَصَابَهُ». فَقَالَ لَهُمْ هَارُونُ: «انْزِعُوا أَقْرَاطَ الذَّهَبِ الَّتِي فِي آذَانِ نِسَائِكُمْ وَبَنِيكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَاتُونِي بِهَا». فَنَزَعَ كُلُّ الشَّعْبِ أَقْرَاطَ الذَّهَبِ الَّتِي فِي آذَانِهِمْ وَأَتَوْا بِهَا إِلَى هَارُونَ. فَأَخَذَ ذلِكَ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَصَوَّرَهُ بِالإِزْمِيلِ، وَصَنَعَهُ عِجْلاً مَسْبُوكًا. فَقَالُوا: «هذِهِ آلِهَتُكَ يَا إِسْرَائِيلُ الَّتِي أَصْعَدَتْكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ». فَلَمَّا نَظَرَ هَارُونُ بَنَى مَذْبَحًا أَمَامَهُ، وَنَادَى هَارُونُ وَقَالَ: «غَدًا عِيدٌ لِلرَّبِّ». فَبَكَّرُوا فِي الْغَدِ وَأَصْعَدُوا مُحْرَقَاتٍ وَقَدَّمُوا ذَبَائِحَ سَلاَمَةٍ. وَجَلَسَ الشَّعْبُ لِلأَكْلِ وَالشُّرْبِ ثُمَّ قَامُوا لِلَّعِبِ. فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «اذْهَبِ انْزِلْ. لأَنَّهُ قَدْ فَسَدَ شَعْبُكَ الَّذِي أَصْعَدْتَهُ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ. زَاغُوا سَرِيعًا عَنِ الطَّرِيقِ الَّذِي

---

(1) ينقسم الباحثون حول ما إذا كان موسى قد آمن بأن آلهة الشعوب الأخرى لم تكن إلا مجرد أوهام ولا وجود لها. ويبدو أن هذا التوكيد الجازم كان مضمراً في حالة موسى ولكنه لم يتوضح جيداً حتى عصر الأنبياء المتأخر.

أَوْصَيْتُهُمْ بِهِ. صَنَعُوا لَهُمْ عِجْلاً مَسْبُوكًا، وَسَجَدُوا لَهُ وَذَبَحُوا لَهُ وَقَالُوا: هَذِهِ آلِهَتُكَ يَا إِسْرَائِيلُ الَّتِي أَصْعَدَتْكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ». وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «رَأَيْتُ هذَا الشَّعْبَ وَإِذَا هُوَ شَعْبٌ صُلْبُ الرَّقَبَةِ. فَالآنَ اتْرُكْنِي لِيَحْمَى غَضَبِي عَلَيْهِمْ وَأُفْنِيَهُمْ، فَأُصَيِّرَكَ شَعْبًا عَظِيمًا». فَتَضَرَّعَ مُوسَى أَمَامَ الرَّبِّ إِلهِهِ، وَقَالَ: «لِمَاذَا يَا رَبُّ يَحْمَى غَضَبُكَ عَلَى شَعْبِكَ الَّذِي أَخْرَجْتَهُ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ بِقُوَّةٍ عَظِيمَةٍ وَيَدٍ شَدِيدَةٍ؟ لِمَاذَا يَتَكَلَّمُ الْمِصْرِيُّونَ قَائِلِينَ: أَخْرَجَهُمْ بِخُبْثٍ لِيَقْتُلَهُمْ فِي الْجِبَالِ، وَيُفْنِيَهُمْ عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ؟ اِرْجِعْ عَنْ حُمُوِّ غَضَبِكَ، وَانْدَمْ عَلَى الشَّرِّ بِشَعْبِكَ. اُذْكُرْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَإِسْرَائِيلَ عَبِيدَكَ الَّذِينَ حَلَفْتَ لَهُمْ بِنَفْسِكَ وَقُلْتَ لَهُمْ: أُكَثِّرُ نَسْلَكُمْ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، وَأُعْطِي نَسْلَكُمْ كُلَّ هذِهِ الأَرْضِ الَّتِي تَكَلَّمْتُ عَنْهَا فَيَمْلِكُونَهَا إِلَى الأَبَدِ». فَنَدِمَ الرَّبُّ عَلَى الشَّرِّ الَّذِي قَالَ إِنَّهُ يَفْعَلُهُ بِشَعْبِهِ . فَانْصَرَفَ مُوسَى وَنَزَلَ مِنَ الْجَبَلِ» وكَانَ عِنْدَمَا اقْتَرَبَ إِلَى الْمَحَلَّةِ أَنَّهُ أَبْصَرَ الْعِجْلَ وَالرَّقْصَ، فَحَمِيَ غَضَبُ مُوسَى، وَطَرَحَ اللَّوْحَيْنِ مِنْ يَدَيْهِ وكَسَّرَهُمَا فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ. ثُمَّ أَخَذَ الْعِجْلَ الَّذِي صَنَعُوا وَأَحْرَقَهُ بِالنَّارِ، وَطَحَنَهُ حَتَّى صَارَ نَاعِمًا، وَذَرَّاهُ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ، وَسَقَى بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَقَالَ مُوسَى لِهَارُونَ: «مَاذَا صَنَعَ بِكَ هذَا الشَّعْبُ حَتَّى جَلَبْتَ عَلَيْهِ خَطِيَّةً عَظِيمَةً؟» فَقَالَ هَارُونُ: «لاَ يَحْمَ غَضَبُ سَيِّدِي .أَنْتَ تَعْرِفُ الشَّعْبَ أَنَّهُ شرير. فَقَالُوا لِيَ: اصْنَعْ لَنَا آلِهَةً تَسِيرُ أَمَامَنَا، فَقُلْتُ لَهُمْ: مَنْ لَهُ ذَهَبٌ فَلْيَنْزِعْهُ وَيُعْطِنِي. فَطَرَحْتُهُ فِي النَّارِ فَخَرَجَ هذَا الْعِجْلُ» (الخروج 32: 1-24).

وقد تكرر هذا النوع من الردة مرات غير قليلة في السنوات اللاحقة.

3- يهوه والبعول

بعد الارتحال في البرية لعدد من السنين (أربعون سنة بحسب التوراة) فإن عبرانيي الخروج أو الإسرائيليين قد شعروا أنهم امتلكوا من القوة ما يؤهلهم لغزو بلاد كنعان.

ليس من اليسير إعادة بناء قصة «الغزو» من روايات سفري يشوع والقضاة. وبحسب الروايتين فإن الهجوم الرئيس قد قادته قبائل يوسف (سبطا يوسف) إفرايم ومنسى، التي شقت طريقها قتالاً عبر الأردن تحت قيادة يشوع[1]. فاحتل أريحا. ومن هذه القاعدة امتد بطشهم الدموي عبر فلسطين الوسطى، وبعدها سيطروا على شكيم وشيلوه والسامرة لكي يحكموا قبضتهم على المنطقة الوسطى. وأغار يهوذا وشمعون من الجنوب وسيطروا على المرتفعات المجاورة لمدينة اليبوسيين المحصنة أورشليم. وقد ساعدهم القينيون في هذه المرحلة على الرغم من أنهم لم يكونوا من العبرانيين. بقي سبطا راؤوبين وجاد في الخلف أو رجعا إلى منطقتهما المقتطعة في شرق الأردن. وشق الآخرون طريقهم بين الكنعانيين الشماليين وتغلغلوا وانتشروا في وادي يزرعيل Esdraelion والمنطقة الشمالية. وبعد استيطان فاشل في الجنوب، احتل سبط دان أخيراً أقصى الشمال من فلسطين، وانطلق زوبولوم باتجاه الشمال الغربي إلى الساحل الفينيقي وتوصل إلى اتفاق ودي مع الحثيين. واحتلت قبائل أخرى الأراضي الخصبة حول بحر الجليل (بحيرة طبرية) وهم قبائل يساكر وآشير ونفتالي. أثناء عملية احتلال الأراضي تشتت بعض القبائل أو تم استيعابها مثل سبطي شمعون وبنيامين.

---

(1) يشوع هو الذي خلف موسى في الحكم. وكان موسى قد مات قبل هذه الأحداث بقليل. وكان ذلك نحو (1200 ق.م).

إلا أن القراءة المدققة لسفر القضاة تبين أن استيلاء الإسرائيليين على كنعان كان نتاج عملية طويلة وبطيئة، ولم تكن ناجحة في معظم الأحيان. كان الكنعانيون قد شيدوا أسواراً منيعة حول مدنهم الرئيسة وقراهم، وامتلكوا عربات وأسلحة تفوق الأسلحة البدائية التي كانت مع المحاربين الإسرائيليين. واستطاعت القبيلة اليبوسية التي كانت تستوطن أورشليم من صد كل الهجمات التي تأتيهم وذلك بسبب الأسوار الحصينة والمنيعة التي بنوها حول أورشليم. ونجحوا في ذلك لمدة مئتي عام. في المناطق الأخرى كان على الإسرائيليين أن يقنعوا أنفسهم بامتلاك الأرض المشاع، لأن الكنعانيين استطاعوا صد كل هجماتهم وهزيمتهم.

ولحسن حظ الإسرائيليين أنهم تعلموا كيف يؤمنوا معيشتهم عن طريق بناء أحواض مائية مبطنة من الداخل بطينة كلسية من أجل تخزين مياه الأمطار لهم ولمواشيهم. واستطاعوا في النهاية أن يستحوذوا على الأرض، سواءً من خلال الانتزاع أو الإبادة أو الطرد أو الاستيطان.

لم تكن هيمنة الإسرائيليين على الأرض في مأمن على الدوام. لقد استمر النزاع المرير لمدة طويلة، حيث عاشوا في قلق مستمر نتيجة للمناوشات التي كانت تتم بينهم وبين أعدائهم الساميين من جهة الشرق من عموريين وأدوميين ومؤابيين الذي حاولوا باستمرار الدخول والاستيلاء على الأرض. ولكن الأعداء الأكثر هولاً كانوا الفلستيين philistines وهم شعب غير سامي انحدر من جزر في البحر المتوسط إلى السهل الساحلي الجنوبي الغربي. وربما يمكن أن يكون موطنهم الأصلي هو جزيرة كريت كما تقول مصادر أخرى. وعندما طردوا من كريت تحولوا إلى قراصنة. ويمكن أن يكونوا ساعدوا الإسرائيليين بالفعل في هروبهم من مصر من خلال غزوهم المدن المصرية الواقعة على النيل الأدنى. وعندما لم يستطيعوا التوطن في مصر بحثوا عن منطقة ليستوطنوها في اتجاه الشمال ووجدوا تلك الأرض على ساحل فلسطين الجنوبي. وانتشروا مع الزمن إلى داخل فلسطين وهم محميون بأربع مدن محصنة من خلفهم، وبدؤوا صعود التلال. وقد تحاربوا مع الإسرائيليين لأجيال حتى استطاع الإسرائيليون أن يصدوهم في النهاية.

قام المؤرخون بتصحيح وإكمال القصة، حيث ظهر دليل جديد يشرح الاضطراب الذي عاشته أرض كنعان على يد الأغراب أو الأقوام الرحل المعروفين باسم عابرو، بعض هؤلاء يمكن تصنيفهم على أنهم عبرانيون لم يذهبوا على مصر ولم يخرجوا منها مع موسى. ولكنهم انضموا فيما بعد إلى قوات عبرانيي الخروج (الإسرائيليين) وذلك عندما دخلوا أرض كنعان. وقد ظهرت جماعات أخرى شبيهة بهؤلاء العابيرو على امتداد السنين فيما بين النهرين وسوريا ومصر الشمالية. ومن المحتمل أنهم كانوا ساميين قادمين من الصحراء كان عملهم الرئيس تسيير وقيادة القوافل على طرق التجارة الصحراوية. لكن عندما توقفت تلك التجارة بدؤوا بالترحال والتنقل لأنهم لم يكونوا يملكون منطقة أو أرضاً ليستقروا بها، وكانوا يتنقلون كرعيان وأحياناً كموسيقيين وحدادين وحرفيين وأحياناً كمرتزقة مأجورين أو محاربين جوالين. (وقد أطلق عليهم الأكاديون اسم خابيرو بينما سماهم المصريون عابيرو). كانوا يشكلون في الغالب إزعاجاً للسلطات المحلية ولم يكونوا بحاجة إلا لضبط وتنظيم في جماعة تؤمن بمعتقدات عامة معينة ولها أهدافها حتى يشكلوا تهديداً وخطراً محدقاً. وتحتوي رسائل تل العمارنة التي اكتشفت في مصر عام 1887 على رسائل تم تبادلها بين بلاط مصر ومسؤولين في أرض كنعان ما بين عامي 1400 إلى 1340ق.م من هذه الرسائل: رسائل استنجاد مستعجل تطلب المساعدة من المصريين لصد جماعات العابيرو القادمين من الشرق والشمال الشرقي وتهدد باجتياح البلاد.

وقد بدأ خوف المسؤولين يخفت بالتدرج، لأن العابيرو لم يقوموا بغزو المنطقة، كانت موجاتهم المتدفقة تتخذ شكل عمليات تسرب في المجمل، لأن الكنعانيين كانوا قادرين على أن يحتفظوا بسلسلة من الحصون والبلدات المسورة عبر المنطقة، بينما استوطن القادمون من أنصاف الرحل في التلال المحيطة التي في المناطق الهضبية الخالية من السكان، وجعلوها موطناً لهم.

بعد فترة من الزمن دخل عبرانيو الخروج الأرض، وهم الذين كانوا يحملون عقيدة يهوه وتحالفوا مع العابيرو (الذين اكتسبوا اسم العبرانيين فيما بعد؟) ومن خلال غزواتهم المتكررة والخاطفة على المدن الكنعانية استطاعوا أن يوطدوا أنفسهم كأسياد على كامل الأرض في النهاية. المهم هنا أن الإسرائيليين قد أثروا

بشكل كبير بحلفائهم العابيرو الذين تبنوا عقيدة يهوه ورفعوه رباً للجنود. على أننا إذا افترضنا صحة هذه السلسلة من الأحداث، فإن هذا النصر الذي حققه عبرانيو الخروج لم يكن النصر الوحيد. فلقد استطاعوا مع مرور السنين تشرب الحس القومي. فلقد جعل التهديد المتزايد الذي شكله الفلستيون بدءاً من عام 1150ق.م، الجميع ينسون خلافاتهم؛ وبدؤوا تحت قيادة الكاهن صموئيل والملك الأول شاؤول بدخر الفلستيين وردهم إلى سهلهم الساحلي. وأثمرت هذه الجهود في النهاية، لأنه وعلى الرغم من أن الفلستيين قد استولوا على تابوت العهد قبل جيل من شاؤول في المعركة، فقد بدؤوا يذوقون الآن طعم الهزائم المتكررة. وبعد أن قتل شاؤول نفسه بسيفه بعد هزيمته في جبل جلبوع، استطاع خلفه داوود أن يهزم الفلستيين ويكسر روحهم القتالية في النهاية.

استولى داوود أخيراً على أورشليم مدينة اليبوسيين، وكان ذلك نحو 1020ق.م وجعلها عاصمته. وخطط لبناء معبد كي يضع فيه تابوت العهد بشكل لائق، انتقل المشروع إلى ابنه سليمان ليقوم به وقد قام به بالفعل. مرّ الإسرائيليون طوال هذه العهود بظروف كثيرة صعبة وقاوموا معظمها ونهضوا بأفكارهم دائماً إلى مستويات أعلى.

اقتضت هذه التغيرات والتحولات الانتقال من المرحلة البدوية إلى المرحلة الزراعية وحياة الريف. عندما جاء الإسرائيليون من الصحراء احتكوا مع ثقافات وأديان شعوب متطورة. وقد تعلموا الكثير من جيرانهم. كان الكنعانيون قد طوروا ديناً طبيعياً في غاية الإتقان مستنبطاً من حياتهم الزراعية. كانت آلهتهم آلهة زراعية بصفة عامة. وعُرفت هذه الآلهة باسم «البعل» والذي يعني «المالك أو صاحب الأرض». فكل انبساط أرض يدين بخصوبته إلى وجود بعلٍ ما يستحوذ عليه كمالكٍ إقطاعي ضمن حدود إقطاعته. وعلى الرغم من أنه مثلُ إقطاعي، فإنه هو نفسه كان خاضعاً بدوره إلى الإلهين الأسمَيَن اللذين يأمران كل البعول الأقل مرتبة، هما الإله السامي «إيل El» غير الفاعل، والذي يقيم عند منبع النهرين في أعلى سماء، والإله التابع ولكن الفاعل، إله العاصفة الذي هو رئيس الآلهة الأدنى، إنه بعل السماء الأكبر. كانت زوجة إيل تدعى أشيرات التي عرفها

العبرانيون باسم عشيرة، أما بعل فكان مرتبطاً بأخته عناة وبأستارتي العذراء مانحة الخصوبة، وكانتا بمثابة وجهين أرضيين لعشيرة. هؤلاء الآلهة الذكور ذوو القوة السماوية يمثلها على الأرض آلهة بعول يفعلون في الأرض، بحيث أن كل بعل أرضي في محيط نفوذه يمكن أن يمنح أو يمنع الخصوبة عن الأرض. وكانت دورة الحياة النباتية وثيقة الارتباط به. في مراحله المتتالية من الولادة إلى الحياة إلى الموت حيث كان يتم الاحتفال طقسياً بكل مرحلة. وعند الموت (تحلل النبات) كان أولئك الذين يدينون له بالكثير يبكون على ذكرى ماضيه الطيب والخير. وكانت العادة في العديد من المناطق أن ينتفوا شعورهم حزناً على فراقه. وشاعت عند ولادته (عودة الحياة) إقامة احتفالات الفرح والابتهاج حيث كانوا يلبسون أبهى وأزهى ملابسهم الفاخرة من أجل ذلك. وكان المحتفلون يتقاطرون إلى أقرب مقام مقدس (مزار) ليرقصوا ويغنوا ويطلقوا لنفسهم العنان في الفرح والابتهاج. وكان للبعول المتعددة، التي لها أماكن العبادة التي تخصها، حضورها الجلي على قمم التلال وفي الوديان وعند الينابيع والآبار. وبنت كل مدينة حرمها على أرض مرتفعة سواء ضمن أسوار المدينة أو على ارتفاع مشرف مجاور، على شرف البعل الراعي (ولي النعمة) والذي اقترن باسم المدينة (بعل صيدون، بعل جبيل..إلخ). وكان الكهنة المسؤولون عن هذا (الباموت Bamoth) والتي تعني الأمكنة المرتفعة (مفردها بامة Bamah) والتي ترد في التوراة باسم المرتفعات، يتولون إدارة العبادة في ساحة مفتوحة تواجه مقام الإله.

وقد تحتل صورة الإله مكاناً في المقام يمكن أن يراها المتعبدون. وينتصب في الخارج بجوار المذبح عمود حجري يدعى مازيبة Mazzebah رمزاً للعضو الذكري عند الإله. وقد يوجد عمود خشبي يدعى عشيرة، يرمز إلى زوجة الإله أو بعلته. وكان يوجد مسبوكات نحتية من البرونز على شكل ثور وأفاعٍ. وكانت هذه تعبر عن الرموز الشعبية لقوة الخصب عند الإله.

كانت القرابين تقدم على شكلين: الأول هو قرابين الهبات حيث كان يقدم بكر ثمار الحقل أو الشجر أو لحم حيوان يحرق على المذبح، والثاني أضحيات تشاركية يتشارك في تقديمها الإله مع شعبه، وهكذا تتمتن الأواصر بينهما.

وُجدت ثلاثة مهرجانات كبرى في الربيع وفي بداية الصيف وفي الخريف. أعطي فيها الدور الرئيس لإلهات الخصوبة، وكان من أهمها عستارتي (في العبرية عشتروت وفي البابلة عشتار)، التي جسدت كل صفات الإلهة المصرية «إيزيس» والإغريقية «ديمتير» والرومانية «فينوس». كان السرو والآس والنخيل نباتات مقدسة، بالنسبة لها، باعتبارها دائمة الخضرة. كان رمزها الخاص هو بقرة بقرنين تمثلها الصور على هيئة امرأة عارية، شأنها في ذلك شان عناة[1]. والبعلات الأخريات اللواتي أدّين أدواراً مشابهة. لم يكن معروفاً عنهنّ اللطف والكياسة دائماً. وكان يمررن بحالات يفقدن فيها السيطرة على أنفسهن، وعندما يهتجن يتحولن إلى قوة بدائية ويصبحن مثل «كالي Kali» الهندية[2] ذات الجانب المظلم والمدمر، فكن يحملن سيفاً أحياناً ويقفزن وهن عاريات على ظهر حصان ويمضين في مجزرة دموية، وهذا ربما لأن الجنس يحمل فيه الجانب المميت كما الجانب المانح للحياة. وقد مارس الكنعانيون البغاء المقدس الذي هو على صلة وثيقة بعبارة عستارتي، ودعيت النساء القائمات في مقامها المقدس على هذا العمل «قديشوت - Kedeshoth» وتعني النساء المكرسات أو المنذورات، وهو مصطلح ملطف للتعبير عن الاحترام. في الزواج الإلهي بين عستارتي وبعل، الذي كان يحتفل فيه الكنعانيون في الخريف، كانت عستارتي تمثل الأرض وبعل يمثل الزوج الذي يخصبها.

وجد الإسرائيليون المترددون أنه من الطبيعي أن يتبنوا بعض هذه المعتقدات والممارسات. وقد اعتبر الموحدون المتشددون هؤلاء المترددين مرتدين.

لقد بقي رعاة التلال مخلصين للدين الموسوي بينما هم ما زالوا يعيشون في وضع شبه بدوي، والذين لم يشعروا أنهم بحاجة لأي مساعدة أو عون،

---

(1) من المحتمل أن عناة واستارتي كانا اسمين لنفس الإلهة. كون عناة هو الاسم واستارتي (عشتروت) هو الصفة التي تعني (صاحبة الرحم)، أي الإلهة التي تمنح النساء الخصوبة.

(2) كالي هي ربة الخصب والزمن وهي تجسيد للقوى المتضادة للخلق والتدمير. وكانت كالي ظهور من ظهورات زوجة شيفا ـ المترجم.

إلا ذاك الذي منحهم إياه يهوه، إله الجبل والعاصفة، والذي كان مرشدهم في البرية والذي ما زال هو القادر في الحرب والسلم. أما بالنسبة لأولئك الذي امتهنوا الزراعة، فقد وجدوا أنفسهم في وضع مختلف. وعلى الرغم من وجود بعض المعرفة بالزراعة عند المعمرين منهم ما زالوا يتذكرونها من مصر، فإن الجيل الأصغر لم يكن له أي دراية، وكان عليه أن يتعلم فن الزراعة والفلاحة الفلسطيني بكامله. كما وقد وقع عرضة لإغواء ما يتعلق بهذا الفن الزراعي من سحر وممارسات طقسية ومعتقدات خصوبية. لهذا السبب كانت إسرائيل الاسباط الشمالية العشر المقيمة في الشمال الأكثر خصباً، أقل إخلاصاً إلى دين يهوه من جماعة يهوذا المحاطة بالصخور مع طائفة الرعاة الكبيرة والتي لم تكن محكومة بالتأثير الكنعاني. ومن دون أن يتنازلوا عن إيمانهم بيهوه كإله، والذي يتولى مصير كامل الشعب ويقودهم في الحرب، فإن المزارعين العبرانيين رافقوا الكنعانيين إلى مقامات القرى على المرتفعات مقدمين بكر ثمارهم إلى البعول والعشتارات المحليين وقد أحضروا معهم أعطيات من الهدايا وقرابين السلام. وقد تعلموا كيف يقدمون قرابين المحارق على المذابح واحتفلوا بأعياد جيرانهم الكنعانيين في بداية ونهاية موسم حصاد الحنطة وفي الخريف أيضاً.

وعلى الرغم من أن مقام يهوه الذي في مدينة شلوه لم يكن يحتوي إلا على تابوت العهد، فإن المقامات الدينية الواقعة في الشمال كانت تحتوي على تماثيل عجول ذهبية ترمز إلى يهوه وهذا يعني أن يهوه قد امتلك بالإضافة إلى وظائفه الأولى، الوظائف الجديدة التي يمثلها الثور، فلم يعد الإله الذي قاد إسرائيل فقط بل يثبت الآن أنه يملك القدرة على جلب الخصوبة إلى الحقول والماشية.

وهكذا فقد بدا لفترة من الزمن أن يهوه ليس هو الذي استوعب البعلية، وإنما صار مستوعباً فيها. وهذا ما دفعه إلى رد فعل عنيف عندما صاح عالياً:

«شَعْبِي يَسْأَلُ خَشَبَهُ، وَعَصَاهُ تُخْبِرُهُ، لأَنَّ رُوحَ الزِّنَى قَدْ أَضَلَّهُمْ فَزَنَوْا مِنْ تَحْتِ إِلهِهِمْ. يَذْبَحُونَ عَلَى رُؤُوسِ الْجِبَالِ، وَيُبَخِّرُونَ عَلَى التِّلاَلِ تَحْتَ الْبَلُّوطِ وَاللُّبْنَى وَالْبُطْمِ لأَنَّ ظِلَّهَا حَسَنٌ! لِذلِكَ تَزْنِي بَنَاتُكُمْ وَتَفْسِقُ كَنَّاتُكُمْ. لاَ أُعَاقِبُ بَنَاتِكُمْ لأَنَّهُنَّ يَزْنِينَ، وَلاَ كَنَّاتِكُمْ لأَنَّهُنَّ يَفْسِقْنَ. لأَنَّهُمْ يَعْتَزِلُونَ مَعَ الزَّانِيَاتِ وَيَذْبَحُونَ مَعَ النَّاذِرَاتِ الزِّنَى. وَشَعْبٌ لاَ يَعْقِلُ يُصْرَعُ».

. وقد أدى هذا في النهاية إلى ظهور الحركة البنوية التي أخذت تندد بالانحراف عن دين يهوه المستقيم، عندما رأى الأنبياء المتأخرون أن إله موسى كان قد أنزل من مقامه ليغدو مجرد قوة طبيعية محلية.

4- الاحتجاج النبوي والإصلاح

أصول النبوة العبرية:

لم يظهر الأنبياء الكبار فجأة من دون أرضية معدة جيداً. لقد مهد الأسلاف لهم الطريق. فلقد جاء هؤلاء الأنبياء الأُول خلال فترة سفر القضاة، أي قبل سنة 1000ق.م. وقد عرفوا باسم «نبييم»[1].

كان وَجْد هؤلاء الأنبياء يشبه إلى حد كبير وجد دراويش الشرق الراقصين اليوم، حيث كانوا يعيشون حالة من الوله الديني حيث تملأ عليهم روح يهوه كيانهم، بحيث يمتلكون السبيل للوصول إلى حقيقته. في سفر صموئيل الأول الإصحاح العاشر، نرى شاؤول الذي مُسح ملكاً بعد أن صب صموئيل العجوز الدهن على رأسه وكرّسه كقائد عسكري للإسرائيليين، نراه يرسله بهذه النبوة: «بَعْدَ ذلِكَ تَأْتِي إِلَى جِبْعَةِ الله حَيْثُ أَنْصَابُ الْفِلِسْطِينِيِّينَ. وَيَكُونُ عِنْدَ مَجِيئِكَ إِلَى هُنَاكَ إِلَى الْمَدِينَةِ أَنَّكَ تُصَادِفُ زُمْرَةً مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَازِلِينَ مِنَ الْمُرْتَفَعَةِ وَأَمَامَهُمْ رَبَابٌ وَدُفٌّ وَنَايٌ وَعُودٌ وَهُمْ يَتَنَبَّأُونَ، فَيَحِلُّ عَلَيْكَ رُوحُ الرَّبِّ فَتَتَنَبَّأُ مَعَهُمْ وَتَتَحَوَّلُ إِلَى رَجُلٍ آخَرَ» (صموئيل الأول 10: 5-6) ولكن عندما يحل ذلك بشاؤول، يعلم أنه لم يكسب بعد رضا الناس، فقد قالوا باحتقار:... «أَشَاوُلُ أَيْضًا بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ؟» (صموئيل الأول 10: 11).

---

(1) نبييم هي صيغة الجمع من نبي والتي تعني في العبرية والعربية إنسان موحى له من السماء بأن يتكلم بما يوحي له الله. وقد ترجمت فيما بعد من قبل الإغريق بمصطلح «PROPHETES»، والتي تعني الذي يتكلم نيابة عن الإله. وكان معروفاً أن النبي يبدأ رسالته بالقول: «هكذا يقول الرب».

مثل هؤلاء الأنبياء الدراويش كانوا ينطقون في حالة الوجد بكلام مستغلق على الفهم حتى بالنسبة إليهم أنفسهم. ولكن ظهر إلى جانبهم رجال يتميزون بطبيعة هادئة كانوا هم الأسلاف الحقيقيين للأنبياء المتأخرين: مثل ناثان في عصر داوود وآخيا في عصر سليمان، أنبياء ظهروا أمام الملوك والشعب ليتكلموا بحقيقة يهوه المحسوسة والمجردة معاً، وهؤلاء هم الذي دونت أخبارهم في أسفار التوراة.

إليا وإليشع:

مع إيليا بدأ الاحتجاج يظهر بقوة ضد الحط من قيمة الدين الأخلاقي ليهوه باعتباره مجرد دين طبيعة. حصل ذلك في المملكة الشمالية في عصر الملك آخاب، عندما رضخ هذا الملك لضغط زوجته القوية إيزابيل، التي حاولت أن تجعل من العبادة البعلية في موطنها صور عبادة مسيطرة وسائدة في إسرائيل. وقف إيليا موقفاً شجاعاً مشهوداً دفاعاً عن التراث الموسوي في ذلك الوقت. يقول المؤرخون العبرانيون إنه عندما بدأ إيليا مشروعه الإصلاحي، لم يكن في إسرائيل سوى سبعة آلاف رجل لم يخضعوا لبعل صور ولم يعبدوه. وقد استطاع إيليا في النهاية أن يقلص عباد هذا البعل إلى أقل عدد ممكن. لم يكن إيليا إنساناً رحيماً، فقد آمن أن يهوه هو إله القسوة والعنف، صارم في استقامته وعدله. وعندما فعلت إيزابيل المستحيل للحصول على كرم رجل يدعى نابوت ودبرت قتله عندما رفض، اندفع إيليا لملاقاة آخاب الملك في كرم نابوت وصب عليه اللعنات باسم الإله يهوه، فمزق الملك ثيابه على أثر ذلك ولبس لباساً خشناً وصام.

وتعد قصة المواجهة بين إيليا وأنبياء البعل واحدة من عيون الأدب الدرامي الديني. فقد دعا إيليا أنبياء البعل إلى امتحان يظهر أمام الملأ من هو الإله الحقيقي. صعد الجميع على جبل الكرمل ووضع كل من الطرفين ذبيحته على المذبح دون إشعال نار. تقدم أنبياء البعل وصلوا لإلهم لكي يأخذ قربانه ولكنه لم يجبهم. ثم تقدم إيليا وصلى فنزلت نار التهمت القربان معلنة أن يهوه هو الإله الحقيقي. وبعد ذلك أمر إيليا الشعب الحاضر بقتل أنبياء البعل فأبادهم عن آخرهم (سفر الملوك الأول: 18).

لم يستطيع إيليا في حياته أن يحدث تأثيراً حقيقياً يحط من قيمة الآلهة البعول. كانت المعارضة في البيت الملكي قوية جداً ضد إيليا، وكان من الصعب جداً أن يتغير الناس بمجموعهم. وعندما اختفى إيليا بشكل غير طبيعي تابع تلميذه إليشع طريق إصلاحه، وهو الذي شجع الملك ياهو ليقوم بثورة دينية سياسية ساحقة. كانت تلك الثورة واحدة من أعظم الثورات دموية في التاريخ العبري. وقد أصبح ما قام به ياهو العنيف في هذه المعركة الساحقة بقيادة عرباته السريعة فأباد البيت الملكي شر إبادة ودمر كل أثر يدل على عبادة البعل الصورية. لقد حدثت مذبحة عظيمة حتى إن هوشع قد أدانها بعد قرن من ذلك.

لقد تلقت البعلية ضربة قوية من خلال فعاليات إيليا واليشع، ولكنها لم تكن قاضية. ومع ذلك فقد حققت نتيجة مهمة ودائمة وهي توكيد سيادة يهوه التي لم يشك بها أو تم نكرانها بعد ذلك، ولكن البعلية بقيت تمارس على النطاق الشعبي في الأرياف كديانة زراعية محلية. وذلك إما لأنهم رأوا أن وظائف يهوه لا علاقة لها بالزراعة، أو لأنهم اعتقدوا أن البعول المحليين هم وجوه لقدرته الشمولية بعد أن تم إنزالهم إلى المرتبة الثانية.

عاموس:

تميز عاموس باستقلاليته الكاملة عن أي ملك أو جمعية، وكان أول الأنبياء أصحاب الرسالات الذين جاؤوا من الجنوب، وربما أعظمهم، حيث لم يتدن هناك الدين الموسوي إلى مستوى ديانة طبيعية كما في الأماكن الأخرى. خرج عاموس من أطراف يهوذا وقد شابه في أصوله سلفه العظيم إيليا الذي خرج من أطراف كنعان من بلدة تدعى «تيشبي Tishbe» وراء الأردن. تبين هذه الحقيقة أن الإصلاح النبوي قد تحرك بواسطة الأفكار الروحية الثاقبة القادمة من الأطراف البعيدة والتي بقيت مخلصة للتراث الموسوي. انحدر عاموس من تقوع وهي بلدة صغيرة تبعد نحو 12 ميلاً جنوب أورشليم. وكانت حرفته غنّاماً وجامع جميز. وكان غنمه في مراكز تجارية مكتظة بالناس في الشمال[1]. وبذلك أصبح

(1) تشكلت المملكة الشمالية (إسرائيل) نتيجة تمرد القبائل العشر الشمالية ضد رحبعام بن سليمان.

على دراية بالظروف الاجتماعية والدينية هناك. حدث ذلك نحو 760ق.م حيث كان عوزيا يحكم يهوذا ويربعام الثاني يحكم إسرائيل. قاده ما رآه إلى التفكير والقلق، واستطاع كغنام، له مكانه اجتماعية بين زملائه في تقوع، أن يلاحظ أنه في ظل هذه الظروف الاجتماعية المعقدة في الشمال، أن المزارعين فقدوا استقلاليتهم تماماً نتيجة لظهور إقطاعيين كبار اشتروا مزرعة وراء أخرى وتلاعبوا بأسواق الحبوب من أجل الإثراء. أصبحت التركيبة الاجتماعية بمجملها غير طبيعية. وقد قضت حروب الماضي على الطبقة الوسطى تماماً، وانعدمت الأخلاق عند كل من الأغنياء والفقراء على السواء، وتزايد الابتعاد عن الدين والأخلاق في كل المناطق، واندثرت الاستقامة ومعها العدالة والرحمة والروح الدينية. وبينما فكر عاموس في كل ذلك ملياً جاءته رؤيا مفادها أن الهلاك، كقدر محتوم، وشيك الوقوع في الشمال.

وعلى الرغم من أنه قادم من يهوذا فإنه لم يتردد. لقد عجل في الدخول إلى المملكة الشمالية، فقد دعاه يهوه للنبوة.

ما نادى به في بيت إيل وفي أماكن أخرى، قد تم تدوينه، سواء من قبله أو من قبل زميل له. وقد سكب رسائله في قالب شعري ليمنحها مرتبة أدبية رفيعة ونصيباً من الديمومة. جاءت كلماته القاصفة كنبوءة هلاك محتوم جاثم، عبّر عنها بكامل قناعته. لقد هاله ما رأى من جور اجتماعي وتحلل أخلاقي في كل مكان وهذا واضح في إدانته الشديدة حيث يعلن:

«هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: «مِنْ أَجْلِ ذُنُوب مُوآبَ الثَّلاَثَةِ وَالأَرْبَعَةِ لاَ أَرْجعُ عَنْهُ، لأَنَّهُمْ أَحْرَقُوا عِظَامَ مَلِكِ أَدُومَ كِلْسًا، فَأُرْسِلُ نَارًا عَلَى مُوآبَ فَتَأْكُلُ قُصُورَ قَرْيُوتَ، وَيَمُوتُ مُوآبُ بِضَجِيجٍ، بِجَلَبَةٍ، بِصَوْتِ الْبُوق، وَأَقْطَعُ الْقَاضِيَ مِنْ وَسَطِهَا، وَأَقْتُلُ جَمِيعَ رُؤَسَائِهَا مَعَهُ، قَالَ الرَّبُّ» هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: «مِنْ أَجْلِ ذُنُوب يَهُوذَا الثَّلاَثَةِ وَالأَرْبَعَةِ لاَ أَرْجعُ عَنْهُ، لأَنَّهُمْ رَفَضُوا نَامُوسَ الله وَلَمْ يَحْفَظُوا فَرَائِضَهُ، وَأَضَلَّتْهُمْ أَكَاذِيبُهُمُ الَّتِي سَارَ آبَاؤُهُمْ وَرَاءَهَا، فَأُرْسِلُ نَارًا عَلَى يَهُوذَا فَتَأْكُلُ قُصُورَ أُورُشَلِيمَ، هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: «مِنْ أَجْلِ ذُنُوب إِسْرَائِيلَ الثَّلاَثَةِ وَالأَرْبَعَةِ لاَ أَرْجعُ عَنْهُ، لأَنَّهُمْ بَاعُوا الْبَارَّ بِالْفِضَّةِ، وَالْبَائِسَ لأَجْلِ نَعْلَيْنِ، الَّذِينَ

يَتَهَمَّمُونَ تُرَابَ الأَرْضِ عَلَى رُؤُوسِ الْمَسَاكِينِ، وَيَصُدُّونَ سَبِيلَ الْبَائِسِينَ، وَيَذْهَبُ رَجُلٌ وَأَبُوهُ إِلَى صَبِيَّةٍ وَاحِدَةٍ حَتَّى يُدَنِّسُوا اسْمَ قُدْسِي، وَيَتَمَدَّدُونَ عَلَى ثِيَابٍ مَرْهُونَةٍ بِجَانِبِ كُلِّ مَذْبَحٍ، وَيَشْرَبُونَ خَمْرَ الْمُغَرَّمِينَ فِي بَيْتِ آلِهَتِهِمْ» (عاموس 2: 6-8) «وَيْلٌ لِلْمُسْتَرِيحِينَ فِي صِهْيَوْنَ، وَالْمُطْمَئِنِّينَ فِي جَبَلِ السَّامِرَةِ، نُقَبَاءِ أَوَّلِ الأُمَمِ. يَأْتِي إِلَيْهِمْ بَيْتُ إِسْرَائِيلَ .. الْمُضْطَجِعُونَ عَلَى أَسِرَّةٍ مِنَ الْعَاجِ، وَالْمُتَمَدِّدُونَ عَلَى فُرُشِهِمْ، وَالآكِلُونَ خِرَافًا مِنَ الْغَنَمِ، وَعُجُولاً مِنْ وَسَطِ الصِّيرَةِ، الْهَاذِرُونَ مَعَ صَوْتِ الرَّبَابِ، الْمُخْتَرِعُونَ لأَنْفُسِهِمْ آلاَتِ الْغِنَاءِ كَدَاوُدَ، الشَّارِبُونَ مِنْ كُؤُوسِ الْخَمْرِ، وَالَّذِينَ يَدَّهِنُونَ بِأَفْضَلِ الأَدْهَانِ وَلاَ يَغْتَمُّونَ عَلَى انْسِحَاقِ يُوسُفَ، لِذلِكَ الآنَ يُسْبَوْنَ فِي أَوَّلِ الْمَسْبِيِّينَ، وَيَزُولُ صِيَاحُ الْمُتَمَدِّدِينَ، قَدْ أَقْسَمَ السَّيِّدُ الرَّبُّ بِنَفْسِهِ، يَقُولُ الرَّبُّ إِلهُ الْجُنُودِ: «إِنِّي أَكْرَهُ عَظَمَةَ يَعْقُوبَ وَأُبْغِضُ قُصُورَهُ، فَأُسَلِّمُ الْمَدِينَةَ وَمِلأَهَا» (عاموس 6: 1-8).

تنبأ عاموس، كعقاب على هذه الخطايا والمظالم الاجتماعية، أن يجتاح عدو من الشمال الأرض ويطيح بالحصون وينهب القصور ويشرد المواطنين. لكن لم يتهمهم بالبغي الاجتماعي وحده، بل قال إن يهوه قد ضاق صدره من الردة العامة التي حصلت في الدين، حيث احتقر الطقوس الوثنية التي تمارس في المعابد، حتى لو كانت تمارس باسمه.

«بَغَضْتُ، كَرِهْتُ أَعْيَادَكُمْ، وَلَسْتُ أَلْتَذُّ بِاعْتِكَافَاتِكُمْ، إِنِّي إِذَا قَدَّمْتُمْ لِي مُحْرَقَاتِكُمْ وَتَقْدِمَاتِكُمْ لاَ أَرْتَضِي، وَذَبَائِحَ السَّلاَمَةِ مِنْ مُسَمَّنَاتِكُمْ لاَ أَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، أَبْعِدْ عَنِّي ضَجَّةَ أَغَانِيكَ، وَنَغْمَةَ رَبَابِكَ لاَ أَسْمَعُ، وَلْيَجْرِ الْحَقُّ كَالْمِيَاهِ، وَالْبِرُّ كَنَهْرٍ دَائِمٍ» (عاموس 5: 21-24).

لا عجب إذا ما خشي كبير كهنة بيت إيل، الكاهن الأكبر «أمصيا»، النبي الحاد الطبع والحامي المزاج القادم من يهوذا، حيث اتهمه باسم الملك وقال له:... أَيُّهَا الرَّائِي، اذْهَبِ اهْرُبْ إِلَى أَرْضِ يَهُوذَا وَكُلْ هُنَاكَ خُبْزًا وَهُنَاكَ تَنَبَّأْ، وَأَمَّا بَيْتُ إِيلَ فَلاَ تَعُدْ تَتَنَبَّأُ فِيهَا بَعْدُ، لأَنَّهَا مَقْدِسُ الْمَلِكِ وَبَيْتُ الْمُلْكِ. (عاموس 7: 12-13) لكن عاموس أجابه: لَسْتُ أَنَا نَبِيًّا وَلاَ أَنَا ابْنُ نَبِيٍّ، بَلْ أَنَا رَاعٍ وَجَانِي جُمَّيْزٍ،

فَأَخَذَنِي الرَّبُّ مِنْ وَرَاءِ الضَّأْنِ وَقَالَ لِي الرَّبُّ: اذْهَبْ تَنَبَّأْ لِشَعْبِي إِسْرَائِيلَ.، فَالآنَ اسْمَعْ قَوْلَ الرَّبِّ:... (عاموس 7: 14-16).

فتح عاموس عهداً جديداً في الدين الموسوي. وقد كشف من خلال كلامه حول الاتهامات المريعة عن مفهوم طبيعة وعدل يهوه المتضمن في التراث الموسوي الذي لم يكن قديم التأكيد عليه من قبل. كان يهوه على وشك أن يرسل العدو من الشمال، وكان يريد معاقبة الفلستيين والعمونيين والموآبيين وسكان دمشق بالإضافة إلى الإسرائيليين، كما لن تسلم فينيقيا وآدوم من العقاب. وكانت قوته تفوق قوى الطبيعة بما لا يقاس. منع المطر وجلب الجدب قبل ثلاثة أشهر من الحصاد وضرب الحقول باللفح واليرقان، وغطى الأرض بسحابة من الجراد، وابتلى جيش إسرائيل بوباء كالذي حدث في مصر، وأرسل زلزالاً مدمراً مثل الزلزال الذي قلب سدوم وعمورة. لقد ظهرت قدرة يهوه على امتداد المنطقة، وحتى أشمل مما هو في سفر عاموس (5: 8): اَلَّذِي صَنَعَ الثُّرَيَّا وَالْجَبَّارَ[1]، وَيُحَوِّلُ ظِلَّ الْمَوْتِ صُبْحًا، وَيُظْلِمُ النَّهَارَ كَاللَّيْلِ. الَّذِي يَدْعُو مِيَاهَ الْبَحْرِ وَيَصُبُّهَا عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ، يَهْوَهُ اسْمُهُ.

لقد ساد مبدا التوحيد كقضية ولاء وممارسة وصار يمثل أيضاً يقيناً لاهوتياً واسع الانتشار، يقين بأن يهوه هو خالق الكون وسيده السامي. ويعلن عاموس بأن شعب إسرائيل فقط هو الذي يعرف يهوه بعيداً عن الأمم الأخرى، لأن يهوه يقول: «أنت فقط الذي عرفتك من بين كل الأمم».

هوشع:

إذا كان عاموس يمثل استقامة الإله الصارمة فإن معاصره الأصغر سناً هوشع قد مثل نبي الحب. وبعكس عاموس فقد انحدر هوشع من الشمال وكان متآلفاً مع الظروف الاجتماعية السائدة هناك. وقد اعتبر أن عدم الإخلاص للإله هي القضية المركزية. يتركنا نص نبوءاته في حيرة حول الظروف الدقيقة لحياته الشخصية. ويبدو من خلال الإصحاحات الثلاثة الأولى من سفره أنه قد تزوج

---

(1) الجوزاء.

من امرأة لم تكن مخلصة له وقد هجرته، ولم يعترف بأطفالها كأبناء له، ومع ذلك. وبعد سنوات من الخيانة الواضحة من جانبها فقد كان قادراً على الصفح وإعادتها إلى بيته كزوجة تائبة مهتدية. وبينما هو يتأمل في تجاربه الشخصية استطاع أن يرى تشابهاً ما في تجربته الذاتية بتجربة يهوه مع إسرائيل. حيث عانى يهوه أيضاً من عدم وفاء شعبه له. وظهر عدم وفاء شعب إسرائيل بأكثر من شكل، فقد كانوا على درجة كبيرة من العمى بحيث إنهم لم يروا القدر السياسي والاجتماعي المحتوم الذي يهددهم، وأنه هو النتيجة الحتمية لتخليهم عن الإله الحقيقي. لقد كانوا يبحثون عن تفادي الوقوع في كارثة تهددهم عن طريق التودد للأجانب: طرف يتودد لدمشق وآخر يتودد لمصر وثالث يصل إلى العرض من خلال تحالفه مع آشور. دينياً، كانوا يسعون وراء آلهة غرباء، وبعول محليين عديمي النفع. لقد وضع هوشع على لسان يهوه هذه الكلمات المفجعة التي تختتم بملحوظة حول الحب المنذور، وهو ما زال تواقاً للمسامحة.

حَاكِمُوا أُمَّكُمْ حَاكِمُوا، لأَنَّهَا لَيْسَتِ امْرَأَتِي وَأَنَا لَسْتُ رَجُلَهَا، لِكَيْ تَعْزِلَ زِنَاهَا عَنْ وَجْهِهَا وَفِسْقَهَا مِنْ بَيْنِ ثَدْيَيْهَا، لِئَلاَّ أُجَرِّدَهَا عُرْيَانَةً وَأَوْقِفَهَا كَيَوْمِ وِلاَدَتِهَا، وَأَجْعَلَهَا كَقَفْرٍ، وَلاَ أَرْحَمُ أَوْلاَدَهَا لأَنَّهُمْ أَوْلاَدُ زِنًى. لأَنَّ أُمَّهُمْ قَدْ زَنَتِ. الَّتِي حَبِلَتْ بِهِمْ صَنَعَتْ خِزْيًا. لأَنَّهَا قَالَتْ: أَذْهَبُ وَرَاءَ مُحِبِّيَّ الَّذِينَ يُعْطُونَ خُبْزِي وَمَائِي، صُوفِي وَكَتَّانِي، زَيْتِي وَأَشْرِبَتِي... وَهِيَ لَمْ تَعْرِفْ أَنِّي أَنَا أَعْطَيْتُهَا الْقَمْحَ وَالْمِسْطَارَ وَالزَّيْتَ، وَأُبَطِّلُ كُلَّ أَفْرَاحِهَا: أَعْيَادَهَا وَرُؤُوسَ شُهُورِهَا وَسُبُوتَهَا وَجَمِيعَ مَوَاسِمِهَا... وَأُعَاقِبُهَا عَلَى أَيَّامِ بَعْلِيمَ الَّتِي فِيهَا كَانَتْ تُبَخِّرُ لَهُمْ وَتَتَزَيَّنُ بِخَزَائِمِهَا وَحُلِيهَا وَتَذْهَبُ وَرَاءَ مُحِبِّيهَا وَتَنْسَانِي أَنَا، يَقُولُ الرَّبُّ«، لكِنْ هأَنَذَا أَتَمَلَّقُهَا وَأَذْهَبُ بِهَا إِلَى الْبَرِّيَّةِ وَأُلاَطِفُهَا، وَأُعْطِيهَا كُرُومَهَا مِنْ هُنَاكَ، وَوَادِي عَخُورَ بَابًا لِلرَّجَاءِ. وَهِيَ تُغَنِّي هُنَاكَ كَأَيَّامِ صِبَاهَا، وَكَيَوْمِ صُعُودِهَا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ. وَيَكُونُ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ، يَقُولُ الرَّبُّ، أَنَّكِ تَدْعِينَنِي: رَجُلِي، وَلاَ تَدْعِينَنِي بَعْدُ بَعْلِي .وَأَنْزِعُ أَسْمَاءَ الْبَعْلِيمِ مِنْ فَمِهَا، فَلاَ تُذْكَرُ أَيْضًا بِأَسْمَائِهَا. وَأَقْطَعُ لَهُمْ عَهْدًا فِي ذلِكَ الْيَوْمِ مَعَ حَيَوَانِ الْبَرِّيَّةِ وَطُيُورِ السَّمَاءِ وَدَبَّابَاتِ الأَرْضِ، وَأَكْسِرُ الْقَوْسَ وَالسَّيْفَ وَالْحَرْبَ مِنَ الأَرْضِ، وَأَجْعَلُهُمْ يَضْطَجِعُونَ آمِنِينَ،

وَأَخْطُبُكِ لِنَفْسِي إِلَى الأَبَدِ. وَأَخْطُبُكِ لِنَفْسِي بِالْعَدْلِ وَالْحَقِّ وَالإِحْسَانِ وَالْمَرَاحِمِ. أَخْطُبُكِ لِنَفْسِي بِالأَمَانَةِ فَتَعْرِفِينَ الرَّبَّ. (هوشع 2: 2-20).

في الفصول الأخيرة من نبوته، كان يملك القناعة نفسها بأن يهوه قد تأذى من عدم إخلاص شعبه له، لكنه سوف يسامحهم إذا ما تابوا. ولكن إذا ما بقيت الأمة في حالة فساد وضلال فإن بُنى المجتمع الوطني محكومة بالفناء، وسوف يعود الملوك والكهان والناس للسكن في الخيم ثانية، تائهين بين الامم. مع أن ذلك لا بد أن يقع، فإنه لا يزال هناك بقية أمل إذا ما تبين أن الغاية من الكارثة تأديبي أكثر من كونها مدمرة لا راد لها. وإذا ما رجع الناس إلى ربهم بقلوب نقية وبالإخلاص القديم، فإن يهوه سوف يعيد تأسيس الروابط التي كانت تربطهم من قبل.

من المشكوك فيه أن هوشع كان مسموعاً في زمانه مثلما كان عاموس. فقد قال عن معاصريه الغاضبين بأنهم يصرخون: ما النبي إلا أحمق مجنون، وما الرجل الموحى له إلا رجلاً أصابه مس». وقد اكتشف هوشع مدى عدوانية الناس مع النبي حتى ضمن معبد الإله الخاص. ولو أنه عاش حتى حدوث الدمار أثناء الغزو الآشوري لمملكة الشمال لعرف أثناءها أن إله الحق الذي يدعو إليه قد ذهب سعيه سدى في إنقاذ بني إسرائيل. وأن كل ما تنبأ به حول ذلك قد تحقق.

إشعيا:

جاء دور المملكة الجنوبية في الوعظ النبوي بعد ذلك. ظهر رجل قرب نهاية حكم عوزيا الملك نحو (742ق.م)، شاب من أسرة طيبة من شوارع أورشليم ليقوم بدور النبوة. كان اسمه إشعيا وقد امتلك في شبابه تجربة حول حقيقة يهوه هزته من أعماقه، وقد عبر عن ذلك بهذه العبارات التي تفيض هولا.
فِي سَنَةِ وَفَاةِ عُزِّيَّا الْمَلِكِ، رَأَيْتُ السَّيِّدَ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيٍّ عَال وَمُرْتَفِعٍ، وَأَذْيَالُهُ تَمْلأُ الْهَيْكَلَ. السَّرَافِيمُ[1] وَاقِفُونَ فَوْقَهُ، لِكُلِّ وَاحِدٍ سِتَّةُ أَجْنِحَةٍ، بِاثْنَيْنِ يُغَطِّي وَجْهَهُ، وَبِاثْنَيْنِ يُغَطِّي رِجْلَيْهِ، وَبَاثْنَيْنِ يَطِيرُ. وَهذَا نَادَى ذَاكَ وَقَالَ: «قُدُّوسٌ،

(1) الملائكة المقربون.

قُدُّوسٌ، قُدُّوسٌ رَبُّ الْجُنُودِ. مَجْدُهُ مِلْءُ كُلِّ الأَرْضِ، فَاهْتَزَّتْ أَسَاسَاتُ الْعَتَبِ مِنْ صَوْتِ الصَّارِخِ، وَامْتَلأَ الْبَيْتُ دُخَانًا، قُلْتُ: «وَيْلٌ لِي! إِنِّي هَلَكْتُ، لأَنِّي إِنْسَانٌ نَجِسُ الشَّفَتَيْنِ، وَأَنَا سَاكِنٌ بَيْنَ شَعْبٍ نَجِسِ الشَّفَتَيْنِ، لأَنَّ عَيْنَيَّ قَدْ رَأَتَا الْمَلِكَ رَبَّ الْجُنُودِ، فَطَارَ إِلَيَّ وَاحِدٌ مِنَ السَّرَافِيمِ وَبِيَدِهِ جَمْرَةٌ قَدْ أَخَذَهَا بِمِلْقَطٍ مِنْ عَلَى الْمَذْبَحِ، وَمَسَّ بِهَا فَمِي وَقَالَ: «إِنَّ هذِهِ قَدْ مَسَّتْ شَفَتَيْكَ، فَانْتُزِعَ إِثْمُكَ، وَكُفِّرَ عَنْ خَطِيَّتِكَ» .ثُمَّ سَمِعْتُ صَوْتَ السَّيِّدِ قَائِلاً: «مَنْ أُرْسِلُ؟ وَمَنْ يَذْهَبُ مِنْ أَجْلِنَا؟» فَقُلْتُ: «هأَنَذَا أَرْسِلْنِي» (إشعيا 6: 1-8).

بقي إشعيا ناشطاً كنبي لشعبه ومستشاراً خاصاً لملوك يهوذا لمدة أربعين سنة. في أيام الشك بقي ثابت الولاء بثقته بالقدر الإلهي. كان نبي الإيمان والثقة بيهوه دون أدنى شك أو خوف، وبقي على الدوام يحذر حكام أورشليم بأن أمن المدينة يكمن في التوقف عن إقامة الأحلاف مع الأمم المحيطة، ويعتمد أمنها فقط على الحليف يهوه الذي هو وحده أهل للثقة. كان يحذرهم قائلاً: «قوتكم في إيمانكم المطمئن». ولم يتوانَ عن تقديم النصح الدائم لملوك يهوذا. وهكذا عندما دمر الآشوريون اللمملكة الشمالية عام (722ق.م) وعسكروا أمام أورشليم بقيادة الملك الجبار سنحاريب، بعث إشعيا بتطمينات إلى الملك المنخلع الفؤاد حزقيا الذي توسل إلى إشعيا أن يخاطب يهوه من أجل حماية أورشليم، طمأنه إشعيا أن المدينة لن تحتل. وقد تحققت نبوءته بأعجوبة، حيث رفع الآشوريون حصارهم[1]. كان إشعيا واثقاً أن عديمي الإيمان والأشرار لا يمكن أن ينجوا ليتمتعوا بمستقبل آمن، وسوف يهلكون بالسيف أو يذوقوا الأمرين في منفاهم البائس بعيداً عن منازلهم المريحة. وبينما تطلع حوله فقد رأى أن الكثيرين من شعبه محكومون بالموت أو النفي. وعلى طريقة سلفه عاموس فإنه لم يرَ إلا البلية في انتظارهم جميعاً «من الجنود إلى المحاربين إلى الحاكم والنبي، إلى العراف والشيخ والموظف» نتيجة لخطاياهم في المجتمع. ومعهم بالتأكيد «وَيْلٌ لِلَّذِينَ

(1) بحسب التراث فإن وباءً أصاب جيش سنحاريب، ولكن المؤكد أن سنحاريب قد قبل فدية باهظة ليسحب قواته.

يَصِلُونَ بَيْتًا بِبَيْتٍ، وَيَقْرِنُونَ حَقْلاً بِحَقْلٍ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ مَوْضِعٌ. فَصِرْتُمْ تَسْكُنُونَ وَحْدَكُمْ فِي وَسَطِ الأَرْضِ» (إشعيا 5: 8) كما «وَيْلٌ لِلْمُبَكِّرِينَ صَبَاحًا يَتْبَعُونَ الْمُسْكِرَ، لِلْمُتَأَخِّرِينَ فِي الْعَتَمَةِ تُلْهِبُهُمُ الْخَمْرُ. الَّذِينَ يُبَرِّرُونَ الشِّرِّيرَ مِنْ أَجْلِ الرُّشْوَةِ، وَأَمَّا حَقُّ الصِّدِّيقِينَ فَيَنْزِعُونَهُ مِنْهُمْ». (إشعيا 5: 11-23) بالإضافة إلى «رُؤَسَاؤُكِ مُتَمَرِّدُونَ وَلُغَفَاءُ اللُّصُوصِ. كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُحِبُّ الرَّشْوَةَ وَيَتْبَعُ الْعَطَايَا. لاَ يَقْضُونَ لِلْيَتِيمِ، وَدَعْوَى الأَرْمَلَةِ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِمْ» (إشعيا 2: 23).. ويؤدي ما أداه سلفه.

ومثل عاموس كان إشعيا يثعبر عن نفاذ صبر يهوه من الإعراق في تفاصيل طقوس المعبد، أثناء تقديم الكباش المذبوحة والدهن من الأنعام المسمنة، ودم الثيران والماعز، والعطايا وشيّ الأضاحي، والتجمعات في بداية الشهر القمري وفي السبوت وفي أيام الصوم، والاحتفالات التي تشكل بمجموعها تعباً وسأماً ليهوه.

وعلى الرغم من أن المتعبدين يرفعون أيديهم بالدعاء إليه، فإنه لن ينظر إليهم، وعلى الرغم من إكثارهم الصلاة فإنه لن يستمع إليهم. إن أيديهم ملطخة بالدم! وليسوا صادقين حقاً مع يهوه.

ويهوه ليس فقط القدر الأعمى الذي يقرر الأحداث، بل هو أيضاً القوة المحركة والمدبر وراء التاريخ البشري. إنه يقول عن مصر «شعبي» وعن آشور «صنع يدي». ولكنه سوف يعاقب ويدمر الأشرار في كل مكان، في موآب كما في آدوم كما في دمشق كما في مصر، وليس أقل من ذلك في يهوذا. سوف يدمر الأشرار بعضهم بعضاً بتدبير من يهوه. وآشور محكومة كما البقية، ولكن يهوه له غرض من هذا، في هذا المدمر «آشور» الذي مثل هراوة مسلطة في حالة غضب، أو مثل قضيب جاهز للاستخدام في حالة غيظ. إنها تؤدي فعلها على أحسن ما يكون. لا بد للعدالة أن تأخذ مجراها حتى لو كان ذلك عن طريق نهب وسلب الأمم.

إن إشعيا قاس مثل عاموس في حكم القدر، ويرى من جهة أخرى مثل هوشع أن الشفقة والحب هما في أساس مشروع يهوه الإلهي. وتطهير الأمم هو في صميم اهتمام الإصلاح الروحي من أجل عالم أفضل.

«هَلُمَّ نَتَحَاجَجْ، يَقُولُ الرَّبُّ. إِنْ كَانَتْ خَطَايَاكُمْ كَالْقِرْمِزِ تَبْيَضُّ كَالثَّلْجِ. إِنْ كَانَتْ حَمْرَاءَ كَالدُّودِيِّ تَصِيرُ كَالصُّوفِ، إِنْ شِئْتُمْ وَسَمِعْتُمْ تَأْكُلُونَ» (إشعيا 1: 18-19).

ولكن بعد أيام المحنة سوف تعود البركة إلى البقية من الناس الذين مروا عبر كل المصاعب، واعتمدوا على يهوه فقط. وسيكون السلام الرخاء والصحة من نصيبهم، ويُظهر لهم يهوه رحمته وغفرانه.

وهنا نصل إلى المقاطع ذات الأهمية التاريخية في سفر إشعيا، الأحلام الذهبية في عصر جديد سوف ينبلج بعد أن ولت أيام المحنة والقدر المحتوم. وقد اهتمت الأجيال اللاحقة بهذه المقاطع واعتمدت على حجة إشعيا ليتعلقوا بأمل تحقيق ذلك. أنكر بعض الباحثين صحة هذه المقاطع وقد تسلحوا بمسوغات منطقية. يظهر إشعيا في هذه المقاطع، وربما قبل أن تنضج الظروف، وهو يرسم صورة وردية لعالم خالٍ من الحروب، وحكم أمير عظيم يتميز بالسلم والاعتدال، إنه «المسيح» المخلّص الذي سوف يظهر من ذرية داوود ويأتي بعصر جديد. غير أن قصائد الأمل هذه والرؤيا قد طلعت من المصائب التي ابتلي بها عصره. بالنسبة لنا في بحثنا هذا، ليس الأمر بذي أهمية سواء طلعت هذه القصائد من بين يدي إشعيا أم لا. لقد كان إشعيا شاهداً جزء من تدمير وتقسيم المملكة الشمالية. وكان من الطبيعي أن يحلم أحلاماً ويرى رؤىً كهذه تتنبأ بجمع شتات يهوذا وإسرائيل من أربعة أركان الأرض. من النبوءات المنسوبة لإشعيا يوجد مقطعان يثيران الانتباه، ومن المرجح أن كليهما قد أعيد صياغته وربما كتابته في مرحلة لاحقة لإشعيا. يتناول المقطع الأول أورشليم الجديدة، بينما يتنازل الثاني الأمير المسالم الذي سوف يعتلي عرش داوود في العهد الجديد.

وَيَكُونُ فِي آخِرِ الأَيَّامِ أَنَّ جَبَلَ بَيْتِ الرَّبِّ يَكُونُ ثَابِتًا فِي رَأْسِ الْجِبَالِ، وَيَرْتَفِعُ فَوْقَ التِّلاَلِ، وَتَجْرِي إِلَيْهِ كُلُّ الأُمَمِ، وَتَسِيرُ شُعُوبٌ كَثِيرَةٌ، وَيَقُولُونَ: «هَلُمَّ نَصْعَدْ إِلَى جَبَلِ الرَّبِّ، إِلَى بَيْتِ إِلهِ يَعْقُوبَ، فَيُعَلِّمَنَا مِنْ طُرُقِهِ وَنَسْلُكَ فِي سُبُلِهِ». لأَنَّهُ مِنْ صِهْيَوْنَ تَخْرُجُ الشَّرِيعَةُ، وَمِنْ أُورُشَلِيمَ كَلِمَةُ الرَّبِّ. فَيَقْضِي بَيْنَ الأُمَمِ وَيُنْصِفُ لِشُعُوبٍ كَثِيرِينَ، فَيَطْبَعُونَ سُيُوفَهُمْ سِكَكًا وَرِمَاحَهُمْ مَنَاجِلَ. لاَ تَرْفَعُ أُمَّةٌ عَلَى أُمَّةٍ سَيْفًا، وَلاَ يَتَعَلَّمُونَ الْحَرْبَ فِي مَا بَعْدُ، يَا بَيْتَ يَعْقُوبَ، هَلُمَّ فَنَسْلُكُ فِي نُورِ الرَّبِّ (إشعيا 2: 2 – 5).

وَيَخْرُجُ قَضِيبٌ مِنْ جِذْعِ يَسَّى [1]، وَيَنْبُتُ غُصْنٌ مِنْ أُصُولِهِ، وَيَحُلُّ عَلَيْهِ رُوحُ الرَّبِّ، رُوحُ الْحِكْمَةِ وَالْفَهْمِ، رُوحُ الْمَشُورَةِ وَالْقُوَّةِ، رُوحُ الْمَعْرِفَةِ وَمَخَافَةِ الرَّبِّ، وَلَذَّتُهُ تَكُونُ فِي مَخَافَةِ الرَّبِّ، فَلاَ يَقْضِي بِحَسَبِ نَظَرِ عَيْنَيْهِ، وَلاَ يَحْكُمُ بِحَسَبِ سَمْعِ أُذُنَيْهِ، بَلْ يَقْضِي بِالْعَدْلِ لِلْمَسَاكِينِ، وَيَحْكُمُ بِالإِنْصَافِ لِبَائِسِي الأَرْضِ، وَيَضْرِبُ الأَرْضَ بِقَضِيبِ فَمِهِ، وَيُمِيتُ الْمُنَافِقَ بِنَفْخَةِ شَفَتَيْهِ، وَيَكُونُ الْبِرُّ مِنْطَقَةَ مَتْنَيْهِ، وَالأَمَانَةُ مِنْطَقَةَ حَقْوَيْهِ، فَيَسْكُنُ الذِّئْبُ مَعَ الْخَرُوفِ، وَيَرْبُضُ النَّمِرُ مَعَ الْجَدْيِ، وَالْعِجْلُ وَالشِّبْلُ وَالْمُسَمَّنُ مَعًا، وَصَبِيٌّ صَغِيرٌ يَسُوقُهَا، وَالْبَقَرَةُ وَالدُّبَّةُ تَرْعَيَانِ. تَرْبُضُ أَوْلاَدُهُمَا مَعًا، وَالأَسَدُ كَالْبَقَرِ يَأْكُلُ تِبْنًا، وَيَلْعَبُ الرَّضِيعُ عَلَى سَرَبِ الصِّلِّ، وَيَمُدُّ الْفَطِيمُ يَدَهُ عَلَى جُحْرِ الأُفْعُوَانِ. لاَ يَسُوؤُونَ وَلاَ يُفْسِدُونَ فِي كُلِّ جَبَلِ قُدْسِي، لأَنَّ الأَرْضَ تَمْتَلِئُ مِنْ مَعْرِفَةِ الرَّبِّ كَمَا تُغَطِّي الْمِيَاهُ الْبَحْرَ، وَيَكُونُ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ أَنَّ أَصْلَ يَسَّى الْقَائِمَ رَايَةً لِلشُّعُوبِ، إِيَّاهُ تَطْلُبُ الأُمَمُ، وَيَكُونُ مَحَلُّهُ مَجْدًا، وَيَكُونُ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ أَنَّ السَّيِّدَ يُعِيدُ يَدَهُ ثَانِيَةً لِيَقْتَنِيَ بَقِيَّةَ شَعْبِهِ، الَّتِي بَقِيَتْ، مِنْ أَشُّورَ، وَمِنْ مِصْرَ، وَمِنْ فَتْرُوسَ، وَمِنْ كُوشَ، وَمِنْ عِيلاَمَ، وَمِنْ شِنْعَارَ، وَمِنْ حَمَاةَ، وَمِنْ جَزَائِرِ الْبَحْرِ. وَيَرْفَعُ رَايَةً لِلأُمَمِ، وَيَجْمَعُ مَنْفِيِّي إِسْرَائِيلَ، وَيَضُمُّ مُشَتَّتِي يَهُوذَا مِنْ أَرْبَعَةِ أَطْرَافِ الأَرْضِ. فَيَزُولُ حَسَدُ أَفْرَايِمَ، وَيَنْقَرِضُ الْمُضَايِقُونَ مِنْ يَهُوذَا. أَفْرَايِمُ لاَ يَحْسُدُ يَهُوذَا، وَيَهُوذَا لاَ يُضَايِقُ أَفْرَايِمَ. وَيَنْقَضَّانِ عَلَى أَكْتَافِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ غَرْبًا، وَيَنْهَبُونَ

(1) يسّي: هو والد الملك داود.

بني الْمَشْرِق مَعًا. يَكُونُ عَلَى أَدُومَ وَمُوآبَ امْتِدَادُ يَدِهِمَا، وَبَنُو عَمُّونَ فِي طَاعَتِهِمَا، وَيُبِيدُ الرَّبُّ لِسَانَ بَحْرِ مِصْرَ، وَيَهُزُّ يَدَهُ عَلَى النَّهْرِ بِقُوَّةِ رِيحِهِ، وَيَضْرِبُهُ إِلَى سَبْعِ سَوَاقٍ، وَيُجِيزُ فِيهَا بِالأَحْذِيَةِ، وَتَكُونُ سِكَّةٌ لِبَقِيَّةِ شَعْبِهِ الَّتِي بَقِيَتْ مِنْ أَشُّورَ، كَمَا كَانَ لإِسْرَائِيلَ يَوْمَ صُعُودِهِ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ (إشعيا 11: 1-16).

مخيا:

على خطا إشعيا، ظهر شاب من الريف المحيط بأورشليم، اسمه ميخا، بدأ يتنبأ عشية سقوط المملكة الشمالية نحو (722ق.م). وقد تميزت نبوءاته بموضوعين رئيسين، الأول هجومه على الأنبياء الذين استكانوا إلى الرأي الشعبي السائد بخصوص مناعة أورشليم، والموضوع الثاني هو التعريف الملفت لجوهر الدين الروحاني.

هكَذَا قَالَ الرَّبُّ عَلَى الأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ يُضِلُّونَ شَعْبِي، الَّذِينَ يَنْهَشُونَ بِأَسْنَانِهِمْ، وَيُنَادُونَ: «سَلاَمٌ»! وَالَّذِي لاَ يَجْعَلُ فِي أَفْوَاهِهِمْ شَيْئًا، يَفْتَحُونَ عَلَيْهِ حَرْبًا «لِذلِكَ تَكُونُ لَكُمْ لَيْلَةٌ بِلاَ رُؤْيَا. ظَلاَمٌ لَكُمْ بِدُونِ عِرَافَةٍ. وَتَغِيبُ الشَّمْسُ عَنِ الأَنْبِيَاءِ، وَيُظْلِمُ عَلَيْهِمِ النَّهَارُ. فَيَخْزَى الرَّاؤُونَ، وَيَخْجَلُ الْعَرَّافُونَ، وَيُغَطُّونَ كُلُّهُمْ شَوَارِبَهُمْ، لأَنَّهُ لَيْسَ جَوَابٌ مِنَ اللهِ».لكِنَّنِي أَنَا مَلآنٌ قُوَّةَ رُوحِ الرَّبِّ وَحَقًّا وَبَأْسًا، لأُخبِّرَ يَعْقُوبَ بِذَنْبِهِ وَإِسْرَائِيلَ بِخَطِيَّتِهِ .اِسْمَعُوا هذَا يَا رُؤَسَاءَ بَيْتِ يَعْقُوبَ وَقُضَاةَ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ، الَّذِينَ يَكْرَهُونَ الْحَقَّ وَيُعَوِّجُونَ كُلَّ مُسْتَقِيمٍ، الَّذِينَ يَبْنُونَ صِهْيَوْنَ بِالدِّمَاءِ، وَأُورُشَلِيمَ بِالظُّلْمِ، رُؤَسَاؤُهَا يَقْضُونَ بِالرَّشْوَةِ، وَكَهَنَتُهَا يُعَلِّمُونَ بِالأُجْرَةِ، وَأَنْبِيَاؤُهَا يَعْرِفُونَ بِالْفِضَّةِ، وَهُمْ يَتَوَكَّلُونَ عَلَى الرَّبِّ قَائِلِينَ: «أَلَيْسَ الرَّبُّ فِي وَسَطِنَا؟ لاَ يَأْتِي عَلَيْنَا شَرٌّ >!لِذلِكَ بِسَبَبِكُمْ تُفْلَحُ صِهْيَوْنُ كَحَقْل، وَتَصِيرُ أُورُشَلِيمُ خِرَبًا، وَجَبَلُ الْبَيْتِ شَوَامِخَ وَعْرٍ (إرميا 26: 5-12).

بِمَ أَتَقَدَّمُ إِلَى الرَّبِّ وَأَنْحَني لِلإِلهِ الْعَلِيِّ؟ هَلْ أَتَقَدَّمُ بِمُحْرَقَاتٍ، بِعُجُول أَبْنَاءِ سَنَةٍ؟ هَلْ يُسَرُّ الرَّبُّ بِأُلُوفِ الْكِبَاشِ، بِرِبَوَاتِ أَنْهَارِ زَيْتٍ؟ هَلْ أُعْطِي بِكْرِي عَنْ مَعْصِيَتِي، ثَمَرَةَ جَسَدِي عَنْ خَطِيَّةِ نَفْسِي؟ قَدْ أَخْبَرَكَ أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا هُوَ صَالِحٌ، وَمَاذَا يَطْلُبُهُ مِنْكَ الرَّبُّ، إِلاَّ أَنْ تَصْنَعَ الْحَقَّ وَتُحِبَّ الرَّحْمَةَ، وَتَسْلُكَ مُتَوَاضِعًا مَعَ إِلهِكَ (ميخا 6: 6-8).

إصلاح تثنية الاشتراع:

صمت الأنبياء نحو سبعين سنة بعد «ميخا». هل تم قمعهم؟ يبدو ذلك محتملاً، لأنه عندما زال خطر الحصار الآشوري لأورشليم، واعتلى الملك «منسى» العرش، بدأت تظهر حالة ردة خطيرة عن عقيدة التوحيد الأخلاقية. حدث ذلك لسببين رئيسين: الأول هو عودة الشعب إلى ممارسة الطقس الكنعاني لعبادة يهوه، حيث لم يكن الناس مقتنعين بالتخلي عن الأفراح الاحتفالية التي كانوا يمارسونها على المرتفعات وحول المعابد. وكانوا يخافون من نتائج سيئة محتملة إذا ما تخلوا عن السحر والتمائم والأرواح البيتية، وعن الصور النافرة على جدران المعابد التي اعتمدوا عليها لزمن طويل. بالإضافة إلى أن دين الأنبياء المتشدد على المستوى الأخلاقي قد بدأ لهم أجرد كالحاً وبارداً مقارنة مع دين شبه وثني يجمع بين مذاهب ومعتقدات متباينة في مزيج واحد، والذي كان يجلب المتعة لأحاسيسهم ومخيلتهم. لقد انتشرت الردة على نطاق واسع.

العامل الثاني كان تبنياً رسمياً للعبادات الآشورية من أجل موجبات الدولة. ولا بد من التذكير هنا أن يهوذا كانت التابع الذي يدفع الجزية لآشور. وقد شيدت المقامات في الهيكل اليهودي وقدمت التقدمات إلى آلهة وإلهات آشور. حصل شيء كهذا في السابق ولكن ليس على هذا المستوى من الاتساع. حيث أن سليمان سعى في عصر سابق أن يمتع نساءه الكثيرات وذلك من خلال بناء العديد من المقامات للمعبودات الأجانب في أورشليم. غير أنه لم يشيدها في منطقة الهيكل. ولم يكن لهذه المعبودات سوى مكانة ثانوية. وفي عصر الملك آحاز، المعاصر للنبي إشيعا، هذا الملك الذي خضع لآشور ودفع لها الجزية مقابل الحماية، بنى مذبحاً أمام الهيكل كان نسخة مطابقة لما كان سائداً في معابد الإمبراطورية الآشورية، وأقيمت صور جدارية لجياد الشمس الآشورية في مكان آخر من الهيكل، ومكان ثالث مظلل من أجل عبادة تموز (أدونيس). هذا التدنيس لمقام يهوه المقدس، كان قد منعه الملك حزقيا الذي جاء بعد آحاز، وذلك اعتماداً على تعليمات النبي إشعيا. لكن الانحلال الديني الشعبي نتيجة الضغط الآشوري تواصل أثناء حكم الملك منسى الذي جاء بعد حزقيا. كان

منسى قد تجاوز جده آحاز في التقرب من الآشوريين، حيث بنى المذابح لآلهة الشمس والنجوم، آلهة بابل ونينوى داخل وخارج فناء الهيكل. وأقام نصبا خشبياً ضمن منطقة الهيكل تشريفاً لعشتار ملكة السماء، والتي يحتشد الناس من أجلها حيث يقدمون البخور ويسكبون الخمور، ويقدمون الخبر المنقوش عليه صورتها. ولم ينس منسى المعبودات السامية المجاورة حيث شيد معابد لعدة بعول وضحى بأحد أبنائه مقدماً إياه لنيران ملتهم الأطفال «مولك Molech».

بدا في هذه الأثناء أن دين يهوه بدأ يعاني الانهيار الكامل نتيجة لسياسة الدولة الرسمية التي شجعت أشكال العبادة الآشورية، ونتيجة للاندفاع الشعبي بعيداً عن السلوك الأخلاقي الصارم الذي يفرضه دين يهوه. ولكن الأمور لم تستمر في هذا الاتجاه فقد حدث حدثان مهمان: أولاً بدأ الأنبياء يستعيدون أصواتهم أمثال صفنيا، حبقوق، ناحوم، وأعظمهم جميعاً إرميا. وحالما بدأت الإمبراطورية الآشورية بالانكماش والانحدار، قاد الملك يوشيا حفيد منسى إصلاحاً دينياً كبيراً، حيث فوض الكاهن الأكبر عام 621ق.م أن يقوم بعدة إصلاحات في الهيكل. وجد الكاهن الأكبر أثناء القيام بإصلاحات في الهيكل لُقية عظيمة الأهمية، تلك اللقية كانت «كتاب الشريعة». قال إنه وجده مخبأ في مكان سري. وهذا الكتاب، على ما أعلن، يعود إلى عهد موسى[1]. ولما رأى يوشيا «كتاب الشريعة» وسمع نصوصه مزق ثيابه، وكلف مستشاريه أن يسألوا الرب يهوه إذا كان هذا الكلام أصيلاً، وإنه هو الشريعة السماوية الحقيقية. طلب المستشارون نصيحة نبيّة تدعى «خلدة» والتي أكدت صحة ما في الكتاب. طلب الملك يوشيا اجتماع الجميع وقادهم إلى بيت الرب، وقطع عهداً أمام الرب أن يحفظ بكل الجدية والاهتمام والحمية التشريعات المدونة في هذا السفر المكتشف حديثاً.

---

(1) بنود هذا الكتاب موجودة الآن في سفر التثنية. وهو الوثيقة المعروفة للباحثين باسم «D» أو ناموس التثنية. من دون شك، كانت هذه محاولة لجمع وتصنيف الشريعة العبرية الأخلاقية. ومن المحتمل أن اختلاف وجود الكتاب هو حالة تضليل ورعة المقصود منها حقيقة هو تشجيع الخير العام.

هكذا بدأ الإصلاح المبني على العزيمة التخلص من كل الممارسات الدينية التي تدينها هذه التشريعات والوصايا. يقدم لنا سفر الملوك الثاني وصفاً حياً لهذه المرحلة من الإصلاح من دون تسلسل تاريخي:

وَأَمَرَ الْمَلِكُ حِلْقِيَّا الْكَاهِنَ الْعَظِيمَ، وكَهَنَةَ الْفِرْقَةِ الثَّانِيَةِ، وَحُرَّاسَ الْبَابِ أَنْ يُخْرِجُوا مِنْ هَيْكَلِ الرَّبِّ جَمِيعَ الآنِيَةِ الْمَصْنُوعَةِ لِلْبَعْلِ وَلِلسَّارِيَةِ وَلِكُلِّ أَجْنَادِ السَّمَاءِ، وَأَحْرَقَهَا خَارِجَ أُورُشَلِيمَ[1] فِي حُقُولِ قَدْرُونَ، وَحَمَلَ رَمَادَهَا إِلَى بَيْتِ إِيلَ، وَلاَشَى كَهَنَةَ الأَصْنَامِ.... وَالَّذِينَ يُوقِدُونَ: لِلْبَعْلِ، لِلشَّمْسِ، وَالْقَمَرِ، وَالْمَنَازِلِ، وَلِكُلِّ أَجْنَادِ السَّمَاءِ، وَهَدَمَ بُيُوتَ الْمَأْبُونِينَ الَّتِي عِنْدَ بَيْتِ الرَّبِّ حَيْثُ كَانَتِ النِّسَاءُ يَنْسِجْنَ بُيُوتًا لِلسَّارِيَةِ،... وَهَدَمَ مُرْتَفَعَاتِ الأَبْوَابِ الَّتِي عِنْدَ مَدْخَلِ بَابِ يَشُوعَ...، نَجَّسَ تُوفَةَ[2] الَّتِي فِي وَادِي بَنِي هِنُّومَ لِكَيْ لاَ يُعَبِّرَ أَحَدٌ ابْنَهُ أَوِ ابْنَتَهُ فِي النَّارِ لِمُولَكَ[3]، وَأَبَادَ الْخَيْلَ الَّتِي أَعْطَاهَا مُلُوكُ يَهُوذَا لِلشَّمْسِ... وَمَرْكَبَاتُ الشَّمْسِ أَحْرَقَهَا بِالنَّارِ، وَالْمَذَابِحُ الَّتِي عَلَى سَطْحِ عُلِّيَّةِ آحَازَ الَّتِي عَمِلَهَا مُلُوكُ يَهُوذَا، وَالْمَذَابِحُ الَّتِي عَمِلَهَا مَنَسَّى فِي دَارَيْ بَيْتِ الرَّبِّ، هَدَمَهَا الْمَلِكُ، وَرَكَضَ مِنْ هُنَاكَ وَذَرَّى غُبَارَهَا فِي وَادِي قَدْرُونَ، وَالْمُرْتَفَعَاتُ الَّتِي قُبَالَةَ أُورُشَلِيمَ، الَّتِي عَنْ يَمِينِ جَبَلِ الْهَلاَكِ، الَّتِي بَنَاهَا سُلَيْمَانُ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ لِعَشْتُورَثَ رَجَاسَةِ الصِّيدُونِيِّينَ، وَلِكَمُوشَ رَجَاسَةِ الْمُوآبِيِّينَ، وَلِمَلْكُومَ كَرَاهَةِ بَنِي عَمُّونَ، نَجَّسَهَا الْمَلِكُ، وَكَسَّرَ التَّمَاثِيلَ وَقَطَّعَ السَّوَارِيَ وَمَلأَ مَكَانَهَا مِنْ عِظَامِ النَّاسِ (الملوك الثاني 33: 4-14).

لم يتوقف الملك عند حدود أورشليم وضواحيها، بل تمدد حتى غطى كل يهوذا وصولاً إلى بيت إيل مدمراً ومسوياً بالأرض المذابح والنصب وسواري المرتفعات والأماكن المقدسة.

---

(1) في الجيارات والجيارات هي أتون لحرق حجر الكلس وتحويله إلى كلس - المترجم

(2) توفة أو تفتة Topheth: في العهد القديم هي الموضع الذي يضحى فيه بالبشر من خلال حرقهم بالنار التي يشعلها مولك في وادي هنوم - المترجم.

(3) مولك إله سامي قديم كانت تتم عبادته من خلال التضحية بالأطفال حرقاً في النار وتوجد إشارات كثيرة إليه في سفر الملوك الثاني في التوراة - المترجم.

تميز الإصلاح الجديد بحالة بارزة لم تكن موجودة قبلاً، حيث جاء الملك بكل الكهنة في معابد يهوه إلى داخل أورشليم، وجعل تقديم القرابين مركزياً في أورشليم وحدها. وتقرر أن القرابين الصالحة هي القرابين التي تقدم في أورشليم فقط.

واهتمت جوانب أخرى من الإصلاح بالوصايا الأخلاقية في سفر الاشتراع، وانتشر نوع جديد من المثالثة الاجتماعية عبر المنطقة. لقد نادت مجموعة المبادئ والقوانين بموقف أكثر إنسانية تجاه العبيد، واهتمام أكبر بحاجات الفقراء. وأدين قانون الأخذ بالثأر القديم في ضوء القانون الجديد الساري. «كل إنسان بخطيئته يقتل». ومع أن المبادئ المتوحشة والعنيفة بقيت تسم مجموعة القوانين الجديدة وتعكس عصراً أكثر بدائية، فقد حصل تطور أخلاقي حقيقي باتجاه مسلك الحق والعدل.

غير أن الإصلاح الذي بدأ بهذه الشدة والضبط فشل في ان يكمل نجاحه. كان ذلك عائداً بالأساس إلى الشدة الهائلة في تطبيق القوانين من حيث تمركز الديانة في أورشليم. لقد أصبح لكهنوت أورشليم الآن السيطرة المطلقة على التراث الموسوي، بل زيادة على ذلك، فقد أصبحوا أصحاب مصلحة مكتسبة في ذلك حيث تم إلغاء الكهانة الريفية والقروية، وتحتم على عامة الشعب أن تذهب الآن إلى أورشليم «لتعيش مسرتها العظيمة» وهي تفقد ذلك الإحساس المباشر بالحضور الإلهي في مناطقها المحلية. لقد أصبح يهوه مقدساً ومتسامياً بصورة مبالغ فيها، واتضحت إرادته الصارمة من خلال الصفحات المقدسة، ولكن أصبح حضوره أقل حميمية ولم يعد قريباً من الناس كما كان من قبل. وعندما وجد عامة الناس أنه من الصعب الالتزام بدين كهذا والانقطاع له، فقد كان ارتكازهم سهلاً جداً، ولكن من دون التخلي عن يهوه، وهذا ما أصبح محرماً في شريعة الملك ومجموعة قوانين الاشتراع كما وعند الأنبياء.

إرمياً (نحو 600ق.م):

على الرغم من تميز هذا النبي العظيم بإنسانية فائقة، فقد حكمت عليه الظروف العامة المحيطة أن يكون كما «كاسندرا»(1). بدأت نبوءته عندما كان في أوائل العشرينيات. إنه ينحدر من أسرة كهنة كانت قد خدمت، قبل إصلاحات يوشيا في معبد عناثوث، في بلدة صغيرة تبعد أربعة أميال شمال شرق أورشليم. وقد حرضته الكارثة التي تهدد أمته الراكبة هواها في أن يلبي نداء يهوه للنبوءة.

فَكَانَتْ كَلِمَةُ الرَّبِّ إِلَيَّ قَائِلاً: قَبْلَمَا صَوَّرْتُكَ فِي الْبَطْنِ عَرَفْتُكَ، وَقَبْلَمَا خَرَجْتَ مِنَ الرَّحِمِ قَدَّسْتُكَ. جَعَلْتُكَ نَبِيًّا لِلشُّعُوبِ، فَقُلْتُ: «آهِ، يَا سَيِّدُ الرَّبُّ، إِنِّي لاَ أَعْرِفُ أَنْ أَتَكَلَّمَ لأَنِّي وَلَدٌ»، فَقَالَ الرَّبُّ لِي: لاَ تَقُلْ إِنِّي وَلَدٌ، لأَنَّكَ إِلَى كُلِّ مَنْ أُرْسِلُكَ إِلَيْهِ تَذْهَبُ وَتَتَكَلَّمُ بِكُلِّ مَا آمُرُكَ بِهِ.وَمَدَّ الرَّبُّ يَدَهُ وَلَمَسَ فَمِي، وَقَالَ الرَّبُّ لِي: «هَا قَدْ جَعَلْتُ كَلاَمِي فِي فَمِكَ. (إرميا 1: 4-9)

كانت الخدمة النبوية التي قدمها إرميا، في معظمها تنصب على تحذير الشعب من الكوارث التي من الممكن إحباطها أو تفاديها بمعونة يهوه، لكن جهده كان يذهب هباءً. مما جعل مهمته عسيرة في كثير من الأحيان. وقد خاب أمله فيما بعد. وقد منح متنفساً لهيجاناته نتيجة لكل الجحود الذي لقيه.

صِرْتُ لِلضَّحِكِ كُلَّ النَّهَارِ. كُلُّ وَاحِدٍ اسْتَهْزَأَ بِي، لأَنِّي كُلَّمَا تَكَلَّمْتُ صَرَخْتُ. نَادَيْتُ: «ظُلْمٌ وَاغْتِصَابٌ»! فَقُلْتُ: «لاَ أَذْكُرُهُ وَلاَ أَنْطِقُ بَعْدُ بِاسْمِهِ». فَكَانَ فِي قَلْبِي كَنَارٍ مُحْرِقَةٍ مَحْصُورَةٍ فِي عِظَامِي، فَمَلِلْتُ مِنَ الإِمْسَاكِ.. مَلْعُونٌ الْيَوْمُ الَّذِي وُلِدْتُ فِيهِ! الْيَوْمُ الَّذِي وَلَدَتْنِي فِيهِ أُمِّي لاَ يَكُنْ مُبَارَكًا !مَلْعُونٌ الإِنْسَانُ الَّذِي بَشَّرَ أَبِي قَائِلاً: «قَدْ وُلِدَ لَكَ ابْنٌ» مُفَرِّحًا إِيَّاهُ فَرَحًا. لِمَاذَا خَرَجْتُ مِنَ الرَّحِمِ، لأَرَى تَعَبًا وَحُزْنًا فَتَفْنَى بِالْخِزْيِ أَيَّامِي؟ (إرميا 20: 7-8).

---

(1) نبية في الأسطورة الإغريقية ابنة بريام ملك طروادة من هيكوبا. منحها أبولو نعمة النبوءة، لكنها رفضت الخضوع لعروضه فكتب عليها لعنة أبدية بعدم تصديق الناس لها في أي شيء تقوله. وعندما سقطت طروادة أخذها أجامنون معه حيث قتلا معاً فيما بعد - المترجم.

على الرغم من فقدانه لشعبيته، فإن إرميا لم يتوانَ عن قول ما كان يحس أن الرب يريده أن يقوله. ولم يكن لطيفاً في إبلاغه الأخبار السيئة للملوك عندما كانوا يطلبون مشورته. ولم يكن تهديد السوقة ليمنعه من التكلم بعيداً عن اللياقة واللين. لم يكن شخصاً محبوباً. وقد وقف إلى جانبه صديق مخلص وحيد خلال أيامه العصيبة عندما كان يشتمه الملوك والأمراء وعامة الناس وحتى زملاؤه الأنبياء. كان هذا الشخص هو «باروخ» أمين سره الخاص، والذي دوّن له نبوءاته بأمر منه. وقد أضاف إليها فيما بعد ملاحظات قيّمة حول سيرة إرميا، شرح فيها كيف كانت تأتي النبوءات وكيف كان ينطلق بها إرميا وما هي العواقف التي نتجت عن ذلك.

جاء إرميا في أعقد وأصعب فترة في تاريخ يهوذا. وبدأ نبوته مع بداية انحسار الإمبراطورية الآشورية، وبداية الغزو الكبير الذي قام به «السكيثيون» Schythians حيث اكتسحوا سوريا وكامل الساحل الفلسطيني باتجاه مصر. عاشت يهوذا في تلك الفترة حالة رغب وخوف. وحدث تغير هائل على إثر انسحاب تلك القبائل باتجاه الشمال، وهو سقوط نينوى، وبسقوطها سقطت الإمبراطورية الآشورية لتحل محلها الإمبراطورية البابلية. بدأ بعد ذلك صراع مرير وهائل بين مصر وبابل من أجل السيطرة على منطقة شرق المتوسط. وأصبحت يهوذا مركز المؤامرات والمكائد، حيث حاول المصريون استمالة هذا البلد الجبلي الصغير وعاصمته المنيعة الحصون وقد نجحوا في ذلك بنسبة ما. ولكن أثناء الصراع الممتد بين مد وجزر بين المصريين والبابليين فإن الملك يوشيا وقف في صف البابليين وسقط في معركة مع المصريين الذين من المفترض أن يكونوا حلفاءه. بعد فترة قصيرة واجهت مصر هزيمة صاعقة على أيدي البابليين في كركميش، بعدها حرمت يهوذا من ملكها الطيب يوشيا ومن تبجحها بحليفها المصري، وعادت لتستكين تحت سيطرة القوة الشرقية. فرض البابليون جزية سنوية ضخمة على يهوذا في تلك الأثناء. وتابعت مصر مكائدها مقدمة الوعود المعسولة. ونتيجة ذلك استطاعت استمالة الملك والشعب آملين التخص من دفع الجزية الباهظة والتحرر من البابليين.

لكن إرميا كان واضح الرؤية والإحساس حيث رأى الجهالة القاتلة لتمردهم ضد السلطة الكلدانية الجبارة. لقد أثار استياء زملائه العنيف من خلال إنكار أن يهوه سوف يحافظ على المدينة ضد الانتهاك إذا ما تمردت يهوذا وهجم البابليون، بل صرح بعكس ذلك، فقد جاء ذات يوم إلى الهيكل وألقى خطاباً اتهامياً مقذعاً ضد ارتداد الشعب حيث أعلن: قال الرب هكذا تقول لهم.

«أجعل هذا البيت كشيلوه وهذه المدينة أجعلها لعنة لكل شعوب الأرض» (إرميا 26: 6) أصبحت حياته في خطر بعد ذلك.

وكَانَ لَمَّا فَرَغَ إِرْمِيَا مِنَ التَّكَلُّمِ بكُلِّ مَا أَوْصَاهُ الرَّبُّ أَنْ يُكَلِّمَ كُلَّ الشَّعْبِ بِهِ، أَنَّ الْكَهَنَةَ وَالأَنْبِيَاءَ وَكُلَّ الشَّعْبِ أَمْسَكُوهُ قَائِلِينَ: «تَمُوتُ مَوْتًا!، لِمَاذَا تَنَبَّأْتَ بِاسْمِ الرَّبِّ قَائِلاً: مِثْلَ شِيلُوهَ يَكُونُ هذَا الْبَيْتُ، وَهذِهِ الْمَدِينَةُ تَكُونُ خَرِبَةً بِلاَ سَاكِنٍ؟». وَاجْتَمَعَ كُلُّ الشَّعْبِ عَلَى إِرْمِيَا فِي بَيْتِ الرَّبِّ (إرميا 26: 8-9).

ولما سمع رؤساء يهوذا بهذه الأمور صعدوا ن قصر الملك إلى بيت الرب وجلسوا في مدخل باب بيت الرب. وتكلم الكهنة والأنبياء مع الرؤساء وكل الشعب قائلين: «حق الموت على هذا الرجل لأنه قد تنبأ على هذه المدينة بالعبارات التي سمعتم بآذانكم». فكلم إرميا كل الرؤساء وكل الشعب قائلاً:

الرَّبُّ أَرْسَلَنِي لأَتَنَبَّأَ عَلَى هذَا الْبَيْتِ وَعَلَى هذِهِ الْمَدِينَةِ بِكُلِّ الْكَلاَمِ الَّذِي سَمِعْتُمُوهُ. فَالآنَ أَصْلِحُوا طُرُقَكُمْ وَأَعْمَالَكُمْ، وَاسْمَعُوا لِصَوْتِ الرَّبِّ إِلهِكُمْ، فَيَنْدَمَ الرَّبُّ عَنِ الشَّرِّ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ عَلَيْكُمْ، أَمَّا أَنَا فَهأَنَذَا بِيَدِكُمْ. اصْنَعُوا بِي كَمَا هُوَ حَسَنٌ وَمُسْتَقِيمٌ فِي أَعْيُنِكُمْ، لكِنِ اعْلَمُوا عِلْمًا أَنَّكُمْ إِنْ قَتَلْتُمُونِي، تَجْعَلُونَ دَمًا زَكِيًّا عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَعَلَى هذِهِ الْمَدِينَةِ وَعَلَى سُكَّانِهَا، لأَنَّهُ حَقًّا قَدْ أَرْسَلَنِي الرَّبُّ إِلَيْكُمْ لأَتَكَلَّمَ فِي آذَانِكُمْ بِكُلِّ هذَا الْكَلاَمِ. (إرميا 26: 12 – 15) غير هذا الخطاب المتماسك الوضع كلياً ونجا إرميا نتيجة ذلك.

فَقَالَت الرُّؤَسَاءُ وكُلُّ الشَّعْب لِلْكَهَنَةِ وَالأَنْبِيَاء: لَيْسَ عَلَى هذَا الرَّجُلِ حَقُّ الْمَوْتِ، لأَنَّهُ إِنَّمَا كَلَّمَنَا بِاسْمِ الرَّبِّ إِلهِنَا. يإرمبا 26: 16). لم يكن مطلوباً لينجوا إرميا إلا أن يتكلم معمرو الأرض إلى جماعة الشعب أن ميخا قد تنبأ قبل ذلك أن أورشليم تصير حرباً، وأطلق سراح إرميا إثر ذلك.

من الملفت أيضاً أن زملاء إرميا الأنبياء، اتحدوا مع الكهنة ضد إرميا. وكانت هذه المعارضة الدائمة منهم تشكل ضربة موجعة لإرميا. وظهر إرميا مرة في مناسبة وهو يضع نيراً خشبياً على عنقه، وقال إن هذا النير يمثل نير ملك بابل الذي سوف يوضع على رقاب كل الشعب. وبينما كان إرميا يمشي في الهيكل والنير على رقبته تقدم منه غريمه النبي حنانيا وقال على لسان الرب قولاً معاكساً بينما هو يرفع النير من على رقبة إرميا ويكسره: «هكذا قال الرب هكذا أكسر نير نبوخذنصر ملك بابل في سنتين من الزمان عن عنق كل الشعوب...» (إرميا 28: 11) واعتزل إرميا ليتمعن في هذا الكلام ورجع ليقول بصوت عال إن حنانيا، النبي المزيف، قد جعل الشعب يصدق كذبه، وقال إرميا باسم الرب، إن الرب سوف يصنع أنياراً من حديد ويشدها على رقابهم، وسوف يضع نيراً من حديد غير قابل للكسر على عنق كل هؤلاء الشعوب، ويخدمون نبوخذ نصر ملك بابل.

لم يكن أنبياء أورشليم الآخرين بأفضل من حنانيا بالنسبة لإرميا. وقد أصدر بحقهم كماً قاسياً:

«هكَذَا قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ: لاَ تَسْمَعُوا لِكَلاَمِ الأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ يَتَنَبَّأُونَ لَكُمْ، فَإِنَّهُمْ يَجْعَلُونَكُمْ بَاطِلاً. يَتَكَلَّمُونَ بِرُؤْيَا قَلْبِهِمْ لاَ عَنْ فَمِ الرَّبِّ... هأَنَذَا عَلَى الَّذِينَ يَتَنَبَّأُونَ بِأَحْلاَمٍ كَاذِبَةٍ، يَقُولُ الرَّبُّ، الَّذِينَ يَقُصُّونَهَا وَيُضِلُّونَ شَعْبِي بِأَكَاذِيبِهِمْ وَمُفَاخَرَاتِهِمْ وَأَنَا لَمْ أُرْسِلْهُمْ وَلاَ أَمَرْتُهُمْ». (إرميا 23: 16-32).

عندما تهورت يهوذا وتمردت على بابل، حوصرت المدينة من جيش نبوخذنصر، كان إرميا قد أفقد الرؤساء صبرهم بتصريحاته المتكررة للناس بأن المدينة محكوم عليها بالموت، وأن الذين سيبقون فيها سوف يموتون إما بالسيف أو المجاعة أو الطاعون، أما أولئك الذين سيخرجون أو يستسلمون إلى البابليين فسوف ينجون وستوهب لهم حياتهم كجائزة حرب. اشتكى رؤساء أورشليم إلى الملك بأن إرميا يثبط عزيمة الجنود في الدفاع عن المدينة وحضوا على إبعاده من الطريق لذلك رُمي بإرميا في بئر جاف في فناء القصر الملكي وترك لمصيره. ولولا تدخل حارس إثيوبي من حاشية الملك ووصف للملك البلوى التي فيها

إرميا، ما أدى إلى حالة من تأنيب الضمير عند الملك لهلاك إرميا. أخرج الملك إرميا سراً، لكنه لم يمنحه الحرية ثانية حتى سقطت المدينة بأيدي البابليي.

لم تكن المرة الأولى ولا الأخيرة التي يتعرض فيها إرميا للخطر فقد ألقي القبض عليه ووضع في المقطرة[1] مدة أربع وعشرين ساعة. وفي حادثة أخرى تآمر ضده زملاؤه المواطنون من بلدة عناثوت من أجل قتله. وقد أجبر على الاختباء هو وأمين سره باروخ أثناء حكم يهويا قيم، سبب ذلك أن الملك غضب مرة بعد قراءة مخطوطة لنبوءات إرميا في جلسة خاصة في القصر وقطع المخطوطة بسكينه الخاصة قطعاً صغيرة بينما كانت تُقرأ أمامه ورماها في منقل النار أمامه، وأمر بإلقاء القبض على إرميا. اختفى النبي حتى زال الخطر، لكنه لم يعرف السلام بعد ذلك.

بعد أن دمرت أورشيليم عام (586ق.م)، أطلق نبوخذ نصر سراح إرميا وعامله كصديق وسمح له بالبقاء في يهوذا مع عدد قليل من المواطنين من الطبقة الدنيا من المجتمع، الذين لم يؤخذوا إلى المنفى. حاول إرميا أن يصالح أولئك الذين تركوا وإياه مع ما هو مكتوب لهم. وكان «جدليا» الحاكم الذي عينّه نبوخذنصر قد اغتيل، واختطف بعض المتآمرين إرميا ونقلوه إلى مصر حيث مارس النبوة لتفرة قصيرة قبل ان تحل نهايته العنيفة والمجهولة.

نتبين من خلال قراءة خطب إرميا ومواعظه أننا أمام شخصية جريئة وصريحة وحزينة ومعانية. وما زالت النصوص التي تنبأ بها بالقدر الرهيب والمريع تثير في النفس الغم لدى قراءها ولا يمكن احتمال سماعها. ومع ذلك، لم يكن إرميا متشائماً في نهاية الأمر، فقد امتلك أسباب ومسوغات الأمل. تنبأ بأن يهوه، بعد أن ينتهي من استخدام بابل كوسيلة لإنجاز عقابه العادل ضد الأمم، فإنه سوف يعاقب بابل نفسها، عندها لن يعود شعبا يهوذا وإسرائيل يخدمان الغرباء، بل سوف يعودان إلى يهوذا «ليخدموا الرب إلههم، وملكهم داوود» الذي سوف يبعثه يهوه من أجلهم.

---

(1) خشبة للتعذيب فيها خروق سعة كل خرق على قدر الساق والرسغ يوضع فيها رجلاً أو يدا ورجلا المذنب أو المحبوس.

لأَنِّي أَنَا مَعَكَ، يَقُولُ الرَّبُّ، لأُخَلِّصَكَ. وَإِنْ أَفْنَيْتُ جَمِيعَ الأُمَمِ الَّذِينَ بَدَّدْتُكَ إِلَيْهِمْ، فَأَنْتَ لاَ أُفْنِيكَ... (إرميا 30: 11)

فبعد تصحيح الأوضاع من خلال إجراء عادل، يعقد يهوه «عهداً جديداً» مع شعبه من خلال إرميا.

هنا قدم إرميا مساهمة جلية وأصلية للتراث النبوي. فقد أصبح العهد الجديد. الذي سوف ينشأ، قائماً بين يهوه وأفراد. لقد ركز الأنبياء السابقون على العامة. حيث كانت العلاقة قائمة بين يهوه والعبرانيين ككل، والتي هي أساس العهد القديم. لقد قدم إرميا فكرة قائمة على خبرة ذاتية حقيقية للعلاقة بين يهوه والفرد:

هَا أَيَّامٌ تَأْتِي، يَقُولُ الرَّبُّ، وَأَقْطَعُ مَعَ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ وَمَعَ بَيْتِ يَهُوذَا عَهْدًا جَدِيدًا. لَيْسَ كَالْعَهْدِ الَّذِي قَطَعْتُهُ مَعَ آبَائِهِمْ يَوْمَ أَمْسَكْتُهُمْ بِيَدِهِمْ لأُخْرِجَهُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، حِينَ نَقَضُوا عَهْدِي فَرَفَضْتُهُمْ، يَقُولُ الرَّبُّ، بَلْ هذَا هُوَ الْعَهْدُ الَّذِي أَقْطَعُهُ مَعَ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ بَعْدَ تِلْكَ الأَيَّامِ، يَقُولُ الرَّبُّ: أَجْعَلُ شَرِيعَتِي فِي دَاخِلِهِمْ وَأَكْتُبُهَا عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَأَكُونُ لَهُمْ إِلهًا.. وَلاَ يُعَلِّمُونَ بَعْدُ كُلُّ وَاحِدٍ صَاحِبَهُ، وَكُلُّ وَاحِدٍ أَخَاهُ، قَائِلِينَ: اعْرِفُوا الرَّبَّ، لأَنَّهُمْ كُلَّهُمْ سَيَعْرِفُونَنِي مِنْ صَغِيرِهِمْ إِلَى كَبِيرِهِمْ...(إرميا 31: 31-34).

وقد أرفق إرميا هذه النبوءة ببيان وجيز عن المسؤولية الفردية:

فِي تِلْكَ الأَيَّامِ لاَ يَقُولُونَ بَعْدُ: الآبَاءُ أَكَلُوا حِصْرِمًا، وَأَسْنَانُ الأَبْنَاءِ ضَرِسَتْ، بَلْ كُلُّ وَاحِدٍ يَمُوتُ بِذَنْبِهِ. كُلُّ إِنْسَانٍ يَأْكُلُ الْحِصْرِمَ تَضْرَسُ أَسْنَانُهُ. (إرميا 31: 29-30).

بمعنى آخر، وضع إرميا البشر وجهاً لوجه أمام الإله كأفراد مسؤولين مباشرة أمامه عن سلوكهم. لم يعد بإمكانهم القول إن الإله يتعامل معهم من خلال العلاقة الجمعية السابقة. إنهم مسؤولين أمام الإله كأفراد.

يعتبر هذا العرض الذي قدمه إرميا ذا أهمية كبيرة لأن نتيجته المنطقيـة هـي التالي: إذا ما كانت العلاقة البشرية مع الإله مباشرة وشخصية، عندها لن يكـون التقرب من الإله من خلال قربان الهيكل على هذه الدرجة من الأهمية، وربما لن يكون بعد الآن متطلباً للحياة الروحية السامية للفرد.

5- المنفي البابلي

كما يحدث عادة مع الجماعات العرقية المتعصبة، فإن الفريق الموالي للمصريين في أورشليم قد تسبب بكارثة مريعة كانوا يأملون في الحؤول دونها، وهي انهيار سيادة العبرانيين. فقد أقنعوا الملك الهرم يهويا قيم أن يمتنع عن دفع الجزية إلى نبوخذنصر ملك بابل، وأن يقف موقفاً ثابتاً مع الاستقلال الوطني اعتماداً على الدعم العسكري المصري. عندما علم نبوخذنصر بذلك تحرك سريعاً وهو مصمم على سحق تمرد يهوذا نهائياً وإلى الأبد. حاصر أورشليم عام (597ق.م) وبعد ثلاثة أشهر من الحصار، اعتلى عرش يهوذا الملك الجديد يهوياكين، الذي سلم المدينة لكي يتجنب الدمار الكامل لها. لكن نبوخذنصر نهب الهيكل وأسر الملك مع عشرة آلاف مواطن وأخذهم معه إلى بابل أو كما يصف ذلك سفر الملوك الثاني:

وَسَبَى كُلَّ أُورُشَلِيمَ وكُلَّ الرُّؤَسَاءِ وَجَمِيعَ جَبَابِرَةِ الْبَأْسِ.. وَجَمِيعَ الصُّنَّاعِ وَالأَقْيَانِ...(الملوك الثاني 24: 14).

وألقي بالملك في السجن في بابل وجرى توطين الشعب على ضفاف نهر الخابور. أما أولئك الذين بقوا في يهوذا فقد وضعوا تحت حكم عم الملك المبعد «صدقيا» الابن الثالث ليوشيا. وبعد تسعة أعوام من الولاء المتردد لنبوخذ نصر تمرد صدقيا وحدث ذلك عام (588ق.م).

هذه المرة لم تُستثنَ أورشليم ولم تسلم. في عام (586ق.م) وبعد حصار دام سنة ونصف السنة، جاء المصريون لمساعدة المدينة المحاصرة وفك الحصار عنها، لكن البابليين استطاعوا دحر المصريين واستولوا على المدينة ونهبوا وحلفائهم المدينة وأحرقوها ودمروا كل المباني، بما فيها الهيكل الذي كان يحوي التابوت المقدس، الذي لم يعد يسمع به بعد ذلك، وكما دمروا كل

أسوار المدينة، وتحولت المدينة بكاملها إلى خرائب لم يعد بناؤها كاملاً إلا بعد قرن ونصف من ذلك التاريخ. وكان الملك صدقيا قد أُجبر على حضور إعدام أبنائه ثم قلعوا عينيه قبل أن يقيدوه بالسلاسل وينقلوه إلى بابل.

تم سبي سكان أورشليم، ما عدا إرميا ومساكين وفقراء أورشليم. ولم يُبقِ البابليون أي أحد من علية القوم في البلدات المجاورة لأورشليم. واستطاع الكثير منهم الهرب باتجاه مصر. وتشتت الشعب وتفتت، فقد أصبح جزء منه في بابل وجزء آخر وصل إلى مصر واستوطن في تجمعات مبعثرة على ضفتي النيل والدلتا. وجماعة ثالثة بقيت في الوطن المدمر. لقد حصل تغيير هائل على المستوى الوطني، حيث إن المؤرخين بدؤوا يطلقون على الشعب الذي نجا بعد سقوط أورشليم عام (681ق.م) «اليهوديون» أو «اليهود» وأسقطوا كلمة العبرانيين.

مع ذلك لم يكن المنفى البابلي كارثياً على أسرى يهوذا، كما كان التشتت الآشوري للأسباط العشرة الضائعة. لقد كانت عداوة نبوخذنصر ذات طبيعة سياسية، حيث كانت موجهة ضد النزعة الاستقلالية للقومية العبرانية فقط، وليس ضد الشعب كأفراد. وحالما نقل اليهود إلى ضواحي بابل، منحهم نبوخذنصر حرية نسبية، حيث استطاعوا أن يعيشوا معاً ويستعيدوا أنماط حياتهم وثقافتهم القديمة دون إزعاج. استقروا في منطقة سهل خصيب غني يتقاطع من شبكة من قنوات الري. وأصبحت حياتهم الزراعية أغنى بما لا يقاس مما كانت عليه في فلسطين. بل وأهم من ذلك فقد استقروا بين أعظم مدينتين في العالم في ذلك التاريخ ـ بابل ونيبور ـ وحيث تهيأت لهم هذه المزايا الاقتصادية الفريدة، فإن الذين اعتبروا المكان الجديد هو موطنهم الجديد وطوروا الفرص المتاحة له قد نجحوا بامتياز.

كان من الصعب عليهم في البداية أن يألفوا المكان. وأوضح دليل على ذلك ما هو موجود في العهد القديم في كتاب المزامير حيث نجد نصاً يصف هذا الأسى الممزوج باللوعة. يقول المزمور: عَلَى أَنْهَارِ بَابِلَ هُنَاكَ جَلَسْنَا، بَكَيْنَا أَيْضًا عِنْدَمَا تَذَكَّرْنَا صِهْيَوْنَ، عَلَى الصَّفْصَافِ فِي وَسَطِهَا عَلَّقْنَا أَعْوَادَنَا، لأَنَّهُ هُنَاكَ سَأَلَنَا الَّذِينَ سَبَوْنَا كَلاَمَ تَرْنِيمَةٍ، وَمُعَذِّبُونَا سَأَلُونَا فَرَحًا قَائِلِينَ: «رَنِّمُوا لَنَا مِنْ تَرْنِيمَاتِ

صِهْيَوْنَ» .كَيْفَ نُرَنِّمُ تَرْنِيمَةَ الرَّبِّ فِي أَرْضٍ غَرِيبَةٍ؟ إِنْ نَسِيتُكِ يَا أُورُشَلِيمُ، تَنْسَى يَمِينِي! لِيَلْتَصِقْ لِسَانِي بِحَنَكِي إِنْ لَمْ أَذْكُرْكِ، إِنْ لَمْ أُفَضِّلْ أُورُشَلِيمَ عَلَى أَعْظَمِ فَرَحِي! اُذْكُرْ يَا رَبُّ لِبَنِي أَدُومَ يَوْمَ أُورُشَلِيمَ، الْقَائِلِينَ: «هُدُّوا، هُدُّوا حَتَّى إِلَى أَسَاسِهَا» .يَا بِنْتَ بَابِلَ الْمُخْرَبَةَ، طُوبَى لِمَنْ يُجَازِيكِ جَزَاءَكِ الَّذِي جَازَيْتِنَا !طُوبَى لِمَنْ يُمْسِكُ أَطْفَالَكِ وَيَضْرِبُ بِهِمُ الصَّخْرَةَ! (مزامير 137: 1-9).

لكن حالة العداوة الشديدة كانت قد أخذت وقتها ومرت وأصبح وضع اليهود الاقتصادي جيداً. وقد وجد أولئك الذين زرعوا الأرض الغنية أنهم قد حصلوا على محاصيل وفيرة، لم تقدمها أرض يهوذا الصخرية يوماً من الأيام. وتحرر نتيجة ذلك الكثير من اليهود من مهنة الزراعة ودخلوا في خدمة الحكومة كجنود وموظفين. وتحول آخرون إلى مهن اقتصادية ذات منافع، إلى تجار صغار وكبار، وسلكوا طريقاً تبعه الكثير من إخوانهم في العرق في كل من سورية ومصر، وظل يتزايد عددهم على مر القرون.

أصل الكنيس:

كان على دين التوراة والأنبياء اجتياز امتحان عصيب الآن. هل كان على الشعب المنفي أن يرى أن إلهه الفلسطيني قد خذله وأن آلهة الشعوب الغريبة كانت أهم وأعظم؟ أم كانت وجهة نظر معظم أنبيائهم، بأن يهوه دائماً مع شعبه ويوجه أقدار الشعوب الأخرى بالإضافة إلى الشعب المختار، هي الأصح. من الواضح أن بعض اليهود قد تخلوا عن يهوه ليتبعوا آلهة بابل المزدهرة. كما عادت وتكررت ردة جديدة في مصر. كان بين اللاجئين الذين اختطفوا إرميا وحملوه إلى مصر رجال ونساء تحدوا النبي الهرم: «إننا لن نسمع بعد الآن بل سنقدم القرابين لملكة السموات[1].. ونسكب لها سكائب كما فعلنا، نحن وآباؤنا وملوكنا ورؤساؤنا، في مدن يهوذا وفي شوارع أورشليم. حيث شبعنا خبزاً ونحن بخير ولم نر شراً. ولكن من حيث كففنا عن تقديم القرابين لملكة السموات.. جُردنا من كل شيء وأُفنينا بالسيف والجوع».

---

(1) عشيرة الإلهة الأم الكنعانية التي هي عشتار الفينيقية.

خسر الدين اليهودي هؤلاء القوم. لكن أولئك الذين كان يكمن مستقبل اليهودية بين أيديهم لم يهتز إيمانهم بل تعمق وتوسع. لقد كان يهوه معهم في مصر وفي بابل وهذا ما كانوا متأكدين منه.

بالنسبة إلى المؤمنين في بابل، فقد كان يوجد مكان واحد في العالم حيث يمكن تقديم القرابين ليهوه وكان ذلك على مذبح الهيكل في أورشليم. هذا يعني أن التقرب من إلههم ممنوع عليهم الآن ولكن يمكن أن يتقربوا منه بطرائق أخرى. يمكنهم أن يجتمعوا، على سبيل المثال في أيام السبت في منازلهم، ويقرؤون لبعضهم مخطوطات التوراة ومؤلفات الأنبياء، بالإضافة إلى ذلك، يمكنهم أن يقرؤوا القصص الأولى لشعبهم من مصادر متعددة لم تجمع في نص واحد معتمد. بعد الانتهاء من القراءة كان شخص يؤم الصلاة، وأصبح ذلك طقساً يمارسونه كل سبت. من خلال ذلك ظهر الكنيس الذي نظمه الفريسيون بعد ذلك.

صاحب تأسيس هذا الشكل من العبادة تزايد ملحوظ في النشاط الأدبي وتم نسخ كتابات قديمة نسخاً متعددة من أجل استخدامها أيام السبت وفي احتفالات السنة اليهودية. وقد عمد قسم من الكتبة إلى تدوين التراث اليهودي ومراجعته والتوسع في القصص الأولى والناموس من خلال الإضافة والشرح، وقاموا بكل ذلك خوفاً من أن ينسى الجيل الجديد الذي يكبر في بابل تراثه. عكست تلك الكتابات الفكر الديني المعاصر الجديد. وتم تلحين الكثير من المزامير. كما وظهر في هذه الفترة نبيان عظيمان، طرحا أفكارهما الموحى بها كلاماً وكتابةً.

حزقيال:

المعلومات المؤكدة عن حياة حزقيال قليلة جداً. ومن المحتمل أن بعضاً من السفر المنسوب إليه قد كتب باسمه في وقت لاحق. من الواضح أنه كان القائد لما كان يدعى حلقة تثنية الاشتراع بين المنفيين، أولئك الذين اعتمدوا على ناموس سفر التثنية وفسروا التاريخ العبراني على ضوئه، حتى أنهم أعادوا كتابة سفر القضاة بالإضافة إلى أسفار صموئيل والملوك بما يتفق مع وجهة نظر ناموس

التثنية. جاء حزقيال من عائلة كهنوت من أورشليم وقد نفي إلى بابل عام (597ق.م) حيث أقام في محيط يهودي على ضفاف الخابور. وعاش لأكثر من اثنتين وعشرين سنة من حياته كنبي ومدع لنفسه بأنه «رقيب بيت إسرائيل». ممارساً الإشراف الرعوي على زملائه في السبي. وحالماً دائماً في استعادة شعبه وبعثه من جديد.

تنبأ حزقيال في رؤاه وقصصه الأخلاقية وبأسلوب منمق وحار، بالدمار الكامل لأورشليم، نبوءة تحققت في عام (586ق.م). وقد طرح دمار الهيكل على حزقيال مشكلة جديدة: عندما ينتهي السبي الذي كان يراه قريباً ويعود الشعب إلى وطنه، ماذا سيكون الدستور الذي سوف يعيشون في ظله، وكيف سوف تؤدى العبادة في الهيكل المستعاد؟ هنا يحاول حزقيال أن يقدم نفسه كما قيل عنه، أي كاهن في رداء نبي. لقد أدرك إرميا في أيامه بأن الهيكل سوف يزول قريباً ومعه الطقوس التي تقام فيه، ولكنه كان مستعداً للقيام بالطقوس والعبادات دون وجود هيكل، أما حزقيال فقد كان يرى أن عودة الهيكل هي مسألة وقت. ولم يكن يتصور ممارسة العبادة دون وجود الهيكل. لذلك فقد ركز على تخيل استعادة الهيكل وقدم تفاصيل كثيرة حول ذلك. كان لتصوراته حول الهيكل المقبل والطقوس الدينية، بالإضافة إلى بيانه حول فلسفة العبادة، التأثير الكبير في مناحي اليهودية اللاحقة وروحها، على الرغم من أنها لم تقبل كبرنامج يمكن تنفيذه بحذافيره.

احتوت فلسفة العبادة عند حزقيال على التأكيد الجديد المسؤولية الفردية، بالإضافة إلى مفهوم سام عن يهوه باعتباره كائناً مفارقاً، متعالياً وكلي القداسة إن الخاطئ الذي يطلب الصفح، لن يجد أن يهوه يذوب حباً ورأفةً من أول إشارة ندم. ذلك أن قدسية يهوه تتطلب مقاربة طقسية من قبل مجموعة من الأفراد الأطهار، يجتمعون في الهيكل في حالة من الطهارة الجسدية والنقاء الطقسي وبإشراف كهنة خبراء، لقد انسحب يهوه بعيداً في قدسيته اللامتناهية من عالم الإنسان حيث لم يعد بالإمكان الاتصال به إلى من خلال وسطاء، كهنة وملائكة.

هذا التأكيد على نأي وإطلاقية الرب الإله، ربما هو ناتج عن النظرة المتوسعة للمنفيين بخصوص يهوه في التاريخ. ألم يحكم الرب الإله الأمم بقضيب من حديد؟ ألم يستخدم الأفراد والأمم كوسيلة لغايات لا يدركها إلى هو لكنها غايات مقدسة وعادلة؟ ألم يكن مصمماً على نشر اسمه بين البشرية جمعاء؟ كانت أسئلة كهذه تضغط على عقل حزقيال ومعاصريه وجعلتهم يدركون أن الإله لديه أهداف أخرى ليريها غير الإحسان والرحمة للنخبة المختارة. وعبّر حزقيال عن ذلك في المقطع:

هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: لَيْسَ لأَجْلِكُمْ أَنَا صَانِعٌ يَا بَيْتَ إِسْرَائِيلَ، بَلْ لأَجْلِ اسْمِي الْقُدُّوسِ الَّذِي نَجَّسْتُمُوهُ فِي الأُمَمِ حَيْثُ جِئْتُمْ. فَأُقَدِّسُ اسْمِي الْعَظِيمَ الْمُنَجَّسَ فِي الأُمَمِ، الَّذِي نَجَّسْتُمُوهُ فِي وَسْطِهِمْ، فَتَعْلَمُ الأُمَمُ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، حِينَ أَتَقَدَّسُ فِيكُمْ قُدَّامَ أَعْيُنِهِمْ. (حزقيال 36: 22-23) هكذا نبّه حزقيال إسرائيل إلى حقيقة أن يهوه سوف يعيدهم إلى وطنهم، سواء تابوا ام لم يتوبوا، ولكن ليس إكراماً لهم، بل من أجله هو الرب: ليقدسوا اسمه قدام أعين الأمم. وركزت الحقائق التاريخية على أن غايات الإله دائماً عادلة ومقدسة وأنه يتصرف كقادر«بيد قوية وذراع ممدودة» من أجل ترسيخ مجده على امتداد العالم.

ويبقى الهيكل وحده هو المكان الذي يحقق شروط التقرب السليم لإله كهذا، تقرب يقوم به أشخاص طاهرون، في بهاء القداسة، باحثون عن تعظيم مجد الرب من خلال تنفيذ مشيئته.

إشعيا الثاني:

إن إشعيا الثاني هو نبي السبي المجهول حيث أعطاه الباحثون هذا الاسم إشعيا الثاني، ونبوءاته مدونة في سفر إشعيا من الإصحاح الرابع عشر وما بعد. لا نعرف شيئاً عن حياته أو شخصيته، لكن لا يفوتنا معرفة عقله وروحه من خلال الإصحاحات. وتأخذنا نبوءاته الأخلاقية والدينية إلى نقطة الذروة في الكتابات العبرية. والمشكلة المركزية التي ركز عليها إشعيا الثاني بدت منتشرة بين يهود المنفى. إنها مشكلة الشر الذي نزل بهم. لماذا ابتلاهم يهوه بمعاناة شديدة كهذه؟ إن الجواب القديم على ذلك هو أن ما حصل لهم كان نتيجة خطاياهم. ولكن ذلك لم يكن مقنعاً بالكامل لأنه كان

واضحاً بالنسبة إليهم أن بابل المزدهرة التي يعيشون في كنفها لم تكن أقل سوءاً أو شراً من اليهود. لم يرفض إشعيا الثاني هذا الشرح المعهود ولكنه اعتقد أن معاناة اليهود لا يمكن أن تفهم وتفسر بالكامل بناءً على ذلك. لقد ناقش محن شعبه اعتماداً على خلفية عالمية. لقد كانوا كما قال، جزءاً من خطة يهوه لافتداء العالم في النهاية. لقد تضخم مفهوم الإله وأصبح الرب من دون أي تحفظ الإله الأوحد. وأصبح مجال فعله هو العالم بأكمله. وكل ما يفعله لابد أن ينظر إليه من أرضية كونية.

أَمَا عَرَفْتَ أَمْ لَمْ تَسْمَعْ؟ إِلهُ الدَّهْرِ الرَّبُّ خَالِقُ أَطْرَافِ الأَرْضِ.. (إشعيا 40: 28).

هو الأول والآخر: «قَبْلِي لَمْ يُصَوَّرْ إِلهٌ وَبَعْدِي لاَ يَكُونُ» (إشعيا 43: 10).

هو وحده الذي خلق السموات والأرض ومنح الروح للبشر، إنه يسيطر على كامل التاريخ، يصنع النور ويخلق الظلام، يصنع السلام ويخلق الشر. هذا هو رب الجنود المقدس الذي يتكلم من على عرشه المسيطر على العالم، «لأنه كما علت السماوات عن الأرض هكذا علت طرقي عن طرقكم وأفكاري عن أفكاركم» (إشعيا 55: 9) إنه يقيم كمخلص ومنقذ في قلوب فقراء الروح ووضعائها.

أَنَّهُ هكَذَا قَالَ الْعَلِيُّ الْمُرْتَفِعُ، سَاكِنُ الأَبَدِ، الْقُدُّوسُ اسْمُهُ: «فِي الْمَوْضِعِ الْمُرْتَفِعِ الْمُقَدَّسِ أَسْكُنُ، وَمَعَ الْمُنْسَحِقِ وَالْمُتَوَاضِعِ الرُّوحِ» (إشعيا 57: 15).

إن هدف الإله المخلص غير محصور بمنطقة أو شعب. إنه كوني. وهو معني بتخليص البشرية كاملة، غير اليهود كما اليهود.

هنا تظهر عصارة فهم إشعيا الثاني الأصلية. إنها نتيجة تجربته الحياتية بين غير اليهود. وليرسل معرفة خلاصة ومشيئته المقدسة لكل البشرية فإن الإله يحتاج إلى رسول خادم، وإسرائيل هو ذلك الخادم الذي يقول:

«اِسْمَعِي لِي أَيَّتُهَا الْجَزَائِرُ، وَاصْغَوْا أَيُّهَا الأُمَمُ مِنْ بَعِيدٍ: الرَّبُّ مِنَ الْبَطْنِ دَعَانِي. مِنْ أَحْشَاءِ أُمِّي ذَكَرَ اسْمِي... وَقَالَ لِي: «أَنْتَ عَبْدِي إِسْرَائِيلُ الَّذِي بِهِ أَتَمَجَّدُ» (إشعيا 49: 1-3).

أَنَا الرَّبَّ قَدْ دَعَوْتُكَ بِالْبِرِّ، فَأُمْسِكُ بِيَدِكَ وَأَحْفَظُكَ وَأَجْعَلُكَ عَهْدًا لِلشَّعْبِ وَنُورًا لِلأُمَمِ (إشعيا 42: 6).

وهكذا صار اليهود شعباً مختاراً. ليس مختاراً لأنه يتلقى الأفضال دون عناء، ولكنه مختار ليخدم كحامل لشعلة النور. ولم يحدث هذا لأنهم رسل فاعلون كما يبدو، بل أنه في تاريخهم سوف ترى الأمم وجود الرب. ولكنهم وللأسف كانوا عمياً وصماً عن عالم رسالتهم، لذلك لا بد أن يتطهروا ويصفوا «في أتون المعاناة». كان على الرب أن يتخلى عن الشعب المختار للسلابين والنهابين لأنهم قد ارتكبوا الخطيئة، وسوف لن يمشي في طريقهم ولا يستمع إلى توصياتهم. «فَسَكَبَ عَلَيْهِ حُمُوَّ غَضَبِهِ وَشِدَّةَ الْحَرْبِ...» (إشعيا 42: 25). وكان لا بد أن تقع العقوبة، لقد فُرضت من الإله نتيجة لخطايا الشعب المختار. لكن النبي جاء بالكلمة المواسية بأن الرب الإله قد أعلن أن أورشليم قد دفعت ثمن الذنوب كاملاً، وأن شعبها لن يعاني بعد الآن من أي آلام، لقد انتهت معاناتهم.

لم تكن المعاناة بلا ثمن، فقد تطهرت الأمة، وأدهشت وآثرت بعمق في غير اليهود الذين كانوا يراقبون. وصيغت هذه الأفكار بأجمل قصائد غنائية تصف العبد المعذَّب (إشعيا 53: 3-6).

مُحْتَقَرٌ وَمَخْذُولٌ مِنَ النَّاسِ، رَجُلُ أَوْجَاعٍ وَمُخْتَبِرُ الْحَزَنِ، وَكَمُسَتَّرٍ عَنْهُ وُجُوهُنَا، مُحْتَقَرٌ فَلَمْ نَعْتَدَّ بِهِ، لَكِنَّ أَحْزَانَنَا حَمَلَهَا، وَأَوْجَاعَنَا تَحَمَّلَهَا. وَنَحْنُ حَسِبْنَاهُ مُصَابًا مَضْرُوبًا مِنَ اللهِ وَمَذْلُولاً، وَهُوَ مَجْرُوحٌ لأَجْلِ مَعَاصِينَا، مَسْحُوقٌ لأَجْلِ آثَامِنَا. تَأْدِيبُ سَلاَمِنَا عَلَيْهِ، وَبِحُبُرِهِ شُفِينَا، كُلُّنَا كَغَنَمٍ ضَلَلْنَا. مِلْنَا كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى طَرِيقِهِ، وَالرَّبُّ وَضَعَ عَلَيْهِ إِثْمَ جَمِيعِنَا.

لقد تأثرت ملوك الغرباء وشعوبهم وفهموا أخيراً أن مصائب عبد الرب إسرائيل كانت ضريبة يدفعها البريء من أجل المذنب، لم يمضِ وقت طويل حتى تدفقت عليهم ثروة لا تعد ولا تحصى من كل اتجاه ليعيدوا بناء أسوار القدس ويقفوا ضمن نور مجد الرب الساطع على جبل صهيون. لقد برر إشعيا الثاني وسائل الإله تجاه اليهود، لكن لم ينظر إلى الماضي فحسب، بل تطلع إلى المستقبل وأعلن المرحلة التالية من خطة الإله في الافتداء، وهي عودة اليهود المجيدة إلى أورشليم، حيث ينبثق فعل الخلاص ويعم العالم وسط فرحة كل المؤمنين. حدث كل ذلك بدعم من «قورش» زعيم الحرب الفارسين والذي بتوجيه من الإله سوف يسحق الحكام كما

يدوس الخزاف الصلصال، والذي سوف يطيح ببابل ويحرر اليهود. وبعد أن يعود اليهود إلى وطنهم سوف يمدون يد العون إلى الأمم الأخرى باسم الرب. وسوف يندفع العالم أفواجاً إلى أورشليم لعبادة الإله.

....فِيكِ وَحْدَكِ اللهُ وَلَيْسَ آخَرُ. لَيْسَ إِلهٌ، حقاً أنت إله محتجب يا إله إسرائيل المخلص... (إشعيا 45: 14-15).

ولن يأتي العالم إلى أورشليم فحسب، بل إن إسرائيل سوف يجد ترحيباً في كل أنحاء العالم.

هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: «هَا إِنِّي أَرْفَعُ إِلَى الأُمَمِ يَدِي...، فَيَأْتُونَ بِأَوْلاَدِكِ فِي الأَحْضَانِ، وَبَنَاتُكِ عَلَى الأَكْتَافِ يُحْمَلْنَ، وَيَكُونُ الْمُلُوكُ حَاضِنِيكِ وَسَيِّدَاتُهُمْ مُرْضِعَاتِكِ». (إشعيا 49: 22-23).

إن خلاص إسرائيل سيكون له أثر في كامل البشرية[1].

---

(1) لقد حذف المؤلف هنا كل الإشارات العنصرية البغيضة التي حفل بها سفر إشعيا، والتي تؤكد أن خلاص إسرائيل لن يتم إلا بعد إبادة الشعوب الأخرى، وتحويل من بقي منهم حياً إلى عبيد يخدمون شعب إسرائيل ويسجدون تحت أقدامه وإليكم نموذجاً عنها:
اِقْتَرِبُوا أَيُّهَا الأُمَمُ لِتَسْمَعُوا، وَأَيُّهَا الشُّعُوبُ اصْغَوْا. لِتَسْمَعِ الأَرْضُ وَمِلْؤُهَا. الْمَسْكُونَةُ وَكُلُّ نَتَائِجِهَا. لأَنَّ لِلرَّبِّ سَخَطًا عَلَى كُلِّ الأُمَمِ، وَحُمُوًّا عَلَى كُلِّ جَيْشِهِمْ. قَدْ حَرَّمَهُمْ، دَفَعَهُمْ إِلَى الذَّبْحِ. فَقَتْلاَهُمْ تُطْرَحُ، وَجِيَفُهُمْ تَصْعَدُ نَتَانَتُهَا، وَتَسِيلُ الْجِبَالُ بِدِمَائِهِمْ. (34: 1-3) وَيَكُونُ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ أَنَّ السَّيِّدَ يُعِيدُ يَدَهُ ثَانِيَةً لِيَقْتَنِيَ بَقِيَّةَ شَعْبِهِ، الَّتِي بَقِيَتْ، مِنْ أَشُّورَ، وَمِنْ مِصْرَ، وَمِنْ فَتْرُوسَ، وَمِنْ كُوشَ، وَمِنْ عِيلاَمَ، وَمِنْ شِنْعَارَ، وَمِنْ حَمَاةَ، وَمِنْ جَزَائِرِ الْبَحْرِ، وَيَرْفَعُ رَايَةً لِلأُمَمِ، وَيَجْمَعُ مَنْفِيِّي إِسْرَائِيلَ، وَيَضُمُّ مُشَتَّتِي يَهُوذَا مِنْ أَرْبَعَةِ أَطْرَافِ الأَرْضِ. (11: 11-12)، لأَنَّ الرَّبَّ سَيَرْحَمُ يَعْقُوبَ وَيَخْتَارُ أَيْضًا إِسْرَائِيلَ، وَيُرِيحُهُمْ فِي أَرْضِهِمْ، فَتَقْتَرِنُ بِهِمِ الْغُرَبَاءُ وَيَنْضَمُّونَ إِلَى بَيْتِ يَعْقُوبَ، وَيَأْخُذُهُمْ شُعُوبٌ وَيَأْتُونَ بِهِمْ إِلَى مَوْضِعِهِمْ، وَيَمْتَلِكُهُمْ بَيْتُ إِسْرَائِيلَ فِي أَرْضِ الرَّبِّ عَبِيدًا وَإِمَاءً، وَيَسْبُونَ الَّذِينَ سَبَوْهُمْ وَيَتَسَلَّطُونَ عَلَى ظَالِمِيهِمْ.(14: 1-2)، قُومِي اسْتَنِيرِي لأَنَّهُ قَدْ جَاءَ نُورُكِ، وَمَجْدُ الرَّبِّ أَشْرَقَ عَلَيْكِ. (60:1)، وَبَنُو الَّذِينَ قَهَرُوكِ يَسِيرُونَ إِلَيْكِ خَاضِعِينَ، وَكُلُّ الَّذِينَ أَهَانُوكِ يَسْجُدُونَ لَدَى بَاطِنِ قَدَمَيْكِ .. (60: 14) ـ المحرر.

ومن خلال الجاذبية التي اكتسبها من مثاليته الأخلاقية العالية سيكون لأشعيا الثاني تأثير عظيم في أفضل العقول اليهودية اللاحقة، كما في المسيحية الأولى. وفهمه البعض وآخرون لم يفهموه. وبحث أولئك الذين كانوا ينتظرون مترقبين قدوم مخلص في نبوؤات إشعيا مرات ومرات عن ذلك. كانت توصيفاته للعبد المعذب حقيقية ومنفردة، حتى أن الأجيال اللاحقة استنتجت مباشرة وكأنه كان يتكلم من داخلها ليس عن السبي بل عن مسيح مخلص. وهكذا بدؤوا البحث عن شخص سوف يفتدي العالم يوماً ما من خلال معاناته. وقد وجد المسيحيون الأوائل في يسوع الناصري الشخص الذي تنطبق عليه هذه الصفات كاملة.

6- نهوض اليهودية
في عصر الإحياء

احتل قوروش الفارسي بابل عام (538ق.م) وجعلها عاصمة إمبراطوريته الجديدة، والتي امتدت في النهاية من الخليج العربي إلى البحر الأسود ومن نهر السند إلى المدن الإغريقية على ساحل البحر الأيوني. ومرة كان يتفقد شؤون عاصمته فوجد شعباً مسبياً لا يماثل الآخرين ففي قلب بابل يعيش متجمعاً مع بعضه، شعب له سبله التي ليست كسبل الآخرين. واستفسر عنهم واستمع إلى مظالمهم. وقد أذن لهم فيما بعد بالعودة إلى أورشليم ليكسب ودهم وصداقتهم ولكي يقيموا دولة حاجزاً على الحدود مع مصر. وأصبحت العودة التي طال انتظارها ممكنة بالنسبة للجيل الأول من المنفيين.

العودة إلى يهوذا وأورشليم:

وهكذا فقد تم ترتيب عودة الدفعة الأولى. وبحسب رواية المؤرخين اليهود اللاحقين فإن قوروش قد أصدر مرسوماً يمنحهم فيه وضعاً مميزاً. ولم يرجع لهم أواني الهيكل التي أخذها نبوخذنصر فحسب، بل قدم مخصصات مالية لحملة العودة من أجل تحقيق أهدافها وهي إعادة بناء الهيكل. وكان قادة العودة اثنين متميزين، الأول هو زربابل حفيد الملك يهوياكين. وبما أنه من سلالة الملك داوود فهو شخص يمكن أن يحمل بعض خصائص المسيح المنتظر. والثاني كان يهوشع، كاهن من المصدوقيين من وسبط لاوي. كان واضحاً من البداية أن الكثير من اليهود لن يعودوا لأن بابل قد أصبحت وطنهم الآن، ولكن الآلاف غيرهم قد عادوا. هؤلاء الذين وصفهم عزرا بعد قرن بغاية الدقة: «مع كل من نبه الله روحه ليصعدوا ليبنوا بيت الرب الذي في أورشليم» (عزرا 1 : 5).

كان أول شيء فعلوه لدى وصولهم إلى أورشليم هو إقامة مذبح في موقع الهيكل المدمر، وبدؤوا بتقديم المحرقات الصباحية والمسائية. وكان إعادة بناء المذبح هو أساس الحياة الجماعية المنظمة التي قامت كما أشار النبي حزقيال وبدؤوا بتنظيف منطقة الهيكل من الأنقاض بالتدريج. وتم وضع حجر الأساس لإعادة بناء الهيكل وسط صيحات الفرح وبكاء الأكبر سناً.

ولكن تبين بعد وقت قصير أن الجماعة عاجزة عن مواصلة المهمة. لقد اختار معظم الناس العيش في الحقول والقرى المحيطة وليس في أورشليم نفسها، حيث كانت أكوام الأنقاض المحترقة تثبط هممهم لإقامة بيوت فيها. لكن الأحوال خارج أورشليم كانت أفضل حالاً. وفي الواقع فإنه لم يكن أمام القادمين الجديد أي فرص اقتصادية وعلاوة على ذلك فإن «المقيمين في الأرض»، أولئك الذين لم يغادروا المنطقة بعد الهجوم البابلي، كانوا قد استولوا على أملاك المنفيين من الطبقة العليا، وأخذوا يشعرون بالقلق جرّاء مطالبة العائدين باسترجاع أملاكهم وأراضيهم. وكان هنالك أسباب أخرى للنزاع. فالمنفيون العائدون كانوا ينظرون نظرة مثالية إلى أورشليم والشريعة، وكانوا ينظرون بازدراء إلى الذين لم يبقوا في يهوذا لأنهم انحرفوا عن معايير الشريعة، بل وأكثر من ذلك، فقد تزوجوا مع الأدوميين والعمونيين والسامريين. ومن جانبهم فإن الذين بقوا في يهوذا، كانوا ساخطين هم أيضاً نتيجة لمعاملتهم كأناس وضيعين اجتماعيا ودينياً ورفضوا أن يتعاونوا مع العائدين في إعادة بناء الهيكل ومشاريع البناء الأخرى. لا عجب إذا أن يهيمن كساد اقتصادي وفتور روحي على المجتمع، حيث أُهمل الهيكل لمدة خمسة عشر عاماً نتيجة لذلك. استؤنفت عملية إعادة بناء الهيكل بضغط من النبيين حجي وزكريا وقد عنّف حجي قومه وقال، كيف يتوقع الناس الازدهار طالما بيت الرب متروكاً خربةً؟ وشجع كلا النبيين الجماعة على استئناف العمل سريعاً واعدين إياهم بأمل عظيم. سوف يحصل تحول في مراكز القوى في العالم وسوف تعود يهوذا ثانية وتصبح مملكة مستقلة مع زرباب حفيد داوود، الذي يتوج كمخلّص من عند يهوه.

لقد بعث هذا الأمل الحياة بينهم من جديد، وسارع اليهود في إكمال بناء الهيكل. لم يكن مطابقاً لهيكل سليمان، لكنه كان متين البنيان وبالأبعاد السابقة نفسها. وعادوا وركنوا منتظرين إشارات تنبئ عن رضا الرب. لكن لم يحصل أي تغيير في الأوضاع.

مر قرن لم تتحقق خلاله آمال الأنبياء بالإصلاح. هل كانت غير قابلة للتحقق؟ اعتقد البعض ذلك كما يبدو، لأنه كان يظهر لدى الجميع بوادر تراجع في الإيمان. وقد اتهم كاتب سفر ملاخي الذي تنبأ في تلك الفترة، اتهم الناس بتراخي حميتهم وباستخفافهم بالدين وبقلة الاحترام ليهوه. وقال إنهم لم يعودوا يدفعون ضريبة العشر بشكلها الصحيح، وكانوا يجلبون حيوانات عوارية (فيها عيب) ويقدموها كمحرقات. ولم يكونوا يشعرون بالمهابة أثناء تأدية طقوس الهيكل. فيكف إذا يرتجون مباركة الرب؟

اضطرب اليهود المؤمنون الذين بقوا في بابل عندما وصلت إليهم الأخبار حول ما وصلت إليه الأوضاع. وعندما سمع بذلك واحد مهم من جماعتهم وهو نحميا، الساقي المفضل للملك ارتحشتا (الأول أو الثاني)؟ بأخبار الوضع المزري الذي تمر به أورشليم وسكانها، حضر أمام الملك والأسى بادٍ عليه. فسأله الملك عن سبب الغم الذي هو فيه، وعندما علم بالقضية، أرسل الشاب نحميا، بعد أن أكرمه، على رأس إرسالية دينية خاصة، بعد أن منحه سلطان الحاكم، إلى أورشليم ليشرف على إعادة بناء أسوار المدينة ويتعرف على جماعة السكان هناك.

انطلق نحميا إلى أورشليم بصحبة جيش من الموظفين والفرسان ومزوداً برسائل توصية إلى السلطات. قبل هذه الفترة أو أثناءها غادر عزرا الكاتب والناموسي إلى أورشليم ومعه سبعمئة يهودي من يهود بابل، كثير منهم تم انتقاؤهم من أجل القيام بالإصلاح، وليحضوا على الإحياء الروحي الذي كان سيسير بالتوازي مع إعادة بناء الأسوار من قبل نحميا[1]. قصة نجاح نحميا مروية بشكل مثير

---

(1) من المفترض أن عزرا ونحميا كانا في أورشليم في الفترة نفسها، بينما الحقائق التاريخية مفتوحة على تفسير آخر. الاحتمال الأكبر أن عزرا وصل أولاً وقد جاء نحميا بعده بفترة وأكمل العمل الذي كان قد بدأه عزرا. الباحثون منقسمون حول تسلسل الأحداث في ذلك الموضوع.

في سفر نحميا. أخيراً أعيد بناء وترميم الأسوار والبوابات المحروقة، بعد أن بقيت خربةً على مدى 150 عاماً، وكان ذلك بفضل قدرة وعبقرية نحميا الإدارية.

تأسيس الدولة الكهنوتية:

دعا عزرا القوم إلى الساحة التي عند بوابة الماء من أجل البحث في التجديد الروحي للجماعة. واستمع التجمع لقراءة من سفر الشريعة (من المفترض أن يكون حول قدسية الناموس في سفر التثنية) والتزموا بميثاق وقسم معظمين أن يتبعوا نصوصه. لقد تم تدشين دولة كهنوتية في ذلك الاجتماع، حيث تقلد الكهنة السلطة. لقد أعادت الجماعة تأسيس الميثاق الموسوي، ولكن بشكل جديد. الموضوع الجوهري الذي تم التركيز عليه منذ ذلك التاريخ ولمدة أربعمئة سنة قادمة نجده في هذا المقتطف المأخوذ من ميثاق التجمع الذي تم تبنيه تحت القسم:

لَصِقُوا بِإِخْوَتِهِمْ وَعُظَمَائِهِمْ وَدَخَلُوا فِي قَسَمٍ وَحِلْفٍ أَنْ يَسِيرُوا فِي شَرِيعَةِ اللهِ الَّتِي أُعْطِيَتْ عَنْ يَدِ مُوسَى عَبْدِ اللهِ، وَأَنْ يَحْفَظُوا وَيَعْمَلُوا جَمِيعَ وَصَايَا الرَّبِّ سَيِّدِنَا، وَأَحْكَامِهِ وَفَرَائِضِهِ، وَأَنْ لاَ نُعْطِيَ بَنَاتِنَا لِشُعُوبِ الأَرْضِ، وَلاَ نَأْخُذَ بَنَاتِهِمْ لِبَنِينَا، وَشُعُوبُ الأَرْضِ الَّذِينَ يَأْتُونَ بِالْبَضَائِعِ وَكُلِّ طَعَامٍ يَوْمَ السَّبْتِ لِلْبَيْعِ، لاَ نَأْخُذُ مِنْهُمْ فِي سَبْتٍ وَلاَ فِي يَوْمٍ مُقَدَّسٍ، وَأَنْ نَتْرُكَ السَّنَةَ السَّابِعَةَ، وَالْمُطَالَبَةَ بِكُلِّ دَيْنٍ، وَأَقَمْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا فَرَائِضَ: أَنْ نَجْعَلَ عَلَى أَنْفُسِنَا ثُلْثَ شَاقِلٍ كُلَّ سَنَةٍ لِخِدْمَةِ بَيْتِ إِلهِنَا، لِخُبْزِ الْوُجُوهِ وَالتَّقْدِمَةِ الدَّائِمَةِ وَالْمُحْرَقَةِ الدَّائِمَةِ وَالسُّبُوتِ وَالأَهِلَّةِ وَالْمَوَاسِمِ وَالأَقْدَاسِ وَذَبَائِحِ الْخَطِيَّةِ، لِلتَّكْفِيرِ عَنْ إِسْرَائِيلَ، وَلِكُلِّ عَمَلِ بَيْتِ إِلهِنَا، وَأَلْقَيْنَا قُرَعًا عَلَى قُرْبَانِ الْحَطَبِ بَيْنَ الْكَهَنَةِ وَاللاَّوِيِّينَ وَالشَّعْبِ، لإِدْخَالِهِ إِلَى بَيْتِ إِلهِنَا حَسَبَ بُيُوتِ آبَائِنَا، فِي أَوْقَاتٍ مُعَيَّنَةٍ سَنَةً فَسَنَةً، لأَجْلِ إِحْرَاقِهِ عَلَى مَذْبَحِ الرَّبِّ إِلهِنَا كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي الشَّرِيعَةِ، وَلإِدْخَالِ بَاكُورَاتِ أَرْضِنَا، وَبَاكُورَاتِ ثَمَرِ كُلِّ شَجَرَةٍ سَنَةً فَسَنَةً إِلَى بَيْتِ الرَّبِّ، وَأَبْكَارِ بَنِينَا وَبَهَائِمِنَا، كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي الشَّرِيعَةِ، وَأَبْكَارِ بَقَرِنَا وَغَنَمِنَا لإِحْضَارِهَا إِلَى بَيْتِ إِلهِنَا، إِلَى الْكَهَنَةِ الْخَادِمِينَ فِي بَيْتِ إِلهِنَا .وَأَنْ نَأْتِيَ بِأَوَائِلِ عَجِينِنَا وَرَفَائِعِنَا وَأَثْمَارِ كُلِّ شَجَرَةٍ مِنَ الْخَمْرِ وَالزَّيْتِ إِلَى الْكَهَنَةِ، إِلَى مَخَادِعِ بَيْتِ إِلهِنَا، وَبِعُشْرِ أَرْضِنَا إِلَى اللاَّوِيِّينَ، وَاللاَّوِيُّونَ هُمُ الَّذِينَ يُعَشِّرُونَ فِي

جَمِيعِ مُدُنِ فَلاَحَتِنَا، وَيَكُونُ الْكَاهِنُ ابْنُ هَارُونَ مَعَ اللاَّوِيِّينَ حِينَ يُعَشِّرُ اللاَّوِيُّونَ، وَيُصْعِدُ اللاَّوِيُّونَ عُشْرَ الأَعْشَارِ إِلَى بَيْتِ إِلهِنَا، إِلَى الْمَخَادِعِ، إِلَى بَيْتِ الْخَزِينَةِ. (نحميا 10: 29-38).

من خلال التأكيد على أساسيات الفروض من باكورة الثمار ودفع العشر والالتزام بالأعياد، فإن اليهود، في زمن عزرا، عادوا إلى أساس الدين القديم ما قبل السبي، والذي سموه دين إسرائيل، دين يتطلب أسلوب حياة مكلف ومجهد دينياً وأخلاقياً. الاهتمام الأساسي في هذا الدين هو الالتزام الإيماني بأسس التوراة الموسوية. بدا في ذلك الزمن العصيب أن هذا هو الأسلوب الأمثل الذي يمكن أن يؤدي إلى الامتثال لوصايا الكتاب المقدس الصارمة المكتوبة، التي ستفي بمتطلبات الميثاق المشفوع بالقسم أمام بوابة الماء، مما يعني تجنب أي نجاسة أمام الإله. وبعد صراع مرير بذله كل من عزرا ونحميا وممارسة ضغوط هائلة، تم تطليق الزوجات الأجنبيات وأعدن إلى بيوت آبائهن مع أطفالهن. وهدف اليهود في ذلك الزمن أن يكونوا جماعة منغلقة إثنياً ودينياً. الكثير من التاريخ المستقبلي يمكن أن نستشعره في نص موحٍ لنحميا، كان قد كتبه في الفترة الثانية من حكمه، الفترة التي من المفترض أن عزرا قد مات ونحميا قد عاد إلى شوشن (سوسا):

فِي تِلْكَ الأَيَّامِ رَأَيْتُ فِي يَهُوذَا قَوْمًا يَدُوسُونَ مَعَاصِرَ فِي السَّبْتِ، وَيَأْتُونَ بِحُزَمٍ وَيُحَمِّلُونَ حَمِيرًا، وَأَيْضًا يَدْخُلُونَ أُورُشَلِيمَ فِي يَوْمِ السَّبْتِ بِخَمْرٍ وَعِنَبٍ وَتِينٍ وَكُلِّ مَا يُحْمَلُ، فَأَشْهَدْتُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ بَيْعِهِمِ الطَّعَامَ، وَالصُّورِيُّونَ السَّاكِنُونَ بِهَا كَانُوا يَأْتُونَ بِسَمَكٍ وَكُلِّ بِضَاعَةٍ، وَيَبِيعُونَ فِي السَّبْتِ لِبَنِي يَهُوذَا فِي أُورُشَلِيمَ، فَخَاصَمْتُ عُظَمَاءَ يَهُوذَا وَقُلْتُ لَهُمْ: «مَا هذَا الأَمْرُ الْقَبِيحُ الَّذِي تَعْمَلُونَهُ وَتُدَنِّسُونَ يَوْمَ السَّبْتِ؟، أَلَمْ يَفْعَلْ آبَاؤُكُمْ هكَذَا فَجَلَبَ إِلهُنَا عَلَيْنَا كُلَّ هذَا الشَّرِّ، وَعَلَى هذِهِ الْمَدِينَةِ؟ وَأَنْتُمْ تَزِيدُونَ غَضَبًا عَلَى إِسْرَائِيلَ إِذْ تُدَنِّسُونَ السَّبْتَ» .وكَانَ لَمَّا أَظْلَمَتْ أَبْوَابُ أُورُشَلِيمَ قَبْلَ السَّبْتِ، أَنِّي أَمَرْتُ بِأَنْ تُغْلَقَ الأَبْوَابُ، وَقُلْتُ أَنْ لاَ يَفْتَحُوهَا إِلَى مَا بَعْدَ السَّبْتِ. وَأَقَمْتُ مِنْ غِلْمَانِي عَلَى الأَبْوَابِ حَتَّى لاَ يَدْخُلَ حِمْلٌ فِي يَوْمِ السَّبْتِ، فَبَاتَ التُّجَّارُ وَبَائِعُو كُلِّ بِضَاعَةٍ

خَارِجَ أُورُشَلِيمَ مَرَّةً وَاثْنَتَيْنِ، فَأَشْهَدْتُ عَلَيْهِمْ وَقُلْتُ لَهُمْ: «لِمَاذَا أَنْتُمْ بَائِتُونَ بِجَانِبِ السُّورِ؟ إِنْ عُدْتُمْ فَإِنِّي أُلْقِي يَدًا عَلَيْكُمْ». وَمِنْ ذلِكَ الْوَقْتِ لَمْ يَأْتُوا فِي السَّبْتِ[1]. (نحميا 13: 15-21).

كشفت هذه التفاصيل الوضع العام. حيث إن عامة الناس استمروا في الخطأ والضلال، ولم يستطيعوا أن يعيشوا حياتهم بالطريقة التي قررتها لهم الشريعة والسلطة الدينية، مما كان يشكل ضغطاً على تفكيرهم وضمائرهم. ومع مرور الوقت كانت تزيد الاستحقاقات عليهم. ولكن إذا نظرنا إلى فترة ما بعد السبي وصولاً حتى نهاية القرن الرابع ق.م فإننا نرى الناس قد التزموا أكثر بدورة الواجبات الدينية الرتيبة المفروضة عليهم، مهما كانت درجة انحلالهم مع مرور الأيام. وقد شدتهم احتفالات يوم السبت الأسبوعية إلى الهيكل في أورشليم أو إلى أماكن التجمع في البلدات والقرى النائية التي اكتسبت فيما بعد الاسم الذي أطلقه عليها الإغريق «الكُنُس Synagogues»، وتحولت الاحتفالات الدينية وأيام الصوم إلى عادات راسخة. وكانت هذه الأعياد هي عيد الفصح، أسبوع كامل، بما فيها عيد الفطير في الشهر الأول من السنة (قد يكون آذار أو نيسان) وعيد الأسابيع (عيد بواكير الثمار) الذي يأتي في آخر الربيع، وعيد النفير الذي سمي فيها بعد روش هاشانا، أو السنة الجديدة، ويتبعه بعد عشرة أيام عيد الغفران «يوم كيبور». بعد خمسة أيام من ذلك يأتي عيد المظال وكل ذلك في الشهر السابع اليهودي (أيلول أو تشرين). وعلى ما يبدو لم يكن الأنبياء المتزمتين دينياً وأخلاقياً هم من ضبط العامة، بل يعود الفضل إلى تلك الطقوس التي كانت تمارس في الأعياد والاحتفالات.

---

(1) ما وجده نحميا فظيعاً هو عدم حصول اللاويين على حصتهم. حيث أن اللاويين ومرتلي الصلوات في الهيكل كانوا مضطرين لفلاحة حقولهم من أجل كسب عيشهم. لذلك ضغط على أهل يهوذا ليدفعوا أعشارهم. كذلك وجد أن بعض اليهود قد تزوجوا من نساء أجنبيات وأن أطفالهم كانوا يتكلمون لغات أجنبية ولم يكونوا يجيدون التكلم باللسان اليهودي. هنا شعر بأن عليه أن يتخذ إجراء مباشراً حيث يقول: فَخَاصَمْتُهُمْ وَلَعَنْتُهُمْ وَضَرَبْتُ مِنْهُمْ أُنَاسًا وَنَتَفْتُ شُعُورَهُمْ، وَاسْتَحْلَفْتُهُمْ بِاللهِ... (نحميا 13: 25). وبعد أن أطاعوه وجد كاهناً رفيع المنصب قد تزوج بامرأة أجنبية فنفاه.

فيما بعد، ومع مرور السنين، ألقى هاجس الحفاظ على الذات المبالغ فيه باليهود بين يدي السلطات الدينية أكثر فاكثر بشرياً ودينياً.

أهم شخصية كهنوتية كانت الكاهن الأكبر، الذي يسكن في الهيكل في أورشليم، وهذا الكهنوت كان محصوراً بنسل (صادق) الكاهن الملكي المنصّب من قبل داوود، ويقال إنه من نسل هارون أو موسى. وقد حكم هذا الكاهن الأكبر أورشليم دينيا ومدنياً. تحت أمرته كان هناك المرسومون الذين يخدمون الهيكل والمسؤولون عن الخدمات الموسيقية وأملاك الهيكل. وكانت هذه السلطة مسؤولة عن تنصيب معلمي الشريعة المحترفين والذين انحدر منهم الحاخامات Rabbis فيما بعد. كان معلمو الشريعة قبل ذلك أصحاب مرتبة دنيوية بشكل ما، لكنهم الآن يشكلون طبقة دينية (الشُراح، صوفيريم Sopherim)، وهؤلاء متفرغون لنسخ وشرح التوراة والنصوص المقدسة الأخرى، والذين خرج من بنيهم أشخاص طوروا مهارات خاصة في الوعظ وأصبحوا يُعرفون فيما بعد بالحاخامات أو «المعلمين». لقد أدى الحاخامات خدمة مزدوجة للعامة، مما منحهم أهمية متزايدة مع مرور السنين. لقد لبوا في المقام الأول، الحاجة المتزايدة لشرح احترافي للأسفار المقدسة، وقد زاد من ضرورة ذلك أن استبدلت باللغة العبرية لغة أخرى منطوقة يتكلمها الآراميون، لغة كانت قد عمت كامل سورية وفلسطين، لذلك لم يعد عامة اليهود يفهمون جيداً نصوصهم العبرية من دون مترجم مفسر[1]. في المقام الثاني، ساعد الحاخامات في جعل العبادة الدينية لا مركزية حيث أصبحوا جماعة أصيلة ذات خبرة دينية يمكن أن تقود العبادات في القرى، أمر كان قد منعه الملك يوشيا عام (621ق.م).

لم يتوان الكهنة ومعلمو الشريعة عن تقديم أدب ديني مكتوب للشعب. لقد انتهت النبوأة الشفهية بشكل نهائي وازداد الاستشهاد بقدرة الكلمة

(1) ترجمت النصوص المهمة إلى الآرامية في النهاية وأطلق عليها «الترجوم» وبدأت كذلك ترجمة مبكرة إلى الإغريقية في القرن الثالث ق.م في الاسكندرية وعرفت بالترجمة السبعونية.

المكتوبة لإله إسرائيل المقدس والمتعالي في الطبيعة والتاريخ. وانخرط الكهنة ومعلمو الشريعة في كل من بابل وأورشليم في البحث في الأدبيات، وتداولوا نسخاً من كتابات الأنبياء الأكثر راهنية من أمثال: ملاخي، عوباديا، حزقيال، حجي، زكريا وإشعيا الثاني، وأعادوا تحرير كتابات الأنبياء الأقدم. وأُكملت أخيراً الأسفار الخمسة في التوراة الموسوية وجمعت في ثلاثة مصادر هي J, E, D ثم جرى ضم هذه المصادر إلى بعضها في النسخة الجامعة P أو الناموس الكهنوتي. وقد مهدت هذه الوثيقة الأخيرة، لكتابة الفصل الأول من سفر التكوين، المعني بالتوحيد بالإضافة إلى بنود شرعية عديدة جرى إقحامها في الأسفار الخمسة بما فيها H أي الناموس المقدس الذي استخدمه عزرا ونحميا في إصلاحهما. وتم مراجعة وتوسعة أسفار يشوع والقضاة وصموئيل والملوك من خلال إضافة مواد جديدة. وعملت جماعة من الكهنة، تميل إلى سفر تثنية الاشتراع، على اسفار أخبار الأيام 1، 2 وعزرا ونحميا، وتم الاستعانة بمرتلي الهيكل من أجل تلحين الترانيم التي كانت الأساس فيما بعد لمعظم سفر المزامير. ويوجد شعر آخر مختلف تماماً عن بقية ما هو موجود في العهد القديم، إنه نشيد الإنشاد، هذا الشعر الشهواني (إيروتيكي) في الأساس، ولكنه فسر على أنه يرمز لعلاقة العشق بين الإله وإسرائيل. وهذا يعين أن ثلثا الشريعة العبرية كما نعرفها الآن كانت موجودة في ذلك الوقت (القرنين 5 و 4ق.م).

وقد أكد المؤرخ اليهودي إبرام ليون ساتشر على أهمية هذا التحول الجديد في كتابه «تاريخ اليهود» عام 1930: «على امتداد القرن الخامس ق.م كان هناك رد فعل ثابت ضد التراخي الديني، رد فعل معلمي الشريعة، الذي ازداد نفوذهم كثيراً، ومعلمو الشريعة هؤلاء هم طلائع الفريسيين، وقد كانوا المفسرين للشريعة وزعماء الكُنُس. وقد استجاب اليهود لما كان يقدمه معلمو الشريعة بإخلاص لا نظير له. الوجود بأكمله متمثلاً في الشريعة. وأصبح اليهود هم شعب الكتاب. لقد أنشأ العبرانيون الأوائل الكتاب المقدس من صميم تجاربهم الحياتية، بينما حذف أحفادهم الكتاب المقدس».

أو كما أشار إلى ذلك جماعة من الباحثين اليهود خلال تعليقاتهم على تأثيرات إصلاح عزرا:

«من ذلك الحين وما بعد، أصبحت العلامة المميزة لليهودي ليست هويته السياسية ولكن ارتباطه الشديد بالتوراة، حتى لو كان يعيش خارج فلسطين، ولا يشارك في طقوس الهيكل. لقد تحدد الانتماء اليهودي بعد السبي من خلال التوحد الإثني (الذي يتضمن النسب المشترك والمصير والدين والثقافة) أكثر مما تحدد بالانتساب إلى موطن معين».

ونشأت مدارس الشرح لتستنبط تشريعات جديدة من القديمة، حتى تصبح التوراة القديمة قابلة للتطبيق وعملية لتناسب حياة الأجيال اللاحقة. وتحولت مدارس الشريعة في النهاية إلى أن تصبح المدارس المتشددة في القرنين الثاني والأول ق.م.

قدم معلمو الشريعة منذ البداية أفكاراً قيمة في موضوع استنباط قوانين عملية قابلة للتطبيق على أحوال لم يكن ليحلم بها في زمن موسى. أضيفت تعديلات على الشريعة المدنية وطقوس السبت. ولكن ظلت هناك عوائق أشار إليها المؤرخ إبرام ليون ساتشر المذكور آنفاً، حيث يقول:

«كان من الحتم أن تصل الإطارات اللا نهائية حول معاني النصوص القديمة إلى النقيض وتصبح مجهولة وغير محتملة. فالشريعة التوراتية التي حرمت آكل اللحم المقطع والمقسم في الحقل، كان قائماً على مبدأ صحي مناسب حيث إن الجيفة[1] خطرة كطعام للإنسان. وقد توسعت الشريعة، على أيدي المناطقة الجدليين، بحيث تحولت إلى آلية نظام غذائي معقد. وإذا ما حرم اللحم المقطع في الحقل، لماذا لا يحرم اللحم المقطع في المدينة؟

---

(1) الجيفة هنا ليست الجثة المنتنة إنما هي الذبيحة التي لم تذبح حسب الطقوس الدينية وهو طقس قائم في ديانات التوحيد حيث لا يعتبر اللحم حلالاً إلا إذا ذبح حسب الطقوس المنصوص عليها في الشريعة.

ولكن ما هو اللحم المقطع؟ إذا لم يذبح الحيوان بالشكل الصحيح فإنه بالتأكيد يعتبر مقطعاً. وما هو الذبح الصحيح؟ هو طقس كامل قاعدته «الذبح الشعائري» Shehita، قد تطور ليلبي هذه الحاجات ـ تشريعات تحكم السكين التي يجب أن تستخدم وطريقة الاستخدام والتدريب عليها، والتشريعات التي تحكم الذابح ومدى كفاءته واختصاصه، والأدعية التي يجب أن تتلى عند قطع الحنجرة، وكيفية تغطية الدم بالرماد[1]. لقد تضخمت مجرد موعظة توراتية إلى متاهة من الشعائر والطقوس».

(1) إذا لم يتم الذبح بهذه الطريقة فإن اللحم لن يكون حلالاً، Kosher.

7- اتجاهات فكرية جديدة
في العهدين الإغريقي والمكابي

وقعت الثيوقراطية اليهودية (دولة رجال الدين) تحت سيطرة جديدة بدءاً من عام (322ق.م) حيث طرد الاسكندر الأكبر الجيوش الفارسية من آسيا الصغرى وسوريا، واستولى على فلسطين بما فيها مقاطعة اليهود وهو في طريقه لإخضاع مصر. وأسس مدينة جديدة على الساحل المصري وأطلق عليها اسم الاسكندية تيمناً باسمه، والتي أمل أن تصبح مركزاً ثقافياً سوف يحدث ثورة في حضارة المناطق المتاخمة لشرق المتوسط، وبعدها التفت إلى ما بقي من الإمبراطورية الفارسية وجعلها تتداعى تحت قدميه.

الصفات العامة المميزة للتأثير الهلنيستي:

من دوافع الاسكندر طموحه الشخصي ليؤدي أهم دور في المنطقة من دون أدنى شك، لكنه كان متحمساً أيضاً، لينشر الحضارة الإغريقية عبر الشرق الأدنى، مع أنه لم يكن لديه أدنى فكرة عن نشر الحضارة الإغريقية بالقوة. لقد آمن بقوة الحقيقة البائنة بذاتها، وخطط من خلال ذلك ليجعل العالم على صورة الحياة الإغريقية من خلال التربية والمثال. لذلك أمر ببناء مدن جديدة في مناطق إستراتيجية صممها ونفذها معماريون إغريق، وتحتوي أبنية بلدية ذات صفوف من الأعمدة، وقاعات ألعاب رياضية، ومسارح مكشوفة ومكتبات مثل تلك التي في أثينا. وشجع المستوطنين الإغريق والمصريين والفرس واليهود على أن يعيشوا في هذه المدن النموذجية تحت سلطة حكومات بلدية، سمحت لكل جماعة أن تعيش في حيها الخاص من المدينة.

(كانت كل مدينة تُحكم من مجلس ينتخب سنوياً من قبل الشعب). ولم يحصل اي ضغط ولو بسيط لاستمالة أي مواطن وحمله على ما يكره ـ كل شيء كان يتم بكامل الإرادة الحرة ـ وكان مباحاً للجميع أن يرتدوا الزي الإغريقي ويتكلموا اللغة الإغريقية ويبنوا ويؤثثوا بيوتهم على الطراز الهلنيستي ويقرؤوا ويناقشوا الأعمال الفلسفية والسياسية الإقريقية وأن يتربوا على الطريقة الإغريقية.

خلال فترة حكمه القصيرة كان الاسكندر يحترم ويدعم اليهود، وقد أرادهم في الاسكندرية. وفي الأيام اللاحقة كانوا قد ملؤوا حيين اثنين من أحياء المدينة الخمسة. (يمكن أن يكون قد وصل عددهم إلى المليون). وأمل أن يؤسس لهم مدناً في أماكن أخرى. واليهود، من جانبهم، كانوا قد تأثروا بمشاريعه الثقافية أكثر من أي أجنبي آخر عبر تاريخهم. لقد أوجدت الهلنيستية طيفاً جديداً واسعاً من الثقافة، مع تسامح ديني وعرقي غير مسبوق كان الاسكندر من أشد أنصاره. هذا من جهة، ومن جهة ثانية بدا أنها تحمل وعداً عظيماً بعلاقات دولية حيوية تزيل الجمود الاقتصادي والسياسي الذي كانت فيه يهوذا. وأراد اليهود أن يكونوا على صلات حسنة مع بقية العالم. ربما ساورهم الشك في البداية تجاه المستوطنين الهلنيستيين الذين استقروا في تجمعات نموذجية على امتداد فلسطين. لكنهم شعروا في النهاية أن هؤلاء المستوطنين كانوا هلنيستيين حقيقيين من خلال حبهم للفكاهة والسلام وعلاقاتهم الودية الأخوية. وبدأت الطبقة الاجتماعية الراقية من اليهود تستعمل بعض المفردات الإغريقية في حديثها اليومي، وذلك بعد ثلاثة أجيال، وبدؤوا يسمون أطفالهم بأسماء إغريقية. وأكثر من تأثر بالإغريق هم الفئات المثقفة، وبالأخص كهنة أورشليم، كما هو متوقع.

تبنى اليهود الظواهر الخارجية من الحضارة الهلنيستية دون أن يتخلوا عن ديانتهم. ووصل التأثير الإغريقي إلى ذروته لدرجة أن المحرقات كانت تُنقل نصف محترقة من على المذبح في أورشليم، بينما يندفع الكهنة إلى ملعب ما ليتفرجوا على الرياضيين الإغريق يؤدون بعض الألعاب. ومع ذلك كان هناك تيار مضاد رافض.

فقد كان بسطاء الناس وسذجهم حذرين وبطيئين في تبني الأساليب الأجنبية، كما هو دائماً. بينما وقف معلمو الشريعة والحاخامات ضد كل ذلك بسبب ولائهم الشديد والمتصلب للتوراة وطريقة الحياة اليهودية. لقد قاوم معلمو الشريعة والحاخامات الهلنيستية بكل تفرعاتها وتأثيراتها الحية والفاعلة بين «صامتي الأرض»، المتدينين المحافظين اليهود أو «الحشيديم[1]» Hasidim كما أطلق عليها فيما بعد.

تأخرت عملية الهلينَنَة لكنها لم تنقطع نتيجة التنافس في السيطرة على فلسطين الذي أعقب موت الاسكندر المبكر في بابل. لقد تم اجتياح فلسطين مرات عديدة على مدى المئة عام التالية من قبل جيوش السلوقيين من سورية والبطالمة من مصر. كان البطالمة أكثر تسامحاً، لذلك فقد بقي سادة اليهود الكبار مسيطرين معظم تلك الفترة. وانتصر السلوقيون في النهاية مع بداية القرن الثاني ق.م، وساد السلام لبرهة من الزمن بعد ذلك. ويبدو أن اليهودية الفلسطينية قد انحازت إلى الحد الأقصى إلى الهلنيستية من دون أن تفرض من الملك السلوقي الصعب المراس على رعاياه اليهود، والتي يمكن أن تسبب تمرداً ضده يعيد اليهود إلى ما كان عليه أباؤهم.

مرحلة الاستقلال في عهد المكابيين:

أصبح واضحاً الآن أنه ما دامت حياة اليهودية الدينية لا تعاني من ضغوط فإن المؤمنين اليهود تحملوا الضيم في سبيل ذلك، ولكن عندما كان يتعرض دينهم للخطر فإنهم لم يترددوا في التمرد دفاعاً عن دينهم. وهذا ما لم يفهمه انطيوخوس أبفانس، ملك سورية السلوقي، بحيث قرر أن يستخدم القوة عندما رأى بطء عملية تحويل جميع الشعوب إلى الهلنيستية، وأجبر اليهود على عبادة زيوس والذي ادعى، هو نفسه، أنه ظهوره الأرضي (بما أن كنيته أبفانس، ظهور الإله). لذلك فقد منع اليهود من أن يلزموا السبت تحت طائلة القتل، كما ومنعهم من امتلاك نسخ من مؤلفاتهم المقدسة أو من ممارسة

(1) هم اليهود المتشددون الذين لم يقبلوا بأي تغيير في الطقوس اليهودية – المترجم.

الختان. وقد شيد معبداً لزيوس إله الأوليمب على مذبح المحرقات في الهيكل في أورشليم، وقدم الخنازير كقرابين (الذي كان هو النجاسة بعينها بالنسبة لليهود)، وزاد على ذلك بأن أمر جميع اليهود أن ينضموا إلى تقدمة قرابين مشابهة، ليس في أورشليم فحسب، بل في القرى أيضاً. أدى هذا الترويع إلى سخط ونقمة المؤمنين مما أدى إلى التمرد والعصيان، حدث ذلك عندما أمر مفوض حكومي الكاهن المسن متاثياس (متى) أن يشارك في تقديم القربان لزيوس في قرية (Madin)، شمال غرب أورشليم، فقتل هذا الكاهن المفوض ورفع لواء التمرد. واستطاع مع أولاده الخمسة، وبدعم ومساندة الكثيرين من الأتباع اليهود، الذين اندفعوا من كل حدب وصوب، أن يقود ثورة ناجحة حيث اتخذ من البرية مكاناً له. واستطاع ابنه (يهوذا مكابيوس) أن يهزم أربعة من جيوش السلوقيين وأجبر الخامس على الانسحاب. واستطاع أن يستعيد أورشليم عام 165ق.م ما عدا القلعة التي كانت تتحصن فيها حامية عسكرية. وتم تنظيف وتطهير الهيكل من الدنس الذي كان فيه وأعيدت طقوس العبادة إلى الهيكل. وتم إنقاذ اليهودية الفلسطينية. وأجبر السلوقيين في المراحل اللاحقة من الحملة على مغادرة مقاطعة اليهودية. قتل يهوذا عام 161ق.م، وانتقلت القيادة إلى أخيه (يوناثان) وبعده إلى أخيه الأصغر (سمعان) الذي نُصّب كاهناً أكبر. وحل محله ابنه (يوحنا هيركانوس) الذي وسع المملكة وضم إليها أدوم والسامرة والبيرية (Perea) الإقليم الذي وراء الأردن. وهكذا تكون مملكته قد قاربت مملكة داوود في المساحة. وفرض الديانة اليهودية على الأدوميين بحد السيف، وكان ذلك سابقة خطيرة وسيئة. على الرغم من أن اليهود كانوا يخدعون أنفسهم في هذه الفترة استمرت فترة استقلالهم حتى سنة 63ق.م. وكان يمكن للاستقلال أن يدوم أكثر لولا النزاع الذي انفجر بين الفرق اليهودية المختلفة نفسها.

ولا بد من تفحص الأفكار والأمزجة والأنماط الأجنبية التي تدفقت على أورشليم والتي أسست لقاعدة نهوض فرق اليهود ما بعد السبي.

التأثيرات الفكرية الأجنبية خلال العهدين الإغريقي والمكابي:

يمكن أن نرى تأثير الأفكار الإغريقية والفارسية حول الطبيعة والتاريخ في لاهوت وأدب هذه العهود. كانت أسفار الأمثال وأيوب والجامعة قد دونت، أو في طور التدين خلال هذه الفترة. وهي الآن من الأسفار القانونية للكتاب المقدس وكذلك سفر حكمة سليمان وهو الآن في عداد الأسفار المنحولة (ابوكريفا). وتدعى هذه الأسفار بأسفار الحكمة. كما دونت في هذه الفترة أيضاً أسفار راعوت وأستيرويونان وسفر المزامير. وكان سفر دانيال هو آخر الأسفار القانونية التي ختمت الكتاب المقدس العبري. على الرغم من ظهور كتابات غير قانونية اهتمت جميعها بموضوع المسيح المنتظر.

يُظهر أدب الحكمة تأثير الأفكار الإغريقية الواضح، ولكن لا يستطيع المرء أن يقول بأن هذه الأفكار كانت وحدها المسيطرة والحافزة. ولكن لا بد من الاعتراف بأن الهلنيستية طورت لدى المفكرين اليهود النزعة العقلانية التي من شأنها إخضاع أي اعتقاد إلى منطق العقل، وخلقت لديهم ميلاً إلى التأملات العقلية. وهذا ما نراه في سفر الأمثال حيث إن أجزاءه الأخيرة تتماثل مع بعض مفاهيم التفكير في الفلسفة الإغريقية. معظم سفر الأمثال قديم جداً. وربما يعود أصل بعضها إلى أيام سليمان، باعتبارها ترجمة وإعادة صياغة لمجموعات من الأقوال المأثورة المصرية الموغلة في القدم حول الطبيعة والسلوك الإنساني. ويقال أن سليمان انجذب إلى هذه الأقوال وأصاف إليها بعض الأحكام العامة من عنده. وازدادت المجموعة ببطء مع مرور الأيام من خلال الإضافة إليها من مجموعات مستقلة حتى عام 250ق.م عندما اتخذت شكلها النهائي الحالي.

ونرى تأثير الفكر الهلنيستي في سفر الجامعة. ويبدو أن كتاب السفر على معرفة جيدة بالتجربتين الهلنيستية واليهودية، ولكن قد يكون وقع في هكذا فوضى عقلية لأنه حاول التوفيق بين الفكرين من دون نتيجة. لقد رأى أن لا قيمة في الفكر والجهد البشريين. وكل ما بدا له خيراً لخصه في هذه الكلمات: «أعرف أن لا خير للإنسان إلا أن يكون مسروراً وأن يسعد نفسه في حياته». كل شيء آخر ما هو إلا عبث، جهد بلا طائل وكأنه قبض الريح. ربما يكون الكاتب قد قرأ السفر الأقدم «سفر أيوب» وعجز على أن يحل مشكلته الأساسية: «لماذا لم يكن قانون الإله هو أن يتنعم التقي الصالح

وأن يعاني الشرير؟ بدلاً من أن يعاني الصالح والشرير يتنعم؟» يتلمس سفر الجامعة بشكل مبهم إيحاء أيوب، حيث إن العاقل والطاهر القلب يمكن أن يتسامى في معاناته من خلال الفرح بحكمة ومجد الإله المتكشفة في النظام الرائع للعالم.

وصل التأثير الهلنيستي إلى ذروته في الاسكندرية في مصر أكثر مما وصل في فلسطين. ومع اقتراب مجيء المسيح عبر هذا التأثير عن نفسه في سفر حكمة سليمان، وفي كتابات فيلسوف يهودي اسمه «فيلون» (20ق.م - 54م). حاول فيلون أن يجمع بين الفكرين الإغريقي واليهودي من خلال قرن حكمة اللاهوت اليهودي باللوغوس[1] في الفلسفة الإغريقية، وذلك في اعتماده على كتاب «حكمة سليمان». وقد علّم في مذهبه أن الاتصال مع سيد الكون بالمعنى الروحي الكامل لا يحصل إلا من خلال عمل اللوغوس الإلهي كوسيط لقدرة وفاعلية الإله، مما سيكون له تأثير عظيم في أشكال التفكير التي سادت فيما بعد، ولا سيما في مستهل «الإنجيل الرابع»، «إنجيل يوحنا» كما في كتابات آباء الكنيسة الأوائل.

جاء التأثير الإغريقي الآخر والواسع على اليهود من خلال ترجمة أسفار العهد القديم إلى الإغريقية بواسطة مجموعة من المترجمين المتبحرين والمعروفين تقليدياً بعددهم الذي بلغ السبعين (من هنا جاء اسم الترجمة بالترجمة السبعينية). بدأت هذه الترجمة في القرن الثالث ق.م وانتهت في القرن الثاني[2] ق.م.

---

(1) اللوغوس الإغريقي باختصار هو العقل أو النفس الناطقة، وهو جوهر العقل كما يتبين في النطق بالكلمات ـ المترجم.

(2) لا بد من كلمة حول أهمية هذه الترجمة حيث بدا واضحاً أن المترجمين قد استخدموا المخطوطات الأكثر موثوقية وآمن الباحثون لفترة طويلة بهذه المقولة. وأثبتت الترجمة السبعونية أنها الوثيقة الأكثر اعتماداً لتدقيق المخطوطات العبرية والتي لم يوجد منها وثيقة تعود إلى ما قبل القرن العاشر الميلادي. لكن اكتشاف مخطوطات البحر الميت عام 1947 قد أكد هذا الاعتقاد المبكر. لأن هذه المخطوطات العبرية الأقدم، والتي تعود إلى قرنين قبل المسيح، متفقة في كل نقطة تقريباً مع الترجمة السبعونية ويمكن أن نضيف أيضاً أن مخطوطات البحر الميت قد أكدت الاعتقاد أن الترجمة اللاتينية «The vulgate» للكتاب المقدس التي قام بها القديس جيروم في القرن الرابع الميلادي كانت نتيجة لتمحيص دقيق بين عدة قراءات للمخطوطات العبرية التي استطاع أن يجمعها.

لكن تأثر الهلنيستية في المفاهيم الدينية الأساسية لليهود كان أقل ديمومة من تأثير الزرادشتية، لا سيما وأن الهلنيستية كانت فلسفية وعلمانية في جوهرها، بينما الزرادشتية كانت دينية ويمكن أن تقدم إضافات إلى المعتقدات الدينية الموجودة سابقاً.

عرف اليهود الزرادشتية من خلال اطّلاعهم عليها وهم في بابل كما وعرفوا بعض المعتقدات عن الشيطان والملائكة وما بعد الحياة الدنيا. كما وإن فكرة المسيح المخلص قد أمدتهم ببعض الأصول التي كانت تفتقدها المعتقدات اليهودية القديمة. وقبل أن يتعرف اليهود على شيطان الزرادشتيين، كانوا قد تعرفوا، من خلال القصص التوراتية القديمة، على الأفعى في جنة عدن والملائكة الهابطين الذين اتخذوا زوجات من بني البشر قبل أيام نوح. وكان عندهم أيضاً «المقاوم» بين الكائنات السماوية المحيطة بيهوه الذي حاز على الإذن ليبتلي أيوب ويجعله يلعن الإله. وكل هذه القصص سابقة للسبي زمنياً. ولا يوجد في أي منها أي إيحاء أن روح الشر هي كائن كوني متجل من بدء الخليقة، وأنها تتمتع بقوة وقدرة خلق موازية تقريباً لروح الخير. ولكن بعد السبي، أصبح «المقاوم» الموجود بين الكائنات السماوية، على الأقل بالنسبة لبعض اليهود، يمثل قوة شريرة لا حدود لحقدها، وهو في تعارض كامل مع الإله، وبصحبته شياطين تتصارع مع الملائكة التي تقف أمام الإله. ومن ناحية أخرى، لم تكن الجنة والجحيم قد حلا محل العالم السفلي المدعو شيئول، ولكن بعض اليهود ابتدؤوا يتكلمون عن البعث من الموت يوم القيامة حيث الثواب مقابل الخير والعقاب مقابل الشر. قبل السبي بزمن طويل كان الأنبياء قد تحدثوا عن يوم الدينونة الذي تحل فيه مملكة يهوه على الأرض. أما الآن فقد بدأ كثير من اليهود يؤمنون بيوم الدينونة بعد أن تعدل مفهومه بتأثير الأفكار الفارسية. ولسوف نعرض فيما يلي بعض أهم هذه التعديلات:

1- إن الإيمان العبري القديم بالشيطان والذي نادراً ما ارتفع فوق مفهوم حيوية المادة[1] والذي لم يتضمن تعارضاً مع الإيمان بيهوه، قد تحول الآن إلى

---

(1) مذهب حيوية المادة (Animism): يقول بالاعتقاد بأن لكل ما في الكون من أشياء روحاً ـ المترجم.

الإيمان بوجود زمرة من الكائنات الماورائية الشريرة يتربع على رأسها قائد دُعي بأسماء متنوعة كان الغالب عليها اسم الشيطان. ومن بين ظهوراته الأولى في الأدب العبري تحت هذا الاسم ما نجده في سفر زكريا، حيث نراه وهو يقاوم أحد ملائكة الرب ورسله.

2- الملائكة الذين كانوا رسل يهوه السماويين، بحسب الاعتقاد القديم، جرى وضعهم الآن في هيكل تنظيمي مراتبي يتربع على قمته سبعة ملائكة مقربون هم: رافائيل وأوريئيل وميكائيل وراعوئيل وجبرائيل وساراكئل (Saraqiel) وريميئل (Remiel) وأبرزهم جميعاً كان ميكائيل ويليه جبرائيل في الأهمية.

3- كان اليهود يعتقدون قديماً أن الميت يهبط إلى حياة لا لون لها ولا طعم في هاوية العالم السفلي (عالم الأموات)، أرض النسيان التي تشبه هاديس[1] الإغريقية، وآرالو[2] البابلية. وقد حل محل ذلك اعتقاد ببعث الجسد إلى حياة أخرى واعية ومليئة بالنشاط العقلي.

4- تنبأ الأنبياء اليهود قديماً بأنه سوف يكون هناك يوم حساب يُنزل فيه بأعداء إسرائيل الهلاك، بعدها سوف تنشأ مملكة جديدة على رأسها ملك مخلص من نسل داوود، يقوم بتغيير جذري. قد يكون هذا نتيجة التأثر بالزرادشتية أو نتيجة التطور الطبيعي للدين أو الاثنين معاً. على أي حال فإن الآمال القديمة التي لم تتحقق وربما بدت غير قابلة للتحقق، قد حل محلها توقع رسول للخلاص من عند الله سوف يأتي على ظلل الغمام في نهاية العالم.

5- يبدو وكأن فكرة يوم حساب أخير، وهو مفهوم جديد نسبياً، قد تم تبنيه في الأدبيات الرؤيوية اليهودية من المصادر الفارسية مع بعض التعديلات الجوهرية.

قد يفي هذا الوصف المختصر لتدفق الفكر الأجنبي على أورشليم بالغرض. وهنا نتساءل هل كان هناك معارضة حقيقية للتأثيرات الفكرية الغريبة؟ لا يبدو

(1) هاديس Hades، عالم تحت الأرض تسكن فيه أرواح الموتى عند الإغريق.

(2) آرلو Aralu، العالم السفلي في الميثولوجيا البابلية.

ذلك، فالمعارضة ذات القيمة سوف تنشأ في المرحلة اللاحقة كما سنرى. ومع ذلك يبقى الشك قائماً حول ذلك، حيث كانت المواقف منقسمة بحدة، فالبعض لم يقبل باي شيء غريب، وآخرون قبلوا. وتعكس أسفار أستير وراعوث ويونان هذه الاختلافات. لقد كتب سفر أستير يهودي قومي متعصب يتقد غضباً على الشعوب التي أظهرت معاداة للسامية. وأما الجانب الآخر المتسامح مع الغرباء فيظهر في قصتين، إحداهما قصة راغوث المؤابية الجميلة التي لاقت قبولاً بين اليهود وتزوجت واحداً منهم وأصبحت سلفاً للملك داوود، والثانية تخص يونان النبي المتمرد والمعادي للغرباء الذي رضخ الرب لكثير من تطلعاته الشمولية.

صعود طوئف اليهود ما بعد السبي:

الصدوقيون:

لو بقيت اليهودية معزولة عن العالم، لما حصلت هذه الانقسامات بين طوائفها. كان يمكن أن يبقى الصدام محصوراً بين الأغلبية الشعبية والأقلية النبوية، كما كان الحال في عهد ما قبل السبي.

فلما كان الاختيار بين الثقافات واضحاً وبسيطاً ففي كل مثال عن هذا الاختيار لا نستطيع في الغالب تجاهل ذلك التوتر بين ما هو مرغوب من قبل الطبقة الحاكمة، وما يتلاءم مع عامة الناس. في مقاطعة اليهودية كانت طبقة الكهنة هي المنفتحة على العالم. قد يبدو هذا من قبيل المفارقة لأن الكهنة في العادة محافظون. ولكن في حالتنا هذه كان الكهنة على رأس السلطة السياسية، وكان الكاهن الأعلى بمثابة الرئيس الديني والمدني للمجتمع. وقد كان مسؤولاً عن تحصيل موارد الدولة من خلال الضرائب وعن صرفها أيضاً. وبذلك فقد تنامت ثروته وثروات بقية العائلات الكهنوتية. كانت سلطة الكاهن الأكبر تخضع إلى بعض المراقبة من قبل الجيروسيا ـ Gerousia، مجلس الشيوخ اليهودي الذي عُرف فيما بعد بالسنهدرين[1]. ولكنه بالإضافة إلى ممارسة مهمات الحبر

(1) السنهدرين أو السنهدريم: مجلس قضائي ديني إداري أعلى لليهود، وأعضاؤه واحد وسبعون.

الأعظم الدينية، فقد كان أيضاً رئيساً للوزراء ووزيراً للخارجية في آن معاً، هذا يعني أن الشرائح العليا من الكهنة كانت مشغولة دائماً في تنظيم وإدارة العلاقات الدولية اليهودية، هذا الوضع جعلهم يميزون على المستوى السياسي الرسمي ما بين الثابت والأساسي في العقيدة اليهودية، كما كانوا يرونه، وما بين القضايا المفتوحة على التغيير والحلول الوسط، وكانت قاعدتهم العملية في ذلك هي: أن الأفكار الدينية، محلية أم أجنبية، كانت ترفض إذا لم يوجد لها سند في التوراة. ولكن لا بد من جهة أخرى من الترحيب بالتجديد الثقافي الذي يعد بتحسين العلاقات مع الخارج وبتحسين مستوى المعيشة في الداخل.

من خلال ذلك ظهرت فرقة الصدوقيين التي تنحدر من مجموعة عائلات كبيرة أسست الفئة الحاكمة من الكهنة. وقد انفصل أعضاء هذه الجماعة الثرية الارستقراطية ذات الميول الدنيوية إلى حد ما عن تطلعات الجماهير العامة. وآمنوا بالآراء الصائبة للآباء الأوائل كما تجسدت في التوراة المكتوبة ولا سيما «أسفار موسى». وتمسكوا بوجوب شرح هذه الأسفار حرفياً. لذلك فقد رفضوا، على المستوى الديني، الإيمان الشعبي بالملائكة والأفكار الرؤية الجديدة، وبشكل خاص، الأفكار حول بعث الجسد بكامل وعيه في الحياة الآخرة. وكانوا أكثر ليبرالية فيما يخص القضايا الثقافية المتعلقة بوجهات نظر أجنبية. حتى أنهم قد نعتوا بالمتهلينين Hellenizers، وهذا معناه أنهم كانوا من المناصرين النشطين لنمط الحياة الإغريقي. وكجماعة تؤمن في الحفاظ على بلدها. فقد عقدوا تسوية مع الرومان لينقذوا مؤسساتهم اليهودية من الدمار الذي حاق بها.

الفريسيون:

اعتبر الحشديم (أو «التقاة» و «المتزمتون» كما أطلقنا عليهم سابقاً) التسويات التي عقدها الصدوقيون باطلة دينياً ومكروهة. لذلك فقد استجمعوا قواهم بسرعة ليحاربوا إلى جانب يهوذا المكابي في حرب الاستقلال، لم يكن لديهم اهتمام بالسياسة كسياسة، ولا حتى بعالمية الثقافة الإغريقية، جل تفكيرهم كان مُنصباً على الدين اليهودي. ومن صفوفهم انبثقت الفرقة القوية

ذات النفوذ المعروفة بالفريسيين والتي ينتمي إليها معلمو الشريعة والحاخامات، والكثير من الفرق الكهنوتية. وكان الفريسيون ملتزمين ومخلصين للشريعة المكتوبة كما الصدوقيين. لكنهم قاربوها بعقل أكثر انفتاحاً كموضوع ذي أهمية حيوية بما يناسب الحياة الراهنة من خلال التطبيق، وهذا يعني إعادة تفسيرها باستمرار وجعلها قابلة للتطبيق، لا الامتثال لها كما هي وكما كانت في العهود السابقة. لذلك فقد اهتموا بالتراث الشفوي المصاحب للشريعة المكتوبة بالسوية نفسها، أي بما قدمه معلمو الشريعة والحاخامات من تعليلات وشروحات وتعليقات. لم يكونوا حرفيين في مقاربتهم للنص كما الصدوقيين. بل كانوا أكثر ليبرالية في تقبل الأفكار المصاحبة والمتوسعة في شرح التوراة. وكانت الشريعة بالنسبة لهم ذات وجهين وجه كتابي وآخر شفوي. وقد طغى الشفوي على الكتابي مع الوقت.

لقد آمنوا أن العالم، الذي عقد الصدوقيون مصالحة معه، كان محكوماً بيوم الحساب، وقد أراد الإله أن يدمره ويأتي بعصر جديد. اعتنق الفريسيون مفاهيم الخلاص الجديدة والتي تضمنت البعث من الموت ويوم الحساب الأخير. مع ذلك فإن أحلامهم قد خضعت لبعض الاعتبارات الدينية العملية. وآمنوا أن واجبهم الأساسي هو أن يُخلصوا للشريعة مكتوبة وشفوية، من الآن وحتى تحين نهاية العالم التي يحددها ويقررها الإله. ذلك معناه ألا يلتزموا بالبحث في الكتب المقدسة والروايات الدينية فحسب، بل الالتزام بالطاعة الأخلاقية والطهارة الطقسية الرسمية. (كان يجب أن يحافظوا على أنفسهم طاهرين من الأشخاص والأشياء النجسة)، وفوق ذلك المحافظة على الارتقاء والتطور الروحيين، وبالنتيجة الحياة كما يريد الرب. ذلك معناه، حياة مستمرة من الصلاة وإحياء ذكرى الأموات والذين من المؤمل أنهم كانوا صالحين بما يكفي ليستحقوا البعث والثواب في يوم الحساب. وعنى ذلك أيضاً الجهاد على الأرض للتحرر من القوى الدنيوية، التي تحد من حرية المرء ليعيش حياة طاعة لإرادة الله. كما عني في الوقت نفسه الرغبة في الموت بدلاً من القياس بتسوية على حساب الدين المقدس.

وعندما اغتر «يوحنا هيركانوس» وخلفاؤه من المكابيين بقوتهم الاستبدادية، وأصبحوا شديدي التعاطف مع الأفكار الصدوقية، انتقل الفريسيون من دعم العائلة الحاكمة إلى العداء الشديد لها. قوبل التمرد المتقطع من قبل الفريسيين بقمع عنيف ومجزرة دموية. وعندما تمكن الفريسيون بدورهم وكسبوا جولة كان انتقامهم شنيعاً. ونشبت نتيجة لذلك حرب أهلية. وتبعها طريق مسدود بين الطرفين، واستُدعي القائد الروماني بومبي الذي كان قد استولى على سورية للفصل في القضية. نزل الجنرال بومبي من سورية واجتاح البلد في الحال، وجعلها مقاطعة رومانية، حدث ذلك عام (63ق.م).

8- العهد الروماني

حتى 70 ميلادية

عندما دخل القائد الروماني بومبي دمشق، قصده الأخوان المتنازعان على العرش في أورشليم، وهما أرسطو بولس الثاني وهيركانوس أنتيبار، وهو آدومي متهور، اتفق مع بومبي على فتح أبواب أورشليم أمام الرومان مقابل تثبيت سيده هيركانوس ملكاً على أورشليم. وهذا ما حصل فعلاً، ولكن بومباي لم يجعل من هيركانوس ملكاً وإنما عينه في وظيفة الكاهن الأعلى الذي يتمتع بصلاحيات الحكم والإدارة، كما ثبت وزيره انتيبار في وظيفة الوزير الأول. وبعد الصراع على السلطة بين بومبي ويوليوس قيصر واندحار بومبي عمد يوليوس قيصر إلى تثبيت هيركانوس حاكماً مدنياً على مقاطعة اليهودية يحمل صلاحيات الحاكم المطلق. ولكن وزيره الأول أنتيبار قد اغتيل بعد قليل وخلفه في المنصب ابنه هيرود. وبعدما آلت السلطة في روما إلى أوغسطس كان هيركانوس قد توفي إثر عملية انقلابية، فعمد أوغسطس إلى تعيين هيرود ملكاً على اليهود، وسمح له بتوسيع ممتلكاته حتى شملت كل فلسطين وشرقي الأردن وصولاً إلى مناطق حوران السورية. ولكن اليهود كرهوا هيرود لقسوته ووحشيته، كما كره هيرود من جهته الأصولية اليهودية وعمل طوال عهده على قمعها. ومع ذلك فقد أعاد بناء هيكل أورشليم ووسعه حتى صار أعجوبة عصره. خلال ذلك كانت عوامل مهمة تتفاعل في الحياة الدينية اليهودية.

الأمل بالمخلِّص في ذروته:

منذ قدوم الرومان حتى تدمير أورشليم في سنة 70ميلادية، ازداد ترقب المسيح المخلص وسيطر على تفكير آلاف اليهود المعذبين. كان لديهم شعور عميق بأنه إذا كان الإله يهتم بشعبه المختار فلا بد أن يتصرف سريعاً. ونما أمل

متقد بخلاص روحاني من العذاب غير المستحق الذي حل بهم، وتزايد من خلال الفيض الهائل من الأدب الرؤيوي. وسار معظم هذا الأدب على نهج سفر دانيال (الذي كُتب في معظمه في السنوات الأولى من التمرد المكابي) وضع ذلك نموذجاً لإعادة رواية تاريخ اليهود من زمن السبي حتى زمن الكتابة، وبعبارات ملغزة عن وحوش بأجنحة وتماثيل جدارية تنكسر تحت الضربات، ليتجسد من خلال الترميز نهاية النظام العالمي الشرير وبعث الأموات الصالحين لينضموا إلى الأحياء الصالحين ويعيشوا في مسرة في عالم أفضل. تبعت الكثير من الكتابات نموذج داينا[1] في الحديث عن الخلاص المنتظر. ومن المهم هنا أن نقدم مثالاً عاماً عما وصل إليه ترقب المخلص في ذروته.

الاعتقاد الرئيس المسيطر الآن هو أن تدخلاً سماوياً سوف يأتي ويُحدث تغييراً جذرياً في نظام العالم. وبواسطة المسيح المخلص سوف يجمع الإله أتباعه الأحياء والأموات ويعيش معهم في نعيم أبدي. وهذا ما استدعى فكرة نهاية العالم، التي تسبقها علامات معينة يميزها البصير الفطن على أنها علامات النهاية. وفي اللحظة الأخيرة مع صوت «نفخة الصور» سوف يظهر المسيح الخلص من بين الغيوم محاطاً بملائكة السماء. سوف يكون ذاتاً روحانية خارقة القدرة، ولكنه مثل إنسان، ويمكن أن يدعى ابن الإنسان، ولكن يمكن أن يحمل أسماء أخرى مثل، المجتبى وابن داوود ومسيح الرب الممسوح بالزيت، والقاضي الصالح وأمير السلام وما إلى ذلك. وعندما يظهر سوف يلحق به الصالحون ويصعدون في الهواء، والأموات ينهضون من قبورهم. الآراء السابقة تمسكت بالقول إن اليهود المبرؤون من الإثم، فقط هم من سيلتحق بالمسيح المخلص. ولكن قدَّمَت التطلعات اللاحقة الأمل إلى الغرباء الصالحين بأنهم سوف يكونون أيضاً بين المشفوعين. في النهاية تم قبول الرأي الزرادشتي بأن كل الأرواح البشرية الخيرة والشريرة سوف

(1) ضاعت معظم هذه الكتابات، وتواريخ ما بقي منها من الصعب تحديده.

ستحضر إلى الحساب الأخير، وأمام كرسي المسيح المخلص سوف ينقسمون ما بين مشفوعين وتائهين، وسوف يرسل الأشرار إلى جهنم ذات النار الأبدية، أما الأخيار فسوف يدخلون جنة النعيم الأبدي مع ربهم الملك. وقد صُورت هذه الجنة بطرق شتى. ظن بعض الكتاب أنه سيتم التمتع بها على الأرض في جنة عدن مستعادة، فردوس أرضي. ووضعها آخرون في واحدة من السموات السفلى (كان يعتقد أنه يوجد سبع سموات، يشغل الإله السماء السابعة مع ملائكته المرافقين)، ودمج آخرون المفاهيم المختلفة وصور فردوساً أرضياً قائماً في أورشليم الجديدة التي سوف يسكنها المسيح والمختارون معه لمدة ألف عام قبل يوم الحساب؛ يأتي بعدها فردوس سماوي سوف يسكنه المشفوع لهم بعد الحساب. وصُوِّر الفردوس السماوي على أنه مروج خضراء وجداول جارية وأشجار مثمرة، حيث يجتمع الصالحون ويتمتعون بالأطايب ويترنمون بمجد الرب إلى الأبد.

شيع يهودية جديدة في العهد الروماني:

استمرت الفرق اليهودية القديمة خلال هذه الفترة، في نشاطاتها وأعمالها. وازداد اهتمام الصدوقيين بالسياسة أكثر من أي وقت مضى. واعتبر الفريسيون أنفسهم حماة وحاملي راية الدين اليهودي الحقيقيين، لا سيما وأن لهم أغلبية تمثيلية في السنهدرين، الذي يعتبر الهيئة البحثية التي تناقش وتنظم وتتابع الشعائر اليهودية. وكانت المدارس التي دعمها الفريسيون هي الأفضل في العالم اليهودي. وتباهوا بتخريج معلمين عظام من أمثال «هيليل» و«شاماي».

وظهرت في تلك الفترة فرقتان جديدتان ذات توجه سياسي واضح. الأولى جماعة صغيرة عُرفت بالهيروديين لأنهم دعموا سلالة هيرود. وقد ظهروا للوجود كفرقة في العالم السادس الميلادي، عندما عزل القيصر أغسطس ابن هيرود «أرخيلوس» عن كرسي يهوذا وعين مكانه حاكماً رومانياً،

وذلك بناء على التماس من وفد يهودي بعزل أرخيلوس. لم يكن الهيروديون معادين للثقافة الإغريقة ـ الرومانية، لكنهم أرادوا أن يحكموا محلياً مهما كلف الأمر.

وظهرت جماعة أخرى كانت أكبر عدداً وأكثر اختلافاً عن السابقة، إنهم «الغلاة Zealots»[1]، وكانوا مؤيدين متعصبين لسياسة التمرد ضد الرومان. وقد استوطنوا في القسم الشمالي من الجليل واتخذوه معقلاً وقاعدة. برزوا كمجموعة متماسكة ومنظمة في العام السادس الميلادي تحت قيادة يهوذا الجليلي الذي قاد ثورة ضد قيام الرومان بإحصاء سكان المنطقة. وقد قمعت الثورة بوحشية من قبل القائد الروماني «فاروس Varus»، لكن لم يضع هذا حداً لهياج الغلاة. وقد آمن جميع الغلاة أن خضوعاً مذلاً «للاستعباد الروماني» يعني التخلي عن يهوه ربهم وسيدهم الأوحد. وكانوا مقتنعين بأنهم بإشهارهم السلاح سوف يعجلون بمجيء المسيح المخلص، أو حتى بإثابتهم من خلال خروج المسيح من بينهم. (وبالمناسبة فقد ظنوا أن واحداً من فرقتهم كان المسيح المخلص).

وظهرت فرقة ثالثة، في تلك الفترة نأت بنفسها عن السياسة وحملت اسم «الأسينيون»، استوطنوا في أماكن متفرقة من فلسطين، بعضهم في القرى وآخرون في الريف المفتوح. وتحضيراً لمجيء المسيح فقد انسحبوا من فساد المجتمع المتمدن إلى عزلة الرهبنة، حيث كانوا يصومون ويصلون ويأكلون سوية، ويغتسلون بمواقيت محددة حسب الاغتسال الطقسي الموصوف (الوضوء)، والتزموا السبت بصرامة شديدة، واشتغلوا في الأعمال اليومية الخفيفة مثل الزراعة والحرف اليدوية. لم يمارسوا العنف وانتظروا باستكانة نهاية العالم. وكما أخبرتنا مخطوطات البحر الميت الشهيرة، فإن المجموعة الرئيسة قد انسحبت إلى قمة هضبة قرب قمران في ظل جروف صخرية تطل مباشرة على الشاطئ الغربي للبحر الميت. وكانوا قد التجؤوا إلى هذا المكان المعزول

---

(1) ويدعى هؤلاء أسفار العهد الجديد بالغيورين، أي الأغيار على الدين. ومنهم سمعان الغيور تلميذ يسوع المسيح، وهو غير سمعان بطرس ـ المترجم.

والمجدب لكي لا يزعجهم أحد. وهم في استغراقهم الذهني التام في البحث الديني والعبادة، وذلك منذ القرن الثاني قبل الميلاد. حمل مؤسس هذه الجماعة اسم «معلم البر» وهو من شراح ومعلمي التوراة. من ذلك التاريخ أصبحت ملكيتهم عامة، وتناولوا وجبات جماعية ومارسوا العبادة والدراسة جماعياً، نادرين أنفسهم بشكل خاص لنسخ المخطوطات من أجل مكتبتهم. كانوا يضعون المخطوطات على دكة طويلة مصنوعة من الجص الصلب. ويوجد في «كراسة النظام Manual of Disciplin» وصف لأسلوب عيشهم في جماعة تعاهدت على العيش في نظام دنيوي مختلف تماماً. لقد مارسوا التعميد كطقس طهارة يليه الاعتراف والتوبة. وكانوا يقومون بذلك بشكل منفرد عندما يبدو ذلك ضرورياً روحياً. وأطلقوا على أنفسهم قبل المسيحيين اسم أتباع الصراط وأبناء النور، لأنهم صوروا أنفسهم وكأنهم يعيشون تحت سلطة «أمير النور» ووضعوا أنفسهم على نقيض من «أبناء الظلام» الذين هم تحت حكم «ملك الظلام». وهذه مجموعة من الأفكار ذات طابع زرادشتي أكثر منها عبري. كان يقود الجماعة هيئة من الكهنة مكونة من اثني عشر عضواً، كما يروى، وبقوا كذلك حتى اختفائهم الكامل أثناء الحرب الرومانية على اليهود عام (681م).

وكما هو الحال دائماً، كان هناك عامة الناس غير المنظمين، والذين كان الكثير منهم غير مكترث بالأمور الدينية، على الرغم من محافظتهم على بعض الممارسات التي لها علاقة بالطقس الديني كالختان وتعليق «التعويذات» على عضادة الباب. بينما مارس آخرون تُقاهم بطريقة هادئة. وعندما التقى بعض من هؤلاء مع نجار شاب من الناصرة، استمعوا إليه بحبور مثلما استمعوا قبل ذلك إلى شخص نبوي اسمه يوحنا المعمدان كان يعمد بالماء لمغفرة الخطايا، لأن النهاية قريبة كما كان يؤكد. وقد كسب كلاً من يوحنا ويسوع أتباعاً، غير أن هيرود أنتيباس قطع رأس يوحنا المعمدان. وأمر بيلاطس البنطي بصلب المسيح. ولكن مجرى الأحداث في اليهودية كان يسير باتجاه آخر نحو الكارثة.

9- التشتت الكبير

أدى استياء اليهود المطرد إلى تصعيد مخيف في الأوضاع. وسيطر الاضطراب وإراقة الدماء على كامل فلسطين مع فترات قصيرة من الهدوء على امتداد ستين عاماً، وذلك بعد الثورة المجهضة التي قام بها يهوذا الجليلي في العام السادس ميلادي. وأدرك الرومان أن الشرط الوحيد للحفاظ على السلام هو ترك الدين اليهودي بحاله، فاعتمدوا ذلك سياسة لهم، مع متابعة إحكام قبضتهم على المنطقة. قسمت فلسطين إلى مقاطعات مع بداية القرن الأول. فثلاث مقاطعات حكمها أبناء هيرود، والرابعة التي كانت تتضمن (اليهودية) وأدوم والسامرة حكمها حاكم روماني أقام في قيسارية على الساحل. ومراعاة للشعور اليهودي لم يطبق الحكام الرومان على أورشليم الأعراف الإمبراطورية الرومانية المتعلقة بتقديس القيصر، ولم يفرضوا إقامة تمثال للإمبراطور على مذبح الهيكل ليكون موضوع العبادة. وقبلوا رسمياً بموافقة اليهود أن يقدموا قرباناً يومياً للإمبراطور على مذبح الهيكل، ومع ذلك كان اليهود يظهرون امتعاضهم عندما كان هيكلهم ينتهك. وعلى النقيض من ذلك فقد اعتقد بيلاطس أنه لن يلقى اعتراضاً إذا ما أتى بالقوانين الإمبراطورية وطبقها على أورشليم تحت جنح الظلام. ولكنه فشل في ذلك لأنه لم يأخذ بالحسبان احتراس وترصد اليهود له. واخطأ أيضاً عندما افترض أن اليهود لن يقوموا بأي رد فعل عنيف عندما استولى على مخصصات الهيكل واستخدمها من أجل زيادة طول قناة جر المياه إلى أورشليم. لقد احتج اليهود على ذلك حتى كادت أن تحدث ثورة.

تغير الوضع نحو الأفضل بين الطرفين أثناء حكم الإمبراطورين كاليجولا وكلاوديوس حيث كان «هيرود أغريبا» الأول: حفيد هيرود الكبير، يحكم

كامل فلسطين بعد أُقيل الحكام الآخرون. ولكن الرومان أعادوا الحكام المحليين بعد موت هيرود أغريبا الأول. وبينما حاكم يخلف آخر كانت الفوضى تتفشى وتتصاعد، وانتشر قُطّاع الطرق في كل مكان، وانفجر الشغب في أورشليم، حيث اغتيل كاهن أكبر كان يوصف بالانحلال. ووقع نزاع بين اليهود والغرباء، وبين اليهود والسامريين، وبين اليهود والرومان. وأصبح اليهود شعباً مذعوراً يكافح بيأس من أجل تقرير المصير.

غدا الوضع القائم الآن مفتوحاً على كل الاحتمالات. بما فيها الثورة واشتعلت الثورة عام 66 ميلادية مع اقتراب نهاية حكم الإمبراطور نيرون. بدأت الحرب بعزيمة وتصميم من كلا الطرفين. وانقسم اليهود فيما بينهم حول الانخراط في الحرب من الأساس، ولكن أموراً تغيرت فدخلوا الصراع متحدين. وفقد الرومان، من جانبهم، الصبر ولم يعودوا يطيقوا حماقات أكثر. ودخلوا الحرب وقاد قواتهم الجنرال فيسباسيان في البداية، ولكن موت نيرون استدعاه إلى روما ليتوج إمبراطوراً. عين فيسباسيان ابنه تيتوس مكانه ليخضع اليهود. وصل تيتوس بقواته في ربيع عام 70م فحاصر المدينة. وفي منتصف الصيف شن هجوماً بالمنجنيقات على أسوار المدينة فهدمها من ثلاث جهات ودخلت قواته إلى المدينة فأشعلت النيران في الهيكل وفي المدينة. وقام بمذبحة أودت بحياة عشرات الآلاف من السكان. وبعد أن تأكد من استتباب الأمور، عاد إلى روما حيث دخلها في موكب نصر وهو يجر قادة المتمردين في أغلالهم، وكانت كنوز المعبد التي غنمها محمولة على الأكتاف ومعروضة على أهالي روما. وبعد ذلك أشاد قوس نصر لتخليد انتصاره على أورشليم ما زال قائماً حتى اليوم.

علاوة على دمار المدينة، اختفى الكهنة مع أضاحيهم ومعهم الفرقة الصدوقية من المشهد التاريخي، بحيث لم يعد لهم أهمية، ولا حتى وجود واقعي. ولحق بهم الغلاة والإسينيون والهيروديون بحيث لم يعد يسمح بهم. لم يبق إلا فرقة الحاخامات، الفريسيون سابقاً، وطائفة ناهضة جديدة منشقة

دعي أهلها بالمسيحيين، الذي قوي عددهم في الأعوام اللاحقة. نجح الرومان في هذه المرحلة في تمزيق الدين اليهودي، بحيث تم فصل الروابط التي تربط كل كنيس ناءٍ مع الهيكل. وبعد أن فقد اليهود دليلهم وتاهوا لم يعد هناك من سبب لكي يتوجهوا في صلاتهم إلى أورشليم إلا من أجل الندب والنواح.

اتخذ التشتت اليهودي بعد عام 70م ميلادي شكل النزوح القومي. حيث هرب بعض سكان أورشليم شرقاً إلى بابل وجنوب شرق إلى الصحراء العربية حيث كانوا في منأى عن النفوذ الروماني، والتحق آخرون بأقرباء وأصدقاء لهم على امتداد حوض المتوسط. والبقية التي لم تكن تملك أي أواصر، هاجرت والتحقت بجماعات يهودية في سورية وآسيا الوسطى وروما ومصر وشمال إفريقيا وصولاً إلى إسبانيا.

لكن لم يرحل الجميع، حيث استقر بعضهم في المناطق الريفية في فلسطين على أمل أن يعودوا يوماً إلى أورشليم ويستردونها. ورفض الغلاة أن يصدقوا أن قضيتهم ميؤوس منها حيث تابعوا نشاطهم في المرتفعات. وظهرت عصابة متشددة من المتمردين، بعد ثلاث سنوات من سقوط أورشليم، واستوطنت قلعة على هضبة مسعدة بعيداً عن البحر الميت وقاتلت قتالاً بطولياً ثم انتحرت.

انفجرت آخر ثورة دموية في فلسطين بعد ستين عاماً من سقوط أورشليم. فعندما زار الإمبراطور هدريانوس اليهودية رأى بأم عينيه أن أورشليم ما زالت تقبع خربةً بعد نصف قرن من تدميرها، فأعلن عن نيته في إعادة بناء المدينة وإقامة معبد للإله جوبيتر في موقع الحرم اليهودي المدمر. وحالما غادر سورية هبت اليهودية للقتال.

وقد وصى الحاخام عقيبا، الرجل الأكثر ثقافة في عصره، بتعيين مخلص طامح قائداً للحرب الجديدة من أجل التحرر هو «باركوخبة Barkachba». استولى باركوخبة على أورشليم وأعلن اليهودية مقاطعة مستقلة. فوجه

هادريانوس إلى أورشليم حملة جديدة أخذت بالتمشيط البطئ لمناطق اليهودية التي سقطت تدريجياً بيد الرومان. بعد ذلك جرى الهجوم الأخير على أورشليم التي سقطت عام 135م وهدمت تماماً وسويت بالتراب، وبيع من بقي حياً من سكانها عبيداً في سوق النخاسة. ثم بنى هادريانوس في موقعها مدينة رومانية جديدة تحت اسم إيليا كابيتولينا، ومنع اليهود من دخولها تحت طائلة الموت. وعندما آلت المدينة إلى المسلمين بعد ذلك بعدة قرون. سمح لليهود بدخول المدينة، فكانوا يدخلون من أجل النحيب على بقية من الحائط الغربي للهيكل بقي قائماً. يدعى اليوم بحائط المبكى.

10- صناعة التلمود

لم يقطع اليهود الأمل أو يسلموا بما آلوا إليه. وعلى الرغم من فقدانهم للاستقلال القومي فقد بقوا مخلصين لذكرى الحياة في الأرض المقدسة. وتمسكوا معاً برابط ديني وثقافي متين، أخذ شكل المقاومة السلمية، وذلك بقيادة الحاخامات من زعمائهم المثقفين.

بينما كان «تيطس Titus» يحاصر أورشليم عام 69 ميلادي، استطاع الحاخام الأكبر يوحانان بن زكاي أن يهرب من الجيش الروماني إلى بلدة يبنه أو يمنية Jamnia في السهل الساحلي، حيث بدأ التعليم في «بيت العلم»[1]، في محاولة تتسم ببعد النظر لإنقاذ شعائر الدين اليهودي من الفناء من خلال تنسيق وتنظيم القوانين والمعتقدات الدينية لتتكيف مع المتغيرات الحاصلة. وكان يوحانان تلميذاً للمعلم والحكيم هيليل المتوفى كما يعتقد عام (10 ميلادي). لم يجمع حوله الطلاب والباحثين الذين كرسوا أنفسهم لدراسة وشرح الكتب المقدسة وآثار الأقدمين فحسب، بل نسق بين الأئمة وشكلوا مجمعاً تشريعياً ليقوم بتثبيت تواريخ التقويم اليهودي، مهمة كان يجب أن تنفذ كل سنة، وأن يقوموا بالإجراءات التنظيمية الضرورية على امتداد السنة اليهودية بالشكل المطلوب. وحل هذا المجمع محل السنهدرين الذي كان قد اختفى، وتحول هذا بالتدريج إلى السلطة المعترف بها على امتداد العالم اليهودي والذي يحكم ويقضي بحسب المعنى الصحيح والممارسة الصحيحة للشعائر اليهودية. وتم الاعتراف برئيس هذا المجمع من قبل الرومان حتى عام 425م باعتباره المرجع الأعلى لكل اليهود في الإمبراطورية الرومانية.

---

(1) بيت العلم عبارة عن مدرسة ملحقة بالكنيس اليهودي.

المختارات النهائية وتحديد الأسفار العبرية:

كانت إحدى المهام الملحة على باحثي مجمع يَبْنَهَ أن يُخضعوا للتدقيق النقدي النصوص المقدسة والمقروءة في الكنيس كمصادر تعليم روحي، حيث أصبح من المهم والملح تحديد أي النصوص تحمل صفة الصدقية والصحة وأيها لا تحمل هذه الصفة. وكان السؤال المركزي هو أي هذه النصوص يمكن الحكم عليه بأنه وحي، لأن النصوص السماوية يوحى بها ولا تكتب نتيجة لدوافع بشرية صرفة.

رأينا سابقاً أن ثلثي الكتاب المقدس العبري قد وجد في الفترة التي جاءت بعد عزرا. وقد كُتب الكثير من الأسفار منذ ذلك الحين وما بعد. بعضها كان استمراراً للتراث العبري وبعضها كان أمثالاً وعظية في أدب الحكمة، وبعضها كان شديد التطرف في توقعاته لنهاية العالم. لقد تعامل باحثو يَبْنَهَ مع ثلاث مجموعات كتابية على وجوه العموم. 1- التوراة أو الأدب الأساسي الديني الذي يتركز في الميثاق الموسوي. 2- النبييم (أسافر الأنبياء) أو الأدب الصادر على الأنبياء. 3- الكيتوبيم أو الكتب وهي الكتابات المتفرقة التي اكتسبت مكانة مقدسة أو شبه مقدسة.

تكونت التوراة المكتوبة (الشريعة) من خمسة أسفار أُطلق عليها اسم أسفار موسى، وهي التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية، والتي تعود قدسيتها إلى القرن الخامس ق.م وأدرجها باحثو يَبْنَهَ في الكتاب المقدس كأمر مفروغ منه. بينما اكتسبت أسفار الأنبياء المكانة القانونية في القرن الثالث ق.م. وهي تقع في ثلاث مجموعات: الأولى الأسفار التاريخية التي تخبرنا في جزء منها عن أنبياء ما قبل التدوين الذين لم يدونوا تعاليمهم كتابة، وهي أسفار يشوع والقضاة وصموئيل والملوك. الثانية كتابات الأنبياء الذين تركوا إرثاً أدبياً عظيماً وهم إشعيا وإرميا وحزقيال. والثالثة: النصوص النبوية الأقصر وهي أسفار هوشع ويوئيل وعويديا ويونان وميخا وناحوم وحبقوق وصفنيا وحجي وزكريا وملاخي. لم يكن هناك مشكلة في قبول المجموعات الثلاث على أنها موحى بها سماوياً.

وقد وجد باحثو يبْنهَ صعوبة في النهاية في تحديد مكانة أسفار «الكيتوبيم» والتي أطلق عليها اسم «الكتابات الأخرى لأسلافنا». وقد قبل الباحثون إدخال أسفار أخبار الأيام الأولى والثاني وعزرا ونحميا والمزامير والأمثال وأيوب وراعوث والمراثي

ودانيال والجامعة ونشيد الإنشاد وأستير. كان هناك تـردد في قبـول الأسـفار الثلاثـة الأخيرة، ولكنها قبلت أخيراً بحجة الاقتناع بأن سفر الجامعة هو للملـك سـليمان، وأن نشيد الإنشاد يحمل معنى أعمق من محتوياته الجنسية التي بها لأول وهلة، وأن سفر أستير (بعد استبعاد بعض إصحاحاته) يقص سلسلة من الأحداث كانـت مهمـة تاريخياً. أما بقية الأسفار، فقد صنفها مجمع يبْنهَ على أنها نصوص مفيدة ولكنها غير مقدسة[1]، وبينها أسـفار إسـدراس الأول والثـاني وطوبيـث ويهوديـث والفـصول المستثناة من أستير وحكمة سليمان والأمثال وباروخ ويشوع بن سـيراخ والمكـابيين الأول والثاني اللذين تناولا تاريخ تحرير اليهودية في القرن الثاني ق.م.

تم إقرار أسفار الكتاب المقدس بمجملها مع حلول عام 90 مـيلادي حيـث اعتبرت «كلام الله»، وشـكلت «الكتـاب المقـدس المثبـت»، الـذي لـن يـتغير أو يضاف إليه جديد. وقد اعتبر اليهود أن أسفار الكتاب المقدس هي نـصوصهم المميزة. واكتسب الكتاب المقدس تـسمية «العهـد القـديم» بـين المـسيحيين أو «الميثاق القديم» بمعنى أدق، وذلك ليميزوه عـن «العهـد الجديـد» أو «الميثـاق الجديد»، حيث اعترف المسيحيون بأن كلا الكتابين هما «كلام الله».

المشنا (الشريعة اليهودية الشفوية):

تم الانتهاء من تثبيت معظم الكتاب المقدس أثناء وجود مدرسـة يبنـه علـى امتداد ستين عاماً. ولكن بالإضافة إلى دراسـة هـذا المجمـع للـشريعة المكتوبـة (التوراة) فقد أخذ المجمع أيضاً بتثبيت الـشريعة الـشفوية، الحلاكـاه Halakah الـتي وصـلت مـن خـلال مـأثورات الماضـي، مـع شـروحاتها الـتي قـام بهـا الحاخامات، وتدعى بالمدراش. ونتج عن ذلك كم هائل من القواعد والأحكـام التي كان لا بد أن تجمع في النهاية من أجل حفظها. كان الحاخام عقيبا هو الذي أسس طريقة لتصنيف وجمع مادة الشريعة الشفوية تحت سـتة عنـاوين عريـضة. وهكذا بسط مهمة التصنيف والتبويب لكامل التراث.

---

(1) أعطيت المجموعة الأخيرة مـن الأسـفار الاسـم الإغريقـي «أبوكريفـا» ومعنـاه المخبـوءة أو المحفوظة أو غير مسموح ظهورها. وقد تبنت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية بعض هذه الأسفار.

وضعت الإجراءات القمعية التي قام بها هادريانوس في أعقاب الحرب نهاية لمدرسة يَبْنَهَ، حيث هلك عقيبا خلال النزاع. كما وفقد حاخامات وباحثون آخرون حياتهم. لكن الذين نجوا، حملوا معهم المدونات إلى الجليل حيث تتابع العمل عليها في أوشا Usha في المناطق الداخلية، وفي مناطق أخرى متفرقة مثل صفورية وطبريا ومناطق أبعد في الداخل بعد ذلك.

لقد خرّجت مدارس الجليل معلمين كباراً من بينهم الحاخام مائير والحاخام يهوذا، وقد ارتبط اسمهما بتأليف وتجميع المشنا والتي احتوت على أربعة آلاف مادة شرعية وأخلاقية تهدف إلى تفسير وملائمة التوراة الأصلية مع متغيرات القرن الثاني الميلادي. تعتبر المشنا عملاً ضخماً ومفصلاً احتوى على إحالات على القرارات الشرعية التي أصدرها الحاخامات الكبار في الأجيال السابقة. وقد اكتسبت سلطة التوراة نفسه بعد الانتهاء من تدوينها.

عندما اكتملت المشنا عام 220 ميلادية كانت قد ضمت قرارات وأحكام نحو 150 من كبار المعلمين «Tannaim» في إسرائيل. ويلاحظ المرء أن طيف موضوعاتها واسع جداً. يهتم قسم منها بالأعياد الفصلية وأيام الصوم، وآخر بالصلوات والأدعية وتشريعات العمل الزراعي، وثالث بالنساء وتشريعات الزواج والطلاق، ورابع بالتشريعات المدنية والجنائية، وخامس بالمقدسات ولا سيما التقدمات والقرابين الطقسية، وسادس بتشريعات الطهارة الطقسية للأفراد والمواد وكيف يجب أن يُطهّر اليهودي نفسه عندما يتنجس.

ازدهرت المدارس في الجليل لمدة قرن وبعدها تلاشت أهميتها. وبرهنت المشنا خلال ذلك أنها مرجعهم الوحيد العظيم. فقد أدى الوهن الروحي والضعف الاقتصادي الذي حل باليهود، نتيجة الحرب المدمرة، دوراً في سلبهم لقدراتهم الخلاقة، واستمرت مدارسهم في الوجود لقرنين آخرين وساهمت في التعلم اليهودي عبر التلمود الفلسطيني، ولكن القيادة الفكرية كانت قد انتقلت منذ زمن إلى الزعماء الروحيين ليهود بابل.

تمتعت المدارس اليهودية البابلية بحياة أطول. لقد كان لليهود وجود في بابل منذ دمار أورشليم الأول على يد نبوخذنصر الكلداني. ثم جاء الدمار الثاني عام 70م

على يد الرومان ليرفد ذلك الوجود القديم بمهاجرين جدد، حتى ليقال إن عدد اليهود في بابل قد وصل إلى نحو مليون نسمة. وكان الفرس قد أعطوا اليهود هامشاً كبيراً من الحرية والاستقلالية، حتى أنهم اعترفوا بأحد قادتهم المنحدر من سلالة داوود ويدعى جالوتا (جوليات) رئيساً مدنياً عليهم. وقد كان لحاخامات مدرسة بابل أثر كبير على تطور الدين اليهودي بشكل عام. وبفضل جهودهم ظهر الكتاب الضخم ذو الأجزاء المتعددة المعروف بالغمارا، أي التعليم الإضافي.

الغمارا والتلمود:

لم ينه، في الواقع، اكتمال المشنا عملية استكشاف وتثبيت تفاصيل الدين والحياة اليهودية الأرثوذكسية فقد أصبحت المشنا ذاتها قاعدة ومنطلقاً لشرح إضافي، لأنها كانت في كثير من أجزائها مختصرة لدرجة الغموض، لذا فقد كانت بحاجة إلى توضيح وتفسير. علاوة على ذلك، فإن المشنا كانت مكرسة أساساً لدراسة الشريعة غير المكتوبة ـ الهالاكاه، وتضمنت قسماً صغيراً نسبياً من التقاليد الشفوية التي يسميها اليهود الهاغاداه Haggadah، والتي تعني الأعراف اللا فقهية، والتعاليم التاريخية والأخلاقية والدينية المتضمنة في التراث الحاخامي. وكانت الهاغاداه هي المادة التي تُذكر بمواعظ وخطب المدرسة والكنيس. والهاغاداه بحد ذاتها أهم بكثير من الهالاكاه أو الأعراف الشرعية، لأن الهدف منها كان الإرشاد والتهذيب، إن لم يكن الترفيه عن الناس العاديين من خلال القصص النابضة بالحياة التي توضح معنى الحقائق الدينية. امتلأت الهاغاداه بقصص عن التاريخ اليهودي وحكايا عن حكماء وعظماء، ونبوءات حية عن الثواب والعقاب في الحاضر والمستقبل، وتعليقات بليغة لحاخامات ومعلمين كبار من إسرائيل حول حقائق الكتاب المقدس. لذلك وبعد اكتمال المشنا على يد الباحثين البابليين والفلسطينيين، الأمر الذي كان أساسياً، انشغلوا بتدوين ومحاولة الاتفاق على الأجزاء غير المدونة من الهاغاداه، مدققين في كل قصاصة من العلم اليهودي لم تكن موجودة في المشنا كي لا يضيع أي شيء.

بعد ذلك، وفي الربع الثاني من القرن الثالث، وبعد انتقال الزعامة الفكرية إلى باحثي بابل بوقت وجيز، جاء العهد المتشدد للسلالة الساسانية وحل محل الحكم

البارثي المتسامح. في هذه الفترة التي سيطر عليها المجوس (رجال الكهنوت الزرادشتي)، بدأ اليهود البابليون يعانون الاضطهاد بعد قرون من الأمان والازدهار. حرم عليهم دفن موتاهم في الأرض، لأن ذلك، من وجهة نظر الزرادشتيين، سوف يؤدي إلى تلوث التربة. وفرض عليهم إرسال حصة من مواشيهم للتضحية بها على المذابح الزرادشتية. فنظراً للتقدير الكبير الذي قدمه المجوس للنار في تلك الفترة. فقد حظروا الاستخدام الطقسي للنار على غير الزرادشتيين. عانى اليهود صعوبات جمة نتيجة لذلك، لأن المشنا تأمرهم بإشعال شمعة السبت قبل حلول ظلام يوم الجمعة، وبإشعال السراجات عند انتهاء اليوم المقدس، طقوس لازالت تمارس حتى الآن. قادت محاولات الحظر هذه إلى شغب ومجازر. وتمت الإغارة على بعض المدارس والأكاديميات وإغلاقها في خضم المحن التي تلت.

نتج عن الصعوبات الجديدة حماسة أكبر لحفظ العلم اليهودي. وتم أخيراً تنظيم المكدسات الضخمة لشروحات الحاخامات وجُمعت كل من الهالاكاه والهاغاداه غير المدونة في الغمارا ونتج عن ذلك هذا الأثر الأدبي الضخم للمدارس البابلية، ومن جمع المشنا مع الغمارا نتج التلمود. اكتمل التلمود مع نهاية القرن الخامس الميلادي وكان علامة بارزة في التاريخ اليهودي. وقد اعتُمد منذ اكتماله مرجعاً وحيداً، باعتباره عملاً مختصراً جامعاً رسمياً، وموسوعة للتوصيفات والشروح لكل تفصيل في مناحي الاعتقاد والممارسة اليهودية الأرثوذكسية. كانت أجزاؤه الستة الكبرى وأبحاثه الثلاثة والستين بمثابة اللحم والشراب لليهود المضطهدين الذين هربوا من الشرق إلى الغرب وبالعكس مرة أخرى. أثناء المحنة الطويلة في العصور الوسطى، لم يكن لحجم التلمود الضخم تأثير سلبي في جانبه الروحي، مما يعتبر حالة استثنائية نوعاً ما. كان متراساً للمقاومة الأخلاقية التي انتصبت عالياً ووقفت بثباتٍ تَفوّقَ على أحجار جدران الغيتوهات التي طوقت أوربا بها اليهود. صمد التلمود ليغذي أرواح المضطهدين الذين عقدوا العزم على العيش وفق تعاليمه أو الموت دون ذلك. على الرغم من الحكم عليه بأنه سحر وتراث شيطاني، وعلى الرغم من حرقه في الأسواق وتمزيقه إرباً ورميه في الماء من قبل السلطات المدنية، وعلى الرغم من أن قارئه العادي قد يضحك من مضمونه، إلا أن التلمود كان بالنسبة لليهود بمثابة حكمة الله.

11- اليهود في العصور الوسطى

تأثر الوضع اليهودي بعمق بالمسيحية والإسلام في بداية العصور الوسطى. فبينما نزعت المسيحية إلى العدوانية كان الإسلام متسامحاً إن لم يكن ودوداً.

لم تكن العلاقة بين اليهود والمسيحيين يوماً جيدة، حتى منذ البداية. فمنذ القرن الأول الميلادي كان موقف اليهودية يحدد رسمياً من قبل الحاخامات الذين رفضوا الادعاء المسيحي بأن يسوع هو المسيح، أي المخلص. على الرغم من ذلك لم يتخل المسيحيون عن الأمل بأن اليهود قد يقتنعون في النهاية بقبول المسيح مخلصاً. حاول مبشروهم والمدافعون عن الدين، على مدى قرنين، وبنية صادقة جادة استمالة اليهود إلى دينهم، لكن نجاحهم كان ضئيلاً مقارنة بالجهود التي بذلوها. لم يقتنع اليهود بالتعاليم المسيحية في معظم الأحيان، لا سيما بعد أن حمل القديس بولس الإنجيل المسيحي إلى أوربا وقام الإغريق الذين دخلوا الدين المسيحي بوضع حياة يسوع في الإطار الكوني للفلسفة الإغريقية، وطوروا فلسفة لاهوتية حول شخصية يسوع كانت جريئة في اتساعها التأملي. وقد سبب القديس بولس فجوة إضافية بالادعاء بأنه ليس على المسيحيين اتباع كل تعاليم التوراة كما يفعل اليهود. لقد نظر الحاخامات إلى هَلْينة الدين المسيحي بنفور. لماذا كان عليهم أن يقبلوا بالفرضيات الغامضة والضبابية للتأمل اللاهوتي بدل الوقائع الأخلاقية المادية لطريقة حياة مقدسة يسوغها تراث مديد موحى به من الإله؟ أصبحت العداوات المضمرة في هذه الحالة حقيقة سياسية، لا سيما بعد تحوّل الإمبراطور قسطنطين في عام (312 ميلادية) إلى المسيحية، وارتقائها اللاحق إلى مرتبة دين الدولة، لم يكن الأساقفة المسيحيون الذين أصبحوا عظيمي النفوذ في العالم، راضين عندما وجدوا أن اليهود قد ازدادوا صلابة في مقاومتهم للمسيحية بعد أن صارت

الدولة تدعم الدين المسيحي. اشتدت عداوة المسيحيين لليهود مع تقدم العصور الوسطى، وتفجرت عنفاً في بعض الأحيان.

عامل المسلمون اليهود بشكل أفضل. وأظهروا لليهود في فلسطين وسوريا وبابل تسامحاً بل وحتى لطفاً جزئياً، لأن اليهود نظروا إليهم كمخلصين لهم من المسيحيين والزرادشتيين، لذا مد اليهود يد العون في التجسس والاستطلاع لصالح المسلمين، ومن ناحية أخرى فقد وجد اليهود تشابهاً واضحاً مع المسلمين من الناحية الثقافية والعرقية والدينية. لذلك ازدهرت المدارس في بابل مرة أخرى وأصبح أمير المنفى شخصية قوية في البلاط الإسلامي في بغداد، وبين ليلة وضحاها تحول التجار اليهود، وهم في أعقاب الفاتحين المسلمين، إلى تجار أثرياء يمارسون تجارتهم من طرف العالم المتوسطي إلى طرفه الآخر. كان من الصعب أن يستمر الوضع على هذا المنوال المزدهر، تدهورت الأوضاع الاقتصادية وجاء الأتراك، وبدا اضطهاد اليهود مرة أخرى. لذا فقد رحل العديد من علماء اليهود البابليين مع ذويهم إلى اسبانيا في القرنين العاشر والحادي عشر، بحيث كان العالم اليهودي يعيش ذروته منذ القرن الثامن تحت الحكم المتسامح للمسلمين. وهناك انضموا إلى إخوانهم اليهود الأسبان وتعاونوا على خلق «العهد الذهبي» للعلم والفلسفة الدينية والصوفية اليهودية في الغرب.

فكر جديد في بابل وأسبانيا:

أنتج اتحاد مصدري الديانة اليهودية الشرقي والغربي هذه الحقبة الإسبانية المزدهرة والمميزة. كان للمعارف اليهودية في الغرب الميزات التالية على الأقل: استفادت أولاً من العلوم العربية التي تميزت في الرياضيات والفلك وأعادت اكتشاف أرسطو. وثانياً استفادت من نهضة الشعر والأدب اليهودي الرفيع التي كانت في حينها في بداية نهوضها في القرن الحادي عشر. لكن العلماء من بابل كانوا يملكون المقومات للمساهمة في التقدم الخلاق، فلم يكونوا تلموديين ضيقي الأفق. لقد حدث أمر ما حررهم من الالتزام الضيق بنص التلمود قبل أن

يغادروا بابل، وكان ذلك نتيجة لهرطقة القرائين[1] ورد الفعل التصحيحي الذي قاده الباحث سعدية بن يوسف الفيومي[2] في أعقاب ذلك.

لم يكن التلمود مقبولاً في كامل العالم اليهودي كدليل حياة معصوم عن الخطأ وغالباً ما كان الطامحون بمرتبة المخلص يحررون أتباعهم من الالتزام بتعليمات التلمود ويعيدوهم للتوراة في كثير من الأحيان. وبين الحين والآخر كانت ترتفع أصوات تنادي بفكرة أن التلمود بعيد عن الحقائق الإلهية الموحاة إلى إسرائيل القديمة. كان أقوى هذه الأصوات صوت البغدادي عنان بن داوود الذي كان مرشحاً لمنصب أمير المنفى، والذي قاد حركة دينية جديدة دعيت بحركة أبناء النص التي كانت تعلن أن السلطة الروحية العليا هي الكتاب المقدس اليهودي، وعلى وجه الخصوص أسفار الشريعة الخمسة. ولكن اليهودية الرسمية اعتبرت عنان بن داوود مهرطقاً في عام 767م. دعيت هذه الحركة باسم القرائين أيضاً. وقد شاع بينهم عدم تناول اللحم ولم يشعلوا قناديل السبت التي فرضتها المشنا، واعتبروا اللجوء إلى الأطباء ضعفاً في الإيمان بالوعد التوراتي «أنا الإله الذي يشفيك». وتم إحياء العديد من الطقوس القديمة التي أهملت. انقسمت الحركة إلى جماعات متفرقة نتيجة تشديدها على الشرعية الكاملة للتفسيرات الفردية للنصوص المقدسة القديمة، مما أدى إلى اندثارها أخيراً، بعد أن انتشرت بشكل محدود في العالم اليهودي وصولا إلى روسيا. وتكمن أهمية هذه الحركة في أنها دفعت اليهود إلى عدم الاكتفاء بالاستنتاج القائم على المنطق من الكتاب المقدس، وعلى البحث الهادف إلى التكيف مع العصر. وهذا ما يقودنا إلى الحديث عن سعدية بن يوسف.

---

(1) القراؤون: فرقة في اليهودية ترفض التلمود وتلتزم بالتفسير الظاهر للتوراة ويحاولون استنباط الأحكام من ذلك.

(2) سعدية بن يوسف الفيومي 882 - 942 فيلسوف وباحث يهودي زعيم أكاديمية الحاخامات في بابل في العام 922 ميلادي ولد في الفيوم في مصر كان من أشد المناهضين لهرطقة القرائين كما يدعى.

نتيجة لإدراكه أن القرائين كانوا مدفوعين بدافع قوي في العودة إلى النصوص العبرية القديمة، فقد بدأ سعدية بن يوسف بترجمة هذه النصوص إلى اللغة العربية لإتاحتها للمسلمين المهتمين ولليهود الناطقين بالعربية الذين يعانون من صعوبة في قراءتها في أصلها العبري. ورغب أيضاً أن يبرهن في كتاباته تلك على معقولية التلمود بالرجوع إلى النصوص العبرية وإلى العدد المتزايد للترجمات العربية للأعمال الفلسفية والعلمية الإغريقية. كان الوحي والمنطق (النصوص الدينية والفلسفة) متكاملين وضروريين في رأسه. وحاول تنسيق الفكر اليهودي من جديد جاعلاً إياه يتوافق مع أفضل فكر عالمي. وكان بذلك أباً للفلسفة اليهودية في العصور الوسطى. حمل الباحثون البابليون مفاهيم سعدية بن يوسف المتحرر معهم إلى إسبانيا، حيث ساعدت هذه الأفكار في صياغة المسار الذي سلكه اليهود المتنورون هناك.

أنتج الالتقاء المثمر للتأثيرات الشرقية والغربية انتعاشاً فكرياً ملحوظاً حيث أصبحت أسبانيا المركز الرئيس للعلم والثقافة اليهوديين. وشجع تعاقب مجموعة من الباحثين المتميزين، في أكاديمية قرطبة، على بروز شكل حي من العلم والأدب اليهودي المتميز. وقد ألف ابن جبرول ويهود حلفي وابنا عزرا كتباً في الشعر وكتبوا رسائل علمية واضحة ومتقنة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر. وتحول بعض من شعرهم إلى تراتيل وجدت طريقها إلى الكنيس وذلك لورعها وسلاستها.

موسى بن ميمون:

يعتبر موسى بن ميمون من أهم الباحثين اليهود في القرن الثاني عشر (1135 - 1204) ميلادي. ولد موسى في قرطبة وهرب مع عائلته وهو شاب من الاضطهاد (هذه المرة من المسلمين المحافظين) إلى القاهرة عبر المتوسط، حيث أصبح طبيباً مرموقاً عند صلاح الدين الأيوبي، وذاعت شهرته في كل العالم اليهودي نتيجة لرسائله الثلاث المهمة. كانت الأولى تعليقاً على المشنا سعى فيها إلى تلخيص وتوضيح نصوصها المعقدة مشدداً على أخلاقيتها

وعقلانيتها. اعتبر موسى أن المشنا تلتزم بالمبدأ الإغريقي الذي يدعمه أرسطو وهو: «لا فائدة من الإفراط». وقد كتب شروحاته بالعربية ليصبح عمله متاحاً لأوسع شريحة من اليهود التي تعيش في العالم الإسلامي. وقدم في نهاية الشروحات نصه البياني الشهير حول المبادئ الثلاثة عشر الرئيسة للعقيدة اليهودية التي التزم هو أيضاً بها[1]. تم الاعتراف بمؤلفه الثاني رسمياً، غير أنه لم ينج من الانتقاد الشديد، وقد كتبه لقرائه اليهود بالعبرية المستخدمة في المشنا وحمل عنوان (مشنا التوراة) أو التوراة الثانية أو رفيق التوراة، وقد كان تحريراً يعتمد على الدمج بين التوراة والتلمود، مع تثمين كبير لسلطات التانائيم[2] والأمورائيم[3] والجيونيم[4] في فلسطين وبابل.

لم يتردد ابن ميمون عن الخروج بأحكام يستلهم فيها سلطته الخاصة، حتى أنه أضاف قوانين جديدة أتمت وحتى ناقضت التلمود، لكنه نجح في جعل التوراة قابلة للفهم وسهلة التطبيق. مؤلفه الثالث والمهم كان «دليل الحائرين» المكتوب بالعربية لإتاحته لأكبر عدد من القراء. العمل عبارة عن امتحان منطقي للعقيدة اليهودية يحابي بشكل واضح منطق أرسطو حتى عند إصراره على القاعدة الدينية عن كون التوراة العبرية وحياً إلهياً. كان هدفه من ذلك التوفيق بين الدين والعلوم، والعقيدة والمنطق، الدين اليهودي والفلسفة. كان يقول بأن الوحي: جاء من أجل الإيمان، ولكن المنطق يمكنه الوصول للحقيقة أيضاً.

---

(1) المبادئ باختصار هي: «أؤمن إيماناً مطلقاً بأن الإله هو خالق الأشياء وهو واحد أحد. وهو متفرد بوحدانيته؟ ولا شكل ولا لون ولا صيغة له. وهو دائم سرمدي. والصلاة له وحده، وأن كل كلام الأنبياء حق، وأن موسى رئيس الأنبياء، وأن الشريعة التي أعطيت إلى موسى قد انتقلت من دون تبديل ولا تحويل. وأن هذه الشريعة سوف لن تتبدل ولن يوحي بغيرها. وأن الإله يعلم ما تكنه الصدور وما يفعله البشر. ويثيب المؤمن المطيع ويعاقب الباغي مقترف الذنوب. وأن المخلص قادم وسف يأتي البعث بعد الموت».

(2) التنائيم جمع (تانا) بالآرامية معلم. وهؤلاء: هم معلمو القرنين الأول والثاني.

(3) الأمورائيم مع (أمورا) بالآرامية مفسر. أي الذين فسروا المقاطع الصعبة من المشنا.

(4) الجيونيم من العبرية (غاوون) وتعني أصحاب النيافة أو الشأن.

ولأن المنطق يمكن أن يوصل الإنسان إلى المدى الذي يمكن للوحي أن يكمله، فإن وحياً كهذا لا يمكن أن يناقض المنطق، بل هو منطقي في كل أجزائه. وكون المعجزات مناقضة للمنطق فيجب أن تفسر بشكل عقلاني، ومن هذا المنطق فإن إضفاء الصفات البشرية على الألوهة يغدو بمثابة استعارات وكنايات تحمل معاني لاهوتية أخلاقية. إن وصف عملية الخلق في سفر التكوين يجب أن تفسر مجازياً وهذا ما يمكننا من معرفة الحقائق العليا حول الله ومشيئته للجنس البشري[1].

لم يأخذ العديد من الباحثين اليهود في ذلك الوقت بعقلانية موسى بن ميمون، على الرغم من الحافز العقلي الذي تثيره هذه الأعمال. وقالوا إن الدين رمزي باطني بطبيعته ويتعامل مع معانٍ خفية عصية على المنطق ولا يعرفها إلاّ الورعون الأنقياء. وكان الباحث نحمانيدس (1195-1270م Nahmanides)، هو الناطق الأبرز والقائل بوجهة النظر هذه. واعتقد نحمانيديس أن الإنسان لا يمكنه أن يستدل على حقيقة الله بعقله المحدود والمعرض للخطأ. يوجد طريق واحد لمعرفة حقائق الدين، يجب أن يكون لدى الإنسان الإيمان والإحساس العميق بأن الإله هو الكل في الكل. وتبعه في ذلك (حسادي كريسكاس Crescas Hasadi في القرن الرابع عشر) القائل إن المرء يمكن أن يصل إلى الإله عبر الحب والطاعة فقط، وليس عن طريق البحث العقلي الخالص.

القبالة Kabbala:

لكن القناعة بأن للدين معانٍ خفية، كانت ستُدعم من جانب آخر وهو مدارس القبالة. والقبالة هي نظام من اللاهوت التأملي والرمزية العددية الغامضة، نظام أدى لانتشار جديد للحكمة السرية والتراث الباطني أذهل الكثيرين بالترتيب الغامض للكلمات والأرقام، مدعياً أنه يكشف «المعنى الأعمق» للنصوص العبرية. مكنّت حقيقة أن الأبجدية العبرية ترمز في الحقيقة للأرقام أيضاً «أ هي 1، ب هي 2، ج هي 3، وهكذا» مكنّت المفسرين من

(1) هذا الموقف العقلاني من الدين ومسائله: قد سبق إليه إخوان الصفا قبل ابن ميمون بنحو قرنين من الزمان. ولا شك بأن ابن ميمون قد اطلع على رسائل الإخوان وتأثر بها ـ المحرر.

تحويل أي كلمة أو جملة إلى سلسلة أرقام، وبدا للقباليين أن هذا يعطي نتائج مهمة في حالة الأسماء والصفات المتعددة للإله. حتى الحاخامات والباحثون استسلموا للجناسات التصحيفية المطرزة[1].

أهم كتب القبالة هو «الزوهار» ويعني «البهاء أو الرونق» وقد كتبه موسى الليوني في أسبانيا نحو عام 1280م، وجاء الكتاب تعبيراً عن حاجة أساسية وعميقة لم تجد تحقيقها الكامل لا بالالتزام الكامل بالتلمود ولا بعقلانية موسى بن ميمون الباردة. سعت القبالة وراء تجربة دينية للقوى الروحية الخفية في العالم، كما هو حال الباطنية في المسيحية.

كما انكبت القبالة على المشكلات الميتافيزيقية، ومنها مشكلة كيف خلق إله كامل عالماً ناقصاً أو غير كامل. بعبارة أخرى، كيف يمكن للا نهائي أن ينتج المحدود دون انتقاص من ذاته. لحل هذه المشكلة الفلسفية رجعت القبالة في النهاية إلى الفيلسوف الأفلاطوني فيلو الاسكندري اليهودي، وإلى الغنوصيين العرفانيين، معتمدة نظرية الفيض الإلهي القائلة بأن الله غير المحدود قد فاض عنه، كما يفيض النور من الشمس، عشرة أرقام يمثل كل منها كينونة روحانية. لدينا أولاً، الإرادة الإلهية التي صدر عنها «الحكمة» مذكر، والمعرفة ـ مؤنث. وهذان بدورهما أنتجا «النعمة ـ Grace» مذكر والقوة ـ مؤنث[2]،

---

(1) الجناس التصحيفي المطرز أو جناس القلب المطرز ولا سيما في الشعر، هي الحروف الأولى من أبيات متتالية في قصيدة تكون عبارة أو كلمة. فإذا كانت حروف أوائل أبياتها المتتالية تتبع في ترتيبها ترتيب الحروف الأبجدية سميت بالمطرزة الأبجدية Abecedaruius وهو الجناس الأكثر شيوعاً ومثال عليه مزامير داوود 34 و37 و111 و119. وإذا عكسنا الآية أي بدأنا بالحرف الأول من آخر بيت رجوعاً إلى أول بيت نحصل على كلمة أو عبارة عكس الأولى ـ المترجم.

(2) تميل القبالة إلى التشديد على التفاعل بين مبادئ المذكر والمؤنث التي تفعل في نظام العالم، حتى أن المبدأ الأنثوي قد صار جزءاً من مفهوم الألوهة من خلال «ماترونيت - Matronit» الشريك المؤنث ليهوه الملك.

وعن اتحاد هذين الأخيرين نتج «الجمال»، وعن النعمة والقوة والجمال نتج العالم المادي[1].

كانت نتيجة هذه التأملات الاعتقاد بأن الإنسان، الذي يتمتع بكل هذه الخصائص، هو كون صغير ممتلئ كونية سحرية، يمكن التحكم بتوجهاتها من خلال صيغ فعالة وأسماء ورموز .وسيعرف المسيح عند قدومه باسمه ورمزه الغامضين.

أنتجت هذه المضامين المثيرة النابعة من الاعتبارات السابقة عدداً وافراً من المخلصين المزيفين الذين خيبوا آمال المؤمنين في وسط أوربا.

وقد أصبحت صفد في فلسطين المركز الرئيس للقبالة منذ منتصف القَرن السادس عشر.

الحملات الصليبية والغيتوهات:

في هذا الوقت كان اليهود قد انتشروا في فرنسا وانكلترا وأراضي الراين حيث استقروا في تجمعات صغيرة، وعملوا في مهن متشابهة وبقوا مخلصين لعقيدتهم. وقد أثاروا الفضول والشك لدى الآخرين، لا سيما وأنهم كانوا يمارسون طقوسهم الدينية في عزلة بعيداً عن أعين العامة. لذلك اعتبر الكثيرون أن اليهود جماعة سرية من المتآمرين ضد المصلحة العامة، وجرى اتهامهم بالسعي وراء غايات خبيثة. وأدى إطلاق الحملات الصليبية في نهاية القرن الحادي عشر وراء غايات خبيثة. وأدى إطلاق الحملات الصليبية في نهاية القرن الحادي عشر إلى مستوى من الهياج «ضد الجاحدين الكفار»، نتج عنه مجزرة مفتوحة ضد اليهود بدأت من ألمانيا، وانتشرت إلى بقية أوروبا. وتبع المجزرة قوانين الإقصاء، حيث بدأ الألمان من بلدة إثر أخرى بطرد اليهود، وتم نفيهم من إنكلترا عام 1290، وبعد الإبعاد والعودة على مدى قرنين، منعوا من التوطن

---

(1) نستطيع أن نلاحظ هنا تأثير إخوان الصفا وطريقة معالجتهم لنظرية الفيض الأفلاطونية وتطبيقاتها على نظرية التكوين القرآنية. كما نستطيع أن نلاحظ تأثير فلسفة ابن سينا والفلاسفة الإسماعيليين في نظرية العقول السبعة أو العشرة التي فاضت عن الذات الإلهية وصولاً إلى تشكيل العالم الطبيعي – المحرر.

في فرنسا. وترافق اضطهاد اليهود في أسبانيا مع طرد العرب منه، وطرد كل اليهود الذين رفضوا التحول إلى المسيحية بحلول عام 1492 من أسبانيا. لم يجد اليهود الهاربون ملجأً أمامهم إلا باتجاه الشرق في تركيا وسوريا وفلسطين. وقد اكتسب يهود الشرق الأدنى فيما بعد اسم السفارديم الذين كانوا ميالين لتطوير صوفية باطنية على أساس التوراة والتلمود، بصيغة قبالية. واتجه يهود المناطق الشمالية بأعداد كبيرة إلى بولندا والمناطق المجاورة، وجلبوا معهم فنون التجارة وإقراض المال إلى القرى المتأخرة ثقافياً. كانوا يتحدثون لهجة هي خليط من الألمانية والعبرية تدعى «اليديش Yiddish» واكتسبوا اسم الإشكنازيم. ويشكلون اليوم أكثر من سبعين بالمئة من اليهود. يتحدد توجههم الديني العام من خلال التلمود وأسلوب تنظيمه للحياة على الرغم من وجود بعض المتصوفة بينهم.

أما بالنسبة للذين بقوا في إيطاليا وبعض البلدات في النمسا وألمانيا فقد عاشوا في أحياء معزولة دعيت بالغيتو، وعادة ما كانت تقع في أحط جانب من المدينة. وزيادة في محنتهم فقد طبق عليهم قانون كانت قد أصدرته الكنيسة الكاثوليكية في القرن الثالث عشر يحرم على اليهود أن يظهروا في الشوارع من دون وضع شارة اليهودي، تحت طائلة القتل، وكانت الشارة عبارة عن رقعة ملونة من القماش تخاط على الملابس. وأصبحت هذه الشارة دلالة على العار فيما بعد. وأقيمت أسوار عالية حول الغيتوهات في كثير من المدن، وكان يقفل على اليهود ليلاً. وإذا ما صادف ووجد يهودي خارج الغيتو فإن هذا يعني غالباً الموت، ودائماً دفع غرامة.

الأعياد والصوم في العصور الوسطى:

خلال هذه الأثناء خضع تقويم الأعياد والصوم اليهودي للتطور وإعادة التفسير. فقد تم تعديل الطقوس الدينية الفلسطينية والبابلية القديمة. بما يتناسب مع الاحتياجات والرغبات الخاصة لكل من يهود إسبانيا وإيطاليا وشمال أفريقيا وتركيا وبلاد فارس ووسط وغرب أوروبا. ومن أجل استيعاب بعض التوجهات القبالية الأسبانية. وبما أن الاهتمامات الزراعية التي كانت تعبر عنها الطقوس العبرية القديمة لم تعد بذات أهمية، فقد توجب أن تشحن هذه الطقوس

الموروثة بمعان تاريخية وأخلاقية، من أجل استنهاض التقوى اليهودية في ظل هذه الشروط المتغيرة. وهكذا فقد اتخذت أيام الصوم والأعياد المتوارثة بمعانيها وإجراءاتها وتواريخها، الأشكال التالية التي بقيت قائمة إلى اليوم. وجميعها تتبع التقويم القمري.

يأتي عيد الفصح اليهودي في أواخر آذار (أو خلال نيسان ذكرى خروجهم من مصر). كان في البدء احتفالاً ربيعياً لتقديم الشكر على ولادة الحملان وإنبات الحبوب وتم ربطه شعائرياً بفكرة التحرر والتجدد الفردي والجماعي في كل الأوقات، بدءاً من الخروج وامتداداً عبر التاريخ. تمارس الطقوس كما في العهود القديمة، لأسبوع كامل لا يؤكل أي شيء مختمر ومن هنا جاء الاسم الآخر «عيد الفطير» أي الخبز غير المختمر. وأُبطل تناول أضحية عيد الفصح الموصوف في سفر الخروج بعد التشتت الكبير، وأصبح الحدث الرئيس في عيد الفصح هو «عيد السيدهير»[1] الذي يصادف عشية اليوم الأول (أو اليوم الأول والثاني) حيث تجتمع كل العائلة في المنزل وتجري القراءة المسموعة من كتيب مختصر أو كراس قداديس يحتوي مختارات من الهاغاداه. يغسل رب العائلة يديه ويقوم بدور كاهن العائلة بعد أن يشرب كأس النبيذ الأولى. ويتناول كل مشارك البقدونس المغموس بالماء المالح إحياءً لذكرى محن الأسر. يتشارك المشاركون بين الحين والآخر كؤوس النبيذ والأعشاب المرة والجذور وخبز الفطير.

يرافق هذه الأفعال الرمزية رواية نصوص من الهاغاداه تعيد سرد قصة الخروج وتشرح غرض شعائر الفصح نفسها، أي الكفاح المستمر للتحرر من أي قيد. تؤدى المزامير ويقدم العشاء، يفتح بعدها باباً وسط إنشاد المزامير والمراثي، ويدعى إيليا المبشر بالمسيح ليأتي ويشرب كأس إيليا، التي تكون قد وضعت على الطاولة دون أن تمس خلال الطقوس السابقة. يختتم الطقس بترنيمة

---

(1) عيد السِيدهير Seder Feast: من العبرية (Sedher) والتي تعني قراءة نص من نصوص الكتاب المقدس في إحدى نسخه. وهو عيد ذكرى خروج اليهود من مصر، يحتفل به في المنزل عشية اليوم الأول من أسبوع الفصح (أما اليهود الأرثوذكس فيحتفلون بعشية اليوم الثاني من أسبوع الفصح) – المترجم.

او صلاة أو بتلاوة صلاة المائدة. يتلاشى بعد ذلك جو الوقار ويتحول إلى جو بهيج يمنح خلاله الدور الأكبر للأطفال.

لا يسمح بأي مناسبة فرحة، بما فيها الزواج، إلا بعد مرور تسعة وأربعين يوماً على عيد السيدهير، يستثنى من ذلك ليلة الهلة الجديدة، أو في اليوم الثالث والثلاثين. ويحل عيد (أسبوع الأسابيع) في اليوم الخمسين السدهير يسمى في العهد الجديد (عيد العنصرة)، وهو يوم للفرح وُضع للاحتفال بأولى ثمار حصاد قمح الربيع، ثم تطور ليشمل تقديم الشكر على منح اليهود الشريعة في سيناء، والذي يُعتقد أنه حدث في الوقت نفسه من السنة.

العيد الكبير التالي يأتي في ايلول أو في أوائل تشرين الأول وهو عيد «روش هاشاناه، رأس السنة الجديدة».

وقد سمى التلمود هذا اليوم بيوم الحساب اعترافاً بأهميته. وبعده يأتي يوم التوبة. وفي اليوم العاشر يأتي يوم الغفران yom kippur، الذي يتشارك خلاله المشاركون في أيام الصوم بالتوبة والصلاة والصلاح. ويحضون أنفسهم كأفراد أحرار على الابتعاد عن ارتكاب المعاصي وأن يتبعوا إرادة الإله من الآن فصاعداً في تكفير صادق عن الخطيئة.

يأتي بعد خمسة أيام من ذلك عيد المظال (العرائش) وهو عيد من ثمانية أيام. كان في الأساس احتفالاً لتقديم الشكر، مخصصاً للتعبير عن الامتنان عن ثمار الخريف من الكرمة والشجر، ويرتبط الآن بفكرة حكمة الإله المدبر في أيام تيه إسرائيل في الصحراء حيث كان موجههم وهاديهم. ويُزيّن الكنيس بكل أنواع الثمار والأزهار. وكان من التقاليد أيضاً التجول في موكب طقسي بالمنتجات الفلسطينية الأربعة مربوطة ببعضها وهي الكباد وغصن نخلة مربوطاً بأغصان من الآس والصفصاف.

كان الميسورون ينصبون خيمة أو عريشة في فناء بيوتهم أو بجانبها ويتناولون وجباتهم فيها، بعضهم كان ينام فيها. آخر يوم في الاحتفال كان الاحتفال بالتوراة، يتم فيه حمل اللفائف من التابوت والسير في موكب حول الكنيس.

يوجد عيدان لا يستندان إلى التراث الموسوي القديم وهما عيد التكريس في كانون الأول وعيد الفوريم في شباط أو آذار. يحتفل بالأول كعيد للأنوار لمدة ثمانية أيام. يضاء ضوء واحد في الكنيس وكل بيت في الليلة الأولى، وضوءان في الثانية وثلاثة أضواء في الثالثة حتى الثامنة. وهو عيد مكرس لإحياء ذكرى إعادة تكريس الهيكل من قبل يهوذا المكابي عام 65ق.م ارتبط عيد الفوريم أو عيد (الوفرة) بسفر أستير، وقد خصص للاحتفال بتحرر اليهود من الاضطهاد من خلال تدخل أستير البطولي. ويتم تبادل الهدايا ضمن العائلة وترسل للأصدقاء والفقراء ضمن جو احتفالي ويقومون بالغناء والرقص في المنازل.

12- اليهودية في العالم الحديث

جاء الإصلاح البروتستانتي نتيجة لعدة أسباب منها عودة المصلحين إلى دراسة الكتاب المقدس بلغته العبرية الأصلية أو بالإغريقية. كان مارتن لوثر شديد التأثر في أيامه الأولى باكتشاف علاقة وثيقة ما بين المعتقدات اليهودية والمسيحية، لدرجة أنه نشر في عام 1523 كتيباً بعنوان «ولد المسيح يهودياً» ادعى فيه: «اليهود ذوو صلة قرابة بالرب. ولو كان من اللائق التباهي باللحم والدم، لكان اليهود ينتمون للمسيح أكثر منا... لذا أنصح بأن نعاملهم بلطف.. لا يجب أن نطبق قانون البابا، بل قانون المحبة المسيحي. ونظهر لهم روح المودة»... لكن لوثر تصاعد غضبه تدريجياً عندما وجد أن اليهود يقاومون بصلابة التحول إلى المسيحية، وأي تغيير في معتقداتهم، حتى بدأ بإساءة معاملتهم بشكل وحشي في أواخر حياته. في كتابه الأخير عن اليهود وأكاذيبهم الذي كتبه عام 1542، كرر في غمرة عنف ساذجة كل الشائعات القديمة عن اليهود: «لقد سمموا آبار المسيحيين أو أنهم قتلوا أطفال المسيحيين (من المحتمل، كما تقول الشائعة، ليحصلوا على دم من أجل الفصح). لمح في أواخر مواعظه إلى أن الأطباء اليهود كانت لديهم المعرفة بفن التسميم وقد مارسوا ذلك على مرضاهم المسيحيين. وقال: إذا كان اليهود يرفضون أن يتغيروا، علينا ألا نقبل بهم أو نتحملهم بعد الآن».

لم يجلب الإصلاح تحسناً دائماً لصالح اليهود في أوروبا. وصلت أوضاعهم إلى أسوأ حالاتها في القرنين السادس عشر والسابع عشر. ولم يعيشوا في غيتوهات أوجدها مضطهدوهم فحسب، بل تقوقعوا في غيتوهات معنوية من اختراعهم هم أنفسهم، أبعدت عنهم العالم الخارجي بما فيه من علم وثقافة وفن، إضافة إلى العدوانية والشر. جاء التحسن، في معظمه بطيئاً بعد ذلك.

أوروبا الشرقية:

بقي اليهود مخلصين في أوروبا الشرقية لإرثهم من الأشكال القديمة من التفكير والحياة بشكل عام. وجاء الاتحاد السوفيتي وضيق عليهم دينياً وقادت عنصرية هتلر المتعصبة إلى إبادة الملايين منهم.

هذا لا يعني أن يهود أوروبا الشرقية قد عاشوا حياة يسيرة. فقد تعرضوا لمذبحة رهيبة في القرن السابع عشر، لا سيّما في بولندا، قام بها القوازق، هؤلاء الروس الشرسون الذين ثاروا ضد قادتهم الإقطاعيين وذبحوا عشرات الآلاف من اليهود. نتيجة لذلك تشبث اليهود في أوروبا الشرقية بعقيدتهم بشكل أكبر. وحصلت اختلافات مهمة في أماكن مختلفة. تم التركيز في ليتوانيا وروسيا البيضاء على الدراسة الفكرية للتلمود والنصوص العبرية الأصلية.

كان اليهود في هذه الأماكن معادين للباطنية. وكانوا يركزون على البحث الموضوعي المفرط على حساب الحمية العاطفية. معلمهم في ذلك كان الباحث إيليا الفلناسي، الذي أصبح حاخامهم الأوسع سلطة. كان مفكراً كبيراً وعمل في البداية كباحث في قواعد اللغة العبرية، وبعدها فلكياً وناقداً لباطنية الحسيديم. أنشئت أكاديمية على شرفه وحملت اسمه، جاءها الطلاب من كل أنحاء أوروبا خلال القرن التاسع عشر لدراسة التلمود بالطريقة التقليدية للمدارس البابلية التي تعود لألف عام مضى.

أخذت التلمودية الشرقية في أوكرانيا وجنوب بولندا منعطفاً عاطفياً وباطنياً، بدا ظاهرياً، وكأنه يتخلى عن وجهة النظر التلمودية باتجاه مذهب وحدة الوجود كما عند القبالة. وشاعت فكرة المسيح المنتظر بشكل هستيري ولفترة من الزمن، الأمر الذي أدى بأكثر من شخص لاعتبار نفسه بمثابة هذا المسيح المنتظر، لكنهم كانوا يندحرون في النهاية نتيجة تصرف خاطئ يجلب لهم الدمار أو العار. برزت شخصية مهمة من بينهم حملت اسم «إسرائيل مولدافيا». والذي أطلق عليه «سيد الاسم الخير للإله baal shem top». وهو الذي كان يشفي بالدعوات وهو يتجول في القرن الثامن عشر. وقد احتقر التلموديون لدراستهم الشريعة

بشكل محدود وضيق لدرجة انه لم يكن لديهم وقت للتفكير بالإله. والتفكير بالإله، بالنسبة إليه، هو أن الإله موجود في كل مكان، في الطبيعة وفي حياة البشر وفي كل فكرة بشرية. وكان الدين بالنسبة إليه، هو الإحساس بوجود الإله في كل شيء والصلاة بفرح، وبوعي كامل بقوة الإله الباطنية التي تحرك كل شيء وتحل فيه. اعتاد على القول: «كل ما حققته، حققته بالصلاة وليس بالدراسة». ودعا أتباعه، الذين كانوا في معظمهم أناساً عاديين، «بالأتقياء، Hasidim» وبذلك أحيا اسماً قد استخدم في أزمنة ما بعد السبي قبل ألفي عام، لذلك دعيت الحركة التي أسسها «الحسيديين Hasidim».

أوروبا الوسطى والغربية:

في أوروبا الغربية والوسطى، كانت المسألة الأكثر أهمية خلال القرنين الماضيين، هي التحرر البطيء والمتسارع من العجز والقصور على نطاق الحياة المدنية، وأعقبها ما يمكن تسميته «بالعودة إلى العالم». وقد اعترف قادة حركة التنوير الأوروبي بعدالة هذا النزوع إلى التحرر، خلال القرن الثامن عشر، والذي تحول إلى أمر واقع من خلال الحركات الثورية في فرنسا وألمانيا.

قاد مثقفو القرن الثامن عشر من خلال مذهبي العقلانية والشك حركات أدت إلى إضعاف الحواجز الدينية والطبقية في مراكز الثقافة الجديدة. نتيجة ذلك استطاع «موسى مندلسون»[1]، أحد أهم المفكرين اليهود الحديثين، أن يكسر القيود التي تحجز اليهود في برلين وأن يصل إلى قلب حياتها الثقافية. وقد أصبح صديقاً للكاتب والمسرحي الألماني «ليسنغ» أثناء متابعته للدراسة. كتب مندلسون بالألمانية الكلاسيكية، وانتشر حوار كتبه عن الخلود على النسق الأفلاطوني بين القراء في أوروبا. وترجم الأسفار الخمسة وأجزاء أخرى من

---

(1) موسى مندلسون (1729 – 1786) فيلسوف وناقد أدبي ألماني. تأثر بكنط وليسنغ وناضل من أجل الحقوق المدنية لليهود. وكان من المدافعين عن فصل الكنيسة عن الدولة. ودافع عن خلود الروح في كتابة (Phaedon فيدون) على نهج أفلاطون وحمل العنوان نفسه.

الكتاب المقدس العبري إلى اللغة الألمانية، على أمل أن يسدي خدمة لإخوانه اليهود، وأضاف عليه شروحاً ذات طبيعة ليبرالية متقدمة. لكن عمل حياته الأهم كان دفاعه الجدي بالنيابة عن شعبه، بوجوب تحررهم من الغيتوهات ودخولهم سياق الحياة الحديثة على أساس المساواة مع الشعوب الأخرى. لم يعش ليرَ هذا الأمر يتحقق، لكنه أظهر بشخصه لأوروبا أهمية تحرر اليهود.

الليبرالية والإصلاح:

منحت التحولات الثورية التي أحدثها صعود الديمقراطية في أمريكا وأوروبا اليهود حريتهم المدنية الكاملة. وضعت الثورة الأمريكية الأساس السياسي الذي نص على أن كل الناس يولدون أحراراً ومتساوين. ونال يهود فرنسا حق المواطنة الكاملة من خلال الثورة الفرنسية. ودمر نابليون الغيتوهات في كل مكان وصل إليه وأطلق سراح اليهود في العالم. بدأ رد الفعل بعد نابليون، وكان على اليهود أن يواجهوا الخيار: إما العودة إلى الغيتوهات أو الاندماج في الثقافة الأوروبية (المسيحية اسمياً). اختار العديد منهم، تحت الضغط، الخيار الثاني بعضهم خضع للقيود لكنه ساهم بكل الحركات الثورية بشكل سري متطلعاً إلى قلب الحكومات الرجعية، مما أعطى للمحافظين والرجعيين لاحقاً حجة أن اليهود بطبيعتهم مفسدون وهدامون، (لم يسهم اليهود الذين رفضوا دخول الحياة الأوربية الحديثة وتمسكوا بمعتقداتهم القديمة في هذه الحركات). جاءت الانتفاضات في سنة 1848 وما بعدها وكان من نتيجتها منح اليهود في معظم دول أوروبا الوسطى والغربية المساواة التامة مع بقية الناس أمام القانون. فتحت الجامعات أبوابها لهم. وتدفق الأطباء والسياسيون والكتاب والمسرحيون والأساتذة والعلماء اليهود ودخلوا الحياة الأوروبية. وقد كان اليهود هم الأكثر استفادة من هذه التحولات الضخمة التي رافقت انتصار الديمقراطية السياسية.

لم يكن تأثر الدين اليهودي بأقل شأناً من تأثر الحياة اليهودية بالتغيرات التحررية الحديثة. وجد اليهود أنفسهم في عالم يرمي بآثار الماضي التي وقفت في وجه الحركة الليبرالية، فكان من الطبيعي أن يتأثروا ويفعلوا بالمثل فيما

بينهم، حيث انخرطوا في أنشطة العالم الحديث مدركين أن الدين اليهودي لا يجب أن يبقى بعيداً خلف حواجز حماية الذات بعد الآن، بل يجب أن يتابع حركة التقدم. وخرجت حركة الإصلاح اليهودي كواحدة من نتائج هذا التحول. وبدا ذلك في الكُنُس الألمانية التي تمكن حاخاماتها الذين تشربوا روح الحداثة من إقناع تجمعاتهم الدينية بمجاراة تطورات كهذه. حيث بسطوا وحدثوا العبادة في الكنس. تم اختصار صلوات، وتُرجم معظمها إلى اللغة الدارجة، وحذفت الإشارات إلى قدوم المسيح المنتظر وإعادة بعث الموتى في الآخرة، أو إعادة تأسيس الأمة اليهودية.

وتم إلغاء طقوس التضحية كما كانت في فلسطين القديمة. واستخدم الأرغن والكورال وتم ترديد التراتيل بالعامية. المدافع الأول عن حركة الإصلاح هذه كان «أبراهام جيجير» ومناصرها الحقيقي عبر عن ذلك بقوله: «ليست اليهودية كدين حكاية منتهية، يوجد الكثير من الأمور تحتاج إلى تغيير أو إلغاء، ويمكن أن تحتل اليهودية مكاناً أفضل وأسمى في العالم، فقط إن أحيت نفسها من جديد». وُجد معتدلون وراديكاليون في حركة الإصلاح. صدم الراديكاليون العالم اليهودي بإعلانهم عن مبادئهم في عام 1843 وهي «أولاً ـ نأخذ بالحسبان إمكانية التطور اللا محدود للدين الموسوي. ثانياً ـ لا تملك المسائل الجدلية والبحوث والوصايا التي تُعْرَفُ بالتلمود أي سلطة بالنسبة لنا لا من الناحية العقائدية ولا العملية. ثالثاً ـ لا نتوقع ولا نرغب بقدوم مسيح يقود الإسرائيليين إلى أرض فلسطين، ليس لنا أرض سوى التي ننتمي إليها بالولادة والمواطنة».

لكن بعد عام 1848 استطاع المحافظون تحجيم هذه الحركة الإصلاحية في أوروبا ودفعوها إلى التراجع، وانتقل ما تبقى من أعضائها إلى أمريكا. ابتعدت الحركة بعد أن أصبحت في أمريكا عن التصريحات المتطرفة كتصريح عام 1843 فيما يخص موضوعات الشعائر والعقائد والمواقف الداعمة لإسرائيل واقتربت من مواقف المحافظين الجدد الذين سوف نطلع على مبادئهم بعد قليل.

حارب اليهود الأرثوذكس حركة الإصلاح بشدة منذ البداية، لأنها أنكرت أن الوحي الإلهي في التوراة كامل ونهائي ولا ينتظر إلا تحقيقه. لكن التغيرات المقترحة على مستوى الإيمان بدت أقل خطورة من التغيرات التي تهدد أسلوب الحياة. ربما لأن اليهودي الأرثوذكسي المعاصر يركز أكثر على الممارسة منه على الإيمان بالنسبة لهم، ليس من الضروري أن يؤمن الفرد كما يؤمن الحاخامات، لكن عليه أن يلتزم بكل دقة بالتعاليم العملية للتوراة كما هي مشروحة ومطبقة على الحياة اليومية في التلمود: يجب إضاءة أنوار السبت، ويجب الحفاظ على التزام السبت كما كان في الماضي. لا يجب اختصار أو تجاوز أي عيد يهودي قديم، كما يجب تطبيق تشريعات الأكل التي تمنع بعض أنواع الأطعمة والتزام الشريعة فيما يتعلق باللحم الحلال وعدم مزج الحليب واللحم، ووجوب وجود مجموعتين من الأطباق لتقديم اللحم ومنتجات الحليب، كلٍ على حدة.

لكن نرى الآن أن معظم اليهود الأرثوذكس في أمريكا قد انتقلوا من المواقع المتطرفة في هذه الموضوعات إلى مزيد من الحرية في الظروف الاستثنائية أو الصعبة.

الصهيونية وتأسيس أمة جديدة:

لم يكن الأمر سهلاً بالنسبة للأرثوذكس ولا بالنسبة للإصلاحيين. حيث أنتجت النظريات العرقية في القرن التاسع عشر تفسيرات خاطئة للنظرية الداروينية، إضافة للنجاحات الاقتصادية والمهنية المبهرة التي حققها اليهود. كان هذان السببان هما الدافع في خلق موجة من معاداة السامية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وتراكمت مجموعة أمور أقنعت اليهود أن أملهم الوحيد في الحصول على أمن دائم هو في إعادة تأسيس الوطن القومي في فلسطين. من هذه الأمور، المذابح المدبرة في روسيا وتعذيب اليهود في ألمانيا وقضية درايفوس الشهيرة في فرنسا. وكان كتاب ثيودور هرتزل الصادر عام 1896، تحت عنوان «الدولة اليهودية» العلامة الأبرز في تبلور مفهوم الوطن القومي لليهود. بناء على

مقدمات الكتاب، حظيت حركة يهودية جديدة تدعى الصهيونية بانتباه العالم وبشكل سريع. وحظيت هذه الحركة، منذ البداية، بدعم واسع من اليهود الأرثوذكس واستمر هذا الدعم من قبلهم.

وبدأت تحظى بدعم اليهود الإصلاحيين بعد الحرب العالمية الثانية، وهم الذين عارضوها في البداية باعتبارها حركة رجعية وغير قابلة للتطبيق. غيّر تصريح بلفور في نهاية الحرب العالمية الأولى الذي دعا إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، غير الوضع السياسي للحركة بين ليلة وضحاها. ذهب آلاف اليهود إلى فلسطين خلال العقدين التاليين. وتحت حماية الانتداب البريطاني وضعوا أسس الحياة القومية اليهودي في فلسطين. زادت الإبادة العرقية لملايين اليهود في أوروبا الوسطى من قبل النازيين، إضافة للترحيل القسري الناتج عن الحرب العالمية الثانية، زادت من الضغوط للتعجيل بإنشاء دولة يهودية مستقلة. وصوتت الجمعية العامة للأمم المتحدة لصالح تقسيم فلسطين وإنشاء دولة يهودية عام 1947. وأطلقت الدولة الجديدة على نفسها اسم إسرائيل، وحافظت على وجودها كدولة بكل الطرق. ولكن المعارضة العربية للدولة الجديدة لم تتوقف. ولا تزال الحروب التي حدثت وغارات الفدائيين المستمرة عبر الحدود تنبئ بأوقات عاصفة سوف تواجهها المنطقة الساحلية لشرق المتوسط[1].

(1) تمت ترجمة هذه الدراسة عن كتاب:

- John B. Noss, Man's Religions, Macmillan, New York, 1969.

الفصل الرابع

المسيحية

تأليف: John B.Noss

ترجمة: محمود منقذ الهاشمي

1- المسيحية في مرحلتها الافتتاحية

ديانة يسوع

إن قصة «المسيحية» هي قصة ديانة نشأت عن الإيمان بأن الله قد تجلى في مؤسسها بالجسد وأقام بين البشر. وعلى الرغم من أن ديانات أخرى قد طورت مفهوماً عن التجسد، إلا أن أياً منها لم تعطه مثل هذه المركزية. وتتضمن بقية العقيدة المسيحية كلها الاعتقاد بأن يسوع هو التجلي الأوضح لشخص الله.

ليس من السهل سرد القصة باختصار ووضوح. وقد كان للقرن المسيحي الأول كتب ألفت عنه أكثر مما كان في أي عصر تاريخي آخر يمكن أن يقارن به. وأهم المصادر التي تمت بصلة إلى تاريخه هي «الأناجيل» و«رسائل الرسل» في «العهد الجديد»، وهذه المصادر- ومن جديد يجب أن يكون قولنا نسبياً ـ قد بحثت فيها بدقة واستقصاء عقول بحّاثة أكثر مما تم البحث في أي كتاب من الكتب الأخرى التي كتبت من قبل. وكان النقد التاريخي مشغولاً على وجه الخصوص بها في الأعوام المئة الأخيرة وقد توصل إلى قرار مفاده أن الديانة المسيحية المبكرة «عن» يسوع في «العهد الجديد» قد غشيت وعدلت ديانة يسوع، أي إيمانه، ولكن ليس هناك إجماع حول مقدار التعديل. ومن المعروف أن يسوع لم يدون تعاليمه وإنما اعتمد على تلامذته في القيام بالتبشير بما علمه. ويفترض المؤرخون عموماً أن بعض التلامذة قد دونوا أقواله بعد وفاته، مع ملاحظات عرضية عن الظرف التاريخي، قبل أن تنسى، وهكذا جاءت إلى الوجود وثيقة، أو مجموعة من الوثائق دعاها الباحثون «Q» (من الكلمة الألمانية Quelle أي المصدر)[1]. ويؤخذ في الحسبان عموماً أن «Q» قد تلونت بتحيّزات المسيحيين الأوائل وأضيفت إليها أقوال تنسب خطأً إلى يسوع.

---

(1) هذا (المصدر) غير موجود بين أيدينا، ولكن الباحثين يفترضونه، ويعتبرونه مصدراً لكل من إنجيل متّى ولوقا، إضافة إلى إنجيل مرقس الأسبق منهما.

لكنها على العموم موثوق بها وصارت بصورة طبيعية تماماً مادة مصدرية أولية لكل من متّى ولوقا. وقد استخدم هذان المؤلفان كذلك قدراً كبيراً من مادة أخرى، شفوية وكتابية على السواء، وهم على سبيل المثال استمدّوا الكثير من مادتهم من إنجيل مرقس الموجود من قبل (66-70م). ولم يكتب إنجيل يوحنا حتى نهاية القرن اعتماداً مصادر تاريخية خاصة تهتم على الأغلب بالتضمينات اللاهوتية لحياة يسوع ووفاته.

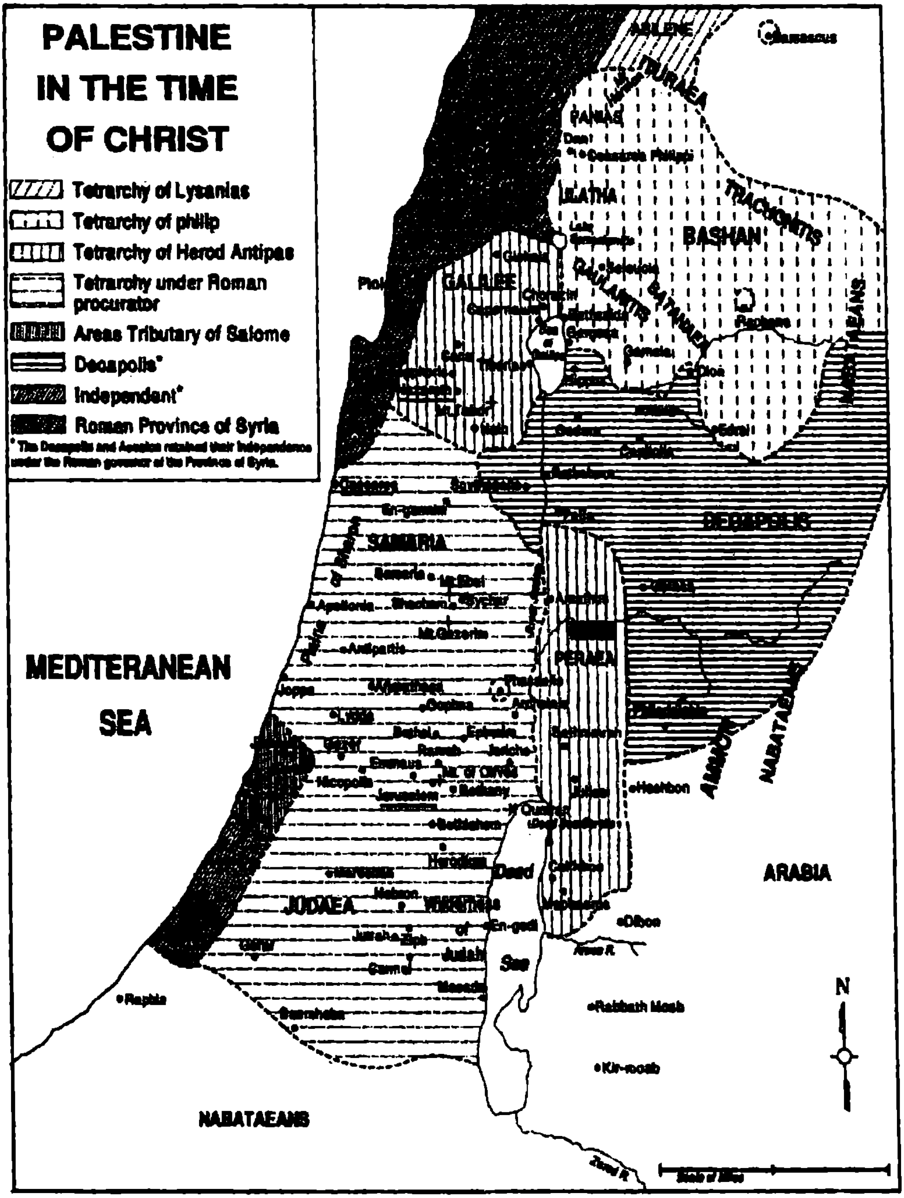
وفي كل هذه المدّونات يجري الانقسام الذي كثيراً ما يكون غير ملحوظ بين ما هو من يسوع ذاته وما هو من العصر الرسولي. ولكن حين يطلب إلى الباحثين أن يفصلوا المادة التي تسفر إسفاراً صحيحاً فيما يخص يسوع التاريخي عن المادة التي تعكس نمو اللاهوت المتعلق بشخص المسيح عند المسيحيين الأوائل، فإنهم يتفاوتون في تأويلاتهم تفاوتاً شاسعاً. وفي أمور معينة نجد كل دارس يرتد، بعد الدراسة الحذرة، إلى أحكامه الخاصة، بل حتى إلى اعتقاده الحدسي عما من هو يسوع التاريخي وما هو من الكنيسة المبكرة. وفي أحوال كثيرة تكون الأحكام بجودة الدليل حاسمة. ولذلك هناك مسوغ للقول إن كل سيرة لحياة يسوع هي بمعنى من المعاني إقرار بالإيمان Confersio fidei أو على أقل القليل انطباع شخصي بما حدث بالفعل.

ولكن التسليم بذلك لا يُعفي الباحث المخلص من واجب الاعتقاد بآرائه اعتقاداً مؤقتاً على سبيل الاختبار، بوصفه منفتحاً على التغير إذا أرغمه إجماع أكاديمي يتصل بقول معّين أو حادثة على تبديل رأيه السابق. وقد ظهر إجماع من هذا القبيل في هذا القرن إثر ظهور كتاب «نشدان يسوع التاريخي» The Quest of Historical Jesus من تأليف ألبرت شفايتسر Albert Schweitzer سنة 1910. فكان ثمة اتفاق واسع بصورة متزايدة على أن اقتناع يسوع الأُخروي بأن «نهاية العصر» وشيكة الحدوث ذو أهمية محورية في دفعة باتجاه التبشير النبوي. وتم الاعتقاد علاوة على ذلك بأنه عندما لم تتحقق هذه التوقعات وحاول أتباعه أن يتذكروا حياته وتعاليمه، قاموا بذلك بارتباك، فبنية الترتيب الزمني للأناجيل وإرجاعها الأحداث إلى مواضع جغرافية معينة كانا عملاً تحريرياً إلى حد بعيد ومن ثم ليس أمراً محققاً. ولكن الباحثين يواصلون البحث عن إجماع أوسع فيما يتعلق بالتأويلات الأكثر صحة لإيمان يسوع، ومقاصده، وتعاليمه.

أ- العالم الذي جاء يسوع إليه

هناك أهمية ما للبدء بالقول بأن يسوع قد وُلد في جزء من العالم جرى إخضاعه مؤخراً للسيطرة الرومانية. إذ كانت فلسطين آخر مكتسبات القوات العسكرية الرومانية. وكان اليهود، كما رأينا في الفصل الذي تناولهم، قد خضعوا مراراً وتكراراً للنير الأجنبي، ومع ذلك جاء الحكم الروماني ليبدو أفظع من أي حكم. وكان ذلك ناشئاً في جانب منه عن أن الرومان كانوا مجموعة إدارية منعزلة. وكان لديهم فيما يتعلق بالسكان المحليين بصورة خاصة شعور تنظيمي خالص، وليس لديهم شعور بالإخوّة على الإطلاق. وكانوا مختلفين عن اليونان، الذين كانوا شعباً واسع الخيال وشديد الاستجابة، وقادراً على أن يدخل في روح منطقة من المناطق وأن يزن أفكارها على أنها تستحق الاحترام. ولكن كان اليهود والرومان قطبين متباعدين. وكان بين الطرفين القليل من الاتفاق في الرأي وكل منهما لغز للآخر وقد تخليا عن محاولة التوصل إلى تفاهم.

وهذه التقسية للقلب من كل منهما تجاه الآخر، في الطباع والثقافات، قد جعلت كل إمكانية للتوافق متعذرة، ولذلك كان من المحتم أن يحدث عيشهما معاً في بلد واحد اضطراباً اجتماعياً. وكانت هذه هي الحال إلى حد بعيد في كل أنحاء فلسطين بحيث لا بد أن يكون يسوع قد وصل في طفولته إلى ما هو أفضل قليلاً من الانطباع المشوش بحدوث تغيرات سياسة واجتماعية سريعة في كل ما يحيط به. وقد نشا في جو الجدال، والنزاع، والمرارة، وكان هناك كلام لا ينتهي. وكان أصحاب العقول القديمة قد حيرتهم الأحداث ومزّقتهم التوترات المتصاعدة. وحتى الآن تظل صورة المؤرخين للعهد مشوشة.


PALESTINE
IN THE TIME
OF CHRIST
Tetrarchy of Lysanias
Tetrarchy of philip
Tetrarchy of Herod Antipas
Tetrarchy under Roman procurator
Areas Tributary of Salome
Decapolis*
Independent*
Roman Province of Syria
MEDITERANEAN
SEA
ABILENE
ITURAEA
PANIAS
ULATHA
TRACHONITIS
BASHAN
GALILEE
GAULANITIS
BATANAEA
DECAPOLIS
SAMARIA
PERAEA
JUDAEA
AMMON
NABATAEANS
ARABIA
Samaria
Apollonia
Antipatris
Joppa
Bethel
Jericho
Emmaus
Nicopolis
Bethany
Jerusalem
Bethlehem
Herodium
Hebron
Qumran
Dead
Sea
of
Judah
En-gedi
Machaerus
Dibon
Heshbon
Carmel
Masada
Juttah
Ziph
Raphia
Beersheba
Rabbath Moab
Kir-moab
NABATAEANS
N

التقسيمات السياسية لفلسطين في زمن يسوع:

في زهاء زمن ميلاد يسوع توفي هيرودوس الكبير. وقد نجا ثلاثة من أبناء هيرودوس من النتائج القاتلة لإثارة شكه، ولذا ظلوا أحياء. وبإرادته قسم فلسطين بينهم. وبينما كان ذلك البلد الشقي يرتعد على شفا العصيان، أسرع الأبناء الثلاثة إلى روما لتثبيت ميراثهم. وقرر القيصر أوغسطوس أن تكون منطقة يهوذا والسامرة وإدوميا لـ«أرخيلاوس»، ومنطقة الجليل وبيريا لـ«هيرودوس أنتيباس»، ومنطقة الشمال الشرقي لبحيرة الجليل لـ«فيليبوس»، ولكن أرخيلاوس لم يمنح السلطة الكاملة على مقاطعته، كما منح الابنان الآخران، وقد تبين أن حذر أوغسطوس كان قائماً على أساس صحيح، لأن أرخيلاوس بعد تسع سنوات من عدم الكفاءة الوحشية قد اتهم أمام الإمبراطور بعدد من التهم الخطيرة ونفي إلى بلاد الغال وحل محله موظف روماني يدعى الوالي، وجعل مسؤولاً أمام حاكم سورية.

وقد راح الولاة يتعاقبون في تتابع منتظم. وحكموا مقاطعة اليهودية[1] من «قيصرية» على الساحل إلى الشمالي الغربي لأورشليم. وكان لدى قلة منهم إحساس بالقوى التاريخية التي تعمل تحت سطح المشهد اليهودي. وكان بعضهم رجال سلب ونهب ومعدومي الضمير، لا يقلقهم إلا جني المال الكافي للانسحاب من العمل براحة إلى روما. ومع أنهم سمحوا لليهود بالحرية المدنية والسياسية بمقدار ما تسمح الاعتبارات السياسية (أي اعتبارات الإمبريالية الرومانية)، فقد أصروا على نوع من السيطرة عن بعد على الديانة اليهودية. ومن ذلك، مثلاً، أنهم أبقوا أثواب رؤساء الكهنة مخزونة في «برج قلعة أنطونيا» ولم يفرجوا عنها إلا من أجل المراسم الاحتفالية التي يتم ارتداؤها فيها. وهذا يعني أن في وسعهم أن يتحكموا في تعيين رئيس الكهنة بالتصريح بمن سيطيب له الإفراج عن الأثواب. وكذلك حاولوا من حين إلى حين أن يدخلوا إلى أورشليم تروساً ورايات عليها صورة قيصر بوصفه إمبراطوراً ـ إلهاً، ولكن اليهود كانوا يعترضون بغضب في كل مرة.

(1) مقاطعة اليهودية (=Judea) وعاصمتها أورشليم، هي مقاطعة قامت على جزء من أراضي مملكة يهوذا القديمة (=Judah) وفق التقسيمات الأقدم للمملكة السلوقية.

وفي ظل هذه الظروف لا يمكن أن تكون اليهودية سعيدة. وبالفعل، فإن اليهود الذين تربكهم الصعوبات التي تطبق عليهم إلى حد اليأس تقريباً، «كانوا يجاهدون أنفسهم» ـ فالفريسيون ضد الصدوقين، والأحامس (أو الغيورون) والهيرودوسيون ضد البقية.

الوضع في الجليل:

من جهة أخرى، كان الانزعاج أقل تفشياً في الجليل، وكان هيرودوس أنتيباس يحكم خليطاً واسعاً جداً من السكان. ويكاد اليهود لا يشكلون الأكثرية. وكان يوجد الكثير من المواطنين الذي يتحدثون باليونانية، وكذلك من الفينيقيين من الساحل والسوريين من المناطق الداخلية إلى الشمال. وكان اليهود في بعض المناطق يفوقهم في العدد هؤلاء الأقوام غير اليهود. ويضاف إلى ذلك أنه كانت توجد عبر الأردن عشر مدن صغيرة تحت الحكم الذاتي ولا تخضع لسلطة آل هيرودوس خضوعاً مباشراً، وهي متحالفة معاً في نموذج الدولة – المدينة الهيلينية[1]. وكانت هذه المدن هي التعبير الفلسطيني عن حلم الاسكندر الأكبر في نظام عالمي جديد. ويساعد وجودها على تفسير لماذا اتبع هيرودوس أنتيباس سياسة «ترافد الأمم». فقد كان يأمل أن يكون من شأن البث المتئد للثقافة العالمية في منطقته أن يوحد شعبه تحت حكمه. على أن اليهود الجليليين، ولو أنه قد تمت استمالتهم إلى «أن يتحملوا الحمقى بسرور»، ما دام دينهم ليس مهدداً، كانوا ـ أي يهود الجليل ـ أكثر من منزعجين قليلاً عندما بدأ في تحويل مدنهم الرئيسة إلى مدن يونانية ـ رومانية.

وكان إحدى هذه المغامرات هي إعادة بناء أكبر مدن الجليل، وهي مدينة «سيفوريس». ولكن هذه المدينة، كانت تفوقها في الفخامة مدينة طبريا على الشاطئ الغربي لبحيرة الجليل، إن لم يكن في الحجم، وهي مدينة مزودة بساحة عامة ذات صف من العواميد وقد سميت من قبل هيرودوس تيمناً باسم الإمبراطور الروماني تيبريوس. وهنا بلغ التأثير الهيليني أوجه في منطقة نفوذ هيرودوس.

---

(1) ومن ثم يطلق عليها اسم ال«ديسكابوليس» descapolis، أي اتحاد المدن العشر.

ولعل الكثيرين من اليهود قد وطنوا أنفسهم على قبول كل هذا، بل رحبوا به، إن لم يكونوا مرغمين على دفع الحساب. وكان يبدو فيما مضى من الباهظ بما فيه الكفاية أن يلزموا بدفع الضريبة الشخصية المباشرة عن النفقات الإدارية، لأنه لن يذهب إلا جزء منها إلى هيرودوس أنتيباس، والبقية إلى روما البعيدة. وهم الآن مرغمون على دفع الضرائب الإضافية على شكل الفرائض الجمركية الفادحة، لا على السلع المستوردة إلى المنطقة أو المصدّرة منها وحسب، بل كذلك على السلع المنقولة بالسفن من مدينة إلى مدينة ومن المزرعة إلى السوق. وكانت رسوم المرور تجمع كذلك، في الجسور والموانئ. وكانت هناك ضريبة ملح ـ وهي تثير الغضب في كل مكان. وهكذا وجد اليهود أنفسهم يسهمون في نفقات إخضاعهم. ولذا عندما أمر كويرينيوس، حاكم سورية. في العام /6/ للميلاد بتعداد سكان فلسطين ليكون بالإمكان تحقيق أدق شكل من أشكال فرض الضرائب، حدثت بين الشعب مضاعفات عدائية فورية. ومن الممكن أن يسوع كان في الثانية عشرة من عمره أو أكثر في ذلك الحين ولا بد أنه كان مدركاً إدراكاً شديداً للهياج العام لدى اليهود الجليليين، الذين تصاعد غليانهم بصورة حثيثة ليصل إلى العصيان.

وإن شخصاً اسمه يهوذا الجليلي قد نظم، بمعونة فريسيّ يدعى صدّوق، جماعة الأحامس بتجميعه الجليليين من أصحاب الطباع الحادة حوله وتشكيله جيشاً من المتمردين يقف متأهباً للقتال على مبدأ «لا إله إلا يهوه، ولا ضريبة إلا للمعبد، ولا صديق إلا الأحمس»[1]. لقد داهم يهوذا وأتباعه مدينة سيفوريس،

---

(1) وفقاً لمعاصرهم يوسيفوس Joseplus، فإن «هؤلاء الرجال يتفقون في كل الأمور الأخرى مع الأفكار الفريسية، ولكن لهم ارتباط بالحرية لا تنتهك حرمته، ويقولون إن الله هو ربهم وسيدهم الوحيد. ولا يبالون بأن يموتوا أي ميتة، ولا يأبهون بالفعل بموت أقاربهم وأصدقائهم، ولا يمكن للخوف من الموت أن يجعلهم يدعون أي شخص سيدهم. وأنا..أخشى ألا يعبّر ما قلته تعبيراً وافياً عن التصميم الذي يظهرونه عندما يخضعون للألم» (عن 1.6، Antiquites) وكان تعصبهم ناشئاً إلى حد ما عن أن للكثيرين منهم تاريخاً عائلياً في الموت بعنف من أجل التمرد. وقد قتل أبو يهوذا الجليلي قبل اثنين وخمسين سنة عندما اشترك في التمرد.

وأستولوا على ترسانة الأسلحة، وأمدّوا أنفسهم بمخزون أسلحتها، وجعلوا المدينة مقر قيادتهم. وهكذا أصبح التمرد خطيراً مما دعا الجنرال الروماني فاروس إلى إنشاء فرقتين من الجيش الروماني لقمعه. وأحرق سيفوريس وقضى عليها وصلب عدة آلاف من الأحامس في محاولة دموية لإخماد الحركة، ولكن انتشارها السري ظل متواصلاً. وقد واجه يسوع الوقائع التي خلقتها الحركة طوال حياته، لأن واحداً من الإثني عشر حوارياً إن لم يكن اثنان منهم كان عضواً في جماعة الأحامس[1]، وهو ذاته قد صلب في مآل الأمر، حين صوتت الجمهرة المحتشدة في الساحة بأن يخلى لها سبيل باراباس (=بَرْأَبّا)، المعروف لديها بأنه أحمس بدلاً من يسوع ذاته.

ولم يدعم كل يهود الجليل قضية الأحامس. كان الأسينيون فحسبها معارضين للعنف من حيث المبدأ. وكانوا يعارضون حتى القرابين الحيوانية ـ وهو تحول جذري بالنسبة إلى تلك الأيام. وهم وإن كانوا كثيرين نوعاً ما، لم يولوا إلا اهتماماً ضئيلاً بنزاع الأزمان، بل كانوا ينتظرون بصبرٍ مختار الله الممسوح بالزيت، المسيح الموعود. وفي أثناء ذلك كانوا يعيشون بقوانين صارمة في جماعات لا يسمح لها بالزواج من النساء، ويعتبرون أملاكهم مشاعية، ويحافظون على يوم السبت، ويكدون في الحقول في الأيام الأخرى من الأسبوع، وينقطعون إلى الصيام والصلاة وأعمال الاغتسال الطقسية المتكررة، كما تفعل جماعة البحر الميت.

وكان الفريسيون يحجمون، من جهتهم، عن العنف لاعتبارات الحكمة والتعقل إلى حد كبير. وكانوا الفئة الكبرى في الجليل ويرشدهم الكتبة (معلمو الشريعة) والحاخامات الذين رفع التدريب المنتظم وعيهم للرسالة. وقد أخذوا مفاهيم التنظيم عن اليونان والرومان وعرفوا أن آمالهم في البقاء تعتمد على القيادة الموحدة. وكان الكثيرون يحضرون إلى المدارس التي تعهدها الفريسيون، ويمكن أن نطلق عليها الأكاديميات، لأنها تشبه أكاديميات اليونان في التنظيم

---

(1) هما سمعان الغيور (راجع متّى 10: 4) معنى المحتمل كذلك يهوذا الإسخريوطي.

والمنهج. وكانت كبرى هذه المدارس في أورشليم وتفاخر بمعلمين كبار أمثال شمّاي وهيلل. وبما أن الفريسيين جميعاً كانوا عالقين في عالم متبدل لا يوقف له على حال، فقد جعلوا مبدأهم هو إن يعيشوا وفقاً لتقاليدهم بأقرب صورة تسمح بها الظروف. وكانوا يعتقدون أن السبيل الوحيد إلى تعجيل قدوم المسيح المنتظر، ومن ثم إنقاذ اليهودية من الانقراض في الجيل المنحرف والفاسق، هو التدقيق في الممارسات الدينية التي تربط الموروث بكل تفصيل من تفاصيل الحياة اليومية. وهذا يعني أنهم كانوا يتوخون أن يحافظ كل امرئ على شرائع السبت، وتحقيق النظام على وجه التمام في المحافظة على المهرجانات اليهودية، ويؤدي العشر، ويردد «الشّما»[1] باستمرار، وأن تكون على بابه «الميزورة» وعلى جنبيه حِرز[2]، وأن يكون متشدداً في الاعتناء بالطهارة الطقسية والتعامل الصحيح مع «الأمور المقدسة» وقواعد الغذاء وألا تكون له قضايا قانونية مع أي شخص في المحاكم المدنية (لأن على اليهود ألا يلجؤوا إلا إلى الإجراءات القضائية التي يشرعها مجلسهم القضائي الديني الأعلى السنهدرين Sanhedrin)، وهلم جرا. فقد كانوا في هذا الزمن الذي نتحدث عنه يعيبون كل الذين لم يحافظوا على الشريعة كما فسروها.

وبالمقارنة معهم كان الصدوقيون أقل تأثيراً في الجليل، ولكنهم أشد محافظة كذلك، كانوا متيقنين أن العبادة القديمة والتوراة لا تقبلان التغيير، في حين كان الفريسيون بعد الكثير من البحث الصميمي راغبين في تبديل العادات

---

(1) الشّما shema هي العبارة المحورية في المعتقد اليهودي، وهي الجملة القائلة «إسمع يا إسرائيل: الرب إلهنا رب واحد... (تثنية الاشتراع 6:4» ـ المترجم.

(2) الميزوزة mezuzah أنبوب أو صندوق يلصق في داخل عضادة الباب ويحتوي على قطعة من الجلد البقري الرقيق كتبت عليها جمل من سفر «تثنية الاشتراع» (6: 4-9 و11: 13-21). والحرز علبة سوداء من جلد العجل ذات سيور جلدية لربطها على الجبين أو الذراع اليسرى، تحتوي على قطعة (أو قطع) ضيقة من الجلد الرقيق كتبت عليها جمل من «سفر الخروج» (13: 3-10 و 11-16) ومن «تثنية الاشتراع» (6: 4-9 و 11: 13-21). واليوم لا يضع اليهود الحرز باستمرار بل في صلوات الصباح في أحد أيام الأسبوع فقط.

القديمة مع الظروف المتبدلة، إذ كان ذلك يعني المحافظة على الجماعات اليهودية منعاً للانحلال الديني. ولكن الصدوقين والفريسيين على السواء قد عارضوا الانقلاب والانتهازية والمغالاة.

وكان بعض الناس العاديين، وربما معظمهم، متسامحين ومتساهلين في هذه الأمور، ويتأثرون ب «الدنيا» بطيب نفس ولم يكونوا متدينين إلا برخاوة وغموض. ومن جهة أخرى، كان الكثيرون يرون أنفسهم يهوداً متشددين، يحضون الصلوات في الكنيس، ويعظمون الشريعة والأنبياء، ويحافظون على الأعياد وعلى الصيام، ويصعدون سنوياً إلى الهيكل في أورشليم في عيد الفصح. وكان الفريسي يعتقد أن هذا ليس كافياً. فإذا لم يحافظوا على تحررهم من التدنيس الطقسي، وتقيدوا بقواعد الغذاء الصارمة، وأدوا العشر، وغسلوا أيديهم قبل وجبات الطعام، وطهروا أشخاصهم طقسياً، وملابسهم، وأقدامهم، ودوارقهم، وأحواضهم، وكل الطعام الذي يتم إحضاره إلى الأسواق ولم يعملوا في يوم السبت، كانوا نجسين ولا يمكن أن يعدوا أتقياء. ولكن الكثيرين من الورعين بين الناس العاديين كانوا متيقنين أن المرء يمكن أن يكون متعبداً بعمق، ومتديناً حقيقياً، من دون أن يكون ضيق التمسك بالشريعة في طاعته «تقاليد الأكبر سناً» ويبدو أن أبوي يسوع كانا ينتميان إلى هذه المجموعة.

ب- حياة يسوع وتعاليمه

الشباب

لا يمكن أن يحدد بدقة تاريخ ميلاد يسوع. ويقول متى (1: 2) إنه وُلـد «في أيام هيرودوس الكبير». وما دام هـيرودس قـد تـوفي في العـام /4/ق.م، فـإن ذلك يشير إلى أن ميلاد يسوع قد حدث قبل هذا التاريخ. ويقـول لوقـا (3: 1-2 و23) إن يوحنا المعمدان قـد بـدا الـوعظ في العـالم الخـامس عـشر مـن عهـد الإمبراطور تيبيريوس (سنة 26 أو 27 للميلاد)، وأنه قد عمد يسوع بعيد ذلـك، وكان يسوع في «زهاء الثلاثين» عنـدما بـدأ كرازتـه. وعنـدما نعـوّد بـالزمن إلى الوراء، نضطر إلى تـأريخ مـيلاد يـسوع قبـل التـاريخ الـذي قدسـه الاسـتخدام الطويـل بـأربع إلى سـت سـنوات[1]. ويقـول لوقـا في موضـع آخـر (2: 1-4) إن يسوع قد وُلد في أثناء إحصاء النفوس الذي أمر به القيصر أوغسطوس عنـدما كان كيريينوس حاكم سورية. (6-9 للميلاد). وهذا يظهر التـشويش الـذي جـاء من جهة لوقا. ومهما يكن، فإذا قبلنا الدليل على أن كيريينوس قد كان في مهمة الموفد الرسمي إلى سورية قبل توليه الحكم، أمكن لنا أن نفترض، كما يفترض بعض الدارسين (ولكن من دون دليل واضح)، أن لوقا كان يتذكر زمناً كان فيـه كيريينوس مرسلاً إلى اليهودية لإجراء إحصاء النفوس قبل عشر سنوات أو اثـنتي عشرة سنة من حكمه.

---

(1) لم يحدث حتى منتصف القرن السادس للميلاد أن حـسبت الكنيـسة الـزمن بمـا قبـل ميلاد المسيح وما بعده. وقد ارتكب الرهبان الذين اتبعت حساباتهم الخطأ في حـساب السنة. ويجب أن يضاف أننا لا نمتلك معلومـات مـن الكتـاب المقـدس لتثبيـت شـهر الميلاد ويومه. وإن كـلا التـاريخين الرومـاني بالخـامس والعـشرين مـن كـانون الأول والأرمني بالسادس من كانون الثاني هما من مصدر متأخر ويعكسان حاجات عصر مـا بعد العهد الجديد وقراراته.

وبالنسبة إلى مكان ميلاد يسوع، نواجه عدم اليقين مرة أخرى. ومتّى ولوقا حجتان في القول إنه ولد في بيت لحم، «مدينة داود»، ولكن بما أن هذين الكاتبين الإنجيليين متأثران برغبة الكنيسة الباكرة في تأكيد أن يسوع هو سليل داود، وقد جاء من بيت لحم كما تفترض النبوءات المتعلقة بالمسيح المنتظر، فإن الدارسين ميالون إلى إثارة الأسئلة[1]. ويرتبط اليقين الأكبر بتأكيد يتفق فيه كل أصحاب الأناجيل الأربعة، وهو أن بيت الأسرة كان في الناصرة الواقعة في الجليل. وفيها كان يوسف يزاول مهنة التجارة، وعلى قدر علمنا فإن كل حياة يسوع حتى بلوغه الثالثة عشرة من عمره عدا بضعة أسابيع قد تمت تمضيتها فيها.

ونحن نعرف القليل مباشرة عن طفولة يسوع وشبابه. ويفضي بنا الدليل الداخلي للأناجيل إلى أن نفترض ـ ولكنه افتراض غير موثق ـ أن أبويه ينتميان إلى الناس العاديين، الـ«أم ـ هآرتس» am haretz، ولكنهما كانا متدينين تماماً، لأن لوقا يقول إنهما كانا يحتاجان كل سنة إلى مدة من الزمن للذهاب إلى أورشليم للاحتفال بعيد الفصح. وقد توصل يسوع إلى معرفة التوراة والأنبياء مع اطلاع كافٍ لتمكينه من الاستشهاد بهم بحرية. ومن الممكن أنه كان يحضر الدروس في مدرسة الكنيس المحلية. وقد أتيح له بطريقة ما أن يكون على معرفة كافيةٍ بالمأثور النبوي لسوء الظن في كل ما كان يقدمه الكتبة (= معلمو الشريعة) والفريسيون من تصلب وتمسك بالحرفية. أما حرفته، فمن الواضح أنه تدرب على أن يكون نجاراً. ونعلم من الأناجيل أنه قد شب في أسرة كبيرة، ويوجد على الأقل ستة أطفال آخرين: أربعة صبيان ـ يعقوب، ويوسى،

---

(1) إن اعتقاد الكنيسة الباكرة بأن كل نبوءات العهد القديم المتعلقة بالمسيح المنتظر حققها يسوع قد أدت، كما يتفق دارسو العهد الجديد، إلى ادعاءات جازمة مشكوك فيها تتعلق بأعماله وروابط نسبه وحضوره في بعض المواقع الجغرافية.
ويتفق دارسوا العهد الجديد كذلك أن قصص الميلاد عند متّى ولوقا قد أوحى بها إيمان ما بعد القيامة بأن يسوع هو ابن الله الذي جاء من السماء لإنقاذ العالم.

وسمعان، ويهوذا ـ وأخوات لم يذكر عددهن[1]. ويقدم لوقا إلينا لمحة كاشفة عن تجربته الدينية وهو طفل. وقصة الصبي يسوع في الهيكل (لوقا 2: 41-52) هي قبل كل شيء تشهد بأنه كان قادراً على الاهتمام القوي بالأمور الدينية، وهو استغراق كان من العمق بحيث أنه لم يفكر في التأثير الذي كان لا بد أن يحدثه غيابه في أقاربه وأصدقائه.

وغالباً ما كانت السنوات الثماني عشرة التالية من حياة يسوع تدعى السنوات الصامتة، لأنه ليس لدينا دليل مباشر عما حدث في أثنائها. ويفترض تقليدياً، من واقعة أن يوسف قد خرج من القصة تماماً، أنه توفي في هذه الفترة، وأن يسوع، بوصفه الابن الأكبر، قد تولى إدارة عمل النجارة، يساعده إخوته. وهذا محض افتراض، ولكن إذا كان الأمر كذلك، فإن يسوع قد نجر وركب المصنوعات الخشبية التي دخلت بيوت الجليليين، وركب سكك المحاريث والأنيار وعربات النقل للمزارعين قرب الناصرة.

المعمودية والإغواء:

عندما كان يسوع في نحو الثلاثين من عمره، اجتاز تجربة من أعمق تجارب حياته. فقد جلب تعميد يوحنا له ما كان للأنبياء من الرؤية الصافية والنداء. وأنهى التعميد السنوات الهادئة في الناصرة وبدل اتجاه حياته تبديلاً كاملاً.

لقد ظهر يوحنا فجأة على ضفاف نهر الأردن ومعه رسالة ملحة، هي «توبوا فإن ملكوت السماء قادم»! وقد برز من المنطقة الصحراوية خلف الأردن، حيث كان يتفكر فيما بدا له أنه أزمة الزمن الحالي. وتخبرنا الأناجيل أنه «كان يرتدي ثياباً مصنوعة من وبر الإبل، وحول خصره منطقة من جلد ويقتات على الجراد المشوي والعسل البري» ـ أي أنه اتخذ لنفسه حياة الزاهد المنعزل.

(1) إنجيل مرقس 3:6 غير أن تراث الروم الكاثوليك يقول إن الأطفال الآخرين لم يكونوا من مريم بل كانوا أطفال يوسف من زواج سابق أو من أخت مفترضة لمريم، هي مريم زوجة كليوفاس. وهذه الرؤية للمسألة تدعم مأثوراً آخر، هو مأثور «عذرية مريم المستديمة».

زادت فترات إطالته التفكير منفرداً من شعوره بأن نهاية الزمن الحاضر قريبة الحدوث، والمسيح المنتظر الذي يجب أن يحكم العالم كان موشكاً على أن يظهر ويأتي معه بيوم الغضب، حيث التائب وحده سيكون قادراً على مواجهته. وكان يبدو له أن هذا اليوم شديد الدنو حيث ورد أنه استخدم الصورة الحية، ها هي «الفأس على أصول الأشجار». والصورة الرائعة الأخرى التي قدمها قد استمدها من البيدر، فقد قال إن المسيح قد رفع المذارة بيده وسوف «يطهر بيدره ويخزن قمحه في مخزن حبوبه»، ولكنه سوف «يحرق التبن بنار لا تنطفئ». ولم يكن وحده في هذا الاعتقاد. فقد كان لدى الأسينيين إحساس مشابه بقرب وقوع النهاية، ولكن يوحنا لم ينضم إليهم. كان لديه من الشعور بالمسؤولية الاجتماعية أكثر من أن ينسحب إلى الانتظار المفعم بالارتقاب. ولذلك غادر الصحراء وبدأ مسلك الوعظ الملتهب، ليحذر الغافلين. ونجح في جذب الناس من كل أنحاء فلسطين للإصغاء إليه. وعندما صار هؤلاء المستمعون مكروبين حيال وضعهم الروحي، أنزلهم إلى نهر الأردن ليغطسهم في الماء. للإعراب عن توبتهم وتطهيرهم من آثامهم. وصار يعرف بالمعمدان. ولكنه كان أكثر من متمسك بالطقوس، فقد كانت توصياته للمهتدين تقوم على أساس أخلاقي أسمى. وفي غضون ذلك وقبل مجئ المسيح، كانوا يمارسون أكثر مسالك الحق والعدل تشدداً. وكانت الحشود تسأله: «ماذا ينبغي لنا أن نفعل»؟ فيجيب: «إن من لديه قميصان عليه أن يتقاسمهما مع من لا قميص لديه، وعلى من يمتلك الطعام أن يفعل الأمر ذاته». وكان يقول لجباة الضرائب ألا يجبوا أكثر مما فوضوا به، ويقول للجنود ألا يبتزوا المال أو يوجهوا التهم الزائفة إلى الناس، بل أن يكونوا راضين بمرتباتهم. ومع أنه قد أثار غضب هيرودوس أنتيباس بشجبه زواجه غير الشرعي من هيروديا، زوجة أخية، وتم توقيفه وأعدم في آخر الأمر وهو في السجن، فقد أنشأ الأتباع الذين صاروا يتكاثرون ذاتياً. وقد عثر القديس بولس على حلقة من أتباعه في إفسس بعد ثلاثين سنة.

وكان من الطبيعي أن ينجذب يسوع إليه. وفي الفصل الأول من إنجيل مرقس (1: 9-11) نقرأ القصة المدمة بإيجاز:

«وَفِي تِلْكَ الأَيَّامِ جَاءَ يَسُوعُ مِنْ نَاصِرَةِ الْجَلِيلِ وَاعْتَمَدَ مِنْ يُوحَنَّا فِي الأُرْدُنِّ. وللْوَقْتِ وَهُوَ صَاعِدٌ مِنَ الْمَاءِ رَأَى السَّمَاوَاتِ قَدِ انْشَقَّتْ، وَالرُّوحَ مِثْلَ حَمَامَةٍ نَازِلاً عَلَيْهِ. وكَانَ صَوْتٌ مِنَ السَّمَاوَاتِ: «أَنْتَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي بِهِ سُرِرْتُ».

كانت التجربة مؤثرة بعمق ومقنعة. فمنذ أن كان يسوع في عامه الثاني عشر كان يشعر دائماً بأكثر من الاهتمام العادي بالأمور الدينية. وقد استماله ذكاؤه المرهف وضميره الاجتماعي الحاضر نحو الدور النبوي في الحياة. وهو الآن مدعو بوضوح إلى لعب هذا الدور.

من المهم أنه انسحب دفعة واحدة إلى البرية وراء الأردن ليتفكّر في النهج الذي يجب أن يبدأ به الآن. وفي التراث المسيحي يوصف هذا الزمن من التأمل والقرار بأنه فترة الأربعين يوماً التي حاول الشيطان إغواءه فيها. وكما روى متّى ولوقا، كان للإغواء ثلاثة أطوار. وخلف التصوير الخيالي يمكن أن نرى المسائل الحقيقية جداً. أينبغي أن يواصل العمل من أجل معاشه ـ من أجل خبزه؟ ليس الآن أبداً. أينبغي أن يستخدم مناهج مثيرة للإعجاب يمكن أن تجذب الانتباه ولكنها تعرضه لخطر الهلاك؟ لا ليس عليه أن يضع اصطفاء الله له موضع امتحان. هل عليه أن ينشد السلطة السياسية بوصفها الشرط المسبق لتخليص إسرائيل؟ لا، إن من شأن ذلك الفعل أن يكون تسوية مع الشيطان.

بداية الكرازة في الجليل:

نحو الزمن الذي تم توقيف يوحنا (المعمدان) فيه، عبر يسوع نهر الأردن وتقدم إلى الجليل، معلناً، كما يقول مرقس (1: 14:15):

«...بِبِشَارَةِ مَلَكُوتِ اللهِ وَيَقُولُ: «قَدْ كَمَلَ الزَّمَانُ وَاقْتَرَبَ مَلَكُوتُ اللهِ، فَتُوبُوا وَآمِنُوا بِالإِنْجِيلِ».

وكانت نبراته ملحة وقد أحدثت من الاقتناع بشخصه وبرسالته ما جعل أربعة تلاميذ يتبعونه على الفور ـ وهم سمعان بطرس وشقيقه أندراوس ويعقوب وشقيقه يوحنا، وكلاهما ابنا زَبَدي ـ وكلهم صيادون تركوا شباكهم وتبعوه. وفي ذلك الحين كانت تحيط ببحيرة الجليل مدن مزدهرة ـ طبريا وترشيحا وكفر

ناحوم وكورزين وبيت صيدا. وقد بدأ يسوع كرازته بينها، مختاراً كفر ناحوم مقراً له لأن بيت سمعان بطرس كان فيها.

وفي البداية كان يتكلم في الكُنُس، وعندما كبرت الحشود أكثر من أن تستوعبها الكُنُس، أخذ يعظ في ميادين الأسواق والحشود المكشوفة.

ويحتوي الفصل الأول من إنجيل مرقس على وصف وافٍ لما جرى ليسوع في يوم السبت الأول في كفر ناحوم. وسيفي بغرضنا جيداً أن نحلله بشيء من الإسهاب بوصفه يوماً مثالياً في كرازة يسوع المبكرة. وقبل كل شيء، «ذهب إلى الكنيس وعلم». ومن المحتمل أنه كان يوجد أكثر من كنيس واحد في كفر ناحوم، وقد ذهب إلى الكنيس الذي كان مدعواً إليه[1]. وكان داخل الكنيس عارياً وبسيطاً. وجعلت جماعة المصلين أورشليم قبلتها. وكانت أمامهم منصة مرفوعة وعليها منضدة قراءة، وقبالة الجدار أو في تجويف فيه خزانة للفائف الكتاب المقدس، وتتدلى ستارة أمامه، وفي مواجهة الستار انتصب مصباح، كان منيراً على الدوام، وفي أثناء الصلوات كانت «المقاعد الرئيسة» يشغلها الشيوخ والفريسيون البارزون، الذين كانوا يقعدون في مواجهة المتعبدين الآخرين. وأدت أصواتهم في الترديد المتناغم لـ«الشما» دوراً أساسياً في كل صلاة. وكان المتعبدون يقفون أحياناً، كما حين يتلو حاكم الكنيس الصلوات وتردد جماعة المصلين الترديدات المناسبة. وبعد أن يأخذ الخازن من الخزانة لفائف الشريعة والأنبياء تبدأ تلاوات اليوم من الكتاب المقدس، بالعبرية أولاً، ثم بالآرامية وبعد ذلك يقوم حاكم الكنيس ذاته، أو شخص يختاره، بمخاطبة جماعة المصلين على سبيل التعليم.

(1) كان يسيطر على الكنس في شؤون العقيدة الكتبة والفريسيون، ولكن الإدارة المحلية كانت بأيدي مجلس الشيوخ، الذي كان ينتخب أحدهم «حاكم الكنيس»، وله وظيفة المراسم الدينية. وهو في وضع يؤهله لدعوة يسوع للتحدث في الكنيس. وكان الموظف الآخر، وهو الخازن chazzan، قيم مكتبة الكنيس، ويتولى العناية بمخطوطات الكتب المقدسة، وكان كذلك المشرف على المبنى. وإذا كان متدرباً على النسخ والكتابة غدا معلماً في مدرسة الكنيس، ولكل كنيس بالإضافة إلى ذلك مجموعة من الرجال يجمعون الصدقات وينفقونها. وفي محاكاة لهم قام المسيحيون بتعيين الشماسين.

هكذا كان الوضع عندما تفوه يسوع بالكلام الأول والمهم في كفر ناحوم. ويروي لنا أنه عندما بدأ الكلام انبهت الحاضرون من تعليمه، لأنه كان «كمن لديه سلطة»، أي بقوة إنسان دعاه الله إلى رسالة عاجلة وبثقة وبحرية كبيرة في التأويل ومن جماع قلبه، لا بجفاف «كالكتبة». وبعد ذلك حدث أمر مروع. إذ إن شخصاً من الحاضرين كان يعتقد أن فيه شيطاناً سبب له حالة جسمية وذهنية شاذة ـ وذلكم هو التفسير المقبول عموماً لبعض الأمراض في تلك الأيام – قاطع الواعظ بصورة مفاجئة:

«...مَا لَنَا وَلَكَ يَا يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ؟ أَتَيْتَ لِتُهْلِكَنَا! أَنَا أَعْرِفُكَ مَنْ أَنْتَ: قُدُّوسُ الله !فَانْتَهَرَهُ يَسُوعُ قَائِلاً: «اخْرَسْ! وَاخْرُجْ مِنْه»! فَصَرَعَهُ الرُّوحُ النَّجِسُ وَصَاحَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ وَخَرَجَ مِنْهُ.

ومن المحتمل أن يسوع كان مندهشاً من قدرته الشفائية اندهاش أي شخص. (يبدو ذلك مشاراً إليه فيما فعله باكراً في الصباح التالي). ويجب أن نتذكر في محاكمة الوضع أنه لم يكن ليده مسوغ للشك في تشخيص الأمراض المحيرة التي كانت عامة الانتشار في زمانه، أي أنه تسببها قدرة شيطانية حلولية تدخل الشخص من حيّز آخر.

ونقرأ بعد ذلك:

واندهشوا جميعاً بشدة وتناقشوا في الأمر، وقالوا:

«ماذا يعني ذلك؟ إنه تعليم جديد! إنه يصدر الأوامر بسلطة حتى للأرواح الخبيثة، وتطيعه»!

وذاع صيته على الفور في كل الأنحاء...

وتستمر القصة بعد الصلاة في الكنيس، فقد ذهب يسوع مع تلامذته إلى بيت سمعان بطرس، حيث كانت حماة سمعان مريضة بالحمى، وطريحة الفراش. فأقبل يسوع عليها، وبإمساكه يدها أنهضها. «وفارقتها الحمى، وصارت تقوم على خدمتهم». ثم أعقبت ذلك حادثة من الحوادث الفاصلة في كرازة يسوع الباكرة.

«وفي المساء، بعد الغروب، احضروا، إليه كل الذين كانوا مرضى أو ركبتهم الشياطين، وتجمعت المدينة كلها عند الباب. فأبرأ الكثيرين»...

وتستحق صيغة الكلام هنا دراسة دقيقة. فمن المثير للاهتمام أن نلاحظ أن كتاب الأناجيل الآخرين يحولون في نقلهم عن مرقس في هذه المسألة كلمة «الكثيرين» إلى كلمة «كلهم»، ولكن مما لا ريب فيه أن مرقس يحتفظ بالمنقول الأصلي. فلم يكن يسوع يستطيع شفاء الناس إلا ب «إيمانهم»، وكان بصدق كامل يرفض المفخرة، بل يقول لكل من شفي كلاماً من قبيل: «اذهب بأمان، ولا تأثم من جديد، إن إيمانك قد شفاك»[1].

والقول إن يسوع قد شوشته قدرته المكتشفة حديثاً وما جلبته من شهرة له تتضمنه الكلمات التالية:

---

(1) إن معجزات يسوع الشفائية، كما حفظت لنا في الأناجيل، تخلق صعوبات جمة، ولكن علينا أن نتذكر الوضع المعاصر لها. إن الاعتقاد بالمس الشيطاني في أحوال المرض الجسمي أو الذهني، الشائع بصورة واضحة في فلسطين، قد أدى بالكثيرين الذين من شأنهم فيما عدا ذلك أن يكونوا «طبيعيين» إلى أن يعتبروا أنفسهم «ممسوسين». وكان ذلك بالنسبة إلى أولئك المعذبين حالة توقع في النفس الكآبة في أحسن الأحوال إن لم تكن رهيبة، وعندما نضيف الكرب في عصر يسوع، مع ما يخالطه من التوترات السياسية والسيكولوجية والروحية، ذات الشدة البالغة في أكثر الأحيان، فمن السهل أن نتصور أنه كانت توجد حالات كثيرة، بين كل فئات الشعب، من تلك التي يدعوها عصرنا الاضطرابات الوظيفية، التي تفاقمها المخاوف وصنوف الكتب وتبدي الكثير من أعراض المرض العضوي. وإذا كان في وسعنا أن نتحدث عن «الحد الأدنى من الرأي» في معجزات يسوع، فإنه سيكون شيئاً كهذا: كان يسوع شخصاً متحدياً، «يتحدى بسلطة»، كما رأينا منذ آونة، لا مع البشر وحسب بل كذلك مع «الأرواح الخبيثة». ويضاف إلى ذلك أن هناك قدراً كبيراً من الدليل على أنه كان يحركه الحب والحنو. وبكلمات ثابة، كان يعيد الإيمان والثقة بالنفس للكثير من المرضى وذوي الأرواح الضائعة، ويقنعهم أنه طرد «الأرواح الخبيثة» منهم فيتسبب في زوال الأعراض المفزعة في لحظة.

وفي الصباح الباكر، قبل سطوع ضياء النهار بمدة طويلة، نهض وغادر المنزل وانطلق إلى بقعة موحشة، وصلى فيها. وبحث عنه سمعان وصحبه في الخارج وعثروا عليه، وقالوا له:

«إنهم جميعاً يبحثون عنك»!

فقال لهم:

«لنذهب إلى مكان ما، إلى المدن الريفية المجاورة، لعلي أخطب فيهم واعظاً أيضاً، لأنني لهذا السبب قد خرجت إلى هنا».

على أن تجربته في المدن الأخرى كانت كتجربته في كفر ناحوم. وفي بضع أيام لم يعد يستطيع أن يدخل من المدن جهاراً بل كان يبقى في الأماكن التي لا يطرقها الناس، ويأتيه الناس من كل صوب، وكانت شعبيته هائلة. والناس «يُهرعون» إليه. وكان ينم عن وعد عظيم. وكانوا مستبشرين بأمور كبيرة. وعندما عاد ثانية إلى كفر ناحوم، «تجمع حشد غفير حتى أنه لم تعد هناك فسحة حتى حول الباب». وفي مناسبة أخرى كان في المنزل أناس من الكثرة بحيث تعذر تأمين وجبة طعام لهم، وفي مناسبة أخرى كذلك، تجمع على امتداد شاطئ البحيرة أناس كثيرون ومن خشية يسوع من الزحام جعل تلامذته يبقون زورقاً جاهزاً لنقله. وفيما بعد وجد الحشد كبيراً جداً، «فدخل زورقاً وقعد فيه، وعلى مسافة قصيرة من الشاطئ، في حين كان الناس كلهم على البر قريبين من الماء». ومن هذا الموقع المناسب راح يعلمهم.

محتوى تعليم يسوع:

ماذا كان في وعظ يسوع مما جذب الحشود بشدة في مطلع كرازته؟ أولاً، لقد جاء برسالة ملحّة كانت في ذاتها مثيرة، إنها ترتبط بأن حدوث حكم الله الكلي قد أصبح وشيكاً وعلاوةً، كان لديه قدر كبير من القول حول الاستعداد للعصر الجديد لتحقيق مشيئة الله «الآن»، حيث لا يزال هناك وقت. وأخيراً، كان يتحدث بلغة بسيطة غير اختصاصية حول المسائل المركزية في الدين، مع الاستخدام الدائم لتوضيحات بالأمثلة المستمدة من الطبيعة والحياة الإنسانية.

كان إنساناً بسيطاً يتحدث إلى أناس بسطاء. وكانت أعمق دروسه تعطى عبر الأمثولات ـ وهي قصص وجيزة تضع الوضع البشري في المنظور الصحيح. إن ما حققه فعلاً كان توليفاً جديداً للرؤى الدينية لشعبه.

أ- «ملكوت الله قريب»:

من الواضح أن يسوع قد شارك شعبه في توقع أن الملكوت المتعلق بالمسيح المنتظر الذي جرى الكلام حوله أمداً طويلاً قد أوشك الإيذان به. وكان الإحساس الديني عند الشعب اليهودي يتمركز آنئذٍ في هذا التوقع. ولذا كان يستجيب لبيئته استجابة طبيعية عندما كان يساوره مع شعبه الأمل العام والعاطفي في نظام جديد للأمور.

وكان توقّعاً مُلهباً. فالوقت قد حان لمجيء «ابن الإنسان» بوصفه دياناً ومخلصاً. وليس من شأن ذلك أن يكون حادثاً بشرياً، أو حادثة سياسية يمكن التنبؤ بها، بل من شأن ذلك أن يكون حادثاً فائق الطبيعة، يسببه الله وحده، في زمن يجهله الإنسان.

وفي إنجيل مرقس فِقَر لها معنى مشابه.

وَقَالَ لَهُمُ: الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مِنَ الْقِيَامِ ههُنَا قَوْمًا لاَ يَذُوقُونَ الْمَوْتَ حَتَّى يَرَوْا مَلَكُوتَ اللهِ قَدْ أَتَى بِقُوَّةٍ. (مرقس 9:1)

اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لاَ يَمْضِي هذَا الْجِيلُ حَتَّى يَكُونَ هذَا كُلُّهُ. اَلسَّمَاءُ وَالأَرْضُ تَزُولاَنِ، وَلكِنَّ كَلاَمِي لاَ يَزُولُ. «وَأَمَّا ذلِكَ الْيَوْمُ وَتِلْكَ السَّاعَةُ فَلاَ يَعْلَمُ بِهِمَا أَحَدٌ، وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الَّذِينَ فِي السَّمَاء، وَلاَ الابْنُ، إِلاَّ الآبُ. اُنْظُرُوا! اِسْهَرُوا وَصَلُّوا، لأَنَّكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ مَتَى يَكُونُ الْوَقْتُ. (مرقس 13 : 30-33)

وتأملوا الفِقَر التالية من إنجيل لوقا:

وَقَالَ لِلتَّلاَمِيذِ: «سَتَأْتِي أَيَّامٌ فِيهَا تَشْتَهُونَ أَنْ تَرَوْا يَوْمًا وَاحِدًا مِنْ أَيَّامِ ابْنِ الإِنْسَانِ وَلاَ تَرَوْنَ .وَيَقُولُونَ لَكُمْ:هُوَذَا ههُنَا! أَوْ: هُوَذَا هُنَاكَ! لاَ تَذْهَبُوا وَلاَ تَتْبَعُوا، لأَنَّهُ كَمَا أَنَّ الْبَرْقَ الَّذِي يَبْرُقُ مِنْ نَاحِيَةٍ تَحْتَ السَّمَاءِ يُضِيءُ إِلَى نَاحِيَةٍ

تَحْتَ السَّمَاء، كَذلِكَ يَكُونُ أَيْضًا ابْنُ الإِنْسَانِ فِي يَوْمِهِ ..وكَمَا كَانَ فِي أَيَّامِ نُوحٍ كَذلِكَ يَكُونُ أَيْضًا فِي أَيَّامِ ابْنِ الإِنْسَانِ: كَانُوا يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ، وَيُزَوِّجُونَ وَيَتَزَوَّجُونَ، إِلَى الْيَوْمِ الَّذِي فِيهِ دَخَلَ نُوحٌ الْفُلْكَ، وَجَاءَ الطُّوفَانُ وَأَهْلَكَ الْجَمِيعَ. هكَذَا يَكُونُ فِي الْيَوْمِ الَّذِي فِيهِ يُظْهَرُ ابْنُ الإِنْسَانِ. (لوقا: 17: 22-30).

وإذا قبلنا أن هذه الأقوال ترجع إلى يسوع ـ وهي تبدو في ماهيتها أقواله فماذا سيقال عن أهميتها؟ من الواضح أن الاقتناع هو بالرؤيا بأن «نهاية العصر» وشيكة الحدوث، ومن المحتمل أن تكون قريبة جداً. ورعشة الترقب التي يحدثها هذا الاقتناع من الصعب علينا أن نخلقها من جديد حتى في الخيال. وأن يكون اعتقاداً غريباً بالنسبة إلى القرن العشرين ليس حجة على الإطلاق للقول بأنه لا يمكن أن يعتقد به في ذلك الحين إلا الذهن العجيب أو غير السليم[1]. لأنه كان يغدو هاجساً بين العدد الأكبر من يهود فلسطين وكان عاملاً كبيراً في حياة اليهود الذين عاشوا في الخارج. وكان عدم الاقتناع به غير معقول. وفي عالم لم يوجد فيه مفهوم التطور الاجتماعي والتقدم، وحيث كان الإيمان بتدخل الله المباشر في الشؤون الإنسانية لا يعتوره الشك، لم يشك صاحب ذهن متدين من اليهود أن الله سوف يقدم خلاصه، كما فعل في الماضي عندما كان شعبه يعاني ألماً يفوق الاحتمال.

---

(1) هل هو حقاً اعتقاد غريب تماماً بالنسبة إلى القرن العشرين؟ يمكن أن يقال إن النصف الأخير من هذا القرن تهيمن عليه بصورة متزايدة أفكار عن نهاية ممكنة للوجود البشري على هذا الكوكب. إننا نحيا في زمن يحذر فهي العلماء من كارثة بيئية، ويسعى الزعماء السياسيون بقلق إلى منع حدوث محرقة ذرية، ويتحدث أصحاب العقول الدينية، وهم يرون كيف تفصح انفجارات العنف عن ابتلاع الجنس البشري، عن حكم الله على حماقة البشر وإثمهم. في العام 1951 قال رودولف بولتمان، اللاهوتي الألماني، في كتابه «يسوع المسيح والأسطوريات» «Jesus Christ and Mythology (Scribner's Sons, new York, p 25 f)». «إنه من الممكن أن ينشأ فقه أخروي توراتي من جديد. ولن ينشأ بشكله الأسطوري القديم بل عن الرؤية المفزعة لما يمكن أن تحدثه التكنولوجيا الحديثة، لا سيما العلم الذري، من تدمير لأرضنا»..

إلا أن يسوع قد أسفر في تقديره الوضع عن أصالة في أكثر من مسألة. والفحص الدقيق لاستخدام يسوع الصيغ الفكرية الغائمة إلى هذا الحد أو ذلك من فقه الآخرة في زمنه، يظهر أنه مع مشاركته في الأمل الرؤيوي العام قد قام بتحويله. وأخذ مذهب انتظار المسيح الذي يقوم على التصور الضيق في يهودية عصره الأقل شمولية، والذي يأمل على الأغلب في استعادة مملكة داوود، فأحل محله شكلاً جديداً من الرؤية القديمة لعالم يمتد فيه حكم الله على كل البلاد. وعندما أعاد تصور الرؤية القديمة، فإن أهل الملكوت سوف «يأتون» من كل مكان. وإن فِقْرة من فِقَر الـ«Q» تصوغ ذلك بأقصى المباشرة.

«اجْتَهِدُوا أَنْ تَدْخُلُوا مِنَ الْبَابِ الضَّيِّقِ، فَإِنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كَثِيرِينَ سَيَطْلُبُونَ أَنْ يَدْخُلُوا وَلاَ يَقْدِرُونَ . مِنْ بَعْدِ مَا يَكُونُ رَبُّ الْبَيْتِ قَدْ قَامَ وَأَغْلَقَ الْبَابَ، وَابْتَدَأْتُمْ تَقِفُونَ خَارِجًا وَتَقْرَعُونَ الْبَابَ قَائِلِينَ: يَا رَبُّ، يَا رَبُّ! افْتَحْ لَنَا. يُجيبُكم، لاَ أَعْرِفُكُمْ مِنْ أَيْنَ أَنْتُمْ! حِينَئِذٍ تَبْتَدِئُونَ تَقُولُونَ: أَكَلْنَا قُدَّامَكَ وَشَرِبْنَا، وَعَلَّمْتَ فِي شَوَارِعِنَا! فيَقُولُ: أَقُولُ لَكُمْ: لاَ أَعْرِفُكُمْ مِنْ أَيْنَ أَنْتُمْ، تَبَاعَدُوا عَنِّي يَا جَمِيعَ فَاعِلِي الظُّلْمِ !هُنَاكَ يَكُونُ الْبُكَاءُ وَصَرِيرُ الأَسْنَانِ، مَتَى رَأَيْتُمْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَمِيعَ الأَنْبِيَاءِ فِي مَلَكُوتِ الله، وَأَنْتُمْ مَطْرُوحُونَ خَارِجًا. وَيَأْتُونَ مِنَ الْمَشَارِقِ وَمِنَ الْمَغَارِبِ وَمِنَ الشِّمَالِ وَالْجَنُوبِ، وَيَتَّكِئُونَ فِي مَلَكُوتِ الله. وَهُوَذَا آخِرُونَ يَكُونُونَ أَوَّلِينَ، وَأَوَّلُونَ يَكُونُونَ آخِرِينَ» (لوقا 13: 24-30).

ويوضح متّى جزءاً من هذه الفقرة أشد الإيضاح، على النحو:

وَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كَثِيرِينَ سَيَأْتُونَ مِنَ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ وَيَتَّكِئُونَ مَعَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ، وَأَمَّا بَنُو الْمَلَكُوتِ فَيُطْرَحُونَ إِلَى الظُّلْمَةِ الْخَارِجِيَّةِ. هُنَاكَ يَكُونُ الْبُكَاءُ وَصَرِيرُ الأَسْنَانِ. (متّى 8: 11-12)

كأن هذا لم يكن تنقيحاً شديداً بما فيه الكفاية للآمال اليهودية المنتشرة، فتنبأ يسوع أن المركز الأرضي للمملكة الداودية ـ وهو أورشليم وهيكلها- سيتم القضاء عليه لأن سكان المدينة لم يتوبوا والتوبة وحدها ستنقذهم، وتنقذ أي إنسان. وبما أن المنبوذين، والعشّارين، والعاهرات، وسائر الخطاة قد أظهروا

من علامات التوبة أكثر مما أظهر الكتبة والفريسيون، فإنهم سوف يدخلون ملكوت السماء قبل من يُدعون خدم الله الذين يزكون أنفسهم بافتخار. (إن الله ليسره آثم واحد تائب أكثر من تسعة وتسعين شخصاً لا يرون حاجة إلى التوبة. ولذلك فإن إحلال متّى كلمات أبسط محل المواعظ المبدوءة بكلمة طوبى في إنجيل لوقا لا يبطل اقتناع يسوع: بأن أنقياء القلب هم الذين سوف يرون الله، والودعاء هم الذين سيرثون الأرض).

وقد حاد يسوع كذلك عن التفكير العام بتعليمه أنه في حين أن الملكوت بملئه كائن في المستقبل، فقد كان بمعنى حقيقي حاضر الآن. وقد قال للمرتابين إنه إذا كان «بإصبع الله» قد طرد الشياطين الآن، فإن ملكوت الله قد حل عليهم وأجاب بعض الفريسيين الذي سألوه متى سيأتي ملكوت الله. «إن ملكوت الله بين ظهرانيكم»! وكان يعتقد أنه هو وتلامذته يمتلكون في داخلهم القدرة السرية التي يراها المرء في قطعة صغيرة من الخميرة يمكن أن تخمر مقداراً كبيراً من الدقيق، أو في بذرة خردل، وهي أصغر البذور، ويمكن أن تنمو وتصير شجرة تستطيع الطيور أن تأوي إليها.

وهذا يُفضي بنا إلى المشكلة العويصة جداً في تصور يسوع لعلاقته بالله. فهل كان يرى نفسه ابن الإنسان وابن الله بمعنى خاص؟ وهل كان يعتقد أنه المسيح منذ زمن معموديته، أم أنه تدرج إلى الاقتناع بأنه مسيح الله؟ أم أن أتباعه قد أضفوا عليه صفة المسيح قبيل انتهاء سيرته وبعد وفاته، ومن دون تلميح منه بأن ذلك مناسب له؟

هذه الأسئلة حاسمة وقد لا يكون بالإمكان أن يجاب عنها في آخر الأمر. ومع ذلك يمكن قول بعض الأشياء المحددة جداً حول إحساس يسوع بالعلاقة الفريدة بالله.

كان الله بالنسبة إلى يسوع أكثر بكثير من مجرد كائن متعال يدين له المرء بصلاة الصباح والمساء. ويبدو أن حميمية ألفته مع الله تجاوزت أي شيء خبره البشر. وكان في تعليمه لتلامذته أن يصلوا، يبلغهم شيئاً ما عن هذه الخبرة، ولكن كان فيها كذلك شيء ما غير قابل للإبلاغ، ولذلك آل بهم الأمر إلى الاستغراب.

ومهما كان استخدامه لمصطلحي «ابن الإنسان» و«المسيح» فليس هناك شك في أنه كان يعرف أنه «مُرْسَل». وقد عهد إليه الله بتأسيس ملكوته. وكما هي الحال مع النبي عاموس، فهي مع يسوع، فقد «أخذه» الله وأرسله إلى البشر.

ومن ثم كان في وسعه أن يعظ ويعلم ويشفي بسلطة. واستطاع أن يقدم شريعة تنسخ شريعة موسى. واستطاع أن يتلو على جماعة المصلين في الناصرة مقطعاً مهماً:

«رُوحُ الرَّبِّ عَلَيَّ، لأَنَّهُ مَسَحَنِي لأُبَشِّرَ الْمَسَاكِينَ، أَرْسَلَنِي لأَشْفِيَ الْمُنْكَسِرِي الْقُلُوب، لأُنَادِيَ لِلْمَأْسُورِينَ بِالإِطْلاَق ولِلْعُمْيِ بِالْبَصَرِ، وَأُرْسِلَ الْمُنْسَحِقِينَ فِي الْحُرِّيَّةِ، وَأَكْرِزَ بِسَنَةِ الرَّبِّ الْمَقْبُولَةِ» (لوقا 4: 18-19).

ثم قال: إِنَّهُ الْيَوْمَ قَدْ تَمَّ هذَا الْمَكْتُوبُ فِي مَسَامِعِكُمْ. (لوقا 4: 21).

وخلاصة المسألة هي أن يسوع قد عثر على مبدأ رئيس استحوذ عليه تماماً. لقد كان الواقع المركزي في محيطه، الواقع النهائي الذي يمنح عالمه القيمة والصفة الدينية، هو الله، وفي فعل الاستسلام تخلى عن ذاته وانقطع إلى وعي حضور الله ومشيئته. ومنذ ذلك الحين فصاعداً توحد بالله تماماً في الشخص والموقف، وراح يطوف بين الناس، يتملكه يقين مطلق، فلا يتردد، ولا يشك، ويكتسي بالقدرة والسلطة، وحياته الكلية المتحدة تصرخ عالياً: لا شيء مهم بالنسبة إليكم مثل واجب سماعي، سماعي من كل فرد منكم: فمن خلالي يتحدث الله!

ب- التعليم الديني العام:

إن أمراً واحداً هو الواضح في كل التعليم الذي تذكره تلامذة يسوع: هو مركزية وجهة النظر الدينية. فمن حين تعميد يوحنا المعمدان له وفي كل البقية من حياته، شغلت العلاقة الحميمة بالله الحيز المحوري في تفكير يسوع، وحددت اتساق وجهة نظره. ولكن ذلك لم يدفعه إلى ترتيب أسباب اعتقاده بواقع الله، في عصر يسود فيه الإيمان الكلي بالوجود الإلهي. وما كان الناس يرغبون في معرفته آنذاك هو أي نوع من الإله كان الله، وبالنظر إلى طبيعته، ماذا يمكن أن يتوقع منه أن يفعل. وفي هذه المسألة تحدث يسوع بتأكيد عميق. كان الله هو الشخصية الأخلاقية ذات السلطة العليا التي تحكم الكون، والروح المتحركة وراء سير التاريخ وعند انتهائه، والكائن المتعالي، والعادل بشدة،

الذي لم يبارح العدالة التامة في تقرير سير الأحداث أو مصير الفرد. ومع ذلك فالله يقترب ممن يطأطئ رأسه في الصلاة. وكان الله كذلك غفوراً رحيماً، ومشغولاً في الدرجة الأولى بالخلاص البشري، في صفته الأبوية وفعله الأبوي. وكان الاسم الأثير لله عن يسوع هو الآب «الآب الذي في السماء». وما يحتوي عليه تعليمه هو أن الله وأن كان يسمح للبشر بتكوين قراراتهم، وبجعل الوسائل تحت تصرفهم ثم تبديدها في العيش المتهتك، كالمبذر في الأمثولة الشهيرة، فإنه يواصل محبته لهم في كل العملية التخليصية للعقاب والمعاناة التي تلي ذلك لا محالة، وسوف يغفر لهم عندما يؤوبون إليه. ولذا فإن الله خير مطلق كما هو مقدس. وعلى البشر أن يثقوا به وألا يساورهم أي ظل من ظلال الشك، بل أن يكونوا مطمئنين، وأن ينشدوا التنور الروحي بانتظام من خلال الصلاة، ولا سيما صلاة المرء الخاصة في غرفته أو منفرداً في الحقول أو قمم التلال.

وكان موقف يسوع من الطبيعة مشروطاً بتصوره لله. وكان يهودياً حقيقياً في تفكيره أن الطبيعة هي خشبة مسرح تدور عليها دراما الخلاص البشري. ولم تكن الطبيعة هي الواقع النهائي الجوهري. فالله يعمل من وراء الطبيعة ومن خلالها. (يمكن للمرء أن يعمم ويقول إن يسوع كاليهود في النظر إلى الله من خلال الطبيعة، ولم يتبع الميل اليوناني إلى النظر إلى الطبيعة من خلال الآلهة). وفي الوقت ذاته واضح في تعليم يسوع أنه كان ينظر إلى الطبيعة مباشرة بابتهاج وثقة. وعلى حد قوله في إنجيل متّى (6: 26-29)

«اُنْظُرُوا إِلَى طُيُورِ السَّمَاءِ: إِنَّهَا لاَ تَزْرَعُ وَلاَ تَحْصُدُ وَلاَ تَجْمَعُ إِلَى مَخَازِنَ، وَأَبُوكُمُ السَّمَاوِيُّ يَقُوتُهَا. تَأَمَّلُوا زَنَابِقَ الْحَقْلِ كَيْفَ تَنْمُو! لاَ تَتْعَبُ وَلاَ تَغْزِلُ. وَلكِنْ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ وَلاَ سُلَيْمَانُ فِي كُلِّ مَجْدِهِ كَانَ يَلْبَسُ كَوَاحِدَةٍ مِنْهَا».

ومن المؤكد أن البشر لو أرادوا أن يتعايشوا في عدالة ملكوت الله، لوجدوا في الطبيعة كذلك كل ما يحتاجون إليه[1].

---

(1) إنه تبسيط، ولكن معنى تعليم يسوع في المسألة هو: أن البلية تكمن في أن البشر يبحثون عن الغذاء والكساء أولاً، ولكنهم لو بحثوا عن الملكوت أولاً، لجاء الغذاء والكساء في الطريق، وتلكم هي خطة الله.

وموقف يسوع من جسده ودوافع الإنسان الطبيعي في داخله (إذا اتبعنا الصياغة التقليدية للإشارة إلى الدوافع الفطرية عند البشر) كان موقفاً واثقاً ومطمئناً، ومرة أخرى يهودياً نموذجياً. ومن الواضح أنه وافق على أن الجسد متكامل مع الذهن والروح في وحدة فاعلة. ولم يكن زاهداً. فكان يستمتع بحفلات الأعراس وولائمها. ولم يوح أبداً بأن الجسد في كنهه مفسد ومنجس، او أن الروح حبيسة في الجسد ظلماً. وقد يصير الجسد بالفعل أداة خطرة لمشيئة شريرة، أو قد ينقسم بين الخير والشر لأن المشيئة تنقسم بينهما. وقد قال يسوع إنه في الحالة الثانية قد يستخدم المرء وسائل شديدة المفعول لاستعادة وحدة الشخصية:

«إذ جعلتك قدمك تزل، إقطعها». ولكن في الجانب الإيجابي، فإن أحد أتباعه، وهو القديس بولس، الذي قد تلقى تدريباً يهودياً، يضع المسألة كلها بوضوح كافٍ في الإشارة إلى أن الجسد قد يكون هيكل «الروح القدس»[1]. ويسوع لم يَنْهَ أتباعه عن متابعة الخير الشخصي والاجتماعي بداعي أن الجسد هو العدو الأساسي للخير وينبغي قهره أولاً.

كان انتباهه منصباً على غير هذا الموضع. وكان اهتمامه متجهاً إلى فعل الإنسان لمشيئة الله (والباحثون على حق في قولهم إن يسوع لم يكن ينشد فعل مشيئة الله لأنه كان معنياً بالآخرة، بل معنياً بالآخرة لأنه كان ينشد فعل إرادة الله). وكانت إرادة الله هي: أن على البشر أن يصبحوا صالحين لملكوت الله القادم بعيشهم معاً بوصفهم أشخاصاً متوجهين دينياً نحوه كما يتجه الأبناء نحو الأب ويتوجه بعضهم نحو بعض أخلاقياً بوصفهم إخوة. وليس هناك شخص مستبعد من محاولة الوصول إلى مثل هذا الصلاح. وليس هناك من لا يستحق نعمة الله أو أخوة الإنسان ـ وهو المبدأ الذي كثيراً ما يطلق عليه اليوم احترام الشخصية. وقد استشهد بهذا المبدأ خصوصاً في حالة الأطفال الصغار، بل كذلك في حالة الهامشيين، والآثمين، والغرباء، الذين كانوا يعاشرهم باستمرار. وليس هناك

---

(1) على أن القديس بولس كان متأثراً إلى حد كافٍ بنماذج التفكير اليونانية في قوله في موضع آخر إن الجسد والروح «متعارضان، ولذلك لا يمكنكم القيام بأي شيء تريدونه».

استثناء من قانون المحبة، بل من شأن هذا القانون أن يكون عالمياً يتخطى حدود الأعراق والأمم. ويمكن لهذه العناصر أن تدعى العناصر الشمولية والجوهرية في التعليم الديني عند يسوع. ولا ريب أنها تكتسي وتتلون بالأشكال الفكرية لزمانه. وكان ذلك أمراً لا مناص منه.

ج- التعليم الأخلاقي:

إن وعي يسوع الديني ـ كما هو الحال عند أنبياء العهد القديم ـ ينتقل إلى تعلميه الأخلاقي. كان يتكلم بسلطة التأكيد الأخلاقي. ولأنه كان يستطيع أن ينقل نفسه بسرعة ويسر من قرار أخلاقي إلى آخر، من دون تردد طويل، فقد كان تعليمه يحتوي على مطالبة مستمرة بأن يرغب المرء بكل ما من شانه تمهيد السبيل لقدوم ملكوت الله، والثبات على ذلك.

كان يسوع، لتسليمه بصحة معرفة أتباعه بمتطلبات ملكوت الله، قد توقع منهم باعتبارهم متدينين أن يكونوا مخلصين في العمل وفقاً لبصيرتهم. وكان هذا الأمر يبدو للوقار شديد الإلحاح حيث حدث في إحدى المرات، حين دعا يسوع رجلاً إلى اتّباعه وقال له الرجل: «ائذن لي أن أمضي أولاً وأدفن أبي»، أن قال له، «دعِ الموتى يدفنون موتاهم، عليك أن تذهب وتنشر نبأ ملكوت الله». غير أن رجلاً آخر قال له: «إنني سوف أتبعك، ولكن دعني أولاً أقل كلمة الوداع لأهلي في البيت»، فأجابه يسوع، «لا يصلح لملكوت الله من يعكف على عمل بنية إنجازه، ثم ينظر إلى الوراء».

وكان يسوع يطالب أتباعه، بوصفهم أناساً متدينين حقاً، إلى جانب ما يتطلبه منهم من الإخلاص والالتزام الذاتي، أن يضعوا الواجبات الأخلاقية فوق كل المتطلبات الاجتماعية أو القانونية أو الطقسية. وكان في هذه المسألة يشعر أنه ينتقد الفريسيين أشد الانتقاد. وكانوا مذنبين ببعض العيوب الواضحة وهي: الاغتباط بالنفس، والرغبة في الإكرام والاستحسان (من الآخرين)، والفخر الروحي، والرياء. ولكن أخطر نقائصهم وأعمقها تكمن في إهمالهم الأوامر الأساسية للقانون الأخلاقي. فقد أحلوا الممارسات الشرعية محل التجديد

الحقيقي والإبداعي للأخلاق. لقد أزاحوا البعوضة، ومع ذلك ابتلعوا الجمل، ونظفوا خارج فنجانهم وصحنهم، ولكنهم كانوا في الداخل مليئين بالجشع والانقياد للأهواء، وكانوا كالقبور البيض النظيفة، تبدو من الخارج جيدة ولكنها في الداخل مليئة بعظام الموتى وبكل ما هو غير نظيف. ومع أنهم كانوا يدفعون الأعشار عن النعناع وتابل الشَّبث والكمّون، فإنهم يتركون الأمور الأكثر وزناً في الشريعة تمضي ـ العدالة، والرحمة، والاستقامة. وما لا أهمية له نسبياً يحسبونه المحوري والمهم، وهكذا فقد موقفهم الديني كل أهميته الحيوية.

ومن المعهود حقاً في يسوع تحويل الانتباه عن الملامح الخارجية للسلوك الأخلاقي إلى باعثه الداخلي، الروح أو الموقف الذي وراءه. وكان التركيز على السلوك الصحيح في الظاهر وفقاً للشريعة اليهودية هو عمل قصير النظر بصورة منحرفة. ولا يمكن أن يدعى المرء خلوقاً حقاً إلا إذا كان قلبه سليماً وكان بالإضافة إلى ذلك يعمل كما يوجهه القلب. وللروح والباعث كل الأهمية. وللخير والشر أصولهما في القلب.

وقل ان ننظر إلى تطبيق هذا المبدأ على الأخلاق، علينا أن نرى بوضوح أن يسوع كان يربطه باهتمامين اثنين: اهتمام المرء بسلامته الداخلية واهتمامه بالصحة الداخلية للآخرين. وقد قال يسوع، ويل لمن يؤذي الآخر في مركز كيانه الأخلاقي. وتردد «الاناجيل المتوافقة»[1] كلها ذلك التحذير المهيب وهو أنه قد يكون من الأفضل لمن يسبب في سقوط مؤمن متواضع أن يعلق حول عنقه حجر رحى ثم يرمى في البحر. إن إيذاء الطبيعة الأخلاقية للآخر هو أخطر الجرائم.

وبالتشديد ذاته على الشرط الداخلي للشخصية، نص يسوع من جديد على الشرائع العبرية القديمة ثم أعاد صياغتها. ويجمع متّى سلسلة من التعاليم التي ينظر فيها يسوع من وراء العمل المنهي عنه إلى المحرض الذي قد يسببه. ويمكن الاستشهاد بمثالين. فقد كان هناك القانون الذي أعطي للأقدمين ضد جريمة القتل.

---

(1) «الأناجيل المتوافقة» Synoptic gospels هي الأناجيل الأولى، أناجيل متّى ومرقس ولوقا ـ المترجم.

وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَنْ يَغْضَبُ عَلَى أَخِيهِ بَاطِلاً يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْحُكْمِ، وَمَنْ قَالَ لأَخِيهِ: رَقَا، يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْمَجْمَعِ، وَمَنْ قَالَ: يَا أَحْمَقُ، يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ نَارِ جَهَنَّمَ. (متى 5: 22) وكان هناك قانون ضد الزنى. «وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى امْرَأَةٍ لِيَشْتَهِيَهَا، فَقَدْ زَنَى بِهَا فِي قَلْبِهِ».

على أن تشديد يسوع على الروحاني والداخلي في الأخلاق قد بلغ أقصى شكل للأهمية في تعليمه حول المحبة. ولا يزال هذا التعليم يقتضي أقصى الجهد من الفهم، لأنه مع أن التوصية بتطبيق نهج المحبة إزاء الصديق والعدو على السواء هي مبدأ مطلق، فإن تطبيقه على تفصيلات السلوك يتسم دائماً بالنسببة حيث كثيراً ما يختلف المسيحيون المخلصون في أحكامهم حول ماذا يجب أن يكون ذلك السلوك.

والمبدأ المطلق تشتمل عليه الكلمات المعهودة:

«سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ[1]: تُحِبُّ قَرِيبَكَ وَتُبْغِضُ عَدُوَّكَ. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ. أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ، وَصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ، لِكَيْ تَكُونُوا أَبْنَاءَ أَبِيكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ، فَإِنَّهُ يُشْرِقُ شَمْسَهُ عَلَى الأَشْرَارِ وَالصَّالِحِينَ، وَيُمْطِرُ عَلَى الأَبْرَارِ وَالظَّالِمِينَ. لأَنَّهُ إِنْ أَحْبَبْتُمُ الَّذِينَ يُحِبُّونَكُمْ، فَأَيُّ أَجْرٍ لَكُمْ؟ أَلَيْسَ الْعَشَّارُونَ أَيْضًا يَفْعَلُونَ ذلِكَ؟ وَإِنْ سَلَّمْتُمْ عَلَى إِخْوَتِكُمْ فَقَطْ، فَأَيَّ فَضْل تَصْنَعُونَ؟ أَلَيْسَ الْعَشَّارُونَ أَيْضًا يَفْعَلُونَ هكَذَا؟ فَكُونُوا أَنْتُمْ كَامِلِينَ كَمَا أَنَّ أَبَاكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ هُوَ كَامِلٌ». (متى 5: 43 - 48).

فَكُلُّ مَا تُرِيدُونَ أَنْ يَفْعَلَ النَّاسُ بِكُمُ افْعَلُوا هكَذَا أَنْتُمْ أَيْضًا بِهِمْ، لأَنَّ هذَا هُوَ النَّامُوسُ وَالأَنْبِيَاءُ. (متّى 7: 12).

«فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «تُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ. هذِهِ هِيَ الْوَصِيَّةُ الأُولَى وَالْعُظْمَى. وَالثَّانِيَةُ مِثْلُهَا: تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ. بِهَاتَيْنِ الْوَصِيَّتَيْنِ يَتَعَلَّقُ النَّامُوسُ كُلُّهُ وَالأَنْبِيَاءُ» (متّى 22: 37 - 40).

---

(1) للأقدمين.

والدراسات الحديثة لفهم تلامذة يسوع لتعليمه حول محبة الله ومحبة الإنسان تظهر بوضوح أن محبة الله للإنسان هي عندهم غير محدودة وغير متناهية بحيث تنسكب على الأخيار والأشرار على حد سواء من دون النظر إلى الجدارة والحاجة، ولا تنقص عندما تستقبل استقبالاً رديئاً. إنها تكره الشر، ولكنها تحب الأشخاص بتلك الإرادة الطيبة غير المقيدة التي تحب الأم بها طفلها أو التي يحب الأب ابنه المبذر في الأمثولة المعروفة. وكان مفهوماً أن كل تابع للمسيح يجب أن يحب إخوته البشر، بقطع النظر عن الجدارة أو الاستحقاق، بتلك الطريقة غير المقيدة ذاتها. وتجب معارضة الشر بشدة، ولكن يجب أن يحب الأشخاص من غير انقطاع وبقدرة غير محدودة على المغفرة.

وتطبيق هذا المبدأ على تفصيلات السلوك يجب أن يكون متروكاً لحكم اللحظة، لأن اللحظة كثيراً ما تحتوي على مفاجآت لا يمكن التنبؤ بها، وكثيراً ما يجد المرء نفسه بمواجهة الإشكال الذي مفاده «لمن عليّ أن أنحاز في هذا النزاع بين جماعات من إخوتي البشر؟ ما الشر هنا، وما الخير؟[1] وأي شكل علي أن اتخذه لمعارضة الشر سيكون متسقاً مع محبتي الشاملة لكل البشر»؟لا يمكن القول إن تعليم يسوع، كما تم حفظه، يعالج مثل هذه المعضلة على وجه الخصوص. إنما المبدأ المركزي معلن، أما تطبيقه في أي ظرف فمتروك لضمير الفرد الذي يعتنقه.

ولكن تعطى في أحد الاتجاهات هداية واضحة. والقاعدة الصعبة تؤكد أن المرء ألا يقاوم بعنف شراً وقع على ذاته.

«سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ: عَيْنٌ بِعَيْنٍ وَسِنٌّ بِسِنٍّ. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: لاَ تُقَاوِمُوا الشَّرَّ، بَلْ مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الأَيْمَنِ فَحَوِّلْ لَهُ الآخَرَ أَيْضًا. وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَاصِمَكَ وَيَأْخُذَ ثَوْبَكَ فَاتْرُكْ لَهُ الرِّدَاءَ أَيْضًا». (متّى 5: 38-40).

ويبدو أن التفسير الصحيح لهذه الكلمات هو: لا تنشغل بالرد الممضّ والعقيم، وإذا رد المرء على الجور الشخصي بمثله فإنه لن يزيد إلا التشوش

(1) أو «ما هو أهون الشريّن؟»

الأخلاقي. والأحرى، إذاً، ان يحتمل المرء الخطأ من دون أي إبداء للانتقام أو البغض، ومن دون القيام بالأمور التي من شأنها أن تطيل الوضع السيئ إلى ما لا نهاية، من دون تحسن. ومع ذلك، فمن جانب آخر أكثر إيجابية، فإن الخطأ يجب أن يحتمل من دون استسلام أخلاقي أو تسوية، ويجب إفهام مرتكب الخطأ أن ارتكاب خطئه يقاوم، إنساناً لإنسان، ومع ذلك لا يكون الجواب إلا بفعل الخير، المعبر عنه مباشرة بإشارة معبرة ـ تحويل الخد، وإعطاء الرداء، والميل الثاني ـ ترمز بوضوح تام إلى طيب النفس التام في استعداد الفرد الذي ارتكب الخطأ بحقه للعيش بأخوة مع مرتكب الخطأ، إذا كان ذلك ممكناً.

ويتبع ذلك تعليم آخر يحذر من الانتقاد المتهور أو الأخرق لسلوك الآخر. والسبب الأول هو أنه في أكثر الأحوال يكون المنتقد المتهور هو ذاته في حاجة إلى التصحيح الأخلاقي. والسبب الآخر هو أنه من الخير للمرء دائماً أن يكون كريماً فيبتعث بذلك المحبة من الآخرين.

لاَ تَدِينُوا لِكَيْ لاَ تُدَانُوا، لأَنَّكُمْ بِالدَّيْنُونَةِ الَّتِي بِهَا تَدِينُونَ تُدَانُونَ، وَبِالْكَيْلِ الَّذِي بِهِ تَكِيلُونَ يُكَالُ لَكُمْ .وَلِمَاذَا تَنْظُرُ الْقَذَى الَّذِي فِي عَيْنِ أَخِيكَ، وَأَمَّا الْخَشَبَةُ الَّتِي فِي عَيْنِكَ فَلاَ تَفْطَنُ لَهَا؟ أَمْ كَيْفَ تَقُولُ لأَخِيكَ: دَعْنِي أُخْرِجِ الْقَذَى مِنْ عَيْنِكَ، وَهَا الْخَشَبَةُ فِي عَيْنِكَ؟ يَا مُرَائِي، أَخْرِجْ أَوَّلاً الْخَشَبَةَ مِنْ عَيْنِكَ، وَحِينَئِذٍ تُبْصِرُ جَيِّدًا أَنْ تُخْرِجَ الْقَذَى مِنْ عَيْنِ أَخِيكَ! (متّى 7: 1-5)

فَكُونُوا رُحَمَاءَ كَمَا أَنَّ أَبَاكُمْ أَيْضًا رَحِيمٌ. وَلاَ تَدِينُوا فَلاَ تُدَانُوا. لاَ تَقْضُوا عَلَى أَحَدٍ فَلاَ يُقْضَى عَلَيْكُمْ. اِغْفِرُوا يُغْفَرْ لَكُمْ .أَعْطُوا تُعْطَوْا، كَيْلاً جَيِّدًا مُلَبَّدًا مَهْزُوزًا فَائِضًا يُعْطُونَ فِي أَحْضَانِكُمْ. لأَنَّهُ بِنَفْسِ الْكَيْلِ الَّذِي بِهِ تَكِيلُونَ يُكَالُ لَكُمْ. (لوقا 6: 36 - 38)

وبكلمات أخرى، فإن عمل الخير بأي صورة له قوة غالبة كل الغلبة في ابتعاث استجابة من النوع ذاته.

نمو المعارضة:

إن شدة الإثارة والاهتمام مما صاحب جولات يسوع في مدن الجليل وقراه قد جذبت انتباه الفريسيين والصدوقيين في أورشليم. وأرسل الفريسيون بوصفهم حراس الشريعة، والصدوقيون بوصفهم حراس الهيكل، أناساً يستقصون الأخبار لملاحظة يسوع وتقديم تقرير وافٍ عنه. وحين جاء التقرير كان على عكس ما أريد منه. ولذلك أُرسل فريسيون وصدوقيون مختارون إلى الجليل لمضايقته بالمماحكة ومعارضته. وصارت المواجهات الكلامية بينهم وبينه متواترة، ومنها مواجهة نموذجية عندما أخذ تلامذة يسوع، في أثناء مرورهم بحقول القمح في يوم السبت، يقطفون سنابل القمح ويأكلون. واعترض الفريسيون على هذا الأمر بأنه مخالفة للشريعة التي تحرم جمع الغلة من الحقول في السبت. ورد يسوع بأن «السبت خلق من أجل الإنسان ولم يخلق الإنسان من أجل السبت». ولم يكن من شأن الفريسيين أن ينكروا صحة هذا الزعم، ولكنهم كانوا يمقتون ما في هذا الزعم من طابع جذري. وكانوا ينتقدون كذلك عناصر أخرى في تعليم يسوع، وبما أنه حُرّم على الأطباء العمل في يوم السبت، فقد هاجموا قيام يسوع بأعمال الشفاء في يوم السبت. وأرغموا يسوع في أكثر من مناسبة على الدفاع عن نفسه في هذه الناحية. ولاحظوا، أيضاً، أن بعض تلامذته كانوا يتناولون طعامهم من دون القيام بطقس غسل أيديهم لتطهيرها، واتهموا يسوع بأنه يبيح التراخي. وأجاب يسوع:

اسْمَعُوا مِنِّي كُلُّكُمْ وَافْهَمُوا. لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ خَارِجِ الإِنْسَانِ إِذَا دَخَلَ فِيهِ يَقْدِرُ أَنْ يُنَجِّسَهُ، لكِنَّ الأَشْيَاءَ الَّتِي تَخْرُجُ مِنْهُ هِيَ الَّتِي تُنَجِّسُ الإِنْسَانَ. (مرقس 7: 14-15).

وعندما سأله تلامذته عن تفسير ذلك، قال: «إنه من داخل قلوب البشر تأتي الأفكار الشريرة، زنى، فسق، قتل، سرقة، طمع، مكر، عهر، عين شريرة، تجديف، كبرياء، جهل. إن كل هذه الشرور تأتي من الداخل، وهي تنجس الإنسان».

ولكن كان أكثر ما أغضب الفريسيين هو الحرية التي فسر بها يسوع الشرعية والأنبياء من دون احترام للمأثور. وفي أكثر الأحيان كانت الصيغة التي يستخدمها

متّى في تدوين «موعظة الجبل» كما تظهر في خطاب يسوع: «سمعتم أنه قيل للأقدمين... ولكنني أقول لكم». وباختصار، كانت ليسوع سلطته المنبعثة من الداخل. من هنا فقد راح بعض الفريسيين ينشرون الشائعة بأن بلاغة يسوع وقدرته على اجتذاب الناس بعيداً عن خط التفكير الفريسي كانتا دليلاً على أن فيه مساً من روح شريرة. وكان إخلاصه الظاهر نتيجة الوهم، إذ كان في الحقيقة يسير ضد وحي الله، مناقضاً موسى، ومضللاً الناس.

وقد ترسخت هذه الشائعة في الناصرة. وعندما عاد إلى مدينة أهله، وعلّم في الكنيس في يوم السبت، تعجب من انعدام الإيمان. ويروى أنه قال: «يُكرّم النبي في كل مكان إلا في وطنه وبين أقاربه وبيته». ويروي مرقس أن أقاربه قد جاؤوا إلى كفر ناحوم لاعتراض سبيله، لأنهم كانوا مذعورين من سلوكه لأنهم لم يكونوا قد اهتدوا بعد. وللقصة صيغة متجهمة:

فَجَاءَتْ حِينَئِذٍ إِخْوَتُهُ وَأُمُّهُ وَوَقَفُوا خَارِجًا وَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ يَدْعُونَهُ. وَكَانَ الْجَمْعُ جَالِسًا حَوْلَهُ، فَقَالُوا لَهُ: هُوَذَا أُمُّكَ وَإِخْوَتُكَ خَارِجًا يَطْلُبُونَكَ. فَأَجَابَهُمْ قِائِلاً: مَنْ أُمِّي وَإِخْوَتِي؟ ثُمَّ نَظَرَ حَوْلَهُ إِلَى الْجَالِسِينَ وَقَالَ: هَا أُمِّي وَإِخْوَتِي، لأَنَّ مَنْ يَصْنَعُ مَشِيئَةَ اللهِ هُوَ أَخِي وَأُخْتِي وَأُمِّي. (مرقس 3: 31-35)

وكان الجواب الوحيد الذي يستطيع به يسوع أن يدفع عنه الاتهامات المكشوفة ضده، هو، «كيف يطرد شيطان شيطاناً؟.. وإذا تمرد شيطان على نفسه وصار منقسماً فلا يمكن أن يدوم». ولكن الفريسيين تجاهلوا ذلك.

ولذا ارتدّ كثير من الناس العاديين عن يسوع شكاً وإحباطاً. وكانوا كثيراً ما يخدعون ويضللون به. فهل يدلّس عليهم مرة أخرى؟ لقد ضاعف أعداء يسوع هجماتهم، وأخذت تهديداتهم له تجد متنفساً لها.

وفي هذه الظروف تقدّم يسوع باتجاه الشمال الغربي إلى المناطق الواقعة حول صيدا وصور اللتين كانتا خارج فلسطين، ثم إلى سورية الجنوبية. وكان هذا الانسحاب إلى الشمال في الظاهر بقصد كسب الوقت للمزيد من التفكير في القرارات المصيرية ولتهيئة تلامذته لها. وكان التلامذة الإثنا عشر يصحبونه عندما وصل إلى

قيصرية فيليبوس[1] أو بانياس الواقعة قرب نهر الأردن على سفح جبل الشيخ. وهنا تحدثنا الأناجيل أنه قد حدث فيها اعتراف بطرس، حين قال لهم يسوع:

مَنْ يَقُولُ النَّاسُ إِنِّي أَنَا؟ فَأَجَابُوا: يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانُ. وَآخَرُونَ: إِيلِيَّا. وَآخَرُونَ: وَاحِدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ. (مرقس 8: 27-28) (وهكذا كان واضحاً أن الناس لم يكونوا يعتقدون أنه المسيح).

فَقَالَ لَهُمْ: «وَأَنْتُمْ، مَنْ تَقُولُونَ إِنِّي أَنَا؟» فَأَجَابَ بُطْرُسُ وَقَالَ لَهُ: أَنْتَ الْمَسِيحُ! (مرقس 8: 29)

والتضمين الواضح هنا هو أن هذه هي المرة الأولى التي يدعوه فيها أي تلميذ من تلامذته المسيح على وجه الخصوص[2]. ويستمر السرد في القول إن يسوع حذر التلامذة الإثني عشر من أن يقول ذلك حوله لأي أحد ثم مضى في

---

(1) عاصمة ربع البلد الذي يحكمه فيليبوس.

(2) من المهم أن نلاحظ أنه قد شكك في هذه القصة ـ وبالفعل في كل ما ورد عما يسمى الانسحاب إلى الشمال ـ باحثون كثيرون بوصفها قراءة تسترجع إدراكات ما بعد القيام (أي. مثلاً، إدارك أن رسالة يسوع كانت للجنس البشري كافة، أو أن يسوع كان بالفعل المسيح وقد حقق كل نبوءات العهد القديم) إلى زمن حياة يسوع.

ويؤكد معظم الباحثين أن هذه القراءة للأحداث الماضية على ضوء الحاضر تبدو بوضوح في رواية متّى للحادثة نفسها (16: 15-19)، حيث نقرأ: «قَالَ لَهُمْ: وَأَنْتُمْ، مَنْ تَقُولُونَ إِنِّي أَنَا؟ فَأَجَابَ سِمْعَانُ بُطْرُسُ وَقَالَ: أَنْتَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ الْحَيِّ .>!فَأجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ: «طُوبَى لَكَ يَا سِمْعَانُ بْنَ يُونَا، إِنَّ لَحْمًا وَدَمًا لَمْ يُعْلِنْ لَكَ، لكِنَّ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ. وَأَنَا أَقُولُ لَكَ أَيْضًا: أَنْتَ بُطْرُسُ (أي صخر petros)، وَعَلَى هذِهِ الصَّخْرَةِ أَبْني كَنِيسَتِي (ecclesia)، وَأَبْوَابُ الْجَحِيمِ لَنْ تَقْوَى عَلَيْهَا. وَأُعْطِيكَ مَفَاتِيحَ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ، فَكُلُّ مَا تَرْبِطُهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ مَرْبُوطًا فِي السَّمَاوَاتِ وكُلُّ مَا تَحُلُّهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ مَحْلُولاً فِي السَّمَاوَاتِ». وسنرى في الفصل التالي كم كان هذا المقطع مهماً من الوجهة التاريخية، ولكن دارسي العهد الجديد لا يقبلونه إلى بمنتهى التحفظ، إذا ما قبلوه بأي حال، بوصفه مقحماً في فترة ما بعد القيامة، لأنه لا يوجد ثمة دليل متين في الأناجيل على أن يسوع قد تنبأ بنشوء الكنيسة بعد وفاته أو استخدم لها المصطلح اليوناني ecclesia.

إخبارهم أن عليه أن يذهب إلى أورشليم ويواجه المعاناة والموت لإتمام رسالته. وصادف استنكارهم المذعور الذي جاهر به بطرس، تأنيبه الشديد. وعندئذٍ صارت الخطوة الأخيرة ضرورية. وأخذ يتقدم بعزم وطيد وهدوء نحو أورشليم، متحيناً أن يكون وقت وصوله في أثناء عيد الفصح.

أسبوع الآلام والصلب:

جاء اليهود من كل حدب وصوب إلى أورشليم لحضور الاحتفال السنوي الكبير بعيد الفصح. وانتقل الوالي الروماني، بيلاطس، إلى المدينة من مدينة «قيصرية» الساحلية ليكون حاضراً فيشهد ضبط النظام ويخمد أي شروع في العصيان. وجاء هيرودوس أنتيباس من الجليل للاستمتاع بالاحتفالات والقيام بسلسلة من الحركات تظاهراً بأنه يهودي مؤمن. ولم يكن في خانات المسافرين متسع للقادمين. وجاء الجليليون مستعدين للإقامة في خيام في الوادي بين المدينة وجبل الزيتون. وكان الكثيرون منهم يعرفون يسوع ومن شأنهم أن يرحبوا به لو حضر بنفسه. وعلى جحش مستعار، نزل من جبل الزيتون، يصحبه تلامذته، واتجه إلى المدينة. وحياه الجليليون بصيحات الفرح وأغصان الزيتون المبسوطة في الطريق، ولكن أهل المدينة قالوا، «هذا هو يسوع، نبيّ الناصرة في الجليل»!

وقام يسوع، مع تلامذته، بأمر مقلق فقد ذهب إلى الهيكل وقلب موائد الصيارفة وطرد تجار الحمام وكل من كانوا يبيعون ويشترون الأشياء في ساحة الهيكل. وصاح: «ألا يقول الكتاب المقدس إن بيتي سيدعى بيت الصلاة لكل الأمم؟ ولكنكم جعلتموه كهفاً للصوص». ولا بد أنه كان لهذا العمل تأييد شعبي واسع لأن السلطات لم تقم بشيء من القصاص المباشر. ومهما يكن فقد بدأ اليهود مشاحناتهم الكلامية، على أمل إسقاط سمعته أمام الشعب. وحاولوا عدة أيام، وهو يعلّم في الهيكل، أن يوقعوه في شراكهم الكلامية، ولكنه كان يتملص منهم. ويحثّ الناس البسطاء على الانضمام إلى حركته على سبيل الاحتفال بتدشين ملكوت الله الحقيقي.

ولكن خصومه أضروا به في أعين الناس، عندما رفض تقديم تصريح ضد دفع الجزية للإمبراطور. فحين طرحت عليه المعضلة، «أمن الصواب أم لا دفع الضرائب لقيصر»؟ قدم إجابة مخيبة للرجاء: «أعطِ ما لقيصر لقيصر وما لله لله»! ولا بد أن كفة الميزان الراجحة لمعارضته قد أثرت في الناس تأثيراً كبيراً، وانضم إلى المعارضة حتى الهيرودوسيين. وحين رأى يسوع الأمر هكذا، بدأ يقول للناس، في أمثولات لاذعة، إنه مع أن اليهود قد تلقوا الدعوة الأولى للقعود إلى مائدة وليمة الله، فالآن لأنهم رفضوا الدعوة، سوف يحضر الله إلى وليمة الملكوت المنبوذين والغرباء. ويمثل متّى يسوع وهو يقول للفريسيين والصدوقيين بصورة صريحة وجارحة، أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ الْعَشَّارِينَ وَالزَّوَانِيَ يَسْبِقُونَكُمْ إِلَى مَلَكُوتِ اللهِ.....، ...إِنَّ مَلَكُوتَ اللهِ يُنْزَعُ مِنْكُمْ وَيُعْطَى لأُمَّةٍ تَعْمَلُ أَثْمَارَهُ. (متّى 21: 31 – 43)

ويتفق كل أصحاب الأناجيل على أن يسوع قد عرف أن المعارضة سوف تدبر أمر موته وأنه قد هيأ نفسه لذلك. وهم في تعاملهم مع الأحداث يعكسون ما يتسلط على نفوس أوائل المسيحيين من الاهتمام بهذه الساعات النهائية ولا سيما ب «العشاء الأخير» في غرفة علوية في أورشليم. وكما سرد أوائل المسيحيين القصة وأعادوا سردها، لم يتنبأ يسوع بموته وحسب بل عرف كذلك من سيخونه، وأدى طقساً بسيطاً في أثناء تلك الوجبة الأخيرة، ليشعر التلامذة الاثني عشر بأهمية وفاته.

وَفِيمَا هُمْ يَأْكُلُونَ، أَخَذَ يَسُوعُ خُبْزًا وَبَارَكَ وَكَسَّرَ، وَأَعْطَاهُمْ وَقَالَ: خُذُوا كُلُوا، هذَا هُوَ جَسَدِي. ثُمَّ أَخَذَ الْكَأْسَ وَشَكَرَ وَأَعْطَاهُمْ، فَشَرِبُوا مِنْهَا كُلُّهُمْ .وَقَالَ لَهُمْ: هذَا هُوَ دَمِي (مرقس 14 : 22-23).

وبعدئذٍ، وبينما هو في بستان جَثْسَماني، وشى به يهوذا إلى جمع من الرجال المدججين بالسيوف والهروات. وإذا كان ذلك وصفاً صحيحاً لقوة التوقيف، فإن بيلاطيس والزعماء اليهود قد اشتركوا في فعل التوقيف، لأن السيوف يحملها الجنود الرومان والهروات تحملها شرطة اليهود. فهل طلب بيلاطس من السلطات اليهودية توقيف يسوع واستجوابه، لأنه كان يبدو مخلاً

الأمن بوضوح، في زمن كان يخشى فيه من أعمال الشغب العصيانية؟ وهل كان بحثها على إبراز اتهام أمامه يستطيع بموجبه أن يتصرف قانونياً؟ مهما كانت الأسباب فقد تم إحضار يسوع إلى السنهدرين (=المجلس القضائي اليهودي الأعلى) وبعد الاستجواب جرى تسليمه إلى «بيلاطس» بوصفه شخصاً خطيراً من الوجهة السياسية يزعم لنفسه ما أثار الفتنة بين الناس وأوقعه في النشاط المعادي للرومان. ولكن بيلاطس حول يسوع إلى هيرودوس أنتيباس، بوصفه حاكم الجليل. ولكن هيرودوس أعاد يسوع إلى بيلاطس. وتوخّى بيلاطس أن يدبّر إطلاق سراح يسوع، بعرضه على الجمهرة المحتشدة في ساحة داره أن يكون يسوع السجين الذي يطلق سراحه لهم في ذلك العام. ولكن الجمهرة نادت صائحة بإطلاق سراح باراباس(=بَرْأَبّا)، المعروف عندها بأنه متمرد عنيف.

وعندئذٍ سلم بيلاطس يسوع لحرس من الجنود الرومان ليصلب. وفي الساعة الثالثة بعد الظهر، حين تخلى عنه كل أتباعه إلاّ النساء اللواتي لم يشأن أن يتركنه، وسط رعاع يصرخون، نَبَسَ من أجلهم بالدعاء، «يا أبتِ اغفر لهم لأنهم لا يعرفون ماذا يفعلون»، وصاح بصوت مرتفع، «إلهي، إلهي، لماذا تخليت عني»؟ وقضى نحبه، مستسلماً للعناية الإلهية.

ولم يُحدث موت مفرد في تاريخ العالم من التأثير ما أحدثه موت كهذا.

2- النموّ الديني للمسيحية

كانت السنوات التي أعقبت وفاة المسيح ذات أهمية عند مسيحيي القرن الأول تفوق أهمية السنوات التي سبقتها. وكان صحيحاً عندهم أن لحياة المسيح وتعاليمه قيمةّ لا تقدر بثمن بالنسبة إلى حياتهم اليومية وفكرهم، ولكن قيامته من الأموات تظل ذات قيمة أكبر، لأنها كانت دليلاً على أنه رب الحياة الذي لا يموت والذي يؤكد خلودهم والوعد بوحدتهم الروحية التي لا تنفصم بالله الآب.

أ- العصر الرسولي

حسب شهادة الأناجيل، فقد تفرق الحواريون وفروا، في زمن توقيف يسوع في بستان جَتْسَماني. ولم يجرؤ أحد منهم على الاقتراب من مكان الصلب باستثناء يوحنا. وكان بطرس ينتظر في مكان قريب عندما كان يسوع يحاكم، ولكنه عندما تعرفت عليه خادمة في ساحة رئيس الكهنة على انه من أتباع يسوع أنكر ذلك. ظل التلامذة، الذين أسقمهم اليأس والخوف، مختبئين في يوم السبت وفي صباح اليوم الثالث نشدت بعض النساء الضريح الذي وضع فيه جسد يسوع، وذلك قبل شروعهن في العودة إلى الجليل. فوجدنه خاوياً.

الانبعاث:

وقد أخبرت النسوة بقية التلاميذ عن ظهورات يسوع الخارقة لهن، الأمر الذي بدل يأسهم بفرح، وبأمل كان وراء انتشار الدين الجديد في عموم منطقة البحر الأبيض المتوسط.

وأقدم رواية لدينا موجودة عن ظهورات يسوع بعد الانبعاث هي ما رواه القديس بولس. ففي زهاء العام 52 للميلاد كتب إلى الكنيسة التي أسسها في كورينث (في اليونان القديمة): أود الآن أن أذكركم أيها الأخوة:

فَإِنَّنِي سَلَّمْتُ إِلَيْكُمْ فِي الأَوَّلِ مَا قَبِلْتُهُ أَنَا أَيْضًا: أَنَّ الْمَسِيحَ مَاتَ مِنْ أَجْلِ خَطَايَانَا حَسَبَ الْكُتُبِ، وَأَنَّهُ دُفِنَ، وَأَنَّهُ قَامَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ حَسَبَ الْكُتُبِ، وَأَنَّهُ ظَهَرَ لِصَفَا[1] ثُمَّ لِلاثْنَيْ عَشَرَ. وَبَعْدَ ذلِكَ ظَهَرَ دَفْعَةً وَاحِدَةً لأَكْثَرَ مِنْ خَمْسِمِئَةِ أَخٍ، أَكْثَرُهُمْ بَاق إِلَى الآنَ. وَلكِنَّ بَعْضَهُمْ قَدْ رَقَدُوا. وَبَعْدَ ذلِكَ ظَهَرَ لِيَعْقُوبَ، ثُمَّ لِلرُّسُلِ أَجْمَعِينَ. وَآخِرَ الْكُلِّ كَأَنَّهُ لِلسِّقْطِ ظَهَرَ لِي أَنَا. (1 كورنثوس 15: 3-8)

إذا حللنا هذا القول، وطرحنا السؤال، ماذا «رأى» بولس عندما ظهر له يسوع، وجدنا أنه من اللافت للنظر بالفعل لدى مناقشة بولس التالية لمسألة بعث الأجساد، أنه يتضمن بقوة القول بأن يسوع قد قام في جسد روحاني، لا في جسد مادي.

هكَذَا أَيْضًا قِيَامَةُ الأَمْوَاتِ: يُزْرَعُ فِي فَسَادٍ وَيُقَامُ فِي عَدَمِ فَسَادٍ.... يُزْرَعُ جِسْمًا حَيَوَانِيًّا وَيُقَامُ جِسْمًا رُوحَانِيًّا.... فَأَقُولُ هذَا أَيُّهَا الإِخْوَةُ: إِنَّ لَحْمًا وَدَمًا لاَ يَقْدِرَانِ أَنْ يَرِثَا مَلَكُوتَ اللهِ، وَلاَ يَرِثُ الْفَسَادُ عَدَمَ الْفَسَادِ. (1 كورنثوس 15: 42-50)

وهذه ليست رؤية لوقا ويوحنا، اللذين يقولان إن جسد انبعاث يسوع كان جسداً مادياً، وليس ما أعلنته الكنيسة فيما بعد، ولكن ما يستحق الملاحظة هو أن واحداً من الذين اهتدوا بعد موت يسوع بسنتين فقط يتمسك بهذه الرؤية.

عيد العنصرة:

إن ظهورات يسوع بعد القيامة قد أقنعت التلامذة أن يسوع قد قام من الأموات ولذلك فإنه سوف يعود بسرعة على غمام السماء بوصفه ابن الإنسان الموعود الذي سوف يحكم الأمم في اليوم الأخير. وصاروا يعتقدون أن رسالته على الأرض هي تهيئة الطريق لقدومه الثاني، ولذلك فإن كل التلامذة الذين

---

(1) بطرس

بوسعهم القيام بذلك قد غادروا الجليل وذهبوا للعيش في أورشليم حيث التقوا في غرفة علوية كبيرة للصلاة والتشاور. ويقول سفر «أعمال الرسل» إنه كانت بينهم مريم، أم يسوع، وإخوته. وكان الرسل هم الزعماء الرسميون للجماعة، ولكن يعقوب، أخا يسوع، سرعان ما أصبح شخصية بارزة.

واللحظة العظيمة التالية في خبرتهم المشتركة تدون هكذا:

في يوم عيد الحصاد (العيد اليهودي الذي يطلق عليه المسيحيون الذين يتحدثون باليونانية عيد العنصرة)،

وَلَمَّا حَضَرَ يَوْمُ الْخَمْسِينَ كَانَ الْجَمِيعُ مَعًا بِنَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَصَارَ بَغْتَةً مِنَ السَّمَاءِ صَوْتٌ كَمَا مِنْ هُبُوبِ رِيحٍ عَاصِفَةٍ وَمَلأَ كُلَّ الْبَيْتِ حَيْثُ كَانُوا جَالِسِينَ، وَظَهَرَتْ لَهُمْ أَلْسِنَةٌ مُنْقَسِمَةٌ كَأَنَّهَا مِنْ نَارٍ وَاسْتَقَرَّتْ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ. وَامْتَلأَ الْجَمِيعُ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ، وَابْتَدَأُوا يَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَةٍ أُخْرَى كَمَا أَعْطَاهُمُ الرُّوحُ أَنْ يَنْطِقُوا (أعمال2: 1-4).

كان الانبعاث بالنسبة إلى أوائل المسيحيين برهانهم على صحة الإنجيل، وكان نزول الروح القدس في عيد العنصرة ضمانة لهم أن القدرة التي كانت في ربهم يسوع المسيح موجودة فيهم أيضاً. وعندئذٍ تشجع الرسل وأخذوا يبشرون بجرأة في الشوارع حيث واجه يسوع قبل عدة أسابيع معارضةً أدت إلى صلبه.

وصادفوا نجاحاً باهراً. وانضم إليهم مئات المهتدين. وأوقف الفريسيون والصدوقيون في فزعهم بطرس ويوحنا، وأحضروهما إلى السنهدرين وأمروهما بالكف عن التحدث «باسم يسوع» كما يتحدثون. ولكنهما بعد إخلاء سبيلهما واصلا التبشير غير مردوعين . وجرى توقيفهما مرة أخرى، مع آخرين من حولهما، وسيقوا للمثول أمام السنهدرين. وقد قرأنا أنه عند تذكير بطرس والرسل بأنهم أمروا بالإحجام عن التحدث باسم يسوع، أجابوا: «طاعتنا لله أحق من طاعتنا للبشر». وفي أثناء الاضطراب الذي أعقب ذلك، أوقف أحد الفريسيين البارزين غضب أعضاء السنهدرين الآخرين بإشارته بلطف إلى أن الحركات المتحمسة بشدة للمسيح المنتظر تقضي دائماً على نفسها بنفسها في

الوقت المناسب، ولذلك يمكن للمرء أن يدعهم وشأنهم بأمان. وكان هذا الرجل هو جَمْليئيل، حفيد هيلل، وكجدّه أحد المعلمين الكبار للمدارس الحاخامية.

وفي مُحاجّته راح يعتمد على التاريخ: «أَيُّهَا الرِّجَالُ الإِسْرَائِيلِيُّونَ، احْتَرِزُوا لأَنْفُسكُمْ مِنْ جهَةِ هؤُلاَءِ النَّاسِ فِي مَا أَنْتُمْ مُزْمِعُونَ أَنْ تَفْعَلُوا. لأَنَّهُ قَبْلَ هذِهِ الأَيَّامِ قَامَ ثُودَاسُ قَائِلاً عَنْ نَفْسِهِ إِنَّهُ شَيْءٌ، الَّذِي الْتَصَقَ بِهِ عَدَدٌ مِنَ الرِّجَالِ نَحْوُ أَرْبَعِمِئَةٍ، الَّذِي قُتِلَ، وَجَمِيعُ الَّذِينَ انْقَادُوا إِلَيْهِ تَبَدَّدُوا وَصَارُوا لاَ شَيْءَ .بَعْدَ هذَا قَامَ يَهُوذَا الْجَلِيلِيُّ فِي أَيَّامِ الاكْتِتَابِ، وَأَزَاغَ وَرَاءَهُ شَعْبًا غَفِيرًا. فَذَاكَ أَيْضًا هَلَكَ، وَجَمِيعُ الَّذِينَ انْقَادُوا إِلَيْهِ تَشَتَّتُوا. وَالآنَ أَقُولُ لَكُمْ: تَنَحَّوْا عَنْ هؤُلاَءِ النَّاسِ وَاتْرُكُوهُمْ! لأَنَّهُ إِنْ كَانَ هذَا الرَّأْيُ أَوْ هذَا الْعَمَلُ مِنَ النَّاسِ فَسَوْفَ يَنْتَقِضُ، وَإِنْ كَانَ مِنَ اللهِ فَلاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَنْقُضُوهُ، لِئَلاَّ تُوجَدُوا مُحَارِبِينَ للهِ أَيْضًا» (أعمال الرسل 5: 35: 39)

وسادت هذه النصيحة، واكتفت السلطات بجلد الرسل، ليحقروهم في أعين الشعب وسمحوا لهم بالذهاب.

كنيسة أورشليم:

يبدو أن عاملين قد أنقذا كنيسة أورشليم من الاضطهاد الإبادي: أولاً، كان الرسل أتباعاً لزعيم ميت ويمكن أن يتوقع أن يفقدوا حميتهم بمرور الزمن. ثانياً، ومن الواضح أن الرسل قد حافظوا على كل شروط الشريعة اليهودية. وفي الواقع، كان أتباع يسوع الفلسطينيون يذهبون يومياً إلى الهيكل ويكرمون شريعة موسى كأي يهودي، مستوجبين ختان كل مهتد لم يسبق له أن ختن، كأنهم مجرد طائفة يهودية، ولكنهم قدموا إضافات غير متعارف عليها إلى ما هو مقبول في العقيدة والممارسة. كانوا يؤمنون أن يسوع هو المسيح الذي جرى التنبؤ به في الكتب اليهودية المقدسة، وأنه سيعود إلى الظهور قريباً على غمام السماء بوصفه ابن الإنسان. وكانوا يتلاقون في بيوت خاصة: كبيت أم يوحنا مرقس في أورشليم، يتم فيها التجمع في مجموعات مكرسة ل«كسر الخبر والصلوات». وتقاسم المؤمنون كل شيء لديهم، وباعوا ملكياتهم وأمتعتهم، ووزعوا حصيلة

بيعهم حسب حاجاتهم الخاصة، وكان لديهم جميعاً روح هداية دينية قوية وقد عمدوا كل من تمكنوا من هدايتهم.

ولكن إذا كان يبدو صحيحاً أن كل أتباع يسوع الفلسطينيين كانوا يتصرفون كأنهم مجرد طائفة يهودية، فإن ذلك لا يصدق على كل المهتدين. وقد بدأ بعضهم يأخذ بالتسهيلات التي أدخلها يسوع على شريعة موسى. وكانت في أورشليم كنس لليهود الذين يتكلمون اليونانية هم على الخصوص أقل تأثراً بأضحيات الهيكل من اليهود الفلسطينيين، وأكثر ميلاً منهم إلى تأكيد المقاطع الواردة في الكتابات النبوية التي تدين تكلف المظاهر الخارجية في ممارسة الشريعة. ولذلك، فعندما صار أي رهط من اليهود الناطقين باليونانية مسيحيين، طبقوا بتلهف أكثر المقاطع جذرية في أسفار الأنبياء على حياة يسوع وأقواله وأكدوا انتقاد يسوع لممارسات الصدوقين والفريسيين.

ولم يظهر التوتر بين هؤلاء المسيحيين والسلطات اليهودية وحسب، بل ضمن المجموعة المسيحية ذاتها. فمن جهة، بدا الرسل يفقدون الاتصال بالمتطرفين الناطقين باليونانية، ومن جهة أخرى، قدم المسيحيون الناطقون باليونانية الشكاوى على المسيحيين الفلسطينيين بأن «أراملهم (أي أرامل الناطقين باليونانية) كن يهملن في التوزيع اليومي للطعام». ولتخفيف هذا التوتر، اجتمعت الجماعة المسيحية كلها وحلت المشكلة بأن عينت سبعة من أفرادها لم يكونوا رسلاً للنهوض بمسؤولية توزيع الطعام وحفظ الحسابات. وكان أحد هؤلاء السبعة رجلاً ناطقاً باليونانية اسمه استيفانونس، كان زعيماً للجناح الأكثر تحرراً في الحركة المسيحية. وكان كل شيء يسير سيراً حسناً إلى أن قدمته السلطات اليهودية للمثول أمام السنهدرين، وأدانته، ورجمته بالحجارة حتى الموت.

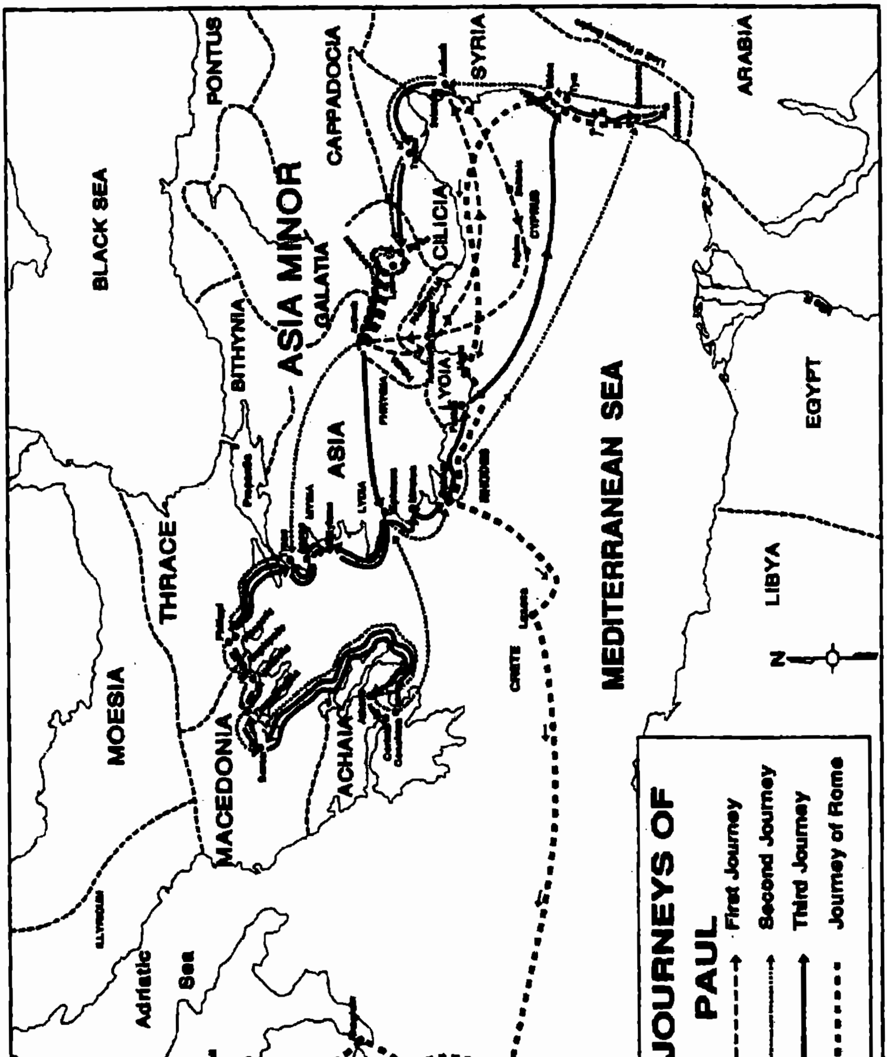
وأبرز هذا العمل العنيف بداية اضطهاد شديد للكنيسة في أورشليم. وكانت السلطات اليهودية توجهه في الظاهر ضد الذين لم يحافظوا على الشريعة اليهودية، لأن سفر أعمال الرسل يقول: «فتفرقوا جميعاً في يهوذا والسامرة، باستثناء الرسل».

ومنذ ذلك الحين فصاعداً صار للحركة المسيحية في فلسطين حزبان في داخلها، لم يفقدا ترابطهما تحت اسم يسوع، ولكنهما كانا يتصارعان من أجل ان يكون أعضاء كل منهما المؤولين النهائيين لما تقصده المسيحية، ووقف يعقوب في أحد الطرفين، وهو أخ ليسوع، وصار «الركن» الرئيس لكنيسة أورشليم، ومعه جُلّ الرسل. وكانوا يعتقدون أن على المسيحيين لا أن يتبعوا المسيح وحسب، بل إرضاء الله بطاعتهم كذلك لشريعة موسى. وكان الختان أحد المتطلبات التي يجاهدون من أجلها، وقد بعثوا بالرسل إلى الكنائس النائية للإصرار على أن يلبى هذا المتطلب قبل المعمودية. وكان يعد ضرورياً كذلك التقيد بالفارق بين الطاهر والنجس والامتناع عن مجالسة غير المختونين عند تناول وجبة الطعام. ومع أن بعض أعضاء كنيسة أورشليم قد أظهروا الرغبة في الحل الوسط، فإن المتطرفين ساروا بإصرارهم مسافات كبيرة. وكثيراً ما كان يطلق عليهم المتهودين. ومع مرور الأيام شكلوا جماعة منغلقة عن الآخرين من المسيحيين اليهود تدعى «الأبيونيين» Setinoibe أو «النصارى» nazarenes.

وكان بطرس من مسيحيي أورشليم الذين كانوا ميالين إلى الحلول الوسط. وكان يرى أن الروح القدس قد نزل أيضاً على المسيحيين الأكثر تحرراً. والأهم من ذلك أنه وجد، في زيارته للمدن الساحلية، أن العقيدة الجديدة تنتشر بين الأجانب غير المختونين، وأن الروح القدس قد نزل عليهم. واستحسن أنهم قد عمدوا وكان يؤاكلهم من دون أن يكون مهتماً فوق الحد بالتقييدات الغذائية اليهودية. ولكنه عندما زار مدينة أنطاكية، انتقده بشدة المتهودون الذين أرسلوا لمراقبته، وبعدئذٍ تردد أمام أقرب إخوته إليه من دون أن يكون قادراً على اتخاذ موقف جريء[1].

ومع ذلك فإن العناصر الأكثر تحرراً في الحركة المسيحية كانت لها الغلبة، وأعادت تكوين الطائفة وجعلتها ديانة قوية مستقلة كان من شأنها أن تنتشر بسرعة في عالم الأقوام غير اليهودية (الغوييم). وكان زعيم الأحرار أشرس مضطهديهم فيما مضى، وهو رجل من طرسوس يُدعى شاؤول (أو بولس).

(1) وفيما بعد ذهب إلى روما، حيث من المفترض أن يقوى على متابعة سيره الحر.



THE JOURNEYS OF PAUL
First Journey
Second Journey
Third Journey
Journey of Rome
N
BLACK SEA
PONTUS
CAPPADOCIA
SYRIA
ARABIA
ASIA MINOR
GALATIA
BITHYNIA
CILICIA
LYCIA
ASIA
THRACE
MOESIA
MACEDONIA
ACHAIA
CRETE
MEDITERRANEAN SEA
LIBYA
EGYPT
ILLYRICUM
Adriatic Sea
ITALY
Rome
Tyrrhenian Sea
SICILY

بولس وانتشار المسيحية في أوروبا:

كثيراً ما دعي بولس «المؤسس الثاني للمسيحية». ومن المحقق أنه حارب المتهوّدين وهزمهم، ففقدوا بعد ذلك أهميتهم في الحركة المسيحية. ولكن الأهم أنه أنشأ بعض المفاهيم اللاهوتية الأساسية التي مكنت المسيحية من اكتساب العالم الوثني من خلال عقدة تؤمن بيسوع باعتباره رباً.

ولم يُنجز بولس هذا إلا بعد سيرة سابقة في المعارضة الشرسة للمسيحية. كان يهودياً غير فلسطيني، ولد في زهاء الزمن الذي ولد فيه يسوع، في بلدة طرسوس في كيليكيا، التي أصبحت بعدئذٍ مدينة مهمة ومقراً لجامعة تدرس فيها الفلسفتان الرواقية والكلبية. ومن المحتمل أن يكون بولس قد تعلم فيها شيئاً عن العبادات اليونانية السرية ورغبة أتباعها في تحقيق الخلود بالتماثل مع أرباب الموت والانبعاث المنقذين. وعلى ما يبدو كانت أسرته حسنة الحال، ومن المرجح أنه قد اشترى المواطنة الرومانية. ولكنه لم يتأثر كثيراً ببيئته الثقافية الهيليسنتية وظل فريسياً صارماً. وذهب إلى أورشليم وهو مفعم بالرغبة الجدية في «الصلاح الذي يأتي من الشريعة» (غلاطية 1:14)، و«قعد عند قدمي» جَمْليئيل، المعلم الفريسي البارز. وعن هذه الفترة من حياته كتب لاحقاً: «لقد تفوقت على الكثيرين من أترابي بين شعبي في إخلاصي لليهودية، وكنت شديد التعصب في إخلاصي لما خلفه أجدادي». وقد انضم بهوجائية إلى من قاموا باضطهاد الكنيسة الباكرة. وكان حاضراً بوصفه مشاهداً مستحسناً لما يشاهده عند رجم استيفانونس بالحجارة.

وعندما فر المؤمنون المسيحيون شمالاً إلى دمشق وما وراءها، ذهب إلى رئيس الكهنة وطلب منه رسائل إلى الكنيس التي في دمشق، لكي تعينه في القبض على أتباع يسوع وجلبهم مقيدين بالسلاسل. (أعمال 9: 3). ويقول سفر «أعمال الرسل»: «ولكن عندما كان يدنو من دمشق لمع حوله نور مفاجئ من السماء، وسقط على الأرض ثم سمع صوتاً يقول له: «شاول شاول لماذا تضطهدني؟» (أعمال الرسل 9: 4) واقتيد بولس من يده إلى دمشق، وقد أعشته

الرؤية البراقة، وفي دمشق لم يستطع في ثلاثة أيام أن يـرى ولا أن يأكـل ولا أن يشرب. واعتقد أن يسوع المنبعث، الذي يركز المسيحيون فيه إيمانهم، قد ظهر له أيضاً.

وإذا كان التغيّر في حياة بولس هائلاً فقد صار من الضروري الآن أن ينطلق إلى جزيرة العرب العليا ليفكر فيها في بعض الأمور. ثم عاد إلى دمـشق. وصـار زعيماً لا فيها وحسب بل كذلك بعيداً في الشمال في انطاكية، ثالـث المـدن في الإمبراطورية الرومانية، حيث كان الدين الجديد يكسب المهتدين الكثيرين بـين الأقوام غير اليهودية (أي الغوييم). وحصر نفـسه في منـاطق سـورية وكيليكيـا، باستثناء أسبوعين لزيارة أورشليم بعد ثلاث سنوات ليصبح على معرفة شخـصية ببطرس ويعقوب. ثم خرج في أسفاره التبشيرية الشهيرة، يصحبه رجال من أمثال برنابا ويوحنا الملقب مرقس. وفي رحلته الأولى أبحر إلى جزيرة قبرص، وجابها من أولها إلى آخرها، وركـب الـسفينة إلى آسـيا الـصغرى، وأسـس جماعـات مسيحية تتكاثر ذاتيـاً، في «بَرْحَـة» و«أنطاكيـة»، وفي «إيكونيـوم» و «لِـسْتَرة» و «دَرْبَة». وفي رحلته الثانية عاد إلى زيارة الكنائس، التي قد كان أسـسها ثم تقـدم إلى طرواس (طروادة القديمة)، التي أبحر منها إلى مقدونيا في قارة أوروبا. وبعد إقامته التجمعات في أهم المدن على امتداد الساحل، ذهـب جنوبـاً إلى أثينـا ثم إلى كورينث. وفي عودته أبحر إلى أَفْسُس في اليونـان قبـل عودتـه إلى الـوطن. وسارت رحلته الثالثة على المدار ذاته.

ومع أنه كان يعاني من مرض جسمي يشير إليه على أنه «شوكة في اللحم»، فقد أظهر في هذه الرحلات طاقة هائلة، وحماسة، وشجاعة. وقال إن قوته قـد توافرت لأن حين شعر أنه ضعيف جسمياً، ألقى نفسه على قـوة المـسيح الـذي يسكن في داخله: (كتب)

مِنَ الْيَهُودِ خَمْسَ مَرَّاتٍ قَبِلْتُ أَرْبَعِينَ جَلْدَةً إِلاَّ وَاحِدَةً. ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ضُرِبْتُ بِالْعِصِيِّ[1]، مَرَّةً رُجِمْتُ، ثَلاَثَ مَرَّاتٍ انْكَسَرَتْ بِيَ السَّفِينَةُ، لَيْلاً وَنَهَارًا قَضَيْتُ

(1) من قبل الرومان.

فِي الْعُمْق. بِأَسْفَارٍ مِرَارًا كَثِيرَةً، بِأَخْطَارِ سُيُول، بِأَخْطَارِ لُصُوص، بِأَخْطَارٍ مِنْ جِنْسِي، بِأَخْطَارٍ مِنَ الأُمَم، بِأَخْطَارٍ فِي الْمَدِينَةِ، بِأَخْطَارٍ فِي الْبَرِّيَّةِ، بِأَخْطَارٍ فِي الْبَحْرِ، بِأَخْطَارٍ مِنْ إِخْوَةٍ كَذَبَةٍ. فِي تَعَبٍ وَكَدٍّ، فِي أَسْهَارٍ مِرَارًا كَثِيرَةً، فِي جُوعٍ وَعَطَشٍ، فِي أَصْوَامٍ مِرَارًا كَثِيرَةً، فِي بَرْدٍ وَعُرْيٍ. (2 كورنثوس 11: 24-27).

وقد حركت روح بولس ومنحته إيماناً ديناميأ حقيقتان روحيتان كبيرتان: «ربوبية المسيح» و«حرية الروح».

وتوصل إلى معرفة حرية الروح في أيام اهتدائه الأولى، وكان مسيحيو سورية وكيليكا على الأغلب غير مختونين وليست لديهم معرفة بالشريعة اليهودية. وكان قد اعتقد، في ظمئه إلى معرفة سر الصلاح الحقيقي، ولفترة طويلة بأن الشريعة (التوراة) هي الشرط الأوحد والوحيد للحياة الجيدة التي تتمتع برضا الرب؛ ولكنه الآن مندهش ومبتهج أن يكتشف أن الذين اتبعوا المسيح كانوا، بغض النظر تماماً عن الشريعة، أجود من ناحية العمق من الذين أطاعوا الشريعة. وكان السبب هو أن المسيح قد غير نزعة الإنسان الداخلية وأعطاه العلاقة الصحيحة بإخوته البشر وبالله، وهكذا فهو يعمل ما هو صحيح من القلب، من دون الرجوع باستمرار إلى المقتضيات الشرعية الخارجية. والمحبة هي إنجاز الشريعة. ولذلك فإن العبودية في الشريعة يمكن أن ترمى جانباً من أجل حرية الروح. وأعلن بولس، قد لا تكون هناك حاجة إضافية إلى الختان، والقيود الغذائية، والتمييزات بين الطاهر والنجس.

وكان في هذه المسألة أن دخل المتهوّدون في نزاع مع بولس. وبعد جدال بت الأمر مع بطرس ويعقوب ويوحنا في أورشليم. ففي رسالته الثانية إلى أهل غلاطية يشير ضمناً إلى أن طاعة الشريعة قد صارت مسألة محرجة حيث شعر بعد أربع عشر سنة أنه مرغم على أن يشرح لزعماء أورشليم الرسالة التي يعظ بها الأقوام غير اليهودية (الغوييم). وزعم أنه بقدرة الله قد صار رسولاً إلى الأقوام غير اليهودية كما كان بطرس رسولاً إلى اليهود، وقد قبل يعقوب ويوحنا رسالته وتبشيره وصافحاه، ولم يطلبا إلا أن يتذكر المسيحيون الذين هم من عالم الغوييم المعوزين الذين هم في أورشليم، ووافق بولس بحرارة.

وكانت «ربوبية المسيح» بند إيمان آخر في صميم اقتناع بولس. وكان هذا يعني له أكثر حتى مما تعني مسيحية يسوع. فقد قبل بفرح أن يسوع هو المخلص المسيحي الذي دشن ملكوت الله وسوف يعود سريعاً على غيمات السماء ليحكم الأحياء والأموات في يوم القيامة. ولكنه بوصفه مبشراً للغوييم الذين عندهم كان مفهوم المسيح محض مفهوم يهودي، ولا يعني إلا القليل، فقد كان مسارعاً إلى أن يرى ويعلن قدرة المسيح على تخليص الأفراد من الخطيئة والموت بتوحيدهم بذاته بالإيمان. وهنا قدم بولس إسهاماً أصيلاً في تفسير موت المسيح وانبعاثه. كان المسيح، كما أعلن بحماسة، كائناً قدسياً يمتلك طبيعة الله ولكنه تواضع ونزل من السماء واتخذ شكلاً بشرياً، وبإذلال نفسه أكثر من ذلك مات على الصليب، من أجل أن يقوم مرة أخرى، بعد انتصاره على الموت، ويجلس عن يمين الله بوصفه رب الحياة والموت. وكان بولس، بإيراده هذا السر الجديد المجيد، ينسب إلى المسيح ألوهية ووجوداً سابقاً على وجوده الأرضي: «هو صورة الله غير المرئي، وقد خلق قبل أي مخلوق، لأنه من خلالها خلق كل شيء في السماء والأرض، ما يرى وما لا يرى، سواء كان عروشاً أم سيادات أم رياسات أم سلاطين. الكل به وله قد خُلق» (كولوسي 1: 15 - 16).

وبهذا التصور الكبير ـ الذي عبر بولس من خلاله عن حدسه بأن يسوع كان التعبير في التاريخ البشري عن الروح التخليصية لله ومحبته التي تعمل منذ فجر الخليقة، فَتَن بولس الغوييم تماماً. فقد نشؤوا تحت تأثير الأديان اليونانية السرية، التي كانت، كما رأينا، ترضي التوق إلى الخلود بتوفير خبرة اتحاد بإله مخلص منبعث، وبذلك يتم تأليه الذات الفاسدة والفانية[1]. ولكن تصور بولس كان

---

(1) إن بولس، لمساعدتهم على أن يفهموا كما ينبغي دلالة الخلاص الذي قدمه المسيح، يعبر عن المسألة على هذا النحو: بالخبرة الصوفية للمعمودية فإن الذين يؤمنون قد يماثلون أنفسهم مع المسيح في موته وانبعاثه، لأنه «فَدُفِنَّا مَعَهُ بِالْمَعْمُودِيَّةِ لِلْمَوْتِ، حَتَّى كَمَا أُقِيمَ الْمَسِيحُ مِنَ الأَمْوَاتِ، بِمَجْدِ الآبِ، هكَذَا نَسْلُكُ نَحْنُ أَيْضًا فِي جِدَّةِ الْحَيَاةِ؟» (رسال بولس الرسول إلى أهل رومية 6: 4) كَذلِكَ أَنْتُمْ أَيْضًا احْسِبُوا أَنْفُسَكُمْ أَمْوَاتًا عَنِ الْخَطِيَّةِ، وَلكِنْ أَحْيَاءً للهِ بِالْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّنَا. (رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية 6: 11).

أعمق بكثير وأشد توليداً من أي تصور عرفوه. إنه لم يقتصر على تقديم تأكيد للخلود من خلال الاتحاد بالمسيح بل وفر وسيلة الخلاص من الذنب والإثم في هذه الحياة. لأن المسيح رب الحياة والموت المؤله كان يسوع الناصري الجليلي، الذي بلا خطيئة، والذي أعلن الأخلاق الرفيعة والنبيلة التي أدت إلى إعادة التكوين الفردي والاجتماعي على المستوى الأخلاقي. وهكذا كانت الصوفية والمنظومة الأخلاقية في تعليم بولس شيئاً واحداً ولا يمكن أن ينفصلا. وكان اتباع المسيح لا يعني مجرد توحد المرء معه بالمعمودية، وعشاء الرب ونشوة التحدث باللغات، بل تتضمن أكثر من ذلك، أي العمل كما كان المسيح يعمل، والعيش كما كان يعيش.

وكان هذا مهماً في نمو المسيحية، لأن بولس أنقذها هنا من التطرف ـ أي تطرف الصوفية غير الأخلاقية بوصفه خطراً على توازنها مثل تطرف الموالاة، المفرطة للشريعة التي سبق له أن أنقذها منها. والرسائل التي أرسلها بولس إلى الكنائس التي أسسها تمدنا بالدليل الوافر على الأهمية التي كان يعلقها على النظام الأخلاقي. وبعين النسر كان يراقب التجمعات التي أنشأها ويوبخها مثل أب على كل خرق للمبادئ الأخلاقية المسيحية السامية. وكان بعيداً عن الاعتقاد بأن القدرة على الوجد الديني تتستر على عدد كبير من الآثام.

وأوصله كرمه تجاه إخوته المسيحيين في أورشليم إلى إنهاء مباغت لسيرته التبشيرية. وقد كان أخذ على نفسه إقامة تبرع من أجل الفقراء في كنسية أورشليم، وعندما تم ذلك، نقل الأموال إلى أورشليم بنفسه. وهنا وقع في ورطة قانونية مع اليهود، الذين تجمهروا حوله وهاجموه وكانوا السبب في توقيفه. وبوصفه مواطناً رومانياً، استغاث بقيصر، متلهفاً على الوصول إلى روما مهما تكن الظروف. وسيق إلى المدينة الإمبراطورية موقوفاً، ولكنه إذا كان يتوقع أن يخلى سبيله بعد محاكمته، فقد خاب رجاؤه. وواصلت السلطات الاحتفاظ به في السجن. وكان لديه وقت لكتابة رسائل إلى الكنائس والأفراد، ولكن من المرجّح أنه بعد فترة من الحجز في السجن، لم تعرف مدتها، أعدم بوصفه شخصية مزعجة، معكرة للأمن الروماني.

ولكنه في هذا الوقت برهن على قدرة الديانة المسيحية على أن تجمع اليهودي واليوناني والروماني والشرعي والصوفي والعقلاني تحت فهم مشترك للتجمع الروحي الحيوي في ظل المسيح. وإلى أمثال هؤلاء الناس المنقسمين ثقافياً والمنجرفين روحانياً في الإمبراطورية الرومانية كما سمعنا عنهم توجه كلمات كهذه الكلمات من الرسالة القوية إلى سكان أَفْسُس ـ هي رسالة يعزوها بعض الدارسين الآن إلى أحد اتباع بولس بدلاً من نسبتها إليه، ولكنها على أي حال تدفئها روحه وتنعشها ـ وهي تتضمن «النبأ السار»:

وَأَنْتُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَمْوَاتًا بالذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا، الَّتِي سَلَكْتُمْ فِيهَا قَبْلاً حَسَبَ دَهْرِ هذَا الْعَالَمِ... الَّذِينَ نَحْنُ أَيْضًا جَمِيعًا تَصَرَّفْنَا قَبْلاً بَيْنَهُمْ فِي شَهَوَاتِ جَسَدِنَا، عامِلِينَ مَشِيئَاتِ الْجَسَدِ وَالأَفْكَارِ، وكُنَّا بالطَّبيعَةِ أَبْنَاءَ الْغَضَبِ كَالْبَاقِينَ أَيْضًا، اَللهُ الَّذِي هُوَ غَنِيٌّ فِي الرَّحْمَةِ، مِنْ أَجْلِ مَحَبَّتِهِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي أَحَبَّنَا بهَا، وَنَحْنُ أَمْوَاتٌ بالْخَطَايَا أَحْيَانَا مَعَ الْمَسِيحِ بالنِّعْمَةِ أَنْتُمْ مُخَلَّصُونَ وَأَقَامَنَا مَعَهُ، وَأَجْلَسَنَا مَعَهُ فِي السَّمَاوِيَّاتِ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ، لِيُظْهِرَ فِي الدُّهُورِ الآتِيَةِ غِنَى نِعْمَتِهِ الْفَائِقَ، باللُّطْفِ عَلَيْنَا فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ. لأَنَّكُمْ بالنِّعْمَةِ مُخَلَّصُونَ، بالإِيمَانِ، وَذلِكَ لَيْسَ مِنْكُمْ. هُوَ عَطِيَّةُ اللهِ. لَيْسَ مِنْ أَعْمَالٍ كَيْلاَ يَفْتَخِرَ أَحَدٌ. لأَنَّنَا نَحْنُ عَمَلُهُ، مَخْلُوقِينَ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ لأَعْمَالٍ صَالِحَةٍ، قَدْ سَبَقَ اللهُ فَأَعَدَّهَا لِكَيْ نَسْلُكَ فِيهَا. لِذلِكَ اذْكُرُوا أَنَّكُمْ أَنْتُمُ الأُمَمُ قَبْلاً فِي الْجَسَدِ.... أَنَّكُمْ كُنْتُمْ فِي ذلِكَ الْوَقْتِ بِدُونِ مَسِيحٍ، أَجْنَبِيِّينَ عَنْ رَعَوِيَّةِ إِسْرَائِيلَ، وَغُرَبَاءَ عَنْ عُهُودِ الْمَوْعِدِ، لاَ رَجَاءَ لَكُمْ، وَبِلاَ إِلهٍ فِي الْعَالَمِ. وَلكِنِ الآنَ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ، أَنْتُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ قَبْلاً بَعِيدِينَ، صِرْتُمْ قَرِيبِينَ بِدَمِ الْمَسِيحِ. لأَنَّهُ هُوَ سَلاَمُنَا، الَّذِي جَعَلَ الاثْنَيْنِ وَاحِدًا، وَنَقَضَ حَائِطَ السِّيَاجِ الْمُتَوَسِّطَ... لأَنَّ بِهِ لَنَا كِلَيْنَا قُدُومًا فِي رُوحٍ وَاحِدٍ إِلَى الآبِ. فَلَسْتُمْ إِذًا بَعْدُ غُرَبَاءَ وَنُزُلاً، بَلْ رَعِيَّةٌ مَعَ الْقِدِّيسِينَ وَأَهْلِ بَيْتِ اللهِ. (إفسس 2: 1-19)

ب- الكنيسة الباكرة
(50 - 150 للميلاد)

الانتشار العالمي لبواكير الجماعات المسيحية:

على أننا حين ندعو بولس «المؤسس الثاني للمسيحية»، فعلينا ألا نبالغ في تأثيره المباشر. فقبل زمانه أفلح زعماء غيره في نقل المسيحية إلى أنطاكية، والإسكندرية، وروما. وإلى جانب الرسل نسمع عن «برنابا»، و«سمعان النيجيري»، و«لوسيوس البرقي» (نسبةً إلى بَرقة)، و«مَنَئين»، وأبولوس، وسواهم؛ وقد انهمكوا جميعاً بنشاط في تنظيم الكنائس المسيحية الجديدة. وهكذا كان المهتدون المسيحيون ينبعون بسرعة، حقاً، على امتداد الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط حيث كان طموح بولس أن يتقدم من روما إلى أسبانيا لنقل المسيحية إلى أبعد حدود العالم المعروف.

وكان النجاح الكبير للمسيحية الباكرة في المراكز التجارية للإمبراطورية الرومانية، وذلك إلى حد كبير بسبب وجود الكُنُس، أو على الأقل الحارات اليهودية فيها، فيمكن للرسالة المسيحية، أن تقوم بأفضل مناشداتها في الأماكن التي كانت الديانة اليهودية معروفة فيها من قبل. ولكن عندما رفضت الجماعات اليهودية الأرثوذكسية العقيدة الجديدة وأبت أن تؤويها، نشأت الجماعات المسيحية المستقلة بين أصحاب الحوانيت والشعب العامل في المدن الكبيرة، ثم بين الذين يتكلمون لغات مختلفة. ولم تنتشر المسيحية في جهة الغرب وحسب، فقد انتقلت كذلك إلى وادي دجلة والفرات وإلى أثيوبيا.

المعارضة والاضطهاد:

عند منتصف القرن الثاني صارت الديانة المسيحية مشكلة كبيرة لحكام الأقاليم الرومانية، ولا سيما في سورية وآسيا الصغرى. فمن جهة كان الرومان يمقتون اللغز والسرية، ومن جهة أخرى كان المسيحيون يعدون أنفسهم «في»

العالم ولكنهم ليسو «منه». ومع أن قليلين منهم قد التحقوا هنا وهناك بالقوات المسلحة للإمبراطورية الرومانية وتقلدوا مناصب في الفروع الإدارية للحكومة. فقد انسلخ العدد الأكبر منهم عن السلطة الدنيوية. وكانوا في الأمور الدنيوية الخالصة مطيعين، ولكنهم على العموم غير مكترثين بالسلطة المدنية. إلا أنهم رفضوا بتاتاً أن يشاركوا في العبادة الوطنية الرسمية التي تتطلب من المواطنين أن يقسموا بروح الإمبراطور، وأن يقدموا البخور والخمر إكراماً لألوهية الإمبراطور على المذبح أمام صورته. وكان هذا الرفض أمراً موجعاً على وجه الخصوص لموظفي الإدارة الرومانية، ليس لأسباب دينية بمقدار دلالته على عدم الولاء والعصيان. ويضاف إلى ذلك أن المسيحيين كانوا يتلاقون سراً، على الدوام تقريباً عند بزوغ الفجر أو ليلاً، لأن الكثيرين منهم كانوا يعملون في أثناء النهار. وكانت التصورات المحرفة عن «تهتكاتهم» في العبادة منتشرة بين الرومان. وقد اتهم المسيحيون بالانحرافات الجنسية «أعياد الحب» وأكل لحم البشر (خذوا، كلوا، هذا جسدي...وهذا دمي). وبالإضافة إلى ذلك، فإن بقاءهم مبتعدين عن المسارح، والمبارزات السيفية، والمهرجانات الشعبية كان يفسر بأنه ضيق أفق وتعصّب ويثير الغضب. وعبارة «المسيحيون للأسود» أصبحت صيحة عامة.

والتعبير الكلاسيكي عن الاشتباه الرسمي تتضمنه رسائل بلينوس الأصغر، حاكم أثينا (في آسيا الصغرى) إلى الإمبراطور الروماني تراجان. فقد كتب (في زهاء العام 112 للميلاد):

إن عادتي، يا مولاي، أن أحيل إليكم كل المسائل التي لدي شكوك حولها... وليس لدي قليل شك في مسألة هل يمنح العفو في حالة التوبة، أم أنه حين يكون المرء مسيحياً فلا فائدة له في كفه عن كونه كذلك، وهل مجرد الاسم يعاقب عليه من دون جرائم أم الجرائم التي تتعلق بالاسم هي التي تعاقب... أولئك الذين اتهموا أمامي بأنهم مسيحيون.. قد جزموا بأن مبلغ جرمهم أو غلطهم كان هذا: أنهم قد تعودا أن يجتمعوا في يوم ثابت قبل بزوغ الفجر أو أن يترنموا بالتناوب بترتيلة للمسيح بوصفه إلهاً، وأنهم يرتبطون بقسم على عدم ارتكاب سرقة، أو سلب، أو زنى، وعدم الإخلاف بعهدهم، وعدم

إنكار الوديعة عندما تطلب، وبعد القيام بهذه الأمور، كان من عادتهم أن يرحلوا ويتلاقوا من جديد لتناول الطعام، وإنما هو طعام عادي لا ضرر فيه، وقالوا إنه حتى هذا الشيء قد توقف بعد أن صدر مرسومي العام، الذي حظرتُ بموجبه وفقاً لأوامركم وجود النوادي. وعلى هذا الاعتبار فقد وجدت من الضروري أن اكتشف من الخادمتين المدعوتين بالشماستين عن الحقيقة بالتعذيب. إنني لم أكتشف شيئاً غير الخرافة المفرطة والمشاكسة. ولذا فأنا أؤجل الامتحان وأسارع إلى استشارتكم، وقد بدت لي المسألة تستحقّ التمعّن.

على أن بلينوس قد أورد أنه عندما عثر على المسيحيين الذين أصروا ثلاث مرات على القول إنهم «مسيحيون»، أمر بأن يعدموا لأنهم، كما قال بوضوح، «لم أشك، مهما كان ما يعترفونه به، في أن اللجاجة والعناد الذي لا يلين يستحقان أن يعاقبا بالتأكيد» كان الرومان، من حيث المبدأ، يتوقعون الطاعة.

كان يجري قتل المسيحيين أمام أعين الناس في روما ابتداء من العام 64م، في زمن نيرون، وفي القرن الذي تلا ذلك كثيراً ما كان الموظفون الرومان يقدمون الأمثلة بالمسيحيين الذين رفضوا عبادة صورة قيصر برميهم إلى الأسود أو إحراقهم على الخازوق. وربما لم يكن عدد الشهداء كبيراً، ولكن الضجة العامة كانت في بعض الأحيان كبيرة ولها آثار بعيدة المدى سواء في المسيحيين تحديداً أو في الجمهور بوجه عام، ولا سيما في إرهاف الشعور بأن الديانة المسيحية كانت عند أتباعها لا تستحق الحياة وحسب بل كذلك تستحق الموت من أجلها.

تطورات في العبادة والتنظيم:

في غضون ذلك، كانت الجماعة المسيحية تنمو وتصير وحدات مستقلة بذاتها ولها حياتها الخاصة.

وفي زمن الرسول بولس، عندما كان المسيحيون مبتدئين في النظر إلى أنفسهم بوصفهم كنيسة تدعو إلى الخروج من الدنيا إلى أخوية منفصلة، كانت طقوسهم على نوعين: 1- لقاءات على نمط الطقوس في الكنيس، وتتألف من

قراءات من الكتب اليهودية المقدسة[1]، والصلاة، والموعظة، وإنشاء المزامير، و2 - الأغابية agape أو «مأدبة المحبة»، للمؤمنين فقط، وهي وجبة مسائية يشترك فيها كل الحاضرين وفي خلالها يتم طقس قصير، يذكر ب«العشاء الأخير». ويحيي ذكرى تضحية يسوع بجسده ودمه. وبما أن هذا الاحتفال كان يقام على أساس تقديم الشكر، فقد كانت الكلمة اليونانية الدالة عليه هي eucharist (أي تقديم الشكر).

وعندما ازداد نمو الجماعات المسيحية، أخذت الوجبة العامة تتوقف بالتدريج بوصفها غير عملية، وكان عشاء الرب يحتفل به بعد ذلك في ختام القسم العام من طقوس يوم الأحد، حيث ينسحب غير المعمدين لتمكن المعمدين من أن يحتفلوا معاً بهذا السر الداخلي في العقيدة المسيحية.

وفي زهاء عام /150/، وصف جوستينوس الشهيد (الذي صار شهيداً بعد ذلك التاريخ) (أي في سنة 165م) الاحتفالات المعهودة في يوم الأحد على هذا النحو:

في اليوم الذي يدعى الأحد يتم لقاء في أحد الأمكنة للذين يعيشون في المدن أو الريف، وتتلى ذكريات الرسل (الأناجيل) أو كتابات الأنبياء ما سمح الوقت بذلك. وعندما ينتهي القارئ، يحثنا الرئيس على محاكاة هذه الأمور النبيلة ويدعونا إلى القيام بذلك. ثم نقف جميعاً معاً ونقدم الصلوات. (وبعد هذا) يتم إحضار الخبز، والخمر، والماء، ويرفع صلواته وتقديمه الشكر على خير ما يستطيع، وتقبل جماعة المصلين ذلك بقولها «آمين»، ويتم توزيع العناصر المكرسة على كل شخص وتلقيها من كل شخص، ويرسلها الشمامسة إلى الغائب. والميسورون والذين يتمنون ذلك، يتبرعون (بالمال). كل منهم بمقدار ما يختار. وما يجمع يودع عند الرئيس، وهو يرعى الأيتام والأرامل، والذين هم محتاجون بسبب المرض أو أي سبب آخر، والذين هم مسجونون، والغرباء الذين يقيمون بيننا.

---

(1) لم تكن الكتب اليهودية المقدسة، تتممها قراءات من الأناجيل ورسائل الرسل حتى القرن الثاني.

كان الدخول في الجماعة المسيحية ينظم على مراحل محددة. فكانت تعطى للمرشحين إلى عضوية الكنيسة دورة تعليمية نظامية واختبار (تعليم بطريقة السؤال والجواب)، تدوم عدة أشهر وتنتهي في طقس المعمودية، بالتعميد غمراً في الماء أو رشاً به. (عموماً كان التعليم بطريقة السؤال والجواب يتم في فترة الصوم الكبير والتعميد في عيد الفصح). وكان المؤمنون يظهرون في أثوابهم البيض من أجل معموديتهم، وكان ذلك الطقس يتبعه تثبيت العماد أو مد الأيدي، ذلك أن الروح القدس قد ينزل على كل عضو جديد. وبعد مد الأيدي يأتي المسح بالزيت، ويختتم الطقس برسم علامة الصليب، في حين يقسم كل عضو جديد على التخلي عن أربابه الأقدمين وأخلاقه القديمة وأتباع شريعة المسيح، في تأكيد تام للإيمان.

وفي البداية كانت الكنائس منظمة من دون إحكام، ولكن عند نهاية القرن الأول كانت جماعات المصلين يوجهها مجلس شيوخ، يضم مشرفاً أو «أسقفاً» أو أكثر. وكان يساعد هؤلاء الموظفين الشمامسة. ولكن الوعظ والتعليم كانا بعد بأيدي المتنبئين والمعلمين، الذي كانوا إما منتمين إلى جماعة المصلين وإما جاؤوا من مكان آخر، وربما بوصفهم مبشرين رحالة. ومن هذا النمط من الحكم كان الطبيعي أن ينشأ شكل من التنظيم أشد صلابة ومركزية. وعند الربع الأول من القرن الثاني نقرأ عن تجمعات برئاسة أسقف واحد، يساعده كبار القوم والشماسون، وعندما صار هذا الأمر عاماً، صارت وظائف هذا الرئيس الدائم للتجمع الديني تشتمل على التعليم والوعظ.

تطور العقيدة حتى العام 150 للميلاد:

لقد رافق النمو في العقيدة النمو في أشكال المؤسسات.

وبحلول العام /100/ للميلاد تميزت الكتابات المسيحية من كتابات «العهد القديم» وراحت تستخدم تدريجياً ككتاب مقدس جديد (صار في مآل الأمر «العهد الجديد»). وأصبح ظهوره ضرورياً مع الاضمحلال التدريجي لتوقع الجيل الأول عودة يسوع الوشيكة على غمام السماء ـ وهو إيمان كان فيما مضى

يجعل كتابة كتاب مقدس تبدو زائدة عن الحاجة. وكان الشهود العيان لكرازة يسوع يموتون واحداً واحداً بمرور خمسين سنة من الزمان، وكان مسيحيو الجيل الثاني، وقد عاش جلهم بعيداً عن أورشليم، يطالبون بتدوين حياة المعلم وتعاليمه. وزاد دمار أورشليم سنة /70/ للميلاد هذه المطالبة إلحاحاً بين الذين يعيشون خارج فلسطين.

وكنا في التوطئة للفصل السابق قد راجعنا بدايات هذه الكتابات. وهناك شيء آخر لا بدّ من قوله هنا حول طبيعة ومحتوى الكتابات الناضجة التي نشأت من هذه البدايات، لأن كل قسم يتخذ أهمية بناءً على التثمين المتزايد لتعليم يسوع وشخصه، وتتحد كلها لتمنحنا إحساساً بالعوامل، سواء منها اليهودية أو اليونانية، التي كان لها فعلها في القرن الأول من التاريخ المسيحي لجعل المسيحية ديانة عظيمة وغنية.

ومن المحتمل أن يكون إنجيل مرقس، أقدم الأناجيل وأوجزها، قد كتب في أنطاكية (أو روما)؟ في العام 65- 70 وعلى ما يقول بابياس، وهو كاتب مسيحي من أوائل القرن الثاني، فقد كان قائماً على ذكريات بطرس كما دونها يوحنا الملقب مرقس، الذي عاش في أورشليم قبل أن يأتي إلى إنطاكية. ولا يظهر هذا الإنجيل اهتماماً بميلاد يسوع وشبابه، ولكنه يبدأ بمعموديته ويقدم رواية حية لكرازته، مع وصف دقيق لمشاعره الإنسانية. ولكن يسوع كان أكثر بكثير من إنسان عادي عند مرقس، إنه ابن الله من خلال تجربة الاصطفاء الإلهي لمعموديته، وهو المسيح الحقيقي، «قدوس الله». ولكن لا وجود لعقيدة التجسد الإلهي ولا أي تصور للوجود القَبْلي كما يظهره بولس.

يوفر متّى ولوقا، بمضيهما أبعد من ذلك، أساساً لعقيدة التجسد. وكلاهما يربط قصص الولادة البتولية بالحوادث فائقة الطبيعة التي تجري في طفولة يسوع.

وهما يركّزان من البداية إلى النهاية على الطابع الإلهي لمسيحية يسوع والطريقة التي حقق بها، بوصفه قادماً من السماء، النبوءة العبرية بمجيء ابن الإنسان لتخليص الجنس البشري.

ولكننا في الإنجيل الرابع نجد الشخصية الإلهية ليسوع تُقدّم على أوضح ما يكون. كان الكاتب يتوخى أن يكتب إنجيلاً يجد فيه رب بولس الحي الذي تعاش خبرته ذاتياً في يسوع التاريخي المعروف موضوعياً في الأناجيل الثلاثة الأولى. والفرضية الأساسية لهذا الإنجيل هي: «الكلمة (اللوغوس) قد صار جسداً وحل بيننا زمناً، ورأينا مجده، مجد الابن الواحد الذي أتى من لدن الأب» (يوحنا 1: 14). وعلى الرغم من أن يوحنا لا يسمح لنا أن ننسى الإنسان يسوع، الذي كان شخصية موضوعية في عالم أشخاص حقيقيين وأشياء حقيقية، فإن ألوهية يسوع هي الخصيصة المميزة لهذا الإنجيل. إن يسوع المسيح هو قبل كل شيء آخر «ابن الله». وهو أكثر من ابن الله بالمعنى العبري لكونه المسيح، لأنه مع أن هذه الدلالة المسيحية البسيطة ضمنية، فهي مندمجة، بل مغمورة في المعاني الأكثر شمولاً، والتي نجدها في فاتحة الإنجيل. حيث يصور المسيح بأنه التجسيد المرئي للزخم الإبداعي (=اللوغوس) للآب الأبدي وغير المرئي وأنموذج لمحبة الأب للبشر أو تجليها في شخص بشري. ولذا فإن الإنجيل الرابع يتبع بولس في تفكيره أن المسيح يأتي شخصياً من الله ـ أي من حال الوجود القَبْلي ـ ويربطه لا بفعل الخلاص على الأرض فقط، بل وبخلق العالم. وعبر هذا الإنجيل يقدم لنا المسيح بأنه يتذكر حياته السابقة قبل التجسد، أو على الأقل بأنه له حياة ما قبل متجسدة. وهذا الوجود القبلي، لا تجربته البشري، هو الذي يفسر معرفته بالله الذي يشهد له شهادة «حقيقية». ولأنه قد جاء من السماء، فإن المسيح يشهد أيضاً بما رآه وسمعه؛ والأكثر من ذلك، فإن كلماته ليست «كلمات الله» فحسب، بل أنه هو ذاته الكلمة «اللوغوس»، هو ذاته الذي يحمل شهادة لنفسه. وإذا عرفته عرفت الآب.

و«الرسالة إلى العبرانيين»، المكتوبة في العقد الذي سبق الإنجيل الرابع، لا تستخدم مصطلح «اللوغوس» (الكلمة)، ولكن من الواضح أن لدى الكاتب شيئاً من هذا القبيل في ذهنه. وفي الجملة الأولى يقول إن الله الذي كان يتحدث بصورة متقطعة من خلال الأنبياء، قد تحدّث إلينا باستيفاء في «ابنٍ، قدر له أن يمتلك كل شيء، ومن خلاله خلق العالم». وبينما كان الابن يشبه إخوته البشر

في كل ناحية، فهو يقاسمهم لحمهم ودمهم ويشاركهم في طبيعتهم، بل حتى في معاناة الغواية والتألم. ولكن، لأنه في طبيعته الجوهرية إلهي، فإن موهبته الروحية والسيكولوجية فريدة. وقد كان يسوع البشري والأب الإلهي يتواصلان في كل الأوقات. وفي هذا الأمر يختلف يسوع عن إخوته، الذين لا يملكون الوصول الحر إلى الأب من دون توسطه الخلاصي بوصفه الكاهن الأكبر.

والتصوّر الأبسط والأقل تنظيراً في العقيدة لشخص المسيح وعمله قد ظهر في رسائل يعقوب وبطرس، وفي الكتابات غير المعتمدة رسمياً لمن يُطلق عليهم الآباء الرسوليون: كليمنت الروماني Clement of Rome (الكتابة زهاء 93 – 97)، وهيرماس الروماني Hermas of Rome (زهاء 115 – 140)، ومؤلفي أعمال من نحو «رسالة برنابا» (زهاء 130)، و«كليمنت الثاني» (زهاء 160)، و«تعاليم الرسل الاثني عشر» (زهاء 130 – 160 أو قبل ذلك). وعلى الأغلب، فإن هذه الكتابات المتنوعة قد أفصحت عن العبادة الصريحة للمسيح بوصفه كاشف الطبيعة الحقيقة لله والنازل من السماء والمانح القانون الجديد للحياة على أرفع مستوى أخلاقي.

وكانت كتابات المدافعين عن المسيحية موجّهة، مباشرة لا إلى الحاجات الدينية للجماعات المسيحية النامية بل إلى العالم بوجه عام. وكان هؤلاء الكتّاب قد تعلّموا في أفضل المدارس اليونانية والرومانية كما كانوا جيّدي الاطّلاع على الفلسفة القديمة، وقد بعثوا بدفاعاتهم عن المسيحية إلى أباطرة الرومان وسواهم من ذوي المنصب الرفيع والسمعة الطيبة من غير المسيحيين. وكان في عدادهم أرستيدس الاثني، ومليتو أسقف سرديس، ومينوسيوس فيلكس، وهم سادة مثقفون من روما، وأشهرهم جميعاً جوستينوس، الملّقب بالشهيد بسبب طبيعة موته، والذي كان، كتلميذه تَتْيان أريسطوطا ليسياً رواقياً، وفيثاغورياً، وأفلاطونياً. على التعاقب. وكان بعيداً عن الاعتقاد بأن كل الأنظمة الفكرية الأخرى غير صحيحة. فكان اللوغوس المقدس يعمل عمله في العالم قبل زمن المسيح منوّراً سقراط وهرقليط ومعطياً نصيباً من الصحة ل«برابرةٍ» (وهذا تعبير يوناني حقيقي) كآباء «العهد القديم»، وكذلك للفلسفة اليونانية والأنبياء

العبرانيين. وبمقدار ما نورهم اللوغوس، كانوا إلى هذا الحد مسيحيين قبل المسيح. ولكن المسيحية كانت متفوقة على كل الأنظمة الفكرية الأخرى، لأن اللوغوس لم يتكلم من خلال المسيح فحسب، بل لأن اللوغوس «كان» المسيح. وقد نقل المسيح حقيقة العقل الإلهي بكاملها وكان المعلم الذي لا نظير له وعلى البشرية جمعاء أن تقبله.

أهمية جوستينوس الشهيد وأقرانه من المدافعين عن المسيحية هي أنهم برهنوا بنجاح كيف يمكن للمسيحية، عندما تختار أن تظهر في ثوب يوناني، لا أن تستمر في جاذبيتها الدينية القوية وحسب، بل كذلك أن تتماسك مع أي فلسفة من فلسفات العالم القديم ـ ولا سيما الأفلاطونية والرواقية، مهما كانت التضحية بشكلها العبراني الأصلي. فصار من الأسهل الآن على الكتّاب المسيحيين أن يغزوا حقل الفلسفة العامة وأن يتكلموا عن الديانة المسيحية بوصفها شاملة حقاً بمداها وتطبيقها. وكانت الكلمة التي استخدموها هي ال«كاثوليك» catholic وتعني «الكونية» أو «المسكونية».

ج- الكنيسة الكاثوليكية القديمة

(1054 - 150)

أطلقت كلمة «كاثوليك» Catholic أول مرة على الكنيسة المسيحية بمعنى أنها «شمولية» أو عالمية. ومن الناحية الوصفية، كانت تلك تسمية في محلها لعقيدة دينية وصلت آنذاك إلى كل ولايات الإمبراطورية وإلى كل طبقة في المجتمع. وقد أصبح هذا الوصف، في الواقع، جزءاً من المؤسسة الوحيدة المنظمة التي عبّرت عن الديانة المسيحية بعد منتصف القرن الثاني. وبهذا الاسم تمكنت الكنيسة الكاثوليكية من أن تقف متّحدة عاقدة العزم على المحافظة على نفسها في وجه الأعداء الخارجين ومحاربة الرياء والانشقاق الديني في داخلها.

وأظهرت الكنيسة الكاثوليكية القديمة في كفاحها للمحافظة على سلامتها الخارجية والداخلية أمرين:

1- نظام عقيدة، موضّحاً، ومطهراً من الغلط، ويعلن أنه قويم، أي أرثوذكسي.

2- وتنظيماً كهنوتياً يتميز في نظرها بالرسولية، والشمولية، والوحدة، والقداسة. وسنصف الآن الخطوات المتعددة التي تم بها إحداث هذه التطورات.

البدع الغنوصية والمرقيونية:

كان حظّ يسوع أن يظهر لا في الزمن الذي كان اليهود يبحثون فيه عن مسيح، بل كذلك عندما كانت بقية حوض البحر الأبيض المتوسط تبحث عن تجسد الألوهة، وأنشأت في الوقت ذاته مفهوم اللوغوس، من دون أن تدرك بأي ثراء يمكن أن يحيى إذا طبق على ظهور الله المخلص حياً في شخصية بشرية. وعندما أحضر المفكرون المسيحيون مفهوم اللوغوس لوصله بيسوع، نشأ لاهوت كامل وحد الديانة والفلسفة على السواء بأشد الإجراءات إرضاء.

ومع ذلك كانت في العملية أخطار. فكان لا بد من المحافظة على التوازن التام بين العناصر. وإلا تم القضاء على القيمة الدينية للتركيب الجديد. وصارت مهمة الأساقفة والمعلمين المسيحيين في القرنين الثاني والثالث هي العثور على ذلك التوازن وتحريم كل الانحرافات عن الرؤية القويمة.

ومن التفسيرات التي تناولت عمل المسيح وشخصه في القرن الثاني، والتي أُعلن فيها بعد أنها تفسيرات مهرطقة، كان المذهبان الغنوصي والمرقيوني.

والرؤية التي تدعى الغنوصية Gnosticism (من الكلمة Gnosis أي العرفان أو المعرفة الباطنية) لها عقيدة مميزة تسري في كل أنواعها: لقد ابتدأ الغنوصيون بمثنوية تفصل الروح جذرياً عن المادة، وترى العالم المادي فاحشاً ومشيناً جداً بحيث يمكن ألا تكون لله صلة بصنعه، الله غير الشخصي وغير القابل للمعرفة، وأساس كل الوجود والذي يقيم في النور الصافي بصورة يعجز عنها الوصف. والغنوصية في شكلها الممسَّح، بدلاً من أن تدمج الفلسفة بالديانة المسيحية، قد تبنت شخص المسيح بوصفه العنصر الأساسي في التركيب اليوناني ـ الشرقي. والله يقيم فوق العالم الشرير بمسافة بعيدة، تحيط به جماعة من الكائنات الروحية من الذكور والإناث، تدعى الدهور، ومنها يسوع الموجود من قبل. وفي مستوى أدنى كان يعيش ويعمل خالق الأرض، ابن الدهر الساقط «صوفيا»، التي كانت في سقوطها قد جلبت الضياء إلى الظلام الذي هو «يهوه» إله العهد القديم، وهو إله جلف الروح، أنتج كتلة الشر التي هي عالم المادة. إن العهد القديم وطريقة الحياة التي يقترحها، لذو صلة بتصورات يهوه الدينية للأمور. وبالنسبة إلى هؤلاء الغنوصيين فإن الحيّة في جنة عَدْن، كانت في إيصالها آدم وحواء إلى شجرة المعرفة (التي هي الغُنوص أو المعرفة الباطنية)! كانت محسنة، وليست موسوسة لعينة، وقد بذلت أقصى جهدها لتنقذ أبوي الجنس البشري من قيادة يهوه المضللة! وعندما رأى يسوع، الدهر الإلهي الشفيق، كيف تجري الأمور بسوء على الأرض، نزل متنكّراً بالجسد (ولكن جسده لم يكن مادياً حقاً، كان مجرد مظهر)[1]

(1) هذه الرؤية تدعى «المظهرية» docetism، وكانت بدعة مبكرة، غير مقتصرة على الغنوصيين.

وأظهر للأرواح البشرية التي تجاهد في أغلفتها النجسة (=الأجساد المادية) كيف يمكن لها، بالمذهب الزاهد في الجسد، واكتساب حكمة الذهن المنقذة، أن تحرر من عبوديتها في العالم المادي وتظفر بالخلود بفرارها من الجسد إلى عالم روحانية الوجود الخالصة.

وهنا كانت المذاهب التي شعرت الكنيسة بأنها لا تستطيع بالفعل أن تشجعها من دون أن تنتهك أسسها التاريخية: وهي المذاهب القائلة بأن الله يتحكم بالكون، وأن «يهوه» إله العهد القديم كائنٌ وضيع، وأن العهد القديم يجب أن يرفض بوصفه عديم القيمة، وأن يسوع لم يولد في الحقيقة ولم يتعذّب حقاً ولم يمت، وأنه لا يمكن أن يكون هناك بعث للجسد، وإنما بعث للروح. على أن الإشارة إلى أن «العهد القديم» عديم القيمة قد وجدت المدافع عنها المثير للعواطف، في مواطن من روما يُدعى «مرقيون» الذي اتّبع إرشاد المدارس الغنوصيّة في تنديدها بإله «العهد القديم» بوصفه إلهاً متمسكاً بالشرع بقسوة وعديم الرحمة، وإن كان قد خلق العالم المادي، فقد كان ذا طبيعة أخلاقية وضيعة. إلا أن مرقيون marcion مع ذلك لم يلتحق بأي مدرسة من مدارس الغنوصية (التي ازدهر أساساً في مصر وآسيا الصغرى). وكان الإله الجيد حقاً، إله المحبة والرحمة، الذي خلق العالم الروحي غير المرئي، غير معروف لأنبياء «العهد القديم»، وكان المسيح أول من كشف عنه. إن البشر مستعبدون من الأجساد التي تلقوها من إله «العهد القديم»، ولكن أرواحهم قد تجد الخلاص عبر الإيمان بإله يسوع. فليتّبعوا المسيح والقديس بولس في الزهد، والعزوبة، وازدراء العالم المادي وليكافحوا من أجل الدخول في ملكوت الله الجيد، الآن وفيما بعد. وزاد مرقيون الذعر الذي خلقته آراؤه بمحاولاته توفير كتاب مقدس لأتباعه، في عمله الذي حرره وجمع فيه كتابات بولس وإنجيل لوقا ولكنه نقّح أولاً كل المقاطع التي تربط يسوع بإله العهد القديم، وعلاوةً، فقد انسلخ عن كنيسته روما ونظّم تجمعاً جديداً.

وهذا النوع من الأمور قد أثار العالم المسيحي للبحث في أوضاعه الأساسية.

كان (القديس) إيرينايوس، أحد أبناء آسيا الصغرى وأسقف ليون (في إقليم بلاد الغال)، أول صوت واضح ضمن الكنيسة في اقتراح برنامج للتعامل مع الآراء المهرطقة. وقد كان أصدر، في نحو العام /185/للميلاد، كتاباً شهيراً هو «ضد البدع». وكان ذا أهمية حاسمة. وفيه أدلى بحجة مفادها أن العلاقة الدالة على المذهب المسيحي السليم هي اهتداؤه بالرسل. فقد كانت لدى الرسل معرفة تامة بالأناجيل، وما لا يكون متفقاً مع تعاليمها ومنقولاً عن الأناجيل والرسل لا يمكن أن يكون مقبولاً. وعلى هذا المحك تُشجَب الغنوصية والمرقيونية. ورداً على الزعم القائل بأن يسوع قد بلّغ تعليماً خاصاً وباطنياً لقلة مختارة ـ وهو زعم الغنوصيين ـ أجاب إيرينايوس أن مثل هذه الحكمة الخاصة، إذا كان لها أن توجد في أي وقت، فيجب أن تُسلّم من خلال الكنائس التي أسسها الرسل. وأشار مع ذلك إلى أنه ليست لدى كنائس المؤسسة الرسولية تقاليد كهذه. وعلى العموم، إذاً كان إيرينايوس يلحّ على أنه ينبغي للمرء من أجل المذهب السليم أن يمضي إلى الكتابات الرسولية، والكنائس الرسولية، وأساقفتها.

وكان هذا هو الرد الذي راق لكنائس الغرب. وكان ساراً على وجه الخصوص للكنيسة في روما، حيث صيغت بين سنتي 150 و 175 للميلاد شهادة الإيمان التي تستخدم في المعمودية لتعبّر عن الإيمان وتتجنّب المذهبين الغنوصي والمرقيوني معاً. وصارت تسمى، وفقاً لمعيار إيرينايوس في استقامة الرأي، عقيدة الرسل، وكان تسير في شكلها الباكر كما يلي (وقد جرى تأكيد الكلمات الحاسمة بالخطّ الأسود القاتم):

أؤمن بالله الأب القادر على كل شيء[1]؛

(1) لجعل المسألة واضحة ضد الغنوصيين كانت تضاف فيما بعد عبارة «خالق السماء والأرض».

وبيسوع المسيح، ابنه المولود الوحيد، ربنا، الذي وُلد من الروح القُدس، ومريم العذراء، والذي صُلب في عهد بونتيوس بيلاطس، وقام من الأموات في اليوم الثالث، وصعد إلى السماء، وأُقعد على يمين الآب، حيث سيأتي ليحكم الأحياء والأموات.

وأؤمن بالروح القدس، والكنيسة المقدسة، ومغفرة الخطايا، وانبعاث الجسد. والتنقيحات والتحسينات اللاحقة لشهادة الإيمان هذه أَرْهَفت دلالتها بوصفها مجملاً للعقيدة القويمة والرسولية.

وكانت النتيجة الأخرى لمحاولة الكنيسة لتحديد الموروث الرسولي هي السعي إلى تثبيت الأسفار الصحيحة ل«الكتاب المقدس». وعند نهاية القرن الثاني كانت الأسفار المعترف بها من «العهد الجديد» موافقاً عليها بالفعل[1]. وكانت الكتب المشكوك في صحتها أو صحة نسبتها مستبعدة من اللائحة الرسمية للأسفار عندما كان التمحيص الدقيق لقيمتها يلقي الشك على رسوليتها.

وكانت الكنيسة بهذه الإجراءات توضع في وضع تحافظ فيه على نفسها من أن تنحلّ إلى طوائف لا تُعدّ، و«أن تجرفها كل ريح مذهبية»، وأن يُحكم عليها بالزوال السريع.

انتصار المسيحية ممثَّلاً بكنيسة الدولة الإمبراطورية:

في أثناء ذلك، ظل الحكم الروماني المركزي معارضاً للمسيحية رسمياً. وصار يدرك في القرن الثاني أن الكنيسة المسيحية المتنامية هي التعبير المؤسّسي عن ديانة قوية وجديدة في الإمبراطورية، وأنها تقدّم تحدياً تزداد خطورته للأديان الوثنية الرومانية. وبما أن تلك الأديان الوثنية قد قدّمت إلى الحضارتين الرومانية واليونانية صبغتها الأخلاقية والروحية، فقد بدأ يزعج الحكومة والمدارس أن القيم الدينية القديمة عدت الآن مهددّة بالإسقاط الكلي.

---

(1) هذا صحيح تقريباً، على الرغم من أن لائحة الأسفار المعترف بها لم تُثبّت نهائياً حتى العام 400 في الغرب وبعد ذلك في الشرق. وقد نُزعت عدة كتب من القائمة الأصلية، وأُضيف غيرها.

فهل ستبقى الإمبراطورية؟ إن الجحافل البربرية التي كانت مرابطة على امتداد الدانوب والراين، ومتأهبّة لاقتحام الإمبراطورية كلما تهاونت الزواجر، لن يقاومها المسيحيون المسالمون، ولا الرومان أنفسهم، إذا أصيبوا بعدوى مذهب الورع المسيحي والاهتمام بعالم الآخرة. لا بد من القيام بأمر ما. ولذلك، فإن «ماركوس أوريليوس» (161 – 180)، بدأ يشنّ في الأقاليم في السنوات الأخيرة من حكمه عمليات اضطهاد شديد ضد المسيحيين. وتبعه «سبتيموس سفيروس» و«كركلا»، و«مكسيمينوس» بمحاولات مشابهة لردع الحركة المسيحية.

ولكن لم يتملك الحكومة المركزية الجزع بكل معنى الكلمة حتى منتصف القرن الثالث. إن الإمبراطور الروماني «ديكيوس»، بعد عودته من تخم حدودي معرَّض للخطر، وما لمسه من فتور ولا مبالاة الكثيرين بسبب عقيدتهم المسيحية، أصدر سنة /250/ أمراً يوجب على كل مواطن في الإمبراطورية أن يحصل على شهادة من موظف حكومي تُثبت أنه قد قدّم قرباناً لصور الإمبراطور. وكان عدم امتلاك مثل هذه الشهادة يصيب المرء بالموت. فكان من ضحايا أعمال الاضطهاد التي تلت ذلك شهداء بارزون، ومن ضمنهم أساقفة روما وأنطاكية. وكانت الأعداد الغفيرة تعذَّب بصورة موجعة، ومع ذلك ترفض أن تستسلم. وأذعن لضغط الحكومة عدا تلك الأعداد الغفيرة كثيرون، سواء عن خوف أو ضعف، وانضموا إلى عداد «المرتدين» كما دعاهم المسيحيون الأشد إيماناً. ويظل هناك آخرون رشوا الموظفين لإصدار شهادات لهم من دون أن يقدّموا القرابين فعلياً بالطريقة المرسومة. وكان هؤلاء بنظر «المجاهرين بإيمانهم على الرغم من الاضطهاد والتعذيب» مارقين من الدين كذلك. وسرعان ما انتهى الاضطهاد، وحاول جلّ المارقين من الدين العودة إلى الكنيسة، وكانت النتيجة أن بعضاً من أشدّ المسيحيين صرامة قد قاموا بانشقاقات في الكنائس احتجاجاً على إعادة إدخال التائبين العائدين[1]. وفي عهد الإمبراطور فاليريان تجدّدت أعمال الاضطهاد بضراوة، وصودر الكثير من ممتلكات الكنيسة، واستشهد الكثيرون من أرفع رجال

(1) نوقش أحد هذه الانشقاقات في روما على نطاق واسع. وفي أثناء عمليات الاضطهاد في عهد ديوقليتان نشأ انشقاق مشابه وأوسع انتشاراً في شمال أفريقيا ودام حتى الغزو الإسلامي.

الكهنوت. ولكن عندما وقع الإمبراطور أسيراً لدى الفرس أُلغيت أوامره. وبدأ الاضطهاد النهائي الرهيب في عهد ديوقليتيان سنة 303. وأمرت مراسيم متلاحقة بأن تدمّر كل الكنائس، وان تُحرق الكتب المسيحية المقدسة، وأن يوضع الأساقفة ورجال الدين الأدنى مرتبة تحت التعذيب حتى يقدّموا القرابين لصورة قيصر. وأُرغم المسيحيون العاديون على تقديم القرابين كذلك. ولكن قبل أن تمضي أعمال الاضطهاد بعيداً جداً، اعتزل ديوقليتيان من أعباء المنصب وترك في السلطة أربعة «قياصرة» متساوين في الرتبة والأهمية. ولذلك صارت أعمال الاضطهاد أكثر تقطعاً. وسرعان ما أخلّت الصدمات بين القياصرة بالتوازن بينهم، وتمكّن ابن أحدهم، وهو رجل محبّذ للمسيحية، واسمه قسطنطين، من التغلّب أخيراً على المعارضة كلها وصار في سنة 323 الحاكم الأوحد للإمبراطورية. وغيّر قسطنطين الوضع كله.

وقد سبق أن أصدر سنة 313 بالاشتراك مع مزاحم آخر على السلطة مرسوماً عاماً يسمح للمسيحيين بحرية العبادة ويمنح المسيحية المساواة مع الأديان الأخرى. وقد قيل إن قسطنطين قد جزَم في أثناء ذلك ـ سواء أكان صادقاً في قوله أم لا ـ إنه في فترة مبكّرة من صراعه الصاعد قد رأى في السماوات صليب المسيح مع نقش كتب فيه in hoc signo vinces (ومعناه «بهذه العلامة سوف تنتصر»)، ومع أنه لم يكن معمَّداً، فقد آلى على نفسه أن يستند في آماله بالظفر على الإله المسيحي[1]. ولذلك عندما أصبح قسطنطين إمبراطوراً لا ينازع، هيّأ نفسه وأعدّها لتقوية الكنيسة الكاثوليكية.

ولم يكتف بأن يعيد إلى الكنيسة أملاكها المفقودة، فقد سمح لها بأن تزيد عقاراتها. واستنكر الطوائف المهرطقة وسعى إلى التبرؤ من كل الانشقاقات، لأنه كان يريد الوحدة في الإمبراطورية ويأمل في إحرازها من خلال عالم مسيحي موحَّد. وجعل يوم الأحد المسيحي عطلة رسمية. وبنى كنائس جديدة وأمر ببناء غيرها على حساب الوثنية. وتابع أخلافه خطواته. وفي سنة 383 أُعلنت المسيحية ديانة الدولة الإمبراطورية.

---

(1) قد تكون تلك قصة خرافية.

الجدال الآريوسي وشهادة الإيمان النيقيّة:

حين كانت كل هذه الأحداث تتقدم، كانت الصياغة اللاهوتية للعقيدة الكاثوليكية تسير إلى الأمام باطّراد. وبدأ ترتوليان وسيبريان في شمال أفريقيا، وكليمنت وأوريجين في الاسكندرية بإيضاح العقائد التي لا تزال في أول عهدها حول العلاقة بين الآب والابن والروح القدس، وإبداء مزاعم الكنيسة في السيطرة والسلطة. ولكن انعدام الاتفاق العام بينهم قد أعطى مجالاً للاختلافات الحادة.

واعتقد قسطنطين أن المسائل يجب أن يحسمها مجلس عالمي للكنائس. وكانت الظروف هي هذه: لقد اختلف شيخٌ علامة من شيوخ الكنيسة في الاسكندرية، يدعى آريوس، مع مطارنه في مسألة هل كان المسيح كائناً محدوداً أم أزلياً. واعتقد آريوس أن المسيح، حتى بوصفه اللوغوس، هو كائن مخلوق. وقد خُلق كالمخلوقات الأخرى من العدم، وهكذا قد لا يكون أزلياً، ولا يستطيع أن يكون من جوهر الله ذاته. وكانت حجتّه هي أن الابن، كانت له بداية، في حين أن الله، الذي هو واحد، أزلي، وكان من دون بداية. وتجادل مطران آريوس معه بحدّة، جازماً أن الابن أزلي وغير مخلوق، ومن جوهر شبيه بجوهر الله وبدعوة المجتمع الكنسي إلى الاجتماع، خلع المطران آريوس من منصبه، ولكن ذلك لم يسبّب إلا انتشار الجدال في كل أنحاء الشرق. كان ذلك سنة 321، ودعا قسطنطين، بعد أن باءت الجهود التصالحية بالإخفاق إلى عقد مجمع للكنائس العامة لحسم المسالة نهائياً. وفي صيف 325، التقى نحو ثلاثمئة أسقف مفوّض، جلّهم من الشرق، في نيقيا، عبر البوسفور من القسطنطينية، وأحدثوا الصيغة الشهيرة لشهادة الإيمان المتبناة في نيقيا. وها هو نصها، مع تأكيد العبارات الحاسمة المميزة بخط مائل:

نؤمن بالله الواحد، الأب كلي القدرة، خالق كل الأشياء المنظورة وغير المنظورة. وبرب واحد هو يسوع المسيح، ابن الله، المولود من الآب، بوصفه ابنه الوحيد، أي من جوهر الأب، إله من إله، ونور من نور، إله حقيقي من إله حقيقي مولود وليس مخلوقاً، ومن نفس جوهر الأب Homo - ousois، الرب الذي من خلاله خُلقت كل الأشياء في السماء والأرض، ومن أجلنا ومن أجل

خلاصنا نزل وجُعل جسداً، وصار إنساناً، وتألّم، وقام في اليوم الثالث، وصعد إلى السماء، وهو قادم ليحكم الأحياء والأموات. و(نحن نؤمن) بالروح القدس.

ويرتبط بشهادة الإيمان هذه ملحق يعلن اللعنات على الذين يقولون إنه «كان هناك حينٌ من الزمن لم يكن الابن موجوداً فيه» أو يجزمون بأن «ابن الله ذو وجود أو جوهر مختلف، أو أنه مخلوق».

وشهادة الإيمان هذه، التي تم تبنّيها بضغط من الإمبراطور، الذي أراد إحلال الاتفاق، لم تحلّ المصاعب المذهبية على الفور ولم توفّر الاتفاق. والعبارات التي أكدناها قد ندّد بها الكثيرون بحرارة وأبطلتها مجالس لاحقة فعلياً[1]. وبالفعل ربما كان الدفاع الوحيد عنها، الدفاع الحماسي الصبور الذي لا يعتريه الكلل، والذي قدّمه أثاناسيوس، مطران الإسكندرية، في كتّيب بعد كتيّب، قد تغلّب في آخر الأمر على المعارضة وأفضى إلى القبول النهائي بها. وحتى ذلك الحين كان لا بد من مرور عدة أجيال قبل أن تصبح هذه الشهادة معصومة عن الخطأ في نظر الكنيسة[2].

---

(1) أحد هذه المجامع اللاحقة أحلّ محل عبارة «من الجوهر ذاته» omo - ousois في شهادة الإيمان التي جرى تبنيها في نيقيا عبارة omof - ousois أي «من جوهر مشابه»، و «نحن ندعو الابن مثل الأب، كما تدعوه الكتب المقدسة وتعلّم». ولكن قرار هذا المجلس لم يصمد. ورجعت الكنيسة بعدئذٍ إلى الصيغة النيقية.

(2) يجب أن يقال، إن شهادة الإيمان النيقية التي تتلى في بعض الكنائس المسيحية اليوم، ليست شهادة الإيمان الأصلية التي جرى تبنيها في نيقيا سنة 325، بل هي شكل موسّع منها (يطلق عليه غالباً شهادة الإيمان القسطنطينية) التي دخل حيّز الاستخدام بعد زمن مجمع القسطنطينية العام سنة 381. ويمكن أن نضيف من أجل الإتمام إن الصياغة اللاحقة تقول جازمة إن ألوهية الآب والابن والروح القدس هي واحدة في الماهية (أو الجوهر)، ولو كانت في ثلاثة أقانيم (أحوال وجود وتجليات منفرد). وعندما تُرجمت هذه الصياغة إلى اللاتينية، فإن الكلمة اليونانية المجردة إلى حد ما للدلالة على «الوجود المنفرد»، قد أصبحت كلمة ملموسة إلى حد ما هي PERSON، وجرى الإيحاء بالمعاني الضمنية للشخصية المتميزة والمستقلة بذاتها بطريقة لم يكن يقصدها تعبير الكلام اليوناني الأصلي.

كان ما نجح أثاناسيوس في الإلحاح عليه لمعاصريه من غير المؤمنين في الشرق في البداية هو أن المسألة المتنازع عليها ليست مجرد مسألة لفظية، مسألة كلمات، بل كانت المسألة هي هل كان المسيح مخلّصاً حقاً. لأن الشرق عموماً كان يتمسّك بالتصور اليوناني للخلاص، وهو عبارة عن جعل الجسد الخاطئ للإنسان إلهياً وخالداً. وقد كان أثاناسيوس قادراً في مآل الأمر إلى إقناع الشرق بأن الله وحده يمكن أن يُنزل الحياة الخالدة إلى مجال الفناء، وهكذا لا بد أن يسوع كان إلهاً حقيقياً من حيث الماهية، لا مجرد كائن مخلوق من نوعية أدنى، كما كان آريوس يلحّ.

المجادلات المتعلقة بلاهوت شخص المسيح وشهادة الإيمان الخلقيدونية:

لم تنته على هذا الوجه مسألة الصعوبات اللاهوتية. وقد نشأ عندئذٍ مسائل ساهمت في تقسيم فكر العالم المسيحي. وعندما وضعت «شهادة نيقيا في الإيمان» فإن العقيدة القطعية القائلة بأن اللوغوس أو المسيح لم يكن من مرتبة ألوهية أدنى بل هو مساوٍ في الألوهية لله الآب، لم تقل شيئاً عن نمط اتحاد اللوغوس الإلهي مع يسوع البشري. وهكذا صار التجسّد ذاته محور الحجاج اللاهوتي الحامي. ومتى ما جرى تبيان الفارق بين الطبيعتين الإلهية والبشرية للمسيح، كان بالإمكان عدّهما شديدتي التمايز مما يجعل من الصعب تفسير شخصية يسوع الموحَّدة ومن جهة أخرى، فقد كان من السهل على السواء رؤية مثل هذه الهيمنة لطبيعة واحدة على الأخرى مما يوحي باستيعاب إحدى الطبيعتين في الأخرى.

ولم تكن لدى الغرب صعوبة كبيرة هنا، لأنه من بين العبارات المحدَّدة التي وضعها ترتوليانوس قبل أكثر من قرن، كانت الصيغة المقبولة عموماً: «نرى (في المسيح) حالة مزدوجة، ليست ممتزجة بل مجموعة في شخص واحد، شخص يسوع، هي حالة الله والإنسان». والغرب ذو العقل العملي لم يتحير في المسألة فوق ذلك.

ولم يكن الشرق كذلك. فسرعان ما انقسم بضراوة وعمق. وأصبحت المطرانيات الكبيرة في الإسكندرية وأنطاكية لا تقبل المصالحة ـ حتى طرقتها الفتوحات الإسلامية في كارثة مشتركة.

وصار الجدال حامياً في أول الأمر حين جَزَم أبوليناريس، وهو مطران في سورية، وربما في رد فعل شديد على آراء أقرب زملائه، أن المسيح لا يمكن أن يكون إنساناً كاملاً متحداً بالله الكامل، لأنه لن يكون عندئذٍ ابن واحد لله بل ابنان، ابن بالطبيعة وابن بالتبني، والأول بإرادة إلهية والثاني بإرادة إنسانية. وكان مثل هذا الأمر يبدو غير قابل للتصور. ومقيتاً من الجهة الدينية. ولذلك، ففي المسيح جسم بشري مع مبدئه الباعث للحياة (كانت «الروح الحيوانية» هي العبارة الفعلية) كان يقيم فيه اللوغوس، بوصفه مبدأ التفكير، وكان الاتحاد، قياساً على وحدة الشخصية البشرية، هو من الكمال بحيث حان جسدُ المسيح جسد الله، وفي صَلْب هذا الجسد الجسد صلَب اليهود الله. وعلى الفور، أشار خصومه من مدرسة أنطاكية إلى المسيح في ظل هذا التصوّر لم يكن إنساناً حقاً، لأن بشريته كانت ناقصة، ومن دون ذكاء تفكيري وقدرة على الاختيار. وأعلن الأنطاكيون أنه في المسيح هنالك إنسان كامل لا بد أن يكون إلهياً، وقد كانت ليسوع التاريخ طبيعة بشرية كاملة، حُبِيت بالعقل والإرادة الحرة ككل البشر الآخرين، ويقيم اللوغوس فيه كما يقيم في معبد، في وحدة معنوية تامة، بحيث كان اللوغوس ويسوع يريدان الأمور ذاتها. وأثار نسطوريوس، وهو لسان حالهم الأساسي، المشاغبين من رهبان القسطنطينية، حيث أصبح مطراناً، حين قدّم موعظة ضد دعوة «مريم العذراء» «أمّ الله»، معلناً أنها لم تحبل بإله بل حَبلت ب «إنسان، هو أداة الإله». وعندئذٍ دخل سيريل المعترك، وهو مطران الإسكندرية، من الجانب الآخر. وأقرّ أن بشرية المسيح تمتلك الجسد، والنفس العاقلة، والروح، ولكنها كانت من دون شخصية، فاللوغوس هو شخصيتها. وما كان يقصده هو أن الطبيعة البشرية ليسوع قد تمثّلتها شخصية إلهية كلياً. ولكن النساطرة شعروا أن ذلك يُفقد الإنسانية طبيعتها، وكانت الحقيقة هي أن الإنسانية والألوهية كانتا في حالة «اقتران» فقط، فقد اتّحدتا في الإرادة من دون أن تتسرب إحداهما الأخرى.

وطارت الاتهامات، والاتهامات المضادة كثيفة وسريعة. وفي سنة 431 تمت الدعوة إلى مجمع عام وجد نفسه منخرطاً بصورة غير صحية في مكائد سياسية

وضغوط إمبراطورية، وخُلع نسطوريوس من منصبه ونُفي. ولكن المسائل ظلت غير محسومة. وأخيراً، انعقد مجمع عام سنة 451 في خلقيدونيا في آسيا الصغرى وصاع تعريفاً لعلاقة طبيعتي المسيح صار المذهب الكاثوليكي النظامي. وهو يقول:

لذلك نعترف، ونحن نتّبع الآباء المقدّسين، وكلّنا يعلّم بالإجماع أن الابن الواحد ذاته، ربّنا يسوع المسيح هو في وقت واحد كامل في الألوهة وكامل بالنظر إلى إلوهيته يشترك مع الآب في ماهية واحدة. فهو مثلنا في كل النواحي فيما عدا الخطيئة، وفيما يتعلّق بألوهته فهو مولود الأب قبل العصور، ومع ذلك ففيما يتعلّق ببشريته ـ بالنظر إلينا وإلى خلاصنا ـ هو مولود في هذه الأيام الأخيرة من مريم العذراء، أم الله، والمسيح الواحد ذاته، ابنٌ، وربٌ، مولود وحيد ومُعْلَن في طبيعتين من دون خلط، ومن دون تبدّل، ومن دون انقسام، ومن دون انفصال واختلاف الطبيعتين لأنه لا يمكن القضاء عليه بسبب الاتحاد، فإن خصائص كل طبيعة تُحفظ وتلتقي في شخص واحد وأقنوم واحد ـ لا كأنه انفصل أو انقسم إلى شخصين، بل هو الابن الواحد ذاته والله المولود الوحيد واللوغوس، ربنا يسوع المسيح، حتى كما علّمنا الأنبياء من القديم وربنا يسوع المسيح فيما يتعلّق به، وما أورثنا الآباء من شهادة الإيمان.

كانت شهادة الإيمان هذه، كشهادة الإيمان النيقية، انتصاراً للغرب، ولا ريب أن الغرب قد قبلها من دون ممانعة، ولكن الشرق لم يجدها مُرْضية. وانشق الذين اتّبعوا القيادة الإسكندرانية بوصفهم «أشياع الطبيعة الوحدة» وأُطلق عليهم وفقاً لذلك «اليعاقبة». ومنهم نشأت «الكنيسة القبطية» في مصر وأثيوبيا والكنائس «اليعقوبية» في سورية وأرمينيا، وهي منشقّة حتى هذا اليوم.

وكان النساطرة قد اعتبروا غير قويمين عندما انعقد المجمع العام في خلقيدونيا. ولكنهم ظلوا طائفةً في سورية، ووجدوا الشعوب الواقعة في شرقهم تتقبلهم. وهكذا أخذوا معتقداتهم إلى بلاد فارس، ومنها إلى الهند والصين، اللتين وصلوا إليهما في القرن السابع، وفي سورية بقيت النسطورية بعد الفتح الإسلامي. ولا تزال الكنائس النسطورية موجودة كذلك في جنوبي الهند والشمال الغربي من إيران.

سمو البابوية:

كان من حسن حظّ الكنيسة في روما أن تكون في الطرف المنتصر في المجادلات المذهبية في القرنين الثاني والرابع، وفي إبّان الأزمة الغنوصية كانت كنيسة روما هي التي صاغت «شهادة إيمان الرسل»، وكانت الكنيسة ذاتها هي التي أدّت إلى تشكيل الأسفار المعترف بها على أنها «العهد الجديد». وكانت المنزلة الرفيعة لكنيسة روما تعترف بها سلطات الغرب البارزة. وكان إيرينايوس، من موقعه في بلاد الغال، يحثّ الكنائس الغربية على التوافق مع روما في كل الأمور المرتبطة بالتراث الرسولي. وكان سيبريانوسن من موقعه في شمال أفريقيا، يعتقد أن روما هي «الكنيسة الرئيسية التي تستمد منها الوحدة الكهنوتية مصدرها».

وكان البابا ليو (440 - 461) يعلن، وهو مدرك كل هذه الأمور، ومتيقّن أنه إذا استقرت السلطة المدنية في القسطنطينية في شخص الإمبراطور، استقرت السلطة الروحية في شخصه، وأن القديس بطرس لأنه كان الأول بين الرسل، فإن كنيسة القديس بطرس يجب أن تُولي الصدارة بين الكنائس. وقد أسّس زعمه على الاعتقاد بأن قدرات بطرس، كما تحدّدت في إنجيل متّى (16: 18-19)[1]، قد انتقلت إلى خَلَفٍ من أخلافه. ونلاحظ أن هذا كان تطبيقاً خاصاً للاعتقاد ب«الخلافة الرسولية»، وهو اعتقاد جرت صياغته باكراً، وممن صاغوه، مثلاً كليمنت الروماني في نهاية القرن الأول، وكان ذلك الاعتقاد مفهوماً بصورة عامة لتطبيقه على كل الأساقفة بوصفهم الخلفاء ل«كل» الرسل، من خلال الرِّسامة الكهنوتية. ولكن ليو كان يعتقد أن بطرس كان الأول في المرتبة بين الرسل، ومن ثم فإن خلفاء بطرس كانوا الأوائل بين الأساقفة.

وقد اتّخذ هو وخلفاؤه خطوات لإثبات هذا الزعم، ولكن نجاحهم كان معلّقاً عندما سقطت الإمبراطورية الرومانية. وكان من حظ البابا، بالفعل، أنّ

(1) وَأَنَا أَقُولُ لَكَ أَيْضًا: أَنْتَ بُطْرُسُ، وَعَلَى هذِهِ الصَّخْرَةِ أَبْنِي كَنِيسَتِي، وَأَبْوَابُ الْجَحِيمِ لَنْ تَقْوَى عَلَيْهَا. وَأُعْطِيكَ مَفَاتِيحَ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ، فَكُلُّ مَا تَرْبِطُهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ مَرْبُوطًا فِي السَّمَاوَاتِ. وَكُلُّ مَا تَحُلُّهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ مَحْلُولاً فِي السَّمَاوَاتِ.

معظم غزاة الإمبراطورية ـ من القوم القوطية الغربية الجرمانية ومن القوطيين الشرقيين والونداليين والبرغنديين ـ كان قد هداهم إلى المسيحية مبشّرون من الطوائف الآريوسية المهرطقة[1]. وكانوا هراطقة، ولكنهم كانوا مسيحيين، ولذا عندما استولى «ألاريك» Alaric القوطي على روما، دارى البابا وكفى الكنائس شرّه، في حين غمر كل ما حوله مما عداها بالسلب والخراب.

وعندما ازدادت غزوات الهمج وصارت مدّاً كارثياً متعاظماً وتعثّرت الحضارة، استمدّ البابوات العزاء من أن الغزاة الأريوسيين قد اقتنعوا بعد مدة قصيرة بأن يصبحوا من الكاثوليك[2].

نشوء الرهبانية:

نمت الرهبانية بسرعة في الكنيسة الكاثوليكية بعد أن جُعلت المسيحية ديانة الدولة الإمبراطورية. وكانت أولى الميول في اتجاهها قد ظهرت في الأفراد الذين اتّبعوا اقتراح القديس بطرس أن الأحسن للمؤمنين والمؤمنات ممارسة الامتناع عن الفعل الجنسي والعيش عيشة «البتولية». ولكن الرهبانية بوصفها حركة تتضمن قطيعة تامة مع المجتمع، لم تبدأ حتى قبيل نهاية القرن الثالث. وكان أول ممثّليها البارزين القديس أنطونيوس الكبير من كورما في مصر. فبعد أن حاول ممارسة الزهد في قريته، وهي محاولة أخفقت، ذهب بعيداً إلى عزلة الصحراء. وهناك هاجمته مغرياته الشهيرة، وما كان في حالة سلام إلا وهو نائم، وعندما يستيقظ يصوم ويصلّي من دون انقطاع، ولكن تنتابه الشياطين، في هيئة أنثى أو ذكر، تستدرجه إلى كل إثم. كانت مصر مليئة بالمناحي المنعزلة والناس المتوحدين، وكان مناخها موافقاً للتقشّف، وشعبها يحترمه. وكان الاعتقاد سائداً (وفقاً للاهوت الغنوصي واللاهوت الاسكندراني) أن الدنيا والجسد منجّسان، وهكذا اجتذب أنطونيوس الكثير من الأتباع. ولكن سرعان ما كان واضحاً أن الذين كافحوا من أجل أن يعيشوا وحيدين تماماً قد ساروا غالباً نحو الجنون

(1) كالمبشّر الكبير أولفيلاس والآخرين.

(2) نتيجة لاهتداء كلوفيس، ملك الفرنك، وجهود المبشّر البريطاني بونيفيس

وكانوا كثيراً ما يخفقون من خلال افتقارهم إلى الهداية، ولهذا نشأ النمط الجماعي من حياة النسك (الاعتكاف) على يد باخوميوس، وهو مهتد إلى الكنيسة القبطية في مصر الجنوبية، نظمّ أديرة للرهبان (وديراً واحداً للراهبات) تحت قاعدة العمل والتأمل المتوازنين، اللذين يوجههما رئيس الدير.

وانتشر كلا النمطين الانعزالي والجماعي من الرهبنة في سورية وآسيا الصغرى. وجذب النُسّاك المنعزلون الانتباه إليه. وانسحب بعضهم إلى المغاور والأماكن الصحراوية، وعاش بعضهم، مثل سمعان العمودي، على قمم الأعمدة في المدن المهدّمة وكانوا يحصلون على الطعام الذي يُرفع لهم على السواري، وكان غيرهم (الشجرانية) يقيمون على الأشجار، وكان هناك غيرهم كذلك، على منوال الرهبان البوذيين في الصين والتيبت، يسوّرون أنفسهم عالياً في محوّطات ويحصلون على الطعام الذي يقذَف إليهم أو يدفع به نحوهم من خلال شقوق السور. ولكن هذا النوع من الزهد لم يكن أكثر من هَوْسة آنية. وقد تجمّع عدد من النسّاك أكبر بكثير معاً في الأديرة (أي أصبحوا رهباناً) وحافظوا على أنفسهم بتدبيرهم واقتصادهم. وكسبوا مبكراً استحسان باسيل، مطران قيصرية، وهو أحد الكبّدوقيين الثلاثة الذين ما تزال تكرّمهم الكنائس الأرثوذكسية الشرقية، وقد وضع لهم قاعدة شاملة حتى هذا اليوم. وبها تخضع الأديرة لمطارنة جهاتهم المحلية، وبالإضافة إلى الممارسات الرهبانية المشتركة مع الغرب، يحظّر الشراب القوي والقراءة الأجنبية أو المخالفة للقانون الكنسي. ويوعز بالخدمة الاجتماعية بين الفقراء واليتامى.

وكانت الحركة الرهبانية في الغرب بطيئة في نشوئها، ولكن عندما قلبت الغزوات الجرمانية المجتمع رأساً على عقب، صارت شعبية وأنشأت منظّمات رهبانية كثيرة. وفي مدة من الزمان كان لكل دير قانونه، وكان بعضها متراخياً بصورة فظيعة. ولذلك ظهرت في القرن السابع منظمة القديس بنْدِكْتوس الرهبانية، التي أوجب مؤسّسها على الذين التحقوا بمنظّمته حياة مليئة بالعمل اليدوي في حقول الدير أو مخازنه، والقراءة الجدّية الموجّهة، وفوق كل ذلك العبادة طوال النهار وشطراً من الليل.

وكان امتلاك الأديرة البندكتية للمكتبات، تلك الأديرة التي انتشرت في مآل الأمر في أوروبا الغربية، هو في ذاته واقعة ذات نتيجة كبيرة بالنسبة إلى المستقبل. فحفظت بذلك الكتب من الضياع ولولا ذلك لفُقدت.

ومسألة كم كانت الرهبنة متوافقة على الأقلّ في حالة بعض الأفراد، مع الغرض العملي في خدمة المجتمع بوجه عام كانت ظاهرة أولاً في حياة القديس جيروم، الذي أتمّ، في أثناء عزلته الرهبانية في فلسطين، الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس، أي ترجمة «العهد القديم» و«العهد الجديد» إلى اللاتينية، وكذلك في سيرة القديس كريسوتوم، «فم الذهب»، الذي انبثق من حياة النسك ليجذب جماعات كبيرة من المصلّين في أنطاكية بمواعظه. وكان لذلك يُدعى إلى أبرشية القسطنطينية (والحسد هو الذي هبط به إلى قتام المنفى وسوء استحقاقه).

وكان الراهب الآخر ذو التأثير في تمثيله حياة النسك هو غريغوريوس الكبير، وهو الراهب الأول الذي انتُخب للمنصب البابوي (590 - 604). وهو مدير ذو مواهب شخصية كبيرة، وبها ساس الموارد المالية للبابوية[1] التي حكمها فعلياً كأنه ملك. ووضع أسس السلطة البابوية اللاحقة في إنكلترا، التي نال في اهتدائها إلى المسيحية فائدة عظيمة[2]. وزاد سلطته الكهنوتية في فرنسا وأسبانيا. وكان تأكيده للكفّارة وتشديده على الإيمان بالمطْهَر قد جاء بهذين الجانبين من الإيمان والممارسة إلى الواجهة للمرة الأولى في الديانة الكاثوليكية. وسبق الممارسة اللاحقة بنصح التائبين بنشدان مساعدة القديسين. وقد ظن أن من حقه باعتباره الخليفة الرسولي للقديس بطرس، الذي كان «أمير الرسل قاطبة»، و«بصوت الرب عُهد إليه بالعناية بالكنيسة كلها»، أن يعترف به على أنه رأس الكنيسة الكلية.

وهكذا كان المثال السابق، والأنموذج للبابوات القروسطيين الأقوياء.

(1) للكنيسة في روما ممتلكات كبيرة من الأراضي في إيطاليا.

(2) كانت إنكلترا قد وصلتها الهداية بنوع من حركة الكماشة المسيحية - من الشمال عن طريق أيرلندا واستكتلندا، ومن الجنوب من المبشرين الذي كانت ترسلهم روما مباشرة. وكانت أيرلندا قد اهتدت في مرحلة أبكر بوساطة القديس باتريك. وقد عبر المهتدون من خلالها إلى اسكتلندا بعد أن كسبوها، ودخل المبشرون إنكلترا من اسكتلندا.

القديس أوغسطين:

على أن الشخصية العظمى في الكنيسة الكاثوليكية القديمة كانت شخصية أوغسطين (354 – 430)، أسقف هيبّون في شمال أفريقيا. كان شخصاً تكاد كل صفة إنسانية مميّزة توجد في جِبلّته بشدة كبيرة، ومع ذلك كان ذهنه من الصفاء والقوة بحيث كان قادراً على السيطرة على عواطفه المعاندة وتسخيرها لغرض مسيحي. وقد وُلد من أب وثني وأم مسيحية، وكان يلازم حضور الدروس في مدارس موطنه الأصلي في شمال أفريقيا. وفي السابعة عشرة، حين كان يتابع دراسة البلاغة، كان يتّبع دوافع طبيعته الحسيّة بحماسة واتخذ له سُرّية تعيش معه حياة زوجية من دون زواج. ورفض «العهد الجديد» في بادئ الأمر بوصفه «غير جدير بأن يقارن بمنزلة شيشيرون»، الذي كان يدرس أعماله. ولكن شيشيرون لم يكن كافياً، ولذا تحول إلى المانوية[1]. ولكنه لم يستمدّ من هذه العقيدة إلا راحة يسيرة، لأنه لم يصبح واحداً من «الكاملين»، ولم يستطع إلا أن يكون «سامعاً»، لأنه كان عاجزاً عن التخلّي عن شهوات جسده، كما تتطلّب المانوية. وكانت صَلاتُه في ذلك الحين، كما يقول في كتابه الشهير «الاعترافات»، «تُنعم عليّ بالطهارة والتعفُف، ولكن لم يحن الوقت».

وفي التاسعة والعشرين من عمره ذهب إلى إيطاليا. وهناك، في ميلانو سمع مواعظ القديس أميروسيوس القوية وهو شخصية أخرى من عظماء شخصيات الكنيسة الكاثوليكية. وقد ثارت به كثيراً. وعندما حثّته أمه، بعد التحاقها به،

(1) كانت المانوية منظومة فلسفية أنشأها فارسي يدعى «ماني» (215 - 276). وكانت تجمع عناصر مستمدة من الزرادشتية والبوذية واليهودية والغنوصية والمسيحية، ولكن عقيدتها المميزة كانت مثنوية النور والظلام، والروح والمادة، والخير والشر. وروح الإنسان تستعبدها المادة اللعينة وينبغي أن تتبع سبيل الزهد للتحرر من شهوات الجسد. وبما أنها دين مؤسساتي، فقد مرّ حين من الزمان أصبحت فيه إحدى أهم المنافسات للمسيحية. ومع أن تأثيرها قد تضاءل بعد زمن أوغسطين، فمن المثير للاهتمام أن بعض الصليبيين قد عادوا إلى أوروبا الغربية ومعهم شكل تم إحياؤه من معتقداتها وأسّسوا طائفة «الكاثاريين» cathary في جنوبي فرنسا.

على أن يشرع في عقد خطبته على فتاة من طبقته، أَبْعَد عنه بأسى خليلته المخلصة، التي أنجبت له ابناً، وأذعن لما طلبته أمه، ولو أنه بسبب السنوات غير الناضجة للفتاة التي عقد خطبته عليها قد أرجأ الزواج منها. ثم عندما وجد أنه ما زال فريسة للشهوة، اتخذ لنفسه سُرِّية أخرى. وعندئذٍ كاد ييأس من نفسه، لأنه بدا له صحيحاً أن الجسد كما علّمت المانوية، شر لا يرجى شفاؤه.

ونجمت تغيّرات جذرية في وجهة نظره عن اهتمامه المتيقّظ بالأفلاطونية الجديدة[1]. وأخذ يرى صحيحاً ان إغواء الجسد ناجم عن الابتعاد عن الله وليس عن وجود أي عنصر متأصّل على سوء الجسد، وفي الواقع، لقد توصّل إلى الاعتقاد بأن الله هو مصدر كل الأشياء وأن المادة والشر يتحدّان على أساس غياب طاقة الله الإبداعية، الناشئ عن الابتعاد الروحي عن الكائن الخيّر الأزلي الواحد.

وحدث اهتداؤه إلى المسيحية فجأة. فهو بعد أن عرف عن أفلاطوني مُحْدَث تحوّل إلى مسيحي، ثم عن بعض الرهبان المصريين الذين تغلّبوا على إغواءاتهم بإخلاصهم البسيط للانضباط الرهباني، ركض مذهولاً من عند صديقه ألبيوس إلى الطرف البعيد لأحد البساتين وسمع صوت طفل يقول عبر جدار: «خذ واقرأ». ولدى عودته إلى صديقه، أمسك على عجل بنسخة من رسائل «العهد الجديد» ملقاة على مقعد طويل، وعندما فتحها قرأ فيها كلمات أوصلته إلى قرار. ومنذ ذلك الحين فصاعداً عاش في تعفّف شديد. وعمدّه القديس

(1) مدرسة إسكندرانية في الفلسفة، كان أهم ممثّل لها هو أفلوطين (205 - 270). ووفقاً لهذه المدرسة، يتألف الواقع كله من سلسلة من الفيوض، على مراحل متعدّدة، صادرة عن المثال الواحد، الكامل، الذي هو مصدر كل وجود في كل مكان. وكما أن الماء من الربيع الفائض، فإن مستويات الواقع الأقرب إلى مصدر الوجود هي الأنقى والأفضل. والعقل أو الذكاء هو الفيض الأقرب إلى الواحد، والروح أو النفس تنتقل إلى أبعد، والمادة هي الحافة الخارجية للوجود، في ابتعاد مصدرها بحيث تشكو من غياب العقل أو الفضل الإلهي الحال فيها. والإنسان هو اتحاد المادة والروح والعقل. ويعتمد خلاصه على ابتعاده عن الانغماس في مجال المادة وتحقيقه معرفة الواقع الحقيقي بالاتحاد الحَدْسي والصوفي مع الواحد. وكما تصير روحه أكثر ذكاء وعاقلية، فإنه تصير أكثر روحانية وإلهية.

امبروسيوس، وغادر إيطاليا إلى شمال أفريقيا، وقرر أن يؤسّس ديراً للرهبان. وهناك أصبح أسقفَ هيبّون، وكتب عدداً من المجلّدات في الأعوام الثلاثين التالية، وتوفّي عندما كان الفاندال يحاصرون المدينة.

كان أوغسطين متعدد الجوانب كثيراً بحيث كان لاهوته تركيباً من اتجاهات متنوّعة. يرى المرء فيه أسلوباً أفلاطونياً مُحْدَثاً عدّل من اعتماده الأساسي على البصائر العبرانية. ولكنه لم يستسلم لميل واحد بصورة حصرية. وكان تفكيره من الإبداع إلى حد أنه علينا ألا نتركه من دون أن نجمل باختصار معتقداته بالله والإنسان والكنيسة وفلسفة التاريخ.

وخبرة أوغسطين الصوفية الشخصية قد صانته من الاعتقاد بأن الله محضُ تجريد. فالله قريب وحقيقي جداً. وفي شخص يسوع وفاعلية الروح القدس قد اقتحم التاريخ، وهو في عمل مستمر في القلوب البشرية. ومع ذلك، فإن تصوّر أوغسطين له مسحة أفلاطونية محدثة. والله هو الكائن الأزلي الوحيد، والوحيد الذي هو حقٌ مطلقاً وخيرٌ مطلقاً. إنه مصدر كل الأشياء الأخرى، وهي تعتمد عليه في كل لحظة من أجل استمرار وجودها. والكون المادي له بوجه خاص وقاع مكتسب ويكاد لا يكون في ذاته جديراً بالدراسة.

وقد كيف أوغسطين تصوّره لله مع الاقتناع المسيحي بأن الله «واحد في ثلاثة». وفي الثالوث لم يَرَ تبعيّة من عضو لعضو آخر، كما رأى اللاهوتيون الأسبقون. وقد كتب: «توجد في ذلك الثالوث مساواة كبيرة جداً، وليس الأب أعظم من الابن وحسب، من حيث الألوهة، ولكن ليس الأب والابن معاً أعظم من الروح القدس».

وافترض، وهو يذهب إلى أبعد من ذلك، أن الروح القدس، على الرغم من مساواته للأب والابن من حيث الألوهة «فإنه لا ينبعث من الأب وحسب بل كذلك من الابن». ومع ذلك فمن جديد، فإن الثالوث متّحدٌ اتحاد العاشقُ والمعشوق والعشق، أو اتحاد التذكر والفهم والإرادة، وعن ذلك قال: «إذاً ما دامت هذه الأمور الثلاثة وهي التذكّر والفهم والإرادة ليست ثلاث حيوات، بل حياة واحدة، ولا ثلاثة عقول بل عقل واحد، فحتماً يترتّب على ذلك أنها ليست ثلاثة جواهر بل جوهر واحد».

وأوغسطين في تشكيل مذهب في الإنسان ـ الذي كان ذا تأثير هائل لا في اللاهوتيين الكاثوليك وحسب بل كذلك في المصلحين البروتستانت ـ اعتمد على تجاربه المريرة المتعلّقة بضعفه الأخلاقي في شبابه. والإنسان في حد ذاته فاسد، ومرتبط بالخطيئة الأصليّة، التي لا يمكن لأحد أن ينجو منها بجهوده. حتى لكان الجنس البشري بأسره مريضٌ أخلاقياً.

ولكن الله رحيم. وهو بالنعمة الإلهية ينقذ من اصطفاهم. وهم ليسوا فقط الذين يستحقّون هذه الرحمة، فهي رحمة حرة تماماً. وهذه هي محبة الله، التي لا يمكن أن توضع عليها أي مطالب إنسانية. وعندما تأتي النعمة الإلهية لا يستطيع أحد أن يقاومها. والإنسان الآثم حين يصلح نفسه بالجهد المثارة ـ «مثابرة القديسين» ـ فإنه يتغيّرن ويتزكّى، ويتكرّس للعبادة. أما الآخرون فإن النعمة لا تأتي، لأنه محكوم عليهم باللعنة.

وهذا المذهب المتشدّد قد أوقع أوغسطين في خلاف شديد مع راهب بريطاني يُدعى بيلاجيوس، ومع عدد من الآخرين. واحتجّ هؤلاء الرجال بأنه لا يوجد شيء مثل الخطيئة الأصلية، وكل البشر لديهم الاستعداد الطبيعي لفعل الخير. وربما قدّم آدم إلى نسله مثالاً سيئاً، ولكنه لم يقدّم ضعفاً أخلاقياً موروثاً ولا مندوحة عنه. وكل من لديه إيمان فهو مزكّى. ولكن أوغسطين دافع عن رأيه بشدّة. وكان يعرف من التجربة كم يكون الكبرياء والاشتهاء لا مناص منهما في حياة تمضي بعيداً عن الله، وكيف تأتي نعمة الله فجأة ودون قدرة على مقاومتها.

ووفقاً لأوغسطين، فإن الكنيسة هي المؤسّسة المعيَّنة إلهياً لتأدية المناسك المقدسة التي هي وسيلة النعمة، ولا توجد إلا كنيسة واحدة، ولا أحد خارجها يمكن أن ينجو سواء أكان وثنياً أو هرطوقياً. وأوغسطين في معارضته لأعضاء جماعة تطهرية في شمال أفريقيا يُطلقَ عليهم «الدوناتسيين»، الذين أكّدوا أن المناسك المقدسّة التي يؤدّيها القساوسة التافهون عديمة الجدوى، تمسّك بأن المناسك المقدسة من شرع الله لا البشر. ولذلك فهي تبلّغ النعمة بقطع النظر عن الصفة التافهة لأي إنسان يؤدّيها.

وعبّر أوغسطين عن فلسفته في التاريخ في رسالته «مدينة الله». وعندما كتبها، كانتْ روما «سيدة العالم» قد استباحها الفاتحون البرابرة، وكان الكتّاب الوثنيون في ذلك الزمان يندبون بصوت مرتفع ما تصوّروا أنه حقيقة واقعة، وهي أن المدينة قد انهارت وسقطت لأن الأرباب الكبار القدامى الذين خلعوا العظمة عليها قد تخلّوا عنها لإله المسيحيين الذي يُضعف الأرباب. وقام أوغسطين في دفاعه عن المسيحية إزاء هذه التهمة، بمعارضة المدينة الأرضية التي وصلت إلى أوضح أشكالها في بابل وروما، بمدينة الله، التي ينتسب إليها من اصطفاهم الله من كل جيل. وفي يومه قال، ليس كل من كانوا في الكنيسة المرئية أعضاء في مدينة الله غير المرئية. وأولئك الذين لم يُصطفوا للمدينة الأرضية، يجب أن ينهاروا ويمضوا. ولكن «مدينة الله» سوف تبقى حتى موت «الحضارة» ووراثة الأرض نهائياً. هكذا كان أوغسطين يكتب حتى عندما طرق البرابرة أبواب مدنه في أفريقيا.

ولا يمكن القول إن كنيسة الروم الكاثوليك قد تبنّت كل اللاهوت الأوغسطيني. فقد تخلّلتها تأثيرات أخرى. ولكن الإصلاح البروتستانتيّ كان عودة إلى أوغسطين بمقدار ما كان عودة إلى بولس ويسوع.

انقسام الكنيسة إلى شرقية وغربية:

لم تكن الإمبراطورية الرومانية توهن قوتها الغزوات الآتية من الشمال وحسب، فقد ظهر في القرن السابع غزاة آخرون في الجنوب الشرقي طغوا على فلسطين، وسورية، وآسيا الصغرى، وشمال أفريقيا، وأسبانيا. وصدّهم دفاع القسطنطينية الشديد أمداً من الزمان في الشرق، وردّهم زعيم فرنكي اسمه شارل مارتل في فرنسا. ولولا ذلك لربما كان من شأن المسلمين أن يستولوا على أوروبا.

وكان تأثير الفتوحات الإسلامية فيما بقي من الإمبراطورية الرومانية هو انقسامها على نحو أفدح من قبل. وتسبّب الإمبراطور ليو الثالث في القسطنطينية في استياء البابا غريغوريوس الثاني بجهوده الرامية إلى الفوز بالإصلاح لمواجهة الخطر الإسلامي الجسيم المتدفّق. وقام الإمبراطور في نفوره من الانتقادات الآتية من الجهات العربية (والمسيحية) فيما يتعلّق بالإجلال «الوثني» للتصاوير

والرسوم في الكنائس المسيحية، سنة 726، بحظر استخدامها بعدئذٍ – وهكذا أوجد الحركة الأولى المحطمة للأيقونات في التاريخ المسيحي. وحدثت معارضة فورية في الغرب والشرق. وفي الشرق استخدم ليو جيشه ليفرض مرسومه. ولكن روما كانت من البعد على درجة كافية لإنجاز العصيان. والأكثر من ذلك، هو أن البابا دعا إلى مجمع كنسي وحصل على تشريع يحرم من الكنيسة من يعارضون استخدام الصور، أي الإمبراطور والذين ناصروه. وعندئذٍ انتقم الإمبراطور بانتزاع صقلية وجنوب شرقي إيطاليا من سلطة البابا الروحية. وهذا ما ترك البابا في وضع غير مأمون، لأن شمال إيطاليا قد احتلّه اللمبرديون، وقد عقدوا النية على فتح روما. ولذا استنجد البابا بشارل مارتل، الذي كان بأسه في محاربة المسلمين يجعل عونه يستحق النشدان. وكان من قدر غريغوريوس وشارل على السواء أن يموتا قبل أن يغدو ذلك العون وشيكاً. إلا أن ابن شارل، وهو «بيبان القصير»، غزا إيطاليا، وأجبر الملك اللمبردي على الإذعان، فأهدى للبابا إقليم رافنّا. وهكذا سبّب من دون أن يدري أن يرسّخ البابا توجّه البابوية نحو البلدان التي تقع عبر جبال الألب لا نحو الشرق، واضعاً أسس إمبراطورية، غريبة، هائلة، غير مستقرة.

وكسب البابا الكثير فلم يقتصر آنذاك على أن يكون أكبر مالك للأرض في إيطاليا، مع دخل سنوي يزيد على مليون دولار، بل ذا سلطة زمنية كذلك، إذ كان حاكم «دول الكنيسة»، كما صاروا يدعونها، وكانت هذه الدول شديدة الأهمية بالنسبة إليه[1]. وكسب ابن بيبان، واسمه شارلمان، الكثير أيضاً. وقد شاد إمبراطورية كادت تشمل كل دول أوروبا الغربية ـ وهي بالمصطلحات الحديثة، فرنسا، واسبانيا الشمالية الشرقية، وبلجيكا، وهولندا، ومعظم ألمانيا، والنمسا، هنغاريا، وإيطاليا الشمالية. ولإخلاص شارلمان للكنيسة، جاء إلى

---

(1) من 740 إلى 1870 كان البابوات يسيطرون سيطرة متينة على دول كنيستهم، وأُهينوا عندما جرّدهم منها الملك فكتور إمانويل. وفي العام 1929 أعاد موسوليني سلطة البابا الزمنية على الفاتيكان والأراضي التي تحيط بها مباشرة.

روما وفي عيد الميلاد سنة 800 توّجه ليو الثالث باعتباره الإمبراطور الروماني المقدس. وأبْرزَ هذا الحدث أن الغرب والشرق كانا في مفترق الطرق، وهذه حقيقة وافق عليها الإمبراطور ليو الخامس بعد عدة سنوات في القسطنطينية عندما اعترف رسمياً بلقب شارلمان، فأقرّ بذلك أن الإمبراطورية قد انقسمت إلى إمبراطوريتين.

وفي أثناء ذلك، كان يتهيأ انشقاق عقائدي خطير بين الشرق والغرب. وكنا قد رأينا أن أوغسطين كان يرى أن الروح القدس ينبعث من الأب «و» الابن. وفي سنة 589، انعقد مجمع غربي في أسبانيا، وأضاف إلى شهادة الإيمان كلمة filioque (ومن الابن) مباشرة بعد الكلمات التي تقول إن الروح القدس ينبعث من الأب. واعترض اللاهوتيون الشرقيون على التبديل بقوة، معتقدين أنها تعني إنكار أن الله هو مصدر كل الأشياء. وأصرّ الغرب على كلمة filioque. واستمر تصارع الآراء عدة قرون. وأخيراً، قام مجمع كنسي سنة 876 في القسطنطينية باستنكار البابا سواء لنشاطاته السياسية أو لعدم تصحيحه بدعة العبارة filioque. وكان هذا العمل جزءاً من رفض الشرق الكلي لمطالبة البابا بالسلطة الشاملة على الكنيسة. وحدثت قطيعة مريرة سنة 1054، عندما أدّى انقسام ديني طويل وبطيء الاحتراق بالسفير البابوي، ومن دون تفويض، إلى حرمان بطرك القسطنطينية من الكنيسة وبالبطرك إلى قذف اللعنات عليه بالمقابل. ومنذ ذلك الحين سار فرعا الكنيسة الكاثوليكية في طريقيهما منفصلين.

وعلى أي حال، كما أن الأفراد قد أحدثوا القطيعة النهائية، فإن بتّها ظلّ مشكوكاً فيه مدة من الزمن، ولكن بعد «الجمعة العظيمة» سنة 1204، عندما كان الصليبيون القادمون من شمال غربي أوروبا، في طريقهم لتسلم القدس من المسلمين، فإنهم استباحوا القسطنطينية ونهبوها بصورة لا تُغتفر، فصارت القطيعة نهائية وتامة.

د- الكنائس الأرثوذكسية الشرقية

مع أن بطرك القسطنطينية لم يطالب إلا في وقت متأخر بالسيادة الروحية على الهيئات المتعدّدة للكنيسة الأرثوذكسية الشرقية، فإنها كانت فعلياً في حالة استقلال بعضها عن بعض، ومنقسمة والحالة هذه إلى وحدات تنسجم إلى هذا الحد أو ذلك مع الدول الوطنية التي وُجدت فيها. ومع ذلك لم تنحرف أي وحدة منها إلى أي درجة كبيرة عن الموروث الأرثوذكسي المقبول في الشرق. وبالنظر إلى أن المناطق المطرانية القديمة في الإسكندرية، والقدس، وأنطاكية قد سقطت باكراً في أيدي المسلمين، فإن التطور اللاهوتي في تلك المناطق قد توقف فعلاً بعد القرن الثامن. وتوقّف في غيرها من المناطق أيضاً. وكانت التغيّرات الحقيقية الوحيدة هي القُدّاس والممارسة الدينية. وهنا كان يسيطر على الزعامة بطرك القسطنطينية أمداً طويلاً، وعندما سقطت القسطنطينية بيد الأتراك سنة 1453، انتقلت إلى الكنائس الأرثوذكسية السلافية، ولا سيما إلى كبراها جميعاً، وهي الكنيسة الأرثوذكسية الروسية، التي قال بطركها ذات مرة: كما كانت القسطنطينية روما الثانية، ولذا يجب أن تكون موسكو هي الثالثة.

ولم تتصدّع وحدة الكنائس الأرثوذكسية حقاً. ومع ذلك، ونتيجة للتغيرات العالمية والمنازعات، فإن العديد من الكنائس القومية كانت تشكو أحياناً من الخلافات العنيفة المتعلّقة بمنطقة النفوذ بحيث حدث أكثر من مرة أن حَرَم فرع من الكنيسة فرعاً آخر، وتعلّمت الفروع كلها أن تلجأ أخيراً إلى مبدأ خدمة المصلحة الخاصة، الذي يُدعى «الاقتصاد»، والذي جرى به التسامح مع تصرفات زعماء الكنيسة المحرومة من الكنيسة أولاً ثم إقرارها، على أسس المحافظة على عمل الكنائس من دون خسارة في القوة أو السلطة. ومن حيث الأساس، يعتمد رد الفعل على الانحرافات العرضية على الشعور ب «كلية» الكنيسة أو عدم انقسامها (وهذا هو التفسير الأرثوذكسي للكاثوليكية)، وهو ما يحافظ على وحدتها حتى في التنوعات التي تنشأ عن ممارسة الحرية.

الوضع العقائدي العام:

على الرغم من اختلافات الإدارة، ظلت الفروع المختلفة للكنيسة الشرقية الأرثوذكسية متحدة إلى هذا الحد أو ذلك في أمور العقيدة. وشهادات الإيمان القديمة مقبولة بوصفها تحديدات معصومة عن الخطأ للتعليم الرسولي القويم. وكانت توجد إفتراقات محلية في قضايا الإيمان والممارسة، ولكن الكنائس لم تحول عموماً عن الوضع العقَدي الذي وصل إليه آخر آبائها القدامى المعترف بهم، وهو يوحنا الدمشقي، الذي بذل بعد قرن واحد من استيلاء المسلمين على سورية جهداً أخيراً على أساس شهادات الإيمان المكتملة وكتابات الآباء الماضين لتنظيم العقدية الشرقية.

وكان الموقف الذي اتّخذه يوحنا الدمشقي يميّز الموقف العام للكنائس الأرثوذكسية إلى حد كبير ـ وهو تشديد صوفي على التجسد المانح للحياة، لله في المسيح، والذي وصل إلى الزمن الحالي من خلال المناسك المقدسة السبعة والطقوس الأخرى وممارسات العبادة في الكنائس. وكان الاهتمام الغربي بالجوانب العملية، والشرعية للعلاقة بين الله والإنسان ليس له حيّز كبير في اهتمام يوحنا الدمشقي، بل حتى في اهتمام الكنيسة الشرقية قبله أو بعده.

وكانت توجد بعض الجوانب المثيرة للاهتمام في هذا الوضع. فيوحنا الدمشقي ظهر في زمن كان النمط البيزنطي من هندسة العمارة الكنسية قد تطوّر كثيراً. وصارت العلامة الخارجية الأساسية للكنائس الشرقية قبّة قائمة على بناء مستطيل أو ثماني الأضلاع، تدعمه أنصاف قباب ودعامات. وفي الداخل، كان صحن الكنيسة يفضي إلى محراب يوجد داخله المذبح وفي خلفه نصف دائرة من المقاعد للمطارنة والكهنة. وكان المنبر يقف خارج المحراب، وأقرب إلى جماعة المصلين. وكانت الأرض والجدران والأسقف والستائر مزدانة بثراء بالصور والفسيفساء، وتمثّل بالطريقة الشكلية للفن الرمزي والتعبّدي الثالوث المقدس، ومريم العذراء والمسيح، والرسل،

والكثير من القديسين والشهداء . والأيقونات ذات الصور الظاهرة في النقش المنخفض قبالة لوحة ذات تزيينات (المسيح على الصليب ومريم بوصفها أم الإله)، ملوّنة بالأحمر والذهبي والأزرق، وهذه الأيقونات مع الأعمال الفسيفسائية متعددة الألوان والتي لها الموضوعات ذاتها، قد بجلها العابدون، بتوجيه الصلوات نحوها ومنحها حتى القبل والمسح بالأيدي. وفي الوقت المناسب كانت تُعزى إليها قدرات إعجازية وتصبح موضوعات لحج خاص. وعندما تحرك الإمبراطور ليو الثالث من أجل الكف عن مثل هذا التبجيل، وتلت ذلك الضجة التي وصفناها في الشرق والغرب، هبّ يوحنا الدمشقي للدفاع عن الصور. وأعلن أن مسألة الأيقونات «هي مسألة للمجامع الكنسيّة وليست للأباطرة».

واستمر في إدلاء حججه بأن المجامع الكنسيّة من شأنها أن ترى في الصور تجسيداً لله في المسيح. ومرة أخرى، فقد كانت الأيقونات شبيهة بالمناسك المقدسة، في أنها تنقل النعمة الإلهية إلى المؤمن. ومع ذلك فمن جديد، إنها شبيهة بالكتب، لأن «ما يمثّله الكتاب للمتعلّم تمثّله الصورة لغير المتعلّم». وبالفعل، فقد ذهب الأب المبجّل إلى حد أن يضع كل الشعائر، وشهادات الإيمان، وسنن الكنيسة في الوضع ذاته: فكلها على السواء تنقل على الخصوص الحياة والنعمة الإلهية إلى المؤمن.

وكان على وفاق مع هذا التفكير أنه في سنة 787 أعلن المجمع العام السابع ـ وهو المجمع الأخير الذي توافقت فيه الكنائس اليونانية والرومانية ـ أن التصاوير والرسوم، والصليب، والأناجيل «يجب منحها التحية المناسبة والتبجيل المجيد، و(لو) لم تكن بالفعل العبادة الحقيقية التي تتعلق بالطبيعة الإلهية.. لأن التكريم الذي يقدّم إلى الصورة ينتقل إلى من يمثّلها، ومن يُظهر التبجيل للصورة يُظهر التبجيل للموضوع المتمثّل فيها». (إلى هذا الحد يمكن أن يتّفق الشرق والغرب).

الاختلافات بين الكنيستين الشرقية والرومانية:

ولكن حتى في الموقف من التصاوير اختلفت الكنيسة الشرقية والكنيسة الرومانية. فالأيقونات في الشرق ليست مؤنسنة، ويظل الأشخاص رموزاً، تمثيلات مبسطة للمعاني «الماهوية». وهي في حد ذاتها تقدَّم في شكل نحت بارز نمطي لا في شكل نحت كامل حر من جميع جوانبه كما في الكنيسة الرومانية، وبتعبير آخر، فالشرق يرى أن الأيقونات تدلّ على الطبيعة والروح الإلهية، في حين أن الكنيسة الرومانية على العموم تستخدم التصاوير لتجعل «العذراء» والقديسين ضمن المجال الإنساني. ومن ثم يختلف الموقف من أم يسوع اختلافاً أساسياً في الكنيستين:

فالكنيسة الرومانية تبجّل «العذراء المباركة» بوصفها عذراء تحب ولدها وحانية وعطوفة على المبتهلين إليها، والكنائس الشرقية تبعدها بوصفها أم الله المقدسة، الكائنة العَلِيّة التي يلتقي فيها الإنساني والإلهي في التجسّد.

وهذه الاختلافات لا يعدّها ممثّلو الكنائس الشرقية متناقضة بل متكاملة. وكما يعبّر أحدهم عن ذلك: «إن العقل الغربي، بما أنه أكثر تحليلية، يقارب الروح والمادة بوصفهما كيانين متميزين بل حتى متعارضين، في حين تتصور الأرثوذكسية أن المادة والروح تجليان متساندان للحقيقة العليا ذاتها. وليس هذان الموقفان متناقضين بل يتمم بعضهما بعضاً، ومع ذلك فهما يلوّنان كلٌّ منهما على طريقته كل جانب للحياة الكنسيّة، ومن حيث النتيجة، فإن المصطلحين يفهمها الشرق والغرب المسيحيان فهماً مختلفاً.. والمثال على ذلك هو كلمة «الكاثوليكي» التي اكتسب في الغرب معنى الشمولي بمعنى الامتداد الجغرافي للكنيسة في أنحاء العالم.. وفي الشرق تعني كلمة «الكاثوليكي» «المتكامل» أو «الكلي»، وتدل الكلمة على الصفة الداخلية للكنيسة الحقيقية بوصفها متعارضة مع البدع أو الطوائف... والاختلاف ذاته في التفسير ينطبق على كلمة «الأرثوذكسي». ففي الغرب تمثّل هذه الكلمة «العقيدة الصحيحة» أما في الشرق فتفهم على أنها «السبيل الحق». فبالنسبة إلى العقل الشرقي يرتبط التعليم

بالعبادة، ويرى أن المسيحيين الذين يعبدون الله ويصلّون له بروح المحبة والاتّصال هم وحدهم الذين لديهم حق العبور إلى المعتقد الأرثوذكسي ويجهرون به بالأسلوب الصحيح.

ووجوه الاختلاف الأخرى التي لا تزال مستمرة إلى الآن يمكن ذكرها باختصار. إن للشرق مناسك مقدّسة تختلف عن مناسك الكنيسة الرومانية الكاثوليكية في بعض النواحي: المعمودية في الطفولة بالتغطيس الثلاثي، والمسح بالميرون (المسح بعد المعمودية بزيت يكرسه مطران)، والقربان المقدس أو منسك العشاء المقدس في كلا نوعيه (الخبز والخمر)، والاعتراف الذي لا يتم إلا بعد التصالح مع مهضومي الحقوق والمبعدين، وعند عقد الزواج يضع العريس والعروس أكاليل المجد، والمسح الكامل لا يجري على سرير الموت كما هي الحال في الغرب بل في المرض الخطير للتشجيع على الشفاء. ويُعتقد في القربان المقدس أن الخبز والخمر يصبحان جسد المسيح ودمه، ليس بوساطة التحوّل الجوهري[1]، كما هو الأمر في الاعتقاد الروماني الكاثوليكي، بل بتحول وناجم عمل الروح القدس.

وقد تطوّر طقس القربان المقدس إلى عمل تفصيلي من أعمال الفن التعبّدي، تثريه ترانيم جوقة تقوم بالإنشاد بالتبادّل، وينشدها بأصوات مختلفة، من دون مصاحبة الآلات، كهنةٌ يرتدون أثواباً بديعة. والخطب الترنّمية الطويلة التي هي على مستوى عال من الشعر التعبدي والرونق تسبق وتلي الفعل المحوري لرفع الخبز والخمر المقدسّين أما المذبح. ويرسم الكاهن علامة الصليب بالشموع، التي تكون شمعتان منها في يده اليمنى، يتلاقى طرفاها المشتعلان، ويرمزان إلى اتحاد الطبيعتين الإلهية والبشرية في المسيح، وثلاث شموع في اليد اليسرى، متّحدة بطريقة مماثلة، وترمز إلى ثالوث الآب والابن والروح القدس.

---

(1) الاعتقاد بأنه في أثناء الاحتفال بالقُدّاس يتحول جوهر الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه الفعليين أو الحقيقيين.

ويمكن توسيع قائمة الاختلافات. ويجب أن يكون كافياً ذكر مجرد اختلاف أو اختلافين أكثر من ذلك. إن الشرق بالإضافة إلى رفضه إضافة كلمة FILIOQUE إلى الشهادة النيقيّة، فإنه يرفض الاعتقاد ب«المطهر» الذي جرى تعليمه في الغرب الروماني. والكنائس الأرثوذكسية لا تتطلّب عزوبة كل رجال الكهنوت، وتسمح بزواج مَنْ يقنعون بأن يظلّوا من أدنى رجاله. ولا ريب أن الكنائس الشرقية تتبرأ جازمة من الاعتقاد «بأن أسقف روما الإنسان، يمكن أن يكون رأس جسد المسيح، أي رأي الكنيسة الكلية»، وتراه اعتقاداً مغلوطاً فيه. وبما يساوي ذلك من الجزم فإنها ترفض «الاعتقاد المغلوط فيه بأن الرسل المقدّسين لم يتلقّوا من ربّنا قدرة روحية مساوية، بل كان الرسول المقدس بطرس أميرهم: وأن أسقف روما وحده هو خليفته، وأن أساقفة القدس والاسكندرية وأنطاكية وسواها ليسوا متساويين مع أساقفة روما، خلفاء الرسل». وهم يزعمون أن بابا روما لا يمكن أن يكون معصوماً عن الخطأ في أمور العقيدة، والأخلاق، لأن عدة بابوات حكمت عليهم المجالس الكنسيّة بأنهم هراطقة، ويقولون: من المؤكد أن البابا لا يمكن أن يدعي أنه يفوق المجامع الكنسيّة.

الوضع الحالي:

إن الكنائس الأرثوذكسية خارج الستار الحديدي قد تعافت إلى حد كبير من الهزائم التي تلقتها في إبان الحرب العالمية الثانية. ومنذ اعترافها بالمجلس العالمي للكنائس شاركت في نشاطاته بوضوح كبير في الحيوية. وشاركت كل الكنائس الأرثوذكسية، وفي جملتها الكنيسة الروسية، في «الاجتماع العام الرابع» للمجمع المسكوني، الذي انعقد في أوبسالا، في السويد، سنة 1968.

وقد كابدت الكنائس الأرثوذكسية في روسيا والبلدان التابعة لها أزماناً صعبة وخطيرة. وكانت الكنيسة القومية القديمة في روسيا متماثلة بوضوح مع النظام القيصري الذي كانت ثورة 1917 أكبر كارثة له. ولكن وضع خليفتها التي نُزِع الاعتراف بها، وهي الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا، يبدو أنه يتحسّن بمرور الزمن بعض الشيء. وبقي عملها في المجتمع مقيداً، فلا يمكن لها أن تنخرط إلا

في النشاط الديني. وهي يمكن أن تحتفظ ببعض الأبنية، وأن تربّي الكهنة وتستخدمهم، وتُجري الصلوات الدينية، ولكن التعليم الديني الرسمي لليافعين ممنوع. وعلى أي حال، مع أن الحكومة الروسية قد منعت الكنيسة الروسية من الانضمام إلى «مجلس الكنائس العالمي» حيناً من الزمان، غيرت موقفها سنة 1961. ففي تشرين الثاني من ذلك العام أرسلت الكنيسة الروسية ليس وحدها، بل كذلك الكنائس البلغارية والرومانية والبولونية مندوبين عنها إلى ملتقى «المجلس العالمي» في نيودلهي في الهند، ودخلت في عضويته، وقد أورد بطرك موسكو، في رسالة تلتمس هذه العضوية، أن الكنيسة الروسية لديها في ذلك الحين ثلاثون ألفاً من القساوسة، وعشرون ألف أبرشية، وثلاث وسبعون مطرانية، وثمان مدارس لاهوتية، وأربعون ديراً. ومن الواضح أنه ما دامت لا توجد «فتنة» أو «نشاطات معادية للثورة» ضمن الكنيسة يُسمح لها بالرعاية الدينية لأتباعها الذين يُقدَّر عددهم بأربعين مليون نسمة، ومهما يكن، هناك مراقبة شديدة مستمرة ورغبة واضحة من جانب الحكومة في أن تتلاشى الكنيسة.

وتوخّت الكنائس الأرثوذكسية الشرقية، بوصفها أعضاء في «مجلس الكنائس العالمي»، وبتشجيع من بطرك القسطنطينية السابق «أثنوغوراس»، أوثق الروابط المسكونية مع الكنيستين البروتستانتية والروم الكاثوليك على حد سواء. ودرس المؤتمر الكنسي الثالث لعموم الأرثوذكس الذي انعقد في رودس سنة /1964/ المناقشات المقترحة مع كنيسة الروم الكاثوليك حول إعادة الاتحاد ولكنه أجّلها حتى تتم «التحضيرات الوافية»، وتُحوَّل مؤتمرات اللجان بترتيب مثل هذا الاتحاد. وفي غضون ذلك التقى أثنوغوراس مع البابا بولس في القدس سنة 1964 ومرة أخرى في استانبول وروما سنة 1967، للقيام بالخطوات الأولى في تحقيق أوثق العلاقات، وفي العام 1965 فإن الحرمانات المتبادلة من الكنيسة التي نُطق بها سنة 1954 قد أُبطلت في وقت واحد في روما والقسطنطينية. ومنذ ذلك الحين تتالت الملتقيات لا بين زعماء الأرثوذكس والروم الكاثوليك وحسب، بل كذلك، وعلى أعلى مستوى، بين هؤلاء الزعماء والزعماء البروتستانت.

وفي الأمـريكيتين، فـإن رئـيس الأسـاقفة يـاكوفوس، ومقـر رئاسـته في نيويورك، هو رئيس أساقفة الكنيسة الأرثوذكسية اليونانيـة في أمريكـا الـشمالية والجنوبية. ولكن توجد كذلك (ثماني عـشرة) منطقـة سـلطة أرثوذكسية شـرقية أخـرى في الأمـريكيتين، ومـن ضـمنها (بالإضـافة إلى اليونانيـة) الروسـية، والبلغارية، والرومانية، والصربية، والسريانية، والأوكرانية، والألبانية.

وكان الحدث غير العادي هو القداس لروح الميت الذي أجـراه سـنة 1967 رئيس الأساقفة ياكوفوس أمام نعش فرنسيس كاردنل سيلمن في كاتدرائية ساينت باتريك، في نيويـورك. وفي 1969 قـام كـذلك بـالوعظ هنـاك لمـصلحة وحـدة مسيحية على نطاق العالم.

هـ - كنيسة الروم الكاثوليك
في العصور الوسطى

الفترة الكبيرة للبابوية:

دخلت كنيسة الروم الكاثوليك العصور الوسطى مع رئيس كان صاحب سلطة زمنية مساوياً تماماً في الوضع السياسي والمالي لبعض ملوك الغرب الدنيويين. وليس ذلك فقط لأن «هبة أو وديعة قسطنطين»، كما كانت تسمى، توحي بأنه كان مقدّراً للبابا أن يكون الحاكم الكهنوتي للغرب بأسره[1]. وسواء أكان البابوات يرغبون في هذا الوضع أم لا، فلم يكن يبدو أن هناك عقبة مستعصية على بلوغهم ذلك إن أرادوه.

وكان ملوك الغرب وزعماء راغبين من ناحيتهم في أن يُقروّا بالسيادة الروحية لحَبْر روما، ولكنهم كانوا بالقدر ذاته متيقّنين أنه ينبغي ألا يُقحم نفسه في شؤونهم الدنيوية الخالصة.

ومن ثم نشأت منازعات ممضَّة بين البابوات والسلطات الدنيوية. وبما أن رجال الدين كانوا يُرفَعون إلى المنصب العالي بناء على التوصية أو بتعيينهم من قبل الملوك والأمراء فإنهم كثيراً ما كانوا متساهلين وأصحاب أذهان دنيوية. وقد بلغ الأمر ببعضهم أن اشتروا تعيينهم ودفعوا ثمنه - وهي ممارسة كانت تدعى السيمونية simony؛ وكانوا ميالين إلى اعتبار أن مناصبهم بمثابة امتياز شخصي يتصرفون به كما يشاؤون، وكلما كانوا من روما زادت هذه الحالة. وفي المناطق الشمالية، ولا سيما في ألمانيا، كان يصل الأمر يصل بالأساقفة إلى حد أن يتزوجوا وأن يُورّثوا

---

(1) كانت الطموحات الإقليمية للبابا يقويّها التزوير غير العادي الذي كان منتشراً في هذا الزمن وحظي بقبول واسع بوصفه معروفاً معرفة صادقة بأنه «هبة قسطنطين»، وكان هذا التزوير يمثّل أن قسطنطين يمنح البابوات لا السيادة الروحية على الكنيسة الكلية وحسب بل كذلك السيطرة الزمنية على روما، وإيطاليا، و«أقاليم المناطق الغربية وأماكنها ومدنها». ولم يتكلّل تكذيب هذا التزوير بالنجاح حتى منتصف القرن الخامس عشر.

أسقفيّتهم لأبنائهم، في استهانة تامة للقاعدة التي وضعها البابا ليو الأول بأن يكون كل رجال الكهنوت، حتى الشمامسة، عزّاباً. كذلك وفي مرات كثيرة كان الأساقفة الشماليون مسايرين للطلاق السهل بين الملوك والأمراء ويجوّزونه عندما يتبيّن أن الزواج السياسي لم يكن مُرْضياً. وفي اتجاه آخر، كانت المنازعات تنشأ بين القانون الكنسي (قانون الكنيسة المستمدّ من مراسيم المجالس، والمجامع الكنسية، والبابوات) والقانون المدني لشتّى الدول، وعندما تكون الدولة قوية كثيراً ما كان القانون الكنسي يُنتهك في إدارة الأبرشيات والأديرة.

وعلى هذا لم يكن بالإمكان تجنّب الخصام بين البابا والإمبراطور لمدة طويلة. ولم يكن اندلاعه ينتظر إلا ظهور شخصيتين قويتين بصورة كافية للشروع فيه. وقد حدث هذا عندما أصبح «هيلدبراند» البابا سنة 1073، تحت اسم غريغوريوس السابع. ولم يبدّد الوقت. فإن إمبراطوراً جديداً، هو هنري الرابع، قد اعتلى عرش ألمانيا. فأمر البابا هنري بالامتثال للمرسوم بأن يتسلّم الأساقفة صوالِجَة منصبهم من البابا لا من الإمبراطور، وهاجم أساقفة ألمانيا المتزوجين ليتخلّوا عن زوجاتهم. ولكن تبيّن أن هنري الرابع كان خصماً هائلاً. وعلى سبيل التحدّي عيّن رجل كهنوت من اختياره في أُسقفيّة ميلانو، التي كانت تحت سيطرته. فوبخه هيلدبراند بقسوة. ولكن هنري عقد مجلساً مع أشرافه وأساقفته وتقدّمهم في رفض سلطة هيلدبراند بوصفه البابا. وردّ هيلدبراند على ذلك بمرسوم نزل على هنري نزول الصاعقة، يحرمه فيها من الكنيسة ويُحِلّ رعاياه في ألمانيا وإيطاليا من إيمان الولاء له. ومع أن هنري أرسل له رسالة عنيفة يخاطبه فيها: «الآن أنت راهب زائف، ولست البابا»، ويقول له إن عليه أن «ينزل ليكون ملعوناً في كل الأبدية»، فقد كان مجرد مجعجع. وقد ضُرب هنري في الواقع ضربة قاسية. إذ قال له النبلاء في بلده إنه إذا لم يتحرر من الحرمان الكنسي في سنة ويوم، فسوف يخلعونه عن العرش.

وبمشقّة كبيرة عَبَر هنري جبال الألب. كان ذلك في أوسط الشتاء. ولحق بالبابا إلى قصر في كاسوكا، ووقف في ثلج الساحة ثلاثة أيام، مرتدياً ثوباً أبيض، حافي القدمين، تائباً، في حين كان غريغوريوس يفكر فيما يجب أن

يفعله تجاهه. وأخيراً فإن البابا وقد ثأر لنفسه تماماً، سمح لهنري بمقابلة رسمية، واعتقه من حرمانه من الكنيسة.

وكان انتصار البابا الكبير ـ وهو من أكثر الانتصارات إثارة في التاريخ ـ انتصاراً قصير الأجل. فبعد ثلاث سنوات ارتكب الخطأ في حرمان هنري من الكنيسة مرة ثانية. وكان ردّ هنري هو الزحف إلى روما وطرد البابا منها وتنصيب منافس له حَبْراً أعظم. ولكن الخصام قد وصل إلى مرحلة غير قاطعة. إذ سرعان ما توفي غريغوريوس وهنري على حدّ سواء، ووصل خليفتاهما، هنري الخامس والبابا كاليكستوس، إلى حل وسط. وكان الأساقفة في كل مكان وفي كل الأحوال تختارهم الكنيسة وفقاً للقانون الكنسي، ومع ذلك كان الأساقفة الألمان يظهرون قبل تكريسهم أمام الإمبراطور لتمنحهم لمسةُ الصولجان الملكي السلطة مع الحيازة الزمنية على السُّدة الأسقفية. وبكلمات أخرى، كان ينبغي أن يكون كل الأساقفة الجدد مقبولين من الإمبراطور. ويضاف إلى ذلك، كان من المتفق عليه أن يكون كل الأساقفة عزّاباً. وبهذا فقد تحققت إصلاحات هيلدبراند إلى حد كبير.

وكان الأقوى من البابا هيلدبراند هو البابا إينوسنت الثالث (1193 - 1216) الذي جاء بعد مئة سنة. وتولّج العمل في منصبه عندما وصل الجاه البابوي إلى ذروة جديدة ناجمة إلى حد كبير عن تأديب سلفه الناجع لهنري الثاني ملك إنكلترا[1]. ومع أن إينوسنت لدى توليه المنصب كان مخولاً ببسط سلطته الروحية على كل حاكم زمني، ولكنه فاق كل نظرائه السابقين في إدعاء السلطة الأرضية أيضاً.

---

(1) إن هنري الثاني بدافع من الحرص على أمن مملكته التي هي جزيرة، قد تحدى حَبْر روما بسن قوانين تحدّد استخدام القانون الكنسي بالأحوال الكهنوتية وتضع انتخاب الأساقفة بين يدي الملك، وكان يطلب إليهم أن يقدّموا إليه واجب الولاء. وكان رئيس أساقفة كانتربري، توماس آ.بيكيت، وهو صديق قديم لهنري، قد عارضه بشدة في ظرفه الحرج، وتسبّب تعبير هنري عن غضبه في أن سار أربعة فرسان إلى كانتربري وقتلوا رئيس أساقفتها أمام مذبح الكاتدرائية تحديداً. وقام البابا، مغتنماً شعبية بيكيت، برسمه قديساً، وتدفّقت على أبواب الكاتدرائية سيول من الحجاج وأنهكوا الأرض الحجرية بجثوّهم على ركبهم أمام ضريح القديس الشهيد. وإذا أُفعم الملك بالجزع والندم، تراجع عن قوانينه المثيرة للحفيظة، وإعراباً عن توبته أخضع نفسه للضرب بالسوط أمام ضريح بيكيت!

وعندما كانت ألمانية ممزّقة بين المطالبين بالعرش والمتزاحمين عليه، قام بتتويج أحدهم، وهو أوتو الثالث، إمبراطوراً رومانياً مقدساً، بعد أن انتزع منه وعوداً كبيرة. وعندما نسي الإمبراطور وعوده، وضع البابا منافساً له في الميدان. وبمعونة ملك فرنسا نصّبه على العرش الإمبراطوري. وهكذا برهن على أنه يستطيع أن يولّي الملوك ويعزلهم. وشعر ملك فرنسا، كذلك، بيد البابا العليا. فحين قرر العاهل الفرنسي أن يتخلّص من ملكته غير المحبوبة، الأميرة السويدية إنغبورغ، طلّقها. وهنا وضع البابا فرنسا كلها تحت الحَجْر الكنسي (أي تحريم كل الطقوس الدينية). واستسلم الملك أمام الاحتجاج الشعبي أعاد ملكته. وفي أسبانيا تولى البابا في بادئ الأمر السيطرة على «أراغون» ثم أعاد تسليمها إلى ملكها بيتر، بوصفها إقطاعاً. وفرض وضعاً مشابهاً على الإنكليز المتمردين. وقد حاول الشقيق غير المحبوب لريتشارد قلب الأسد، الملك جون، أن يفرض مرشّحه لمنصب رئيس الأساقفة في كانتربري، فوضع البابا إنكلترا تحت الحَجْر الكَنَسي، وهدد بإطالة الحجر حتى يجري تعيين مرشحه، ستيفن لانغتن، في المنصب. وعندما قاومه الملك جون، حَرَمه البابا من الكنيسة، وأعلن أن عرشه شاغر، وجهز حملة عسكرية لتأديبه. واستسلم جون ولكن لم تتمّ إعادته إلى النعمة حتى اعترف بأن مملكته إقطاعية للبابوية يستحق البابا منها ألف مارك سنوياً على سبيل الضريبة الإقطاعية.

وفي داخل الكنيسة ذاتها صار إينوسنت الثالث الرئيس الذي لا ينازَع للميدان الكهنوتي بأسره. وكانت كل خلافات المراتب العليا من رجال الدين يؤمر بإحالتها إليه، وكانت قراراته نهائية. واحتفظ لنفسه بحق نقل الأساقفة بين أسقفيّاتهم. وأرغم «المجمع المسكوني الرابع المنعقد في قصر لاتيران» (سنة 1215) على قبول العقيدة القطعيّة القائلة بتحوّل خبز القربان وخمره إلى جسد المسيح ودمه، والقاعدة القائلة إن المقام الجيد للكاثوليكي مشروط بالاعتراف الدوري، والغفران، والمشاركة في العشاء الربّاني.

لقد وصلت البابوية إلى ذروتها طوال الوقت في القدرة الروحية والأرضية. وفي أثناء ذلك. وجّه العالم القروسطي، المتّحد تحت لواء الكنيسة، كما لم

يتّحد من قبل، طاقاته الإبداعية نحو هذه المكتسبات: الكاتدرائيات القروسطية، وتحسين القداسات، والمنظمات الرهبانية المنخرطة في العمل الاجتماعي صيغة قروسطية لأسلوب الأعمال)، والاسكولائية scholasticism (طريقة قروسطية في المعرفة)، والمغامرات العميقة في الصوفية (طريقة قروسطية في التقوى).

الكاتدرائيات القروسطية:

كانت الكاتدرائيات هي الكنائس الرئيسة في الأسقفيات، وقد استُمدّ اسمها من أنها كانت مقرّ عرش الأسقف أو مقعده Cathedra. وكانت عموماً في المدن الكبيرة. لأن جلال مقرّ الأسقف يستدعي جلالاً يساويه في المعبد، وكان الفن المعماري للكاتدرائية رائع المنظر عموماً، ولا سيما اعتباراً من القرن الثاني عشر ثم عبر القرون الثلاثة التالية.

كانت الكاتدرائية من ثلاثة أنماط رئيسة. هي النمط البيزنطي، والرومانيسكي، والقوطي، وهذا الترتيب ينسجم تقريباً مع التطوّر الزمني لها.

القُدّاس في الكاتدرائية:

حتماً كان السبب الأساسي لإقامة الكاتدرائيات، كسبب إقامة الكنائس الكاثوليكية الأخرى، هو الاحتفال بالقداس، ولكنها كانت كذلك مسرح التتويج، والتولية، والرِّسامة، ومراسم الدفن، والأعراس، والأحداث الأخرى في حياة الجماعة التي تحتاج إلى الإذن الرسمي الديني أو الكهنوتي. وكانت توجد في الغالب أُبّهة شديدة.

وتطور القداس عبر القرون إلى مناسبة متعدّدة الألوان، تتّسم بطقس ديني يثريه رمز وحركة تعبيرية يمكن أن يفهم الإنسان العادي دلالتهما ومعانيهما المتعدّدة من دون أن يفهم كل معاني اللغة اللاتينية التي كانت وسيطة المنطوق. وكانت أردية الذين يقومون بواجبات القداس ـ من قساوسة، وشماسين، وشمّاسين فرعيين، وموظفين كتابيين، وفي بعض الأحيان الكرادلة ورؤساء الأساقفة وسواهم ـ تجعل كل الاحتفالات والمواكب مناسبات ملوّنة ومثيرة.

وكان طقس القُدّاس يتباين من منطقة إلى منطقة، ولكن يظل فعل القُدّاس هو ذاته. ولإيضاح ذلك، دعونا ننظر في الوصف الجزئي التالي للقداس كما كان يُحتفل به في يورك مينستر، إحدى الكاتدرائيات الكبيرة في انكلترا، في العصر القروسطي المتأخر:

العناصر ـ الخمر في كأس العشار الربّاني وخبز القربان (وهو بسكويتة مصنوعة من القمح) وهما على صحن مطلي بالذهب أو الفضة أو صحن طعام ـ موضوعان على المذبح فوق أقمشة كتّانية. والقسّيس وخدمه يركعون عند المذبح وتحته. ويقول القسّيس باللاتينية، ويداه معقودتان:

لذلك لك يا أرحم الآباء، من خلال يسوع المسيح، ابنك، ربنا، نصلّي بذل ونتضرّع (وهنا ينهض القسيس عن ركبتيه، ويقّبل المذبح، ويرسم علامة الصليب على كأس العشاء الربّاني) أن تكون هذه الهبات مقبولة ومباركة، هذه التقدمات هذه الأضحيات الطاهرة المقدسة... التي نقدّمها قرباناً لك، ونتضرع إليك، أيها الله القدير، أن تتفضّل وتصيرها جميعها، مباركة، ومعدودة، ومحسوبة، ومعقولة، ومقبولة، وأن يُجعل فينا جسد أحب ابن لك، ربّنا يسوع المسيح، ودمه.

وهنا يحني القسّيس رأسه على الأقمشة الكتّانية متهيّئاً لرفع خبز القربان، ويتابع: إن الذي قبْل يوم آلامه (= المسيح) قد أخذ الخبز إلى يديه المقدّستين، (وهنا يرفع القسّيس عينيه ويتابع) وعيناه مرفوعتان إلى السماء نحوك، يا إلهي، وبارك (وهنا يلامس القسّيس خبز القربان أو يعلّيه، ممكّناً خبز القربان من أن يتحول إلى جسد المسيح) وقطّعه وأعطاه لتلامذته، قائلاً، خذوا وكلوا جميعاً من هذا، لأن هذا هو جسدي. وبطريقة مشابهة بعد العشاء، يأخذ أروع كأس إلى يديه المقدّستين والأكثر تشريفاً (وهنا، إذا اتّبع القسّيس الممارسة الأوروبية غير البريطانية، فإنه يرفع كأس العشاء الرباني وتحدث معجزة تحوّله إلى دم مرة ثانية) وكذلك يرفعه وهو يحمد، مقدّماً إياه إلى تلامذته قائلاً، خذوا واشربوا جميعاً من هذا، لأن هذا هو كأس دمي، كأس العهد الدائم والجديد،

سر الإيمان، الذي سيراق من أجلكم ومن أجل الكثيرين لمغفرة الخطايا. (وهنا يغطي القسّيس كأس العشاء الربّاني بالأقمشة الكتّانية لأنها قد تحوّلت إلى دم حقيقي للمسيح، الدم المقدس). وكما تقومون بهذه الأمور في كثير من الأحيان فستقومون بها في ذكراي.

وإذ يستمر القُدّاس يبسط القسّيس ذراعيه ليجعل من نفسه شبيهاً بالصليب، ويصلّي من أجل ذاته ومن أجل الآخرين. وفي أثناء الصلاة يرجع ذراعيه ويرسم علامة الصليب. وبعدئذٍ يكسر البسكويتة إلى ثلاث قطع ويضع قطعة منها في الدم ويقول: ليكن هذا المزيج من جسد ربّنا يسوع المسيح ودمه لنا ولكل من يتلقّاهما صحة في الذهن والجسد، وتهيئة صحية للإمساك بالحياة الأبدية، من خلال ربنا يسوع المسيح ذاته، أمين.

وعندئذٍ يقبّل القسّيس كأس العشاء الربّاني وكتّاناته، ويبارك الذين أمامه، ويصلّي من أجلهم، ثم يصلّي من أجل ذاته أن يكون مشاركاً في القربان المقدس عن جدارة. ويتناول القربان بنفسه أولاً. وعند تناوله الجسد، يقول: ليكن جسد ربنا يسوع المسيح وسيلة دائمة إلى الحياة الأبدية آمين.

وعند تناول الدم، يقول:

ليحفظني دم ربّنا يسوع المسيح وينقلني إلى الحياة الأبدية. آمين.

وعند تلقّي الجسد والدم ممتزجين، يقول:

ليحفظ جسد ربّنا يسوع المسيح ودمُه جسدي وروحي إلى الحياة الأبدية. آمين.

وفي الأحداث التي كانت تلي، كان الناس يشاركون في البسكويتة ولكنهم لا يشاركون في الخمر، لأنه كما تطوّرت عقيدة القدّاس عبر السنين إلى نظرية كاملة في تحوّل الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه، فإن الجمهور المدني، قد مُنع تدريجياً من المشاركة في دم المسيح، لا سيما في بريطانيا، ثم حرمت الكنيسة ذلك.

وفي كل أوروبا كان هناك مجال في معظم القُدّاسات لصلوات الشفاعة، وعموماً، لتلك الصلوات التي تُقدَّم من أجل الأحياء قبيل الكلمات التي يحوّل الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه، أما تلك التي تُقدَّم من أجل الموتى فقد جاءت بعدها، وأصبحت أساس «قُدّاسات الموتى» التي صارت ملمحاً بارزاً من نشاطات الكنيسة.

الاسكولائية:

منذ زمن شارلمان أولَت الكاتدرائيات والأديرة اهتمامها باطّراد بالمدارس التي أسّسها للصبيان والشبان. وبدأ بعض المعلمين، في متابعتهم الحقيقة من أجل الحقيقية، يُبدون اهتماماً بكل نوع من أنواع الموضوعات. ولم يكونوا يعلّمون ما جاء في كتب الأقدمين وحسب ت الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس، وشهادات الإيمان، ومجموعات القوانين الكنسيّة، وأفلاذ من أرسطو، وأفلاطون والرواقيين، وكتابات الأفلاطونية الجديدة، وأعمال القديس أوغسطين، وهلم جرا ـ بل أخذوا يؤلفون رسائل جديدة كانت متداولة بين مختلف الأديرة، ومثيرة للجدال، والخلاف، والنقاش الجدلي. وعندما ازدادت شهرة المعلمين الأفذاذ، جاءهم الطلاب من الأماكن القصيّة والقريبة، وخُلقت الظروف لتأسيس الجامعات التي أُنشئت أولاها في أواخر القرن الثاني عشر. وسرعان ما صارت في إيطاليا جامعة «بولونيا» Bologna شهيرة في القانون المدني والكنسي، و «جامعة سالرنو» Salerno شهيرة في الطب، واشتُهرت في اللاهوت جامعتا «باريس» (في فرنسا) و «أكسفورد» في إنكلترا.

وكانت الاسكولائية Scholasticism من بنات أفكار هذه المدارس القروسطية. ومن الطبيعي تماماً أن تجعل نفسها معنيّة بمنطق الإيمان. وبعد ظهورها المؤقّت في زمن شارلمان، صارت مع الزمن مسؤولية، وأكبر شأناً من الناحية الفلسفية. وقد طُبق منهجها الجدلي أخيراً على المشكلة اللاهوتية الكبيرة حقاً: كيف التوفيق بين العقل والوحي ـ وهذه مشكلة التوفيق بين العلم والدين، وفي اتجاه آخر، مشكلة التوفيق بين الفلسفة واللاهوت.

وقد وضع أوغسطين أساساً من أسس اللاسكولائية بقوله، «إن الإيمان يبحث عن دعم العقل» Fides quaerit intellectum، ومعناها أن العقل يسبر عقائد الكنيسة القطعيّة الموحى بها إلهياً ويؤيدها أو يجد أسباباً إضافية للاعتقاد بها. والأساس الآخر للاسكولائية قد أشار إليه «أنسلم» (1033 - 1109) في أحد أعماله Credo ut intelligam، «إنني أؤمن لكي يمكن لي أن أفهم»! فمن جهة، إذاً كان الاسكولائيون يستمرون في الإيمان فالوحي مقبول على أنه حقيقي، ثم ينجم عن ذلك فهمُ الله، والإنسان، والعالم. ومن جهة أخرى، فإن الإيمان يدعمه ويدافع عنه العقل، كما اقترح أوغسطين. وكان أنسلم في هذه الروح قد أنشأ حجته الأنطولوجية الشهيرة عن وجود الله[1].

وعندما صارت الاسكولائية مزدهرة بعد مئة سنة، كان أنصارها ملتزمين تقريباً بالإجراء التالي: يستمدّون نقطة انطلاقهم من العقائد المبسوطة بشكل غير منهجي في الكتب المقدسة وشهادات الإيمان، ويرفعونها إلى بنية عامة للحقيقة، ثم يمضون في ملء هذا الإطار بالتفصيلات المناسبة ـ أي الاستنباطات، والاستدلالات، والمعطيات المترابطة الضرورية للاهوت المنهجي المتطوّر تماماً ـ وخلال ذلك يختبرون مدى انسجام كل تفصيلة مع العقيدة الموحاة.

وقد انطلق الاسكولائيون الأوائل بآمال كبيرة، معتمدين بشدّة على آراء آباء الكنيسة والفلاسفة الوثنيين العظام. ولكنهم سرعان ما صادفوا عقبات خطيرة، لم يكن يبدو أن أي نقاش من شأنه أن يزيحها. ومنها، كما أشار أنسلم مشكلة الوضع الذي يُعزى إلى «الأفكار الثابتة» أو «المثل». فهل هذه المثل حقيقية (وهي وجهة نظر الواقعية القروسطية) أم مجرد أسماء (وهي وجهة نظر الاسمانية

---

(1) تسير الحجة هكذا: يفهم كل شخص من الاسم «الله» بأنه الذي لا يوجد أعظم منه. وبما أن غير الموجود لا يمكن أن يكون الأعظم. فالله موجود بالضرورة.

(mominalism)[1]؟ مسألة اعتمدت كثيراً على الجواب، خذ «الكنيسة»، مثلاً هل وُجدت الكنيسة كمفردة في عالم المثل قبل الكنائس العيانية وكانت مثالاً لها، أم أن «الكنيسة» اسم أُطلِق على مؤسسات مفردة مع تشابهات معيَّنة ملحوظة، ومُنح لها الاسم بعد وجودها؟ فإن كل الجواب على أساس الخيار الأول، فإن الكنيسة مؤسَّسة إلهية بالفعل، وإذا كان الجواب على أساس الخيار الثاني، فإنها مؤسَّسة بشرية أكثر بكثير مما تزعم.

وكانت الكنيسة تقف بنشاط خلف الواقعيين، ومع ذلك فقد بثّ الاسمانيون هذه الشكوك، وخلّفوا أمثال هذه المشكلات، وظفروا بالكثير جداً من الأتباع بحيث إن الجهد الذي بذله الاسكولائيون من أجل التوفيق بين الفلسفة واللاهوت قد باء في مآل بالإخفاق. وكان على اللاهوت الكاثوليكي في القرن الرابع عشر أن يترك الفلسفة تمشي في مسارها ووفق طريقة البحث الفكري الحر، الذي لا يقيّده تراث ولا سلطة.

وقد ساعدت استعادة الكتابات الأرسطية في أواخر القرن الثاني عشر على أن تفوز الفلسفة بهذا التحرر من اللاهوت فحتى القرن الثاني عشر لم يكن قد بقي من حُطام الحضارة الرومانية إلا أفلاذ من كتابات أرسطو، ولكن جاءت بعد ذلك من أسبانيا ترجمات عربية لأعماله دُرِّست في جامعة قرطبة. وقوبلت هذه الترجمات فيما بعد على النصوص اليونانية المستعادة. وفي أول مرة منذ سبعمئة سنة كانت أمام الغرب معالجة منهجية للعلوم الطبيعية. وكانت النتيجة النهائية لدراستها ظهور لاهوت جديد قدّمه توما الأكويني، أعظم الاسكولائيين. وقد تبيّن أن تأليفه بين الدين والفلسفة، اللذين وفّق بينهما من دون تكذيب أي منهما، هو أشد المنجزات الاسكولائية تأثيراً.

---

(1) للتعبير عن المسألة بطريقة أكثر تقنية نقول، هل المثل، كقولنا مثلاً الإنسان أو البيت، موجودة كما افترض أفلاطون، قبل طبيعة الأشياء المفردة التي تحمل أسماءها وبوصفها نموذجاً يحدّدها (الواقعية) أم أن هذه المثل مجرد دلالات (أسماء) تشير إلى التشابهات بين الأشياء، وليس لها وجود إلى في الفكر (الاسمانية)؟

توما الأكويني:

وُلد توما الأكويني سنة 1227 وكان من أبناء إيطاليا، وعضواً في أسرة نبيلة ذات أصل روماني جزئياً وألماني جزئياً كذلك. وصار راهباً دومينيكانياً، ولأنه كان مبشّراً بالنجاح فقد أُرسل إلى باريس وكولونيا ليدرس على ألبرتوس ماغنوس (= ألبيرت الكبير)، وهو راهب دومينيكاني آخر وأحد العقول الموسوعية في عصره. وبعدئذٍ قام بالتدريس في كولونيا أولاً، ثم في باريس، وأخيراً في إيطاليا، حيث كتب كتابيه الكبيرين ـ وهما الآن من الكتب اللاهوتية ذات القيمة الباقية والمرشدة لكنيسة الروم الكاثوليك ـ «مصنَّف ضد الأمميين» و«المصنَّف اللاهوتي».

وفي مسعاه للتوفيق بين العقل والوحي، والفلسفة واللاهوت، وأرسطو والمسيح، حاول أن يُظهر أن العقل الطبيعي والإيمان هما الشكل الأدنى والأعلى للفهم اللذان يتمم بعضهما بعضاً. والعقل الطبيعي أو الإنساني بذاته، أي العقل كما استخدمه أرسطو، يمكن أن يذهب بعيداً لا في استكشاف العالم الطبيعي وحسب بل كذلك في البرهان على وجود الله. فمن الممكن للعقل البشري أن يُثبت وجود الله بجهوده، مستخدماً على الأقل خمس حجج قوية: الحجة التي تنتقل من الحركة إلى المحرك الذي لا يتحرك، والحجة القائمة على ضرورة العلة الأولى الفعالة، والحجة التي تنطلق من الاحتمال إلى الضرورة، والحجة التي تفسّر التدرّج الموجود في الأشياء، والحجة اللاهوتية المستمدة من تأمّل التصميم في بنية العالم. وليس هذا هو كل ما يمكن أن يفعله العقل. إذ يمكن أن يكتشف طبيعة الله من دون معونة إلهية، أي يمكن بذاته أن يُثبت أن الله محض وجود حقيقي، واحد لا يتبدّل، كامل ولذلك خيِّر، وغير محدود، هو ما لا حد له من العقل والمعرفة والخير والحرية والقدرة. ولكن العقل عاجز عن إثبات ما هو أكثر من القضايا العامة. فلا يمكن أن يعرف فعل الله في التاريخ ما لم يتلقَّ إتماماً إلهياً لمعرفته. ولذا، يحتاج إلى أن يضيف إلى معرفته ما يمكن للإيمان وحده أن يقدمه، أي المعرفة بالطبيعة المأساوية لسقوط آدم، الذي يسببه

أصيب الجنس البشري بالخطيئة الأصلية وبحقائق «التجسّد» و«التكفير عن الذنب»، وعقيدة «الثالوث»، وحقيقة توفير النعمة بالمناسك المقدسة، وضمان انبعاث الجسد، ومعرفة الجحيم والمطهر والفردوس. وهكذا فالإيمان القائم على الوحي يعرف الأشياء التي هي «فوق العقل»، أي تتجاوز قدرة العقل على الإثبات من دون أن يستعين بغيره.

ومع ذلك يحتاج الإيمان إلى العقل كذلك. فيجب ألا يقبل الإيمان شيئاً مضاداً للعقل. ولا خطورة في هذا. ويظهر التفحص النزيه للوحي المسيحي أنه ليس في أي جزء منه نقيضاً للعقل، بل هو في كل أجزائه موافق للعقل.

وبما يُشبه ذلك من التفكير تمكّن توما الأكويني من التوفيق بين الفلسفة واللاهوت. فتبدأ الفلسفة بعالم التجربة الحسيّة وبممارسة التأمل العلمي (العقل) تصعد إلى الله. ويبدأ اللاهوت بالحقائق الموحى بها التي هي من الله وينزل إلى الإنسان والدنيا. وكلاهما متتامّان ويحتاج بعضهما إلى بعض.

ووحّد الأكويني أرسطو مع الوحي المسيحي في مذهبه في الإنسان. وكان يرى مع أرسطو أن الجسد والروح (المادة والشكل) ضروري كل منهما للآخر وظيفياً. فلا يمكن أن يعيش الجسد من دون الروح، مع أنها خالدة، لا يمكن أن تتطور ولا أن تحافظ على صفات الذات الفردية المميّزة من دون الجسد. ومن هنا تأتي أهمية توكيد الوحي المسيحي على انبعاث الجسد.

وأوضح الأكويني التصوّر الكاثوليكي للمناسك المقدسة بتمييز أرسطي مشابه للعنصرين الأدنى والأعلى. ففي كل منسك عنصران، عنصر مادي (ماء، خبز، خمر، زيت) وعنصر شكلي (الصيغ الخاصة بالطقس الديني). وهي تولّف معاً وحدة عضوية وتوفّر وسيلة للنعمة. والحاضر في أثناء تأدية كل منسك ديني هو العنصر البشري أو المنفعل والعنصر الإلهي أو المسبِّب. وعندما تكون الشروط موجودة على الوجه الصحيح، تنتقل النعمة فائقة الطبيعة من خلال المناسك المقدسة إلى المتلقّين البشريين بوصفها قدرة على تجديد الحياة. وفي كل حالة تحدث معجزة. ويكون الأمر كذلك في الاحتفال بالقداس بصورة

خاصة. ففي كلمات التكريس التي يقولها القسّيس، فإن الخبز الفطير والخمر يتحولان في شكلهما أو مذاقهما هما بالتحديد جسد المسيح ودمه. وهكذا فإن معجزة «التجسد» تتكرر في كل احتفال بالقداس.

ولكي لا نزيد على ذلك في خلاصتنا عن التركيب الأكويني، يمكن أن نرى كم هو تركيب أرثوذكسي ومع ذلك كم هو تركيب مرن. فالنظام الكلي دوغمائي من البداية إلى النهاية، ومع ذلك فللعلم مكانة في اكتشاف الحقيقة. واللاهوت هو في المقام الأعلى، ولكن تعطى كذلك للنزعة الإنسانية وللنزعة الطبيعانية أدوار لتؤديها.

الرهبنة القروسطية:

كان الإصلاح الرهباني في بداية انتشاره قبل الحرب الصليبية في الواقع، لقد خطط للحروب الصليبية البابوات الذي تربّوا على الإصلاحات التي ابتدأتها الحركة الكلونية (نسبة إلى مدينة كلوني Cluny الفرنسية) في القرن العاشر. ومما له أهمية أنه كانت تهيمن على المشهد الرهباني كله في أوروبا في إبان الحروب الصليبية المنظَّمة الرهبانية الإصلاحية القسترقية Cistorcian (نسبة إلى مدينة قسترقيوم) ـ الفرنسية والبندكتية، التي هي مثل الجماعة الكلونية ـ وكان أكبر شراحها، بوصفه منظّماً وواعظاً، هو القديس برنار دو كليرفير. ولكن أشهر التغييرات عن الورع الرهباني القروسطي كانت المنظمات الرهبانية الدومينيكانية والفرنسيسكانية.

وكانت المنظّمات الرهبانية الدومينيكانية في الأصل حركة تبشيرية، غايتها هداية الكاثاريين المهرطقين في الجنوب الفرنسي. ولكن دومينيك (1170 -1221)، وهو مؤسّسها الإسباني، جاءه الإلهام لإرسال «الوعاظ»، بصفتهم مقتدين ببولس الرسول، إلى أنحاء كثيرة من أوروبا، لا سيما إلى المدن العامرة بالجامعات، وقد سبّب نجاحهم نمو المنظمة بسرعة. وكان الإخوة، كما يُطلق على رهبانه، منقطعين إلى التعلّم لأنهم كانوا في المقام الأول وعاظاً ومعلمين. وكانوا يرتدون ببساطة ثياباً سوداً (ومن ثم جاء اسمهم الإخوة الأسود)؛ وكانوا قد نذروا أنفسهم للفقر التسوّلي يشحذون طعامهم اليومي، متبعين في ذلك توجيهات

يسوع للرسل في موعظة الجبل (متّى 10 : 7-14). وكانت المنظمة يرئسها «رئيس عام» يشرف على عمل «رؤساء الأديرة الإقليميين» في الأقاليم الدومينيكانيّة. وعلى رأس كل دير للرهبان أو للراهبات، «رئيس» يختاره الرهبان أو الراهبات بأنفسهم لمدة أربع سنوات، وهذا شيء من الابتكار الديمقراطي. وكان من سوء حظ الدومينيكانيين أن يختارهم البابوات ليكونوا أعضاء في محكمة التفتيش، ولم يكن لديهم أصلاً معرفة من هذا القبيل. وعندما كانوا يسلكون سبيلهم الطبيعي، حقّقوا نجاحاً واسعاً بين الطبقات العليا وأنتجوا كتّاباً ومعلّمين من العظماء، أمثال اللاهوتيَّين ألبرتوس ماغنوس وتوما الأكويني، والمصلح الفرنسي سافونارولا، والصوفيَّين إيكهارت Eckhart وتاولر Tauler.

حقق الفرنسيسكانيون نجاحهم الكبير بين الناس العاديين. ومؤسّس منظّمتهم الرهبانية، هو القديس فرنسيس الأسيسي (1182 - 1226)، وهو شخصية من شخصيات العالم العظيمة ـ وبوصفه فرداً هو أعظم القدّيسين سحراً، وبوصفه شخصية عالمية هو المسيح في تجسّد قروسطي. وبعد شباب منهمك في المسرات وكثير العبث، قام أبوه، الذي كان من رجال الأعمال، بحرمانه من الميراث لعدم إظهاره الاهتمام بتكديس الثروات، واجتاز بعد المرض تجربة دينية أعادته إلى «حكم المسيح»، كما هو موصوف في «العهد الجديد». وقال إنه بعدئذٍ «قد تزوّج السيدة التي تدعى الفقر». وأكل أبسط الطعام، وارتدى الثياب الكالحة الخالية من الزينة، ولم تعد له أملاك شخصية غير متاعه الخاص، وكان يعمل عندما يستطيع، لا من أجل المال، الذي لم يشأ أن يأخذه، بل من أجل الحاجات الآنية، أو يتسوّل من أجل قُوتِه عندما يُخفق في العمل. وكان يعظ الفقراء، وعندما يشطح، يعظ الطيور والبهائم في محبة للطبيعة كانت إلهاماً لعصره العنيد والعملي. وكان يخدم تعيسي الحظّ، والمجذومين، والمنبوذين بحنوّ نابع من طبيعته ومن اقتدائه بالمسيح على حد سواء. وعلى الفور جذبت طريقته في الحياة الآخرين، ولم يوصهم بشيء غير «حكم المسيح» كما جاء في «العهد الجديد». وعندما انضمّ إليه اثنا عشر رجلاً ذهب معهم إلى البابا إينوسنت الثالث للاعتراف بمنظّمتهم، وتمت تلبية الطلب على الفور. ولم يكن فرنسيس

يسعى إلى منظمة تتجاوز إرسال رهبانه ذوي الثياب الرمادية اثنين – اثنين في مهمات وعظية. ومع ذلك فقد انتشرت حركته انتشار النار في الهشيم، ورأى آخرون ضرورة تنظيمها واضعين على رأسها «رئيساً عاماً للرهبان» كان يوجّه «الرؤساء الإقليميين» في الأقاليم التي كانت تتألف بدورها من مجموعات محلّية تحت إمرة رئيس دير custos. وتشكلّت منظمة رهبانية ثانية للراهبات، برئاسة كلارا سيفي الأسيسية، وبعد ذلك أُنشئت منظمة ثالثة للناس المدنيين الذين يريدون، وهم يسعون وراء أرزاقهم، أن يصوموا، ويصلوا ويمارسوا الإحساس مرتبطين بالمنظّمة الرهبانية. ولم يعترض القديس فرنسيس على المنظِّمين الذين جاءوا ليساعدوه، ولكنه كان يأسف على وضع حركة روحية في أطر ثابتة[1].

وكلتا المنظمتين الرهبانيتين الدومينيكانية والفرنسيسكانية كان لها تأثير هائل في إظهار أن الديانة المسيحية تتجاوز كل تنظيم وتصل إلى كل قسم من أقسام الحياة بمناشدة أساسية تصل إلى عقل كل إنسان وضميره.

التصوّف القروسطي:

بينما كان الاسكولائيون، بزعامة أناس أمثال توما الأكويني، يتّبعون ما يدعوه الهندوس «سبيل المعرفة»، وكان الناس العاديون في الوقت ذاته يتّبعون ما يدعى «بسبيل الأعمال»، كان يوجد أناس غيرهم قد أنشؤوا «سبيلاً صوفياً للتقوى» كان عميق الرسوخ في ماضي الكنيسة. فلقد كان للرهبنة على الدوام جانب صوفي. فعندما كان الراهب ينسحب إلى التأمل المنفرد، كان ينشد تطهير نفسه من الشر ويترك روحه للاتّحاد الواله مع الله والقدّيسين. وكان المتصوّفة هم الذين رفضوا الاعتقاد أن الرؤية المباشرة لله ذاته، أو للمسيح، أو القدّيسين لابد أن تنتظر الانتقال من الدنيا إلى الآخرة، فالرؤية الصوفية ممكنة هنا على الأرض.

---

(1) تتألف المنظمة الآن من ثلاثة فروع على درجات متفاوتة من الصرامة: الرهبان الأصغر سناً (ويرتدون الجلابيب البنيّة القائمة)، والرهبان الكبوشيين الأكثر تشدداً (ويرتدون الثياب الرمادية)، وسكان الدير الأقلّ تشدداً (ويرتدون الجلابيب السود).

وكان للتصوف القروسطي كلا الشكلين الفردي والتعبدّي. وفي القرن الثاني عشر حاول زعيم القسترقيين، ألبير دِو كليرفو، أن يُدخل زخماً جديداً في الحياة الدينية لعصره بالوعظ والكتابة عن البركة التي جاءت من محبة الصوفي للعذراء والمسيح. وفي كتابه «خطب وعظية حول نشيد الأناشيد» زوّد الصوفيين المتأخرين بمفهومات قيّمة لتصوير مشاعرهم. لقد رأى في المسيح عريس الروح وحدّد بصورة حيوية تلك العلاقة بين «المخلّص» والمغرمين به حيث جعل من الممكن للمتصوفة أن يفسّروا وجدهم بأنه محبة مثالية وسماوية. وكان يبدو لبرنار أن علاقة كهذه من شأنها أن تتخطّى الشعور الأرضي. ومحبة يسوع يمكن أن تكون دافئة وشخصية جداً حتى يغدو الكيان الكلي للصوفي الذي استخفّه الوجد فائضاً برقة القلب وشدة العاطفة والعذوبة[1].

وفي القرنين الثاني عشر والثالث عشر، قام «هوغو سانت فكتور» Hugo st victor و «بونافنتورا» Bonaventura بنقل التصوف إلى المدارس. وأفلح الواعظان الدومينيكيان «مايستر إيكهارت» Mister Eckhart و«يوهان تاولر» Johan Tauler في ألمانيا بإنشاء عبادة صوفية مؤثّرة في أوروبا الوسطى. وقد عيل صبر كليهما

---

(1) لعله يتبيّن كم كان تحريك هذه الفكرة عميقاً في الترتيلة الآتية من عصره، وربما من يده:

يا يسوع، إن الفكرة الصميمية عنك
تملأ صدري بالعذوبة
ولكن الأعذب بكثير أن أرى وجهك،
واستريح في حضرتك...
يا أمل كل قلب نادم،
يا فرح كل الودعاء،
وتجاه الذين يسقطون، كم أنت لطيف!
وكم أنت خيّر للذين يبحثون!
ولكن ماذا تكون للذين يجدونك؟ آه، إن هذا
ما لم يمكن أن يُظهره اللسان أو القلم،
لا أحد يعلم إلا محبوبوه.

من الإفراط في الاهتمام بالمظاهر الخارجية في الكاثوليكية السائدة في ذلك الحين. وعند إيكهارت كانت حتى «الفردية شيئاً يُطرح جانباً»، فهي «لا شيء». وليس حقيقياً إلا الشرارة الإلهية في الروح، ووحدها ما يهمّ. وراح الزاهد الدومينيكاني هنري سوسو، وهو يتّبع الأسلوب ذاته، يوضح بأمثلة من حياته الحرمانات التي عاناها الموغلون في الصوفية بعزم ثابت. وما دام قد شعر في نفسه بعنصر من حب الذات والرغبة الجنسية، فإنه أخضع جسده للحدود القصوى من تعذيب الذات، حاملاً على ظهره صليباً مليئاً بالمسامير والإبر، وكان في بعض الأحيان يستلقي عليه في عقاب قاس للذات، إلى أن أفرح الله أخيراً قلب المتألم بطمأنينة داخلية قلبية، ولذلك يحمد الله من كل قلبه على معاناته المنقضية.

ونشأت حول هذين المتصوفين الألمانيين فرقة دينية تطلق على نفسها «أصدقاء الله» وانتشرت في الجنوب الغربي من ألمانيا، وسويسرا، وهولندا وفي هولندا أدّت الحركة إلى تأسيس جماعة تُدعى «إخوان الحياة المشتركة» ينبذ أعضاؤها الجنس، ويعيشون في دور منفصلة للإخوة والأخوات، ويمارسون الانضباط الصوفي في اعتكاف رهباني. وكان أروع إنتاج أدبي لهذه الجماعة كتاب عن الورع البسيط والصادق يدعى «الاقتداء بالمسيح»، من تأليف «توماس أ.كمبيس» Thomos A.Kempis. ولم يصل كتاب تمّ إنتاجه في العصور الوسطى إلى عدد كبير من القراء كما وصل هذا الكتاب، لأنه زكّى نفسه بنفسه بعد صدوره بمدة طويلة بالنسبة إلى البروتستانت والكاثوليك بالقدر ذاته.

وفي أنحاء أخرى من العالم الكاثوليكي سببّت الفوضى الكنسيّة مع بداية القرن الرابع عشر للكثيرين من الأفراد أن يتحوّلوا إلى التصوّف بحثاً عن الحقيقة والنعمة. ووجدت امرأتان عظيمتان في النشوة الصوفية القوة على العمل من أجل الإصلاحات في الكنيسة وفي العالم. فقامت «كاترين من سيينا» Catherine of Siena (1347 - 1380)، وقد قوتها خبرة صوفية في «الزواج» بالمسيح، العريس السماوي، على العمل بين ضحايا «الوباء الأسود»، وقد كدرها «الأسر البابلي» للبابوات في أفينيون، وأقنعت غريغوريوس الحادي عشر شخصياً بإعادة كرسي

البابوية إلى روما. وبعد ما يقرب من قرنين، فإن تيريـزا أفـيلا Teresa Avila في أسبانيا (1515 - 1582)، وبعد تجـارب مـشابهة، أصـلحت المنظّمـة الرهبانيـة الكرملية. وعثرت على الإرشاد والمعونة من أخ صوفي، هو الزاهد يوحنا الصليبي.

ولا حاجة هنا إلى توسيع القائمة فقد كانوا قاطبةً يُبدون التوق الذي لا يُكظمَ والذي تكابده كل الأديان الرفيعة إلى تجاوز الحدود الشكلية والخارجية للتجربة البشرية وملاقاة الله وجهاً لوجه.

انحدار البابوية:

كانت البابوية عاجزة عن المحافظة على وضعها في أوج السلطة والقـوة اللـتين بلغتهما في القرن الثالث عشر. وكانت العوامل التي أفضت إلى انحدارها كثيرة، فلم يكن للضغط البابوي الدائب على القمة إلا أن يزيد من الآثار الإنشقاقية الناجمة عـن الإحساس الجديد بالنعرة القومية المتنامية بـين الـشعوب الأوروبيـة المختلفـة مـن الأسفل. وكانت فرنسا وإنكلترا على وجه الخصوص قادرتين علـى التحـرك باتجـاه الاستقلال. وتفككّت الإمبراطورية الرومانية المقدسة (والآن ما هـي بالمقدسـة ولا الرومانية ولا الإمبراطورية) إلى مجموعـة مـن الممالـك الـصغيرة المتّحـدة اتحـاداً مهلهلاً. وحين حدث ذلك، أخذت فرنسا تمارس نفـوذاً أقـوى مـن نفـوذ إيطاليـا. وكان هناك صدام مباشر في المصالح. وحين أرغم رجال الكهنوت الفرنسيون علـى الانحياز إلى طرف معيّن، أخذوا يميّزون بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية للبابـا وكثيراً ما كانوا ينحازون إلى ملك فرنـسا في المنازعـات المتعلقـة بـالأمور الزمنيـة. وعندما تشاجر البابا بونيفاس Boniface الثامن (1292 - 1303) مـع الملـك فيليـب العادل، قام الأخير بأمر هو فاتحة عهد جديد، ينطـوي علـى إظهـار الملـك للقـوة القومية الصاعدة ولتحرك الديمقراطية في أوروبا الغربيـة. ودعـا إلى تـأليف مجلـس نيابي كالذي قد كان عند الإنكليز، فكان بمثابة أول مجلس تمثيلي فرنسي ضم إليـه رجال الدين، والنبلاء، وعموم الناس. وأعطته هـذه الهيئـة تأييـداً كـاملاً. وعندئـذٍ أصدر البابا الأمر البابوي الـشهير المـدعو Uname Sactam، الـذي يحتـوي علـى الكلمات الجزافية: نعلن، نقول، نحـدد، نتفـوه لكـل مخلـوق أنـه مـن ضـروري

للخلاص ضرورة مطلقة أن يكون خاضعاً «للحبْر الروماني». ولم تُفضِ هذه المحاولة الرامية إلى إخضاع فيليب وإذلاله إلا إلى دعوته إلى انعقاد جلسة أخرى للمجلس اتهم فيها الأب المقدس باحتقار وعدم مبالاة بأنه مجرم، ومهرطق، وغير أخلاقي، وصدرت مناشدة للمجلس العام للكنائس لإحالته إلى المحاكمة. ولأنه لن يستسلم لأي طرف فإن البابا، وهو سلطة روحية من دون قوة عسكرية، قد عانى مطوّلاً من إهانة السّجن على يد بعض مؤيدي فيليب المسلّحين. وسرعان ما أُخلي سبيله، ولكن الأذى قد وقع، فباسم القومية ألقي بعض الرجال الخشنين القبض على شخص البابا ووضعوه رهن السجن التعسّفي.

وتوالت سلسة من البابوات «الفرنسيين» (1305 - 1377). ولخوفهم من العنف في إيطاليا، كانوا ينسحبون إلى «الأَسْر البابلي» في أفينيون، حيث كانت سلطة ملك فرنسا عليهم غير محدودة إذ في مكان آخر كان يوضع بابوات منافسون في الميدان (1378 - 1417)، وهكذا حتى أُوذي الجاه البابوي إيذاء كبيراً مُحدِثاً ما هو معروف بـ«الانقسام الديني الكبير». ومنذ ذلك الحين فصاعداً أصبحت فرنسا وإنكلترا مستقلّين بصورة متزايدة. وتضاءلت السلطة البابوية. وفي الجوقة الكبيرة للأصوات المتحررة التي كانت تتصاعد، لم يعد البابوات قادرين على الأمر بالتزام صمت هادئ عندما يتكلمون.

التحرك باتجاه الفردانية والحرية والإصلاح:

في غضون ذلك، وفي أثناء الحروب الصليبية، ولا سيما بعد سقوط القسطنطينية في القرن الخامس عشر ـ وهو حدث حمل الكثير من أصحاب المعرفة الواسعة على الفرار إلى إيطاليا مع الروائع الأدبية لليونانيين القدامى ـ باللغة الأصلية ـ بدأ هناك إحياء المعرفة الكلاسيكية المعروف باسم «النهضة». وكان الشعراء والقصّاصون أمثال بتراركه وبوكاتشيو المعلمين الأدبيين الذين انضموا إلى رسّامي النهضة ونحّاتيها العظام قد أخذوا في إضفاء الشعبية على النظرة القائمة على «المذهب الإنساني»، بابتهاجها الجديد دائماً بالإنسان والطبيعة. وصار حتى البابوات رعاة متحمسين للفن والمعرفة.

ولم يكن ذلك غائباً عن الإنسان العادي. فمع امتداد العالم بسرعة واتساع نظرته (نقلت إلى الإنسان العادي قصص الحروب الصليبية أولاً ثم اكتشافات ماركو بولو وكولومبوس، وبعدئذٍ اكتشافات ماجلان وغيره). ومع حياته التي تبدّلت تبدّلاً هائلاً بنشوء المدن التجارية المستقلة عن اللوردات والأمراء، بدأ الإنسان العادي، في دار النقابات وميدان السوق، يتساءل عن عادت رجال الكهنوت وأخلاقهم، عن البابا فمن دونه، وينتقد الممارسات الكنسية الناشئة حديثاً، كبيع صكوك الغفران[1]، والاعتراف القسري، وفرض الضرائب البابوية على شكل الرسوم المالية للمعموديات، والأعراس والجنازات، وكل التعيينات في مكتب من مكاتب الكنيسة، وللمئات من المعاملات الأخرى. ويضاف إلى ذلك أن الإنسان العادي قد بدأ يتوق إلى المعرفة. كان يعرف أنه لا يستطيع الوصول إلى الآثار الكلاسيكية للزمن القديم والمعرفة عند المتضلّعين، ولكنه صار فضولياً تجاه «الكتاب المقدس». وكان يستمتع بالمسرحيات التي كانت تمسرح له حوادث بارزة من قصص «الكتاب المقدس» ومعضلات أخلاقية عن الحياة اليومية، وأهاجت هذه القصص اشتهاءه للاطلاع المباشر على المصادر الأدبية لهذه المنتجات.

ووصل انتقاد الإنسان العادي إلى لكنيسة وظمأه إلى الكتاب المقدس إلى أشكال أكثر شدة في أوروبا الشمالية منها في أي مكان آخر، وهناك أثار الكاهن الإنكليزي جون ويكليف مسألة فرض الضرائب البابوية ليشجبها بوصفها جشعاً، ويشجب مذهب تحوّل الخمر والخبز في جسم الآكل والشارب إلى دم المسيح. بوصفه منافياً للكتاب المقدس، وأخذ يرسل كهنته بين الناس في إنكلترا ليعلموهم عقائد الكتاب المقدس المأخوذة مباشرة من الترجمات إلى الإنكليزية عن الترجمة اللاتينية. وقد أثّر ويكليف في جون هس في بوهيميا الذي قاد ثورة دينية شعبية كان من أبعادها أن «مجلس مدينة كونستانس» قد حُكم عليه سنة 1415 بالإعدام حرقاً على الخازوق. وبعدئذٍ قام إصلاح مستقل قاده في القرن

(1) كان يعتقد أن البابا هو القيم على الثواب الذي راكمه القديسون السابقون، وأنه يستطيع توزيع هذا الثواب على الناس الخطاة من خلال صك يشترونه يحمل لهم غفران الخطايا.

الخامس عشر الراهب الدومينيكاني سافونارولا في مدينة فلورنسا، لاقى نجاحاً قصيراً بين الناس، ولكنه انتهى بإعدام سافونارولا شنقاً.

وعبثاً حاولت الكنيسة على العموم، من خلال تعاون الأساقفة والملوك والأباطرة، ومن خلال المجمع الذي دعت إليه كونستانس (في ألمانيا) وفي بازل (في سويسرا) في النصف الأول من القرن الخامس عشر، أن تقدّم الإصلاحات المطلوبة في حياة الكنيسة وإدارتها. وكان الإصلاح الوحيد الذي بدا أنهم قادرون على إحداثه هو الشفاء من الشقاق البابوي المخزي، وهو إنجاز تم إحداثه بتجريد البابوات المتنافسين قسراً من المنصب ثم إعادة حَبْر واحد إلى السُدّة البابوية في روما. ولولا ذلك لظل الوضع غير متبدّل جوهرياً ومثيراً لحدوث انتفاضات أكبر.

و- إصلاحات القرن السادس عشر

شهد القرن السادس عشر نشدان إصلاحات دينية جذرية وقادرة على الاستمرار. وكان القصد الأولّي من الهجمات التي شنّها بعضهم في ألمانيا هو الوصول إلى الإصلاحات من داخل الكنيسة عن طريق الإشارة إلى الأخطاء والقيام باحتجاج قوي، ولكن سرعان ما وجد «المحتجّون» Protestants أنفسهم خارج الكنيسة. وبعدئذٍ صار النموذج الشائع باطّراد هو الانفصال أولاً ثم تحقيق الإصلاح. وكان الإصلاح العام الوحيد للكنيسة من الداخل قد أحدثته إعادة التقييم، وإعادة التعريف، وأحدثه كذلك التجديد، وكان هذا هو الإصلاح الكاثوليكي.

ولننظر إلى هذه التطوّرات.

بعض عوامل التسريع:

شطر الإصلاح البروتستانتي المسيحية الغربية إلى مجموعتين لا يمكن التوفيق بينهما في الظاهر. وقد ظلَّ الإصلاح قيدَ الإعداد أمداً طويلاً، في انتظار بعض التطورات السريعة التي كان أهمها ما أحدثه ارتقاء الطبقة الوسطى إلى الاكتفاء الذاتي الاقتصادي والثقافي. وعندما تجمَّع الناس في أوروبا في داخل المدن على امتداد الأنهار والسواحل. نتيجة ازدياد المتاجر والمقايضة، لم تعد الثروة منعدمة الحركة وثابتة في أرض أو في المنتَج الذي تقدّمه المقايضة القريبة الميسورة. وأصبحت سائلة على شكل المال، ووُلدت الرأسمالية الحديثة. وبالتدريج أُرغم اللوردات والأمراء على إرخاء قبضتهم عن الطبقة الوسطى النامية، وبدأ الآلاف من سكان المدن يصبحون أفراداً حقيقيين، ومع عدم وجود سادة مطلقين مباشرين إلا رئيس البلدية وأعضاء المجلس البلدي. ازداد اكتفاؤهم الذاتي وقدرتهم على مواجهة مشكلات الحياة من دون إيعاز من الخارج بل بمبادرة منهم. ومن الناحية السياسية، فقد أخذوا في إنشاء وجهة نظر سوف تنبعث بعدئذٍ في الديمقراطية. وفي أوائل القرن الرابع عشر صرخ في إنكلترا شخص يُدعى جون بول John Ball، يلقّب بكاهن «كِنت» Kent المجنون:

«أصدقائي الطيبين، لا يمكن أن تجري الأمور على ما يرام في إنكلترا ما لم تكن كل الأشياء مشاعية، عندما لا يكون هناك خدم تابعون ولا لوردات، وعندما لا يكون اللوردات سادة أكثر من أنفسنا.. ألم نتحدّر كلنا من الأبوين آدم وحواء بالذات؟ لذا أي سبب يمكن أن يقدّموه لأن يكونوا سادة أكثر من أنفسنا؟ إنهم يرتدون المخمل والأنسجة الصوفية غالية الثمن، ويتزيّنون بفراء القاقم وغيره من الفراء في حين نُكرَه على ارتداء الكتّان الخشن. ولديهم الخمر والتوابل، والخبز الجيد، في حين ليس لدينا إلى الخبز المصنوع من دقيق الجاودار وكُناسة الشعير. وعندما نشرب فيجب أن نشرب الماء. ويملكون المنازل الجميلة والضيع، في حين لا نملك إلاّ المشقّة والعمل. وعلينا أن نتحدّى الريح والمطر في الحقول وبجهدنا يملكون ما به يدعمون إبّهتهم».

تكمن في مثل هذه الكلمات بذور الثورات الفلاحية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر في إنكلترا وأوروبا الوسطى.

وليس بالمدهش أن الإنسان العادي في أوروبا أخذ يريد أن يُعترف بجدارته الدينية أيضاً، سواء في استخدام العقل أو في ممارسة الضمير. وقد أحسن مارتن لوثر التعبير عن إحساس الأشخاص العاديين عندما جَزَمَ بانفعالٍ شديد:

«أقول، إذاً، ليس للبابا، ولا للأسقف، ولا لإنسان مهما يكن الحقّ في جعل أي مقطع لفظي مُلزِماً للمسيحي، إلا إذا تمّ ذلك بموافقتهِ. وكل ما يتم بطريقةٍ أخرى إنما يتم بروحية الاستبداد.. إنني أصرخ عالياً انتصاراً للحرية والضمير، وأعلن بثقة أنه لا يمكن لأي نوعٍ من القانون أن يُفرض على المسيحيين بأي إنصاف. إلا بمقدار ما هم يريدون، لأننا متحررون من كل شيء».

في الوقت الذي بدأ الشخص العادي يشعر بأن جدارته أكبر، كانت الكنيسة تبدو له فاسدة. وصارت الكنيسة متماثلة في ذهنه مع نظام الابتزازات المالية، الذي يستنزف الذهب بطمعٍ شديد من كل ناحية من نواحي أوروبا ويصبّها في روما، حيث يبدو أن ما يسود من دون أن يردعه رادع بين رجال الكهنوت هو الترف، والمادية، والاستهانة بالمقدّسات، وحتى البغاء. ولم تكن الكنيسة في نظره فاسدة

وحسب، بل كان يبدو أنها صارت متخلّفة في اندفاع التقدّم العارم إلى الأمام. وكانت تمثّل مذهباً متشنّجاً من مذاهب الإيمان بالمؤسسات، أي توكيد النظام في الدين على حساب العوامل الأخرى، والمحافظة، والامتثال من عصر إلى عصر بقانونٍ صلب لا يتزحزح، وعبادة واحدة، ونظام واحد في الحياة لكل فرد. ويظلّ الأسوأ هو أنه قد انفتحت هوّة واسعة بين الدين والحياة، وازداد التفاوت بين الكنيسة وحاجة الإنسان ازدياداً مطرداً، حتى إن الشخص العادي الورع الذي لم يكن قد تأثر إلا قليلاً بتلك الآثار المعلمِنة للرأسمالية والقومية، أخذ يتمنى حدوث تغيّرات في الكنيسة من شأنها أن تخدم حاجات البشر خدمة أفضل.

وكان كل ما يُفتقر إليه هو زعيم يسرّع الإصلاحات المطلوبة.

الإصلاح اللوثري:

في ألمانيا ظهر إنسان كهذا. وكان مارتن لوثر (1483 – 1546) وهو ألمانيّ قحٌّ، شديد الاندفاع، غليظ الجسم قصيرهُ، ربط مباشرة بين الاقتناع والعمل المناسب، واعتبر ذلك أمراً مفروغاً منه. وُلد في سكسونيا من أرومة فلاحية، وتشرّب من بيئته عدم إيلاء احترام خاص للكهنة، والخوف الشديد من غضب الله. وأراده أبوه أن يغدو محامياً، ولكنه في منتصف الطريق في دراسته للقانون استجاب لحاجته الدينية الشديدة ودخل في دير منظّمة رهبانية أوغسطينية، مصمّماً على كسب رضوان الله بالامتثال المخلص والشاقّ للتدريب الرهباني. وكان بإفراطه في مراعاة دقائق السلوك يطيع قوانين منظّمته، فكان يكنس الأرض، ويصوم، وينحني فوق كتبه وهو يكاد يتجمّد. ولكن مع أنه كان يبكي ويصلّي وقد صار مجرد جلد وعظم، لم يشعر أنه تقرب إلى الله. وفي الواقع، لم يكن متيقّناً من خلاصه. وفي العام 1507 أُدخل في سلك الكهنوت باحتفال خاص وعُيّن بعدئذ أستاذاً في جامعة جديدة أسّسها في «فيتنبرغ» فريدريكُ الحكيم، أمير سكسونيا الذي هو ممن له الحقّ في انتخاب الإمبراطور. وهناك صار يحتقر أرسطو بوصفه «وثنياً خدّاعاً، ومتكبّراً، ولعيناً»، ضلّل الكثيرين من أفاضل المسيحيين بخوائه و«كلماته الزائفة». ويبدو أن سبب هذه الضغينة قد كان

افتقار أرسطو إلى أي اقتناع ديني عميق. وكان لوثر يحصل على معظم ما يحتاجه من «الكتاب المقدّس» مباشرة، واعتماداً على أسفاره، ولا سيما «سفر المزامير» ورسائل بولس، كان يحاضر بحماسه متعاظمة وتعزية لنفسه.

في هذه الآثار قام بزيارة إلى روما. وعلى الرغم من أن هذه الزيارة قد عمقت محبّته للمدينة المقدسة، إلا أنها أكدّت لديه الاقتناع بأن البابوية قد وقعت في يد لا تستحقها. ولم يَرَ في حياة الكهنة في روما فقرَ المسيح وتواضعَه بل الأبّهة، والحرص على الدنيا وما فيها، والتكبّر. وكان من شأنه بعدئذٍ أن يقول:

«إن الأمر يسير على منوال واحد مع هذا التكبّر المقزز وهو أن البابا لا يرضيه امتطاء صهوة جواد أو ركوب عربة، ومع أنه يكون قوياً معافى، يحمله الرجال مثل صنم بأبّهة غير مسموع بها. فكيف، يا صديقي، يتّفق هذا التكبّر الذي يشبه تكبّر إبليس مع مثال المسيح، الذي كان يذهب على القدمين، كما كان يفعل كذلك كل الرسل»؟.

إن حياته الداخلية قد أنارتها فجأة جملة من القديس بولس، وكانت كلماته حاسمة في إجلاء شكّه «أما البار فبالإيمان يحيا» (رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية 1: 17). الإيمان! كان وحده كافياً! إن رضا الله لا يتأتى بالأعمال الصالحة، وإنما بالإيمان الذي نتبرر به أمام الله، والذي بحثنا بعد ذلك على الأعمال الصالحة. هذا الإيمان هو الذي يجعلنا نتبين محبة الله لنا، فنبادله المحبة ونظهر له الامتنان. إن الامتنان لا الخوف هو نبيع الحياة المسيحية.

وبينما كان لوثر يكوّن هذه الاقتناعات، كان يشوّشه وصول «تتسل» Tetzel، وهو وكيل بابوي، لبيع صكوك الغفران في بلدة مجاورة. وعندما ذهبت جماعته من المصلّين في فيتنبرغ (وكان يعظ في كنيسة القصر إلى جانب تدريسه في الجماعة) لشراء صكوك الغفران هذه، رفع عقيرته بالكلام ضد عملهم هذا. وبإلحاح من الأصدقاء، وضع في 31 تشرين الأول 1517، على باب كنيسة القصر «رسائله البحثية الخمس والتسعين» الشهيرة، وهي هجوم مفصَّل على بيع صكوك الغفران، محرَّرة على شكل قضايا للنقاش العام، ووفقاً لأدب السلوك الأكاديمي

السائد، دعا إلى مناقشة كل مسألة طرحها، ولكنه لم يكن يتوقع الآثار الناجمة نتيجة عمله ذاك. فلقد كان الطلب شديداً جداً سواء على نسخ الأصل اللاتيني للرسائل أو لترجمتها الألمانية التي لم تستطع المطبعة الجامعية أن تُصدر نسخاً منها بسرعة كافية لتلبية الطلب من كل حدبٍ وصوب في ألمانيا.

وهكذا فقد انطلقت العجلة، وأخذت ألمانيا الشمالية كلها تئزّ بالكلام. ولم تكن لدى أيّ شخص نيّة الانفصال عن الكنيسة، وإنما اقتصر الأمر على المطالبة بالإصلاح. ومع ذلك كانت توجد رغبة أعمق ـ لا تكاد تكون شعورية ـ في تحرر أكبر من روما. ومن الطبيعي أن يُهاجَم لوثر على الفور من «تِتْسل» والآخرين. وكان أسقفه قد أرسل نسخة من «رسائله البحثية» إلى البابا، الذي أمر لوثر من دون توانٍ بأن يمثُل في روما لمحاكمته وتأديبه. ولكن أمير سكسونيا، الذي كان فخوراً بلوثر، قد تدّخل، فعدّل البابا طلبه إلى الأمر بأن يمثُل لوثر أمام السفير البابوي في أوغسبرغ، وهذا ما فعله.

وكان لكل هذا الضغط تأثيره في جعل لوثر يبحث في الكتب المقدسة لإثبات صحة موقفه وتسويغ أعماله، وهو البحث الذي قاد إلى الإصلاح الديني البروتستانتي بأسره. وأقنعه تفحّصه للكتاب المقدّس أن الكنيسة الكاثوليكية قد انحرفت حتى الآن عن الكتاب المقدس حيث كان الكثير من ممارساتها منافياً للمسيحية فعلياً. وكان مدفوعاً إلى الشك لا في مجرد بيع حسنات المسيح وحسنات القديسين الفائضة من خلال صكوك الغفران بل في الموقف القروسطي من الكفّارة والأعمال الصالحة، التي يتمّ تصويرها على أنها معاملات تُجرى مع الله ابتغاء مرضاته من خلال التوسط الضروري الذي يقوم به الكاهن والأسقف والبابا. والتوبة الحقيقية هي مسألة داخلية وتضع الإنسان في تماس مباشر مع الأب الغفور. لذا، وبكلمات الرسالة السادسة والثلاثين: «إن كل مسيحي يشعر بالندامة الحقيقية يستطيع الحصول على الغفران دون وساطة من بشر». ومغفرة الخطايا تأتي من خلال التبدّل الذي يتمّ في روح الإنسان بالصلة الشخصية المباشرة بالمسيح ومن خلال المسيح بالله. ووصل لوثر، تدريجياً، إلى الموقف القائل بأن الكنيسة الحقيقية ليست أي منظمة كهنوتية خاصة بل هي ببساطة

جماعة المؤمنين الذين يرئسهم المسيح. والسلطة الدينية النهائية الوحيدة هي «الكتاب المقدّس» الذي جعله الروح القدس قابلاً لفهم المؤمنين من خلال إيمانهم. وكل مؤمن هو مقتدر إلى حد أنه كاهن بالقوة. ولذا على الكنيسة أن تعلن «الكهانة الشاملة لكل المؤمنين». وقد قال:

«دعونا نعبّر عن المسألة من خلال المثال التالي: لنفترض أن جماعة صغيرة من المؤمنين قد أخذوا أسرى إلى صحراء، ولم يكن بينهم قسيس كرّسه أُسقف، وكان عليهم أن يتّفقوا هنالك على اختيار أحدهم، سواء أكان مولوداً من حياة زوجية أم لا، وكان عليهم أن يطلبوا إليه أن يعمّد، وأن يحتفل بالقُدّاس، ويصفح عن الذنوب، ويعظ، فإن هذا الرجل سيكون قسّيساً بحق كأنما قد كرّسه كل الأساقفة وكل البابوات. وذلكم هو السبب الذي يفسّر أن كل شخص يمكن في أوحال الضرورة أن يعمِّد ويصفح عن الذنوب، وهو أمر ليس من الممكن أن يحدث لو لم نكن كلنا كهنة».

ولأنّ المؤمنين يجب أن يكونوا متمكنين من المشاركة في الممارسات الدينية على أتمّ وجه، فيجب أن تكون الصلوات بالألمانية بدلاً من اللاتينية، ويجب أن تكون مبسَّطة وتعطى لها معاني واضحة.

وتبيّن أن مثول لوثر أمام السفير البابوي لم يعطِ نتيجة قاطعةً. فلقد أمره أن يُقرّ بخطئه فرفض، ونجح في الهروب عائداً إلى فيتنبرغ، وتلا ذلك فتورٌ في الغضب البابوي ضده، أحدثته التطورات السياسية في الإمبراطورية، ولكنه انتهى فجأة عندما سيق إلى نقاش من اللاهوتي الكاثوليكي يوهان ماير فون إِكْ واضطر إلى الإقرار بأن «مجلس مدينة كونستانس» قد أخطأ في إدانته لجون هس. فهل كان لوثر ينكر هنا سلطة الكنيسة الكاثوليكية كلما سارت على نحو مضاد لرأيه في «الكتاب المقدس؟». كان الأمر يبدو كذلك، وأصدر البابا بلاغاً بإدانته. وعندما طُلب إلى الإمبراطور شارل الخامس أن يتصرّف، استُدعي لوثر سنة 1521 للمثول أمام مجلس إمبراطوري، انعقد في مدينة فورمس (الألمانية). ولم يوافق أمير سكسونيا على ذلك إلا إذا وُعد لوثر بالمعاملة الحسنة، فوُعد بذلك. وعندما مَثُل لوثر واعترف لفوره بأن الكتابات التي صدرت باسمه هي كتاباته،

ولكنه قال إنه لن يتراجع عن قوله إلا إذا اقتنع من «الكتاب المقدس» أنه أخطأ. وبينما كان المعجبون به من الأمراء الألمان ينظرون إليه، قال للإمبراطور ولمندوبي الكنيسة المجتمعين: «إذا لم يقنعني دليل من الكتاب المقدس أو من العقل السليم ـ لأنني لا أثق بالبابا ولا بالمجلس، ما دام من المؤكّد أنهما كثيراً ما وقعا في الغلط والتناقض ـ فإنني أتمسك بالكتاب المقدس الذي أُورده حُجّةً، وضميري قد أَسَرَتْه «كلمةُ الله»، وأرى أنه ليس من الصواب أن أتصرف ضد الضمير. أعانني الله. آمين». وبما أن لوثر قد وُعد بالمعاملة الحسنة فقد غادر فورمس من دون أن يتضرر، ولكن تم إفهامه أنه حالما يعود إلى بيته، يمكن القبض عليه لمعاقبته. ولذلك وضعه المجلس تحت الحرمان الكنسي، وأمره أن يستسلم، وحظر على أي شخص أن يؤويه أو أن يقرأ كتبه. ولكن لم يكن بالإمكان العثور على لوثر. إذ أن أميره، الأمير فريدريك، قد اعتقله في طريقه إلى البيت، وجرى إخفاؤه بعيداً في قصر فارتبورغ.

استخدم لوثر وقت الفراغ المفروض عليه لغرض جيد. وشرع في العمل على ترجمة «العهد الجديد» إلى الألمانية. (وبعد بضع سنوات، في العام 1534، أصدر الترجمة الكاملة ل«الكتاب المقدس»، وكان إنجازاً يتعلّق بفاتحة عهد جديد بأكثر من معنى. ولم يقتصر هذا الإنجاز على تحقيق المبدأ البروتستانتي وهو أن «الكتاب المقدس» يجب أن يوضع بين يدي الإنسان العادي، بل أعطى الألمان كذلك لأول مرة لغة موّحدة، يمكن لهم من خلالها أن يحقّقوا الوحدة الثقافية القومية.

ولم يوضع مرسوم فورمس موضع التطبيق. وعندما خرج لوثر من المخبأ، كان الإمبراطور مشغولاً بالحرب والخصومات في غير هذا المكان. وعلاوةً، فقد كان واضحاً أن الشعب الألماني كان إلى حد كبير إلى جانب لوثر. وأصبحت أقاليمٌ بكاملها بروتستانتية بضربة واحدة عندما تخلّى أمراؤها عن الولاء للبابا وتحوّلوا إلى اللوثرية. وعند وفاة لوثر سنة 1546 كانت إصلاحاته تمتد من ألمانيا الوسطى إلى الكثير من ألمانيا الجنوبية، وكل ألمانيا الشمالية، وما بعدها إلى الدنمارك، والنرويج، والسويد، ودول البلطيق.

لم يخلّف لوثر لأتباعه منظومة ثابتة من اللاّهوت ونظام الحكم. وهو ذاته أظهر الكثير من عدم الاتساق الناجم عن حذره وميله المتزايد إلى المحافظة. فلم يكن جذرياً. وقد رفض توما الأكويني وأرسطو، وكأنه في ذلك، كان يلتمس من الكاثوليكية القروسطية العودة إلى الكنيسة الكاثوليكية القديمة. ولقد وجد في القديس أوغسطين كما يحب ويشتهي، وخَلْفَ أوغسطين فقد اعتمد على القديس بولس. وبتحمس شديد تشبّث بما تصوّر أنه مذهب أوغسطين في القضاء والقدر، وحتى أنه جافى إراسموس من أصحاب المذهب الإنساني. وقد وجده الآخرون شديد المحافظة في أمور العبادة، بالنظر إلى أنه أبقى استعمال الشموع، والصليب، والأرغن، وعناصر معيّنة من القُدّاس الروماني[1]. وعندما قامت محاولة للتوفيق بين لوثر والمصلح السويسري «تسفنغلي» zwingly تعطّل التداول بينهما لأن لوثر أصرّ أنه على الرغم من أنه ليس هناك تحوّل إلى دم وجسد في «العشاء الرباني»، فإن جسد المسيح موجود روحانياً في عناصر الخبز والخمر (إتحاد الخبز والخمر بجسد المسيح ودمه). وظهر ميله إلى المحافظة في آرائه الاجتماعية والسياسية أيضاً. فقد ظهرت لديه ميول إلى معاداة الساميّة آخر حياته، وفي الثورة الفلاحية سنة 1524 خيّب رجاء الكثيرين بانحيازه إلى الأمراء. وفي الواقع، لقد وضع أساس المذهب الألماني لحكم الدولة الاستئثاري عندما أمر كل اللوثريين بالطاعة الرضوخية لسلطات الدولة.

وحيثما انتشر الإصلاح الديني اللوثري، فإن رهبان الكاثوليك وراهباتهم كان عليهم إما أن يغادروا المقاطعة وإما أن يتخلّوا عن أسلوبهم السابق في العيش والملبس وينضموا إلى الجماعة اللوثرية، بوصفهم كهنة أبرشية، ومعلمين، وأحراراً في الزواج وإنشاء الأُسَر. وقد تزوج لوثر ذاته راهبة سابقة واستمتع بحياة أسرية سعيدة مع خمسة أطفال أنجبهم منها. وفي تنظيمه الجماعات اللوثرية، شغل نفسه أكثر من أي شيء بثلاث وظائف هي: وظيفة

---

(1) ولكنه أزال الجوانب الكهنوتية القربانية في القداس الروماني ويمكن أن يقال إنه رجع نحو «العشاء الرباني» كما وُصف في «العهد الجديد».

راعي الأبرشيّة، والإحسان، وتربية الأطفال وتعليمهم. والأديرة التي كان يتملكها أعضاء المجلس البلدي أو الأمراء قد تحولت، بناء على مشورته، إلى مدارس وجامعات.

ولم يعش لوثر ليرى الحرب الدينية التي أوصلت ألمانيا في سنوات منتصف القرن إلى شفا الفوضى الشاملة وأدّت إلى التسوية المعروفة باسم «سلام أوغسبورغ» (أيلول 1555)، التي ضُمنت فيها الحقوق المتساوية للكاثوليك واللوثريين، ولكنها تركت ديانة كل إقليم لتقرير أميره، على مبدأ cujus region, ejus religio أي (من له الحكم، فالدين دينه). وكان الإصلاح اللوثري قد وضع في الحقيقة الأمير الحاكم حيث كان الأسقف، أي في موقع يمارس منه سلطة عامة على الكنائس.

الإصلاح الديني السويسري:

حصل في سويسرا إصلاح ديني أشد جذرية على يد أولريخ تسفنغلي Urlich Zwingly (1484 - 1531)، وهو كاهن أبرشية متعلم جداً كانت تعاطفاته كامنة منذ القديم مع أصحاب المذهب الإنساني، ولا سيما في حربهم على الخرافة ومذهب رفض العقل. وقد حض على العودة إلى «العهد الجديد» باعتباره مصدراً أساسياً للحقيقة المسيحية. ولذلك بدأ في زوريخ بالشرح العام المنظّم لأسفار «الكتاب المقدّس»، ابتداءً من الأناجيل. وفي العام 1522 وصل إلى الاقتناع الذي مفاده أن المسيحيين ليسوا مُلزَمين إلا بما أُمروا به في «الكتاب المقدس» وعليهم ألاّ يمارسوا سوى ذلك ـ وهو موقف أشد جذرية بكثير من موقف لوثر، الذي كان يعتقد أن المسيحيين في غير حاجة إلى التخلّي عن عناصر في الممارسة الكاثوليكية لها فائدتها، عند الحاجة، وغير محرّمة في «الكتاب المقس». وكان تسفنغلي، تَبَعَاً لاقتناعاته، يُقنع الناس في زوريخ بإزالة الصور والصلبان من الكنائس وبالإنشاد من دون مصاحبة الأرغن. وفي وضعه حداً للاحتفال بالقداس الكاثوليكي، اتّخذ الرأي الذي يقول إن يسوع عندما قال «هذا جسدي» فقد كان يعني «هذا يدلّ على جسدي». واحتجّ بأنه من غير المعقول أن

نفترض، أن جسد المسيح ودمه يمكن أن يكونا دفعة واحدة في السماء وبواقع متساو على عشرة آلاف مذبح على الأرض وكل ذلك في وقت واحد، على ما قاله لوثر. فلا بد من أن يُعدّ الخبز والخمر رمزيين في صفتيهما، وهما تذكرتان مباركتان بتضحية يسوع بنفسه على الصليب. والطريقة الصحيحة للاحتفال بالعشاء الربّاني هي إعادة إنتاج مناخ القربان المقدس المسيحي الباكر ووضعِه على أقرب ما يمكن إلى الأصل. ويجب أن يكون الطقس في الحدّ الأدنى. وبالنسبة إلى الطقوس الكنسيّة المنتظمة، ينبغي أن تكون الموعظة هي العنصر المحوري في العبادة، لأنها أهمّ وسيلة يمكن بها الكشف عن مشيئة الله. وكانت السلطة الكنسيّة المحلية تودَع في أيدي كبار كل جماعة من جماعات المصلّين، وتُدعى بالمجلس الروحي، لأن هذا يبدو اقتراباً دقيقاً من التنظيم الكنسي المسيحي الباكر.

وانتشر الإصلاح التسفنغلي خلال حياة مؤسسة في بازل وبرن وغلاروس وشتراسبورغ. وأحدث في النهاية حرباً أهلية بين القوى الكاثوليكية والمتجدّدة، وسقط تسنفغلي في إحدى المعارك (1531).

وفي الجزء الجنوبي الغربي من سويسرا انضمّ إلى الإصلاح الديني واعظ شاب متحمس يُدعى «فارل فون جنيفا» Farel Von Geneva. وتبيّن له أن مهمة إحداث إصلاح ديني بالغ الإتقان أمر بالغ الصعوبة مما جعله يُلح في إقناع دارس فرنسي شاب اسمه جان كالفن (1509 - 1564) بأن يبقى ويساعده. وكان كالفن في ذلك الحين (1536) هارباً من فرنسا، حيث نشر منذ آونة، وهو في السادسة والعشرين من عمره، الطبعة الأولى من الأثر الكلاسيكي للإصلاح الديني، واسمه «مؤسّسات الديانة المسيحية»، وهو تعريف في صفاء البلّور للموقف البروتستانتي، كان مقدَّراً له أن يضع أسس نظام المشيخانية البروتستانتية[1].

وبما أن سياسات كالفن العامة تتبع منطقياً من اقتناعاته الدينية، فمن المستحسن أن نسجّل قائمة بأهمّ التأكيدات في كتابه عن «مؤسّسات الديانة المسيحية»:

(1) Presbyterianis وهو نظام يدير شؤون الكنيسة فيه شيوخ منتخبون يتمتعون بمنزلة متساوية.

1- إن الحقيقة المركزية للدين هي السلطة العليا لله. فالله يشاء كلَّ ما يحدث في العالم المادي والتاريخ البشري فيؤكد بذلك مجده. ومشيئته لا يُدرَك كنهها، ومن وجهة النظر البشرية قد يبدو أنه لا يتّبع إلا ما يرضيه، ولكن طبيعته مقدسة ومحقة، وكل قراراته عادلة.

2- إن الإنسان حائز على معرفة طبيعية معيَّنة بأن الله هو الروح المحركة في الطبيعة والتاريخ، ولكن فهمه يكدّره فساده الأخلاقي الفطري الموروث من آدم، ولذا لابد لمعرفته هذه من أن يتممها وحيُ كتاب مقدس.

3- لا يتخلى هذا الفساد فهم الإنسان فقط وإنما طبيعته الكلية أيضاً. وبقناعة ترجع إلى القدّيس أوغسطين. كتب كالفن:

لعله يمكن تعريف الخطيئة الأصلية بأنها فساد وفسوق موروثان في طبيعتنا، يمتدان إلى كل أنحاء الروح، مما يجعلنا عرضة لغضب الله، ويحضنا على تلك الأعمال التي يدعوها «الكتاب المقدس» «أعمال الجسد».. ونحن، بسبب هذا الفساد، مدانون بحق في نظر الله. واستحقاقنا العقاب لا ينشأ عن إثم شخص آخر هو آدم، لأنه عندما يقال إن خطيئة آدم هي التي جعلتنا عرضة لعدل الله، فليس المعنى أننا أبرياء ولا لوم علينا، ولكننا نحمل ذنبه. وبهذا المعنى أعلن بولس بصورة معبّرة، بأن «... هكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذا أخطأ الجميع» (رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية 5: 12)، أي تورّطوا في الخطيئة الأصليّة، ونجّسوا.

4- ولكن ليس كل البشر ضالين، فهناك تبرئة إلهية بالإيمان الذي ينقذ بعضهم، وهؤلاء يمكن أن يصلوا درجة القديسين. وتأتي التبرئة الإلهية من خلال عمل المسيح من أجل المؤمن. ولكن الله لا يبرّئ من الخطيئة الأصلية إلا أولئك المؤمنين بالمسيح الذين يصطفيهم ليستقبلهم في استحسان.

5- تُفضي فكرة الاصطفاء هذه إلى المذهب الكالفاني في القضاء والقدر. وقد كتب، «نعني بالقضاء والقدر حكم الله الأبدي، الذي قرّر بنفسه ما شاء أن يحدث فيما يتعلق بكل إنسان. فلا يُخلق كل البشر على أُسس متساوية، بل تُقدَّر الحياة الأبدية لبعضهم منذ الأزل، ولغيرهم اللعنة الأبدية».

6- كان كالفن، مثل أوغسطين، يرى الكنيسة في وجهين. الكنيسة غير المرئية مكوَّنة من كل صفوة الله في السماء والأرض، والكنيسة المرئية هي جماعة المؤمنين المعترفين على الأرض، المنظَّمة وفقاً لكلمة الله في «الكتاب المقدس». وفي الكنيسة المرئية لا تنجّي المؤمنَ أعمالهُ، لأن اصطفاء الله وحده هو الذي ينجّيه. ومع ذلك فهو ينجو من خلال البر المتأتي عن الأعمال الصالحة، لأن هذا البر هو التوكيد على أنه قد حظي باصطفائه. وقد قال كالفن: «إننا لا نُبرَّأ من الخطيئة من دون الأعمال، ومع ذلك لا تبرّئنا الأعمال».

وأفضى هذا التفكير بكالفن إلى أن ينظر إلى الحياة بوقار وجِدّية أكثر من المألوف. فكان الواجب والانضباط الذاتي عنده في أرفع مقام. فعلى الإنسان أن يعيش وكأنه أمام عين الله. والعابثون الذين يُمضون ساعاتهم في الملذّات الدنيوية، ويفضّلون اللعب بأوراق اللعب، والرقص، والحفلات التنكّرية على التأمل الرصين وقراءة «الكتاب المقدس»؛ والعمل بمشيئة الله، يمكن أن يخافوا الأسوأ. ويجب أن يُنظرّ إليهم على أنهم من أتباع الشيطان، ومحكوم عليهم بأن يُصْلوا نيران جهنم للخلاص. بهذا المنطق التطهيري، الذي يبدو أنه لا نجاة منه، بدّل كالفن الحالة النفسيّة لمواطني جنيف إلى حالة الاستقامة التطهّرية المتزمّتة. فلا مجال عند كالفن لمزاح لوثر وضحكه، ولا لصوته الهادر القوي المرفوع في الغناء حول الأرغن. ولا لإحساسه المسرور بانقضاء غضب الله وانسكاب محبته. لقد كان فرح كالفن أمراً أكثر سرّيّة، وسلاماً ورضاً داخليين، ولا يعبَّر عنه في مرح جماعة من الأصحاب البهيجيين. وكان في صفته وتعبيره عقلياً وليس انفعالياً.

وهكذا فقد نشأ في جنيف مجتمع جديد. وبعمل كالفن مع المجالس البلدية العامة والصغيرة، التي كسب بسببها هيمنة متزايدة وفي بعض الأحيان هيمنة عاصفة، أسّس حياة كنسيّة ونظاماً تعليمياً أعطيا جنيف كهانة مدرَّبة وشعباً جرى إعلامه بصورة كافية فيما يتعلّق بدينه ليكون قادراً على تقديم تفسير واضح له. وتدفّق على جنيف من كل أنحاء أوروبا دارسون لاجئون ومنفيون وكأنها ملاذ، ولذلك فإن عدد سكانها الأصليين البالغ ثلاثة عشر ألفاً قد ازداد ستة آلاف. وكان من الرجال الألمعيين الذين قدِموا إليها الفرنسيان تيودور بيزا، أحد

أصحاب المذهب الإنساني البارزين، وكوردييه، ولعله أقدر رجال التربية الأوربيين، وكراتشيولين وهو نبيل إيطالي، والأسباني ميخائيل سيرفيتوس Michael Servetus، الذي لم يكد يصل إلى جنيف حتى حُكم عليه بالإعدام في محاكمة عامة وأُحرق على الخازوق لآرائه المهرطِقة الموحَديّة Unitarian (التي لا تؤمن بالثالوث ولا بألوهية المسيح)، واللاجئ الاسكتلندي جون نوكس.

الإصلاح الديني في فرنسا والبلدان المنخفضة:

وفَد «بيزا» و«كوردييه» على جنيف عندما كانت النيران تُضرَم من أجل بروتستانتيّي فرنسا. فلقد برز الإصلاح الديني بهدوء إلى حد ما في ذلك البلد، ولكنه كان يؤذن باجتياح سريع للبلاد التي صارت على شفا الغرق في الدم. عندما زج كلاً من الطرفين قواته في الصراع وعمت الحرب الأهلية في فرنسا. وقد تبنّى «الفرنسيون البروتستانت» Huguenotes تصوُّر كالفن للتنظيم الكنسي على نحو أكمل بكثير مما جرى تبنّيه في جنيف. ودعا التجمع الديني المحلي كهنته من خلال الشيوخ والشمامسة الذين شكلّوا «المجلس الكنسي»[1]. انتبه رجال الكهنوت والنبلاء إلى الخطر، ولا سيما آل «غيز» Guise الكاثوليكيون المتحمسين، وعلى الرغم من جهود كاترين ده ميديتشي، والدة الملك، للمحافظة على السلام بمنح «الفرنسيين البروتستانت» حق العبادة في بعض المحلاّت، فقد أثار آل غيز، بتشجيع من إسبانيا، سلسلة من الحروب الأهلية، ولم تكن هذه الحروب حاسمة، لأن «الفرنسيين البرتستانت» قد أحرزوا سيطرة

(1) لقد اقترح كالفن إحياء الكهنوت البسيط المثلّث لكنيسة القرون الأولى، وهو تجمّع ديني يحكمه أسقف أو قسيس، ومجلس للشيوخ، وهيئة للشمّاسين. وكان هذا ما تبنّاه الفرنسيون البروتستانت. جماعة من المؤمنين، وكاهن، و«مجلس كنسي» للشيوخ الشماسين، ووعظ منتظم، والمناسك المقدسة التي تدار على الوجه الصحيح جعلت الكنيسة تتأسس كما ينبغي وكان «المجلس الكنسي» مؤلفاً من الشيوخ المكلّفين بالإشراف الروحي على الجماعة، والشماسين الذين يهتمون بالفقراء والمرضى. وكان الشيوخ والسمّاسون يختارون أعضاء التجمع الديني، والكاهن يختاره الشيوخ والشمّاسون. لقد كان هذا التنظيم ديمقراطية مسيحية، ومن الطبيعي أن يعارضها الملك والأساقفة.

محلية على عدد من المدن المحصّنة لأنه كان في خدمتهم قواد عسكريون مقتدرون جداً، لا سيما الأميرال غاسبار دو كوليني وأمير كونديه. وحدث في العام 1572، أن تعهّدت كاترين، وهي لا تزال تبحث عن حماية مصالح أسرتها في القصر والبلد، بزواج ابنتها مارغريت ب «هنري دو نافار» من آل بوربون وهو «فرنسي بروتستانتي» (ولكن ليس بثبات شديد). ومن أجل العرس تجمّع الكاثوليك والبروتستانت في باريس. وفي أثناء الاحتفال بعد عقد الزواج أخفقت محاولة اغتيال كوليني. «ففي اللحظة الحرجة انحنى لتعديل حذائه». وقامت كاترين، وهي مذعورة من فكرة الانتقام البروتستانتي والأذى الممكن أن يلحق بأسرتها، بإقناع الملك الضعيف شارل التاسع بأن يأمر ب «مذبحة القديس بارتولوميو» (في آب 1572)، والتي يقال إنها أودت بحياة عشرين ألفاً من البروتستانت، وفي جملتهم الأميرال كوليني في باريس، وآلافاً من «الفرنسيين البروتستانت» Huguenotes في كل أرجاء فرنسا. ولكن على الرغم من أن التأثير السياسي الدولي لهذه المحاولة العنيفة للسيطرة على الوضع الداخلي في فرنسا كان موقفاً للمصلحة الكاثوليكية العامة، فقد أخفق في كبح الفرنسيين البروتستانت، الذين استمروا في القتال خمس حروب إضافية حتى كان لهم في النهاية أن يحققوا بـ«مرسوم نانت» (1598) فوزاً بحرية الضمير الكاملة، وبالحقوق المدنيّة التامة، والسيطرة على مئتي مدينة. ولم تزدد قوة البروتستانتية في فرنسا، ولكنها حظيت بحماية الدولة. ومهما يكن، فإن الملك لويس الرابع عشر قد ألغى «مرسوم نانت» سنة 1685، فسبّب في هجرة «الفرنسيين البروتستانت» في أعداد كبيرة (نحو مئتي ألف منهم) إلى سويسرا، وإنكلترا، وهولندا، وجنوب أفريقيا، وبروسيا، وأمريكا الشمالية، ولن تُستردّ الحقوق البروتستانتية حتى زمن نابليون.

وكان الصراع مريراً في «البلدان المنخفضة» كذلك. وكان الأسبان مسيطرين عليها، وقد عَزَمَ الإمبراطور شارل الخامس وابنه فيليب ملك أسبانيا على استئصال العقيدة الإصلاحية كلما أسفرت عن وجودها. وكان الناس في «هولندا» بمعنى من المعاني يتأهبّون للإصلاح الديني بحركة «إخوان الحياة

المشتركة» التي تمّ وصفها منذ قليل. وقد عبّر الإخوان فيها عما كنته الحركة الشعبية باتجاه الورع الشخصي، مصحوباً بمحبة قوية للتعلّم من «الكتاب المقدس». وكانت كتابات لوثر يجري تداولها بتشوّق عند ظهورها، وبعدئذٍ حظي تسفنغلي بأتباع مخلصين. ويعدّ هناك تصوُّر كالفن للتنظيم الكنسي الذي كان من شأنه أن يسود لاحقاً. وكان بعض سكان البلدان المنخفضة منجذبين إلى البروتستانتيين الراديكاليين الذين لا يؤمنون بتعميد الأطفال بل تعميد البالغين. وحدث تمرد مكشوف عندما أرسل فيليب الثاني «دوقَ ألفا» القاسي لقمع كل شكل من أشكال البدعة مهما كان الثمن الضروري لذلك من الدم. وكان الصراع طويلاً، ولكن كان في مقدور «وليم الصامت» أن يشكل أخيراً مجموعة من الدول الشمالية، التي نالت الاستقلال كدولة هولندا. وصارت هولندا بلداً كالفانياً، صلباً ومعتمداً على الذات، وله كنائسه (الإصلاحية الهولندية) المنظَّمة على المبادئ الديمقراطية التي تأسَّست بين البروتستانت الفرنسيين.

الإصلاح الديني في اسكتلندا:

كانت حالة اسكتلندا حرجة من بعض الوجوه فيما يتعلق بالإصلاح البروتستانتي. فقد بدا للكثيرين في ذلك الزمان أنه من الممكن جداً لملكة الاسكتلنديين ماري، سواء بزواجها بفرنسيس الثاني ملك فرنسا (الذي صارت من خلاله موالية للحزب الكاثوليكي الفرنسي في السياسة الأوروبية) أو بمطالبتها بالعرش الإنكليزي باعتبارها من آل ستيوارت (وهو أمر لم تكن قادرة على تحقيقه)، أن تعيد اسكتلندا وإنكلترا إلى الحظيرة الكاثوليكية.

على أن زواج ماري بالملك الفرنسي قد أعطى البروتستانت في اسكتلندا بالفعل فرصة لم يكونوا بطيئين في اغتنامها. كانت غائبة مدة طويلة في فرنسا، وفي غضون ذلك قاد جون نوكس أحداث تطوير سريع في الكنيسة الكالفنية، ولم يُدخل نوكس الإصلاح البروتستانتي في اسكتلندا، بل كان هو ذاته نتاجاً له. وقد اعتقلته في شبابه قوة فرنسية أُرسلت إلى اسكتلندا للقبض على جماعة من المتمردين البروتستانت فيها، فنُقل إلى فرنسا وأُرغم على التجديف في السفن

الطويلة تسعة عشر شهراً مريراً. وعندما أُخلي سبيله، ذهب إلى إنكلترا، التي كانت تحت الحكم البروتستانتي لإدوارد السادس، وخدم في مدن مختلفة بوصفه قسّيساً ملكياً خاصاً. وعندما تبوأت ماري تيودور العرش فرّ إلى أوروبا متجهاً إلى جنيف، حيث أصبح تلميذاً متحمساً لكالفن، وعاد في النهاية إلى اسكتلندا. وفي العام 1560، بعد زمن ليس بالطويل من عودته، حظي بالنصر الكبير في إقرار المجلس النيابي الاسكتلندي «بشهادة الإيمان» التي جاهر ويؤمن بها البروتستانت ضمن مملكة اسكتلندا، والتي أعدها هو وخمسة رجال آخرون. وقد بقيت هذه الشهادة بمثابة صيغة لعقيدة الكنيسة في اسكتلندا حتى حل محلّها «شهادة وستمنستر» سنة 1647. وبعد أسبوع قرر المجلس النيابي أنه «ليس لأساقفة روما حق التصرف القضائي ولا السلطة في هذه المملكة»، وحظر عليهم القول، أو السماع، أو الوجود في القداس. وفي آخر الأمر طُرد الأساقفة والخوارنة الروم الكاثوليك من أراضي الكنيسة، التي آلت إلى مُلكية النبلاء الاسكتلنديين.

وفي التطورات اللاحقة تمّ إيجاد النظام المسمّى «المشيخي» في الحكم الكنسي على مستوى قومي. وقد أسّس في شكله الكامل ديمقراطية تمثيلية. فكان التجمع الديني ينتخب ويسمّي الكاهن، الذي يكون بعدئذٍ مسؤولاً وحده عن سير العبادة العامة. ولكن هذه المسؤولية كانت صلاحيته الوحيدة غير المجدودة. فكانت كل الأمور المحلّية التي تؤثّر في انتظام الأبرشية وإدارتها في عهدة مجلس كنيسة، يتألّف من الكاهن الذي يترأسّه، ومن الشيوخ، الذي يتمّ اختيارهم بالانتخاب. وفوق مجلس الكنيسة كانت «المشيخيّة»، التي تتألّف من كهنة منطقة معيّنة ومن عدد مماثل من الشيوخ الذين يمثّلون كل أبرشية. وفوق المشيخيّات كان «المجمع الكنسي» Synod، الذي له السلطة على مجموعات معيَّنة من المشيخيّات، وفوق كل ذلك كانت «الجمعية العمومية»، وهي المحكمة العليا للكنيسة القومية، وتتألف من كهنة مفوَّضين ومن عدد يساوي عددهم من الشيوخ. وكان مركز الجاذبية في هذا التنظيم هو المشيخيّة، التي كانت صغيرة بصورة كافية لكي تكون ممثّلة لمحليّتها تمثيلاً حيوياً، وكبيرة بصورة كافية لتكون فيها وفرة قتالية عندما يتعرض بقاؤها للخطر.

وكانت لحظة سيئة للمصلحين الاسكتلنديين عندما عادت ملكة اسكتلندا ماري الفاتنة والتي تحسب للأمر حساباً مقدَّماً من فرنسا أرملةً. كانوا يعلمون أنها كاثوليكية مخلصة وتنوي الإطاحة بالبروتستانتية في اسكتلندا إذا وجدت إلى ذلك سبيلاً. وعندما وصلت سلكت في البداية مسلكاً معتدلاً، فلم تُصِرّ إلا على إقامة قُدّاس لأسرتها ووعدت بالمحافظة في الأمكنة الأخرى على القوانين التي جعلت ذلك غير شرعي في اسكتلندا. واستدعى «نوكس» إلى خمس مقابلات استخدمت فيها كل براعتها لتستميله إلى جانبها، ولكنه ظل ثابتاً في معارضته لأي تساهل مع البابوية. وفي نواح أخرى كانت ماري أكثر نجاحاً ولعلها كانت ستفوز بكل شيء لو لم تسقط في الخزي من خلال مكيدتها مع «بوثويل». وعزلت لمصلحة ابنها البالغ سنة من العمر، والذي أصبح بعدئذٍ ملك إنكلترا جيمس الأول. ومع سقوطها استعادت القوى البروتستانتية قوّتها، وصارت اسكتلندا مكاناً آمناً للإصلاح الديني الاسكتلندي.

وفي تلك الأثناء، فاز الإصلاح الديني الإنكليزي بموطئ قدم ثابتة مماثلة.

الإصلاح الديني الإنكليزي:

كان الإصلاح الديني الإنكليزي نتيجة محتومة إلى هذا الحدّ أو ذلك من النتائج التي تنمو بقوة اعتماداً على المصادفات. وقد فتح الهوى الشخصي للملك الطريق أمام الثورة الدينية التي أرادتها الأمة من حيث الأساس. وقام الزعماء الإنكليز، بما عُهد فيهم من شدة الاعتدال، بتغذية الرغبة في التمتع على الأقلّ بالحدّ الذي وصل إليه البروتستانت في سائر أوروبا من تقرير المصير الديني، ومع ذلك فقد كانوا يُذعنون لأشكال التمسكّ بالقانون في حياتهم القومية ويتريّثون صابرين، في مآل الأمر، أعلنوا عن إرادتهم عندما سنحت الفرصة.

وأقسم هنري الثامن الذي لا وازع له، وقد استبدّت به رغبة شخصية في تغيير وضعه الزوجي، أنه إذا لم تفسخ الإدارة البابوية في روما زواجه ب «كاترين أوف أرغون» لكي يتزوج من «آن بولين»، فإنه سوف ينسلخ عن البابا. ورفضت الإدارة البابوية طلبه، ولم يتردّد هنري في التصرف، ومع أن الكثير مما فعله

وقاله قد صدم كل أطياف الرأي في الأمة، فقد كانت معه عناصر قوية من شعبه عندما جاء إلى المجلس النيابي ليعلن أن «أسقف روما» ليس له من سلطة في إنكلترا أوسع مدى من سلطة أي كاهن أجنبي، وأن الرئيس الحقيقي الوحيد لكنيسة إنكلترا هو ملك إنكلترا، وأن الأساقفة في إنكلترا سوف يُعينون من قبل الملك من الآن فصاعداً وسوف يقسمون على الطاعة له بدلاً من البابا، وأن إنكار سيادة الملك في الكنيسة عمل من أعمال الخيانة العظمى. وسرعان ما حظي هنري بتأييد الكثير من النبلاء في بلده بقمعه في البداية الأديرة في مملكته ثم بتوزيعه هبات سخية من الأرض على هؤلاء النبلاء من الأملاك الكبيرة التي صودرت من الأديرة. وإلى جانب ظفره بهؤلاء المؤيدين الأقوياء، قطع الضرائب البابوية عن روما وأشبع رغبة الشعب الإنكليزي المتزايدة في تقرير المصير القومي في كل الأمور.

ولكن هنري الثامن كان من الوجهة اللاهوتية محافظاً. ولم يكن يقصد أن تكون هناك قطيعة مذهبية مع الماضي تتلازم مع قطيعته لسلطة البابا. وفي العام 1539 حظي بإقرار برلماني لما هو معروف ب «التشريع الدموي». وقد نصّ على أن مذهب تحوُّل الخبز والخمر في الآكل والشارب إلى جسد المسيح ودمه هو عقيدة إنكلترا وأن إنكار ذلك يعاقب عليه بالإحراق على الخازوق ومصادرة السلع. وكان التنازل الكبير الوحيد الذي قام به حيال الآراء التحررية، بالإضافة إلى انسلاخه عن روما، هو توفير نسخة من «الكتاب المقدس» بالإنكليزية توضع في كل الكنائس[1]. وقد قُتل الكثيرون من أتباع لوثر الإنكليز ومن الإصلاحيين السويسريين الكالفانيين بموجب «التشريع الدموي». وفرّ الأكثر منهم إلى سائر أوروبا، حيث وجدوا أهم ملاذ لهم في سويسرا.

---

(1) ما يعرف ب«الكتاب المقدس الكبير»، وهو مستمد إلى حد كبير من ترجمة المترجم تيندال Tyndale، ولكن مع بعض أجزاء مأخوذة من ترجمة المترجم غوفردال Gouverdale.

وعاد هؤلاء المنفيّون عندما خلف هنري ابنَه إدوارد، البالغ من العمر تسعِ سنوات، لأنه صار واضحاً أنه في ظلّ الوصاية المقرَّرة على الملك الحدَث سوف تتحوّل السياسة القومية من الوجهة الديني إلى اليسار. وكان مستشارو الملك اليافع، ولا سيما «سومرست» و «نورثمبلاند» يحبّذون التغييرات المذهبية والسياسية بقوة. فأُلغي «التشريع الدموي»، وسُمح بالمشاركة في العشاء الربّاني بنوعيه، ووُضع حدّ للقُدّاسات الخاصة، ونُزعت الصور من الكنائس بوصفها شواهد على الوثنية البابوية. ولكن إدوارد توفّي وهو في الخامسة عشرة فقط وخَلَفَتْه أخته ماري، وهي كاثوليكية متحمسة، أحبّت وتزّوجت وليّ العهد الأسباني[1]. فقادت العودة إلى روما بإعادة ولاية البابا على الكنائس الإنكليزية، وهي ذاتها استحقّت لقب «ماري الدموية» للقسوة التي كان البروتستانت البارزون يقبَض عليهم بناء على أمرها ويُحرَقون على الخازوق. وعندما توفيّت بعد حكم قصير قِصَر مدة حكم إدوارد، فإن أختها إليزابيث، ابنة «آن بولين»، قد أوصلت الأمة أخيراً إلى الحظيرة البروتستانتية. وقامت «الملكة الصالحة بِسْ» Good Queen Bess، كما كان رعيّتها يطلقون عليها تحبباً، بإتمام العمل الناقص في حكم أخيها اليافع. ونُقّح «كتاب الصلاة» الذي وُضع في عهد إدوارد الرابع حتى يصير مستساغاً عند الكاثوليك والبروتستانت على حد سواء، ونُشر تحت اسم «كتاب الصلاة المشتركة»، الذي أوعز «قانون التماثل سنة 1559» باستخدامه في كل الكنائس من دون تخالف أو انحراف. وكانت معتقدات الكنيسة يتمّ الإعراب عنها بوضوح في عبارة شهادة الإيمان الشهيرة، «الثالوث ـ تسعة بنود لكنيسة إنكلترا»، التي هي إلى هذا اليوم تلخيص بأمر رسمي لمعتقداتها. وظلت إنكلترا بروتستانتية منذ ذلك الحين فصاعداً، حتى عندما كان الملوك الكاثوليك يعتلون العرش.

(1) ابن شارل الخامس، الذي سرعان ما أصبح فيليب الثاني المتعصّب.

الراديكاليون البروتستانت:

عندما كانت حركات الإصلاح الديني القومية التي وصفناها تتوصّل بطريقة أو بأخرى إلى اتفاق مع السلطات المدنيّة، كان الباحثون الهادئون في الكتب المقدسة في كل أنحاء أوروبا يجدون طريقهم إلى قطيعة جذرية أكثر بكثير من السلطة القائمة. وكان بعضهم تحركه «كلمة الله» الحية في نفوسهم، واتّبع بعضهم الآخر العقل وحده.

ومن المذكورين أولاً كان أتباع مذهب عدم الإيمان بتعميد الأطفال والإيمان بتعميد البالغين فقط (حرفياً المعمِّدون من جديدrebaptizers)، وهم جماعات ضمّت إلى عضويتها من الناس العاديين – الفلاحين والحِرفيين- وقادها في بادئ الأمر أقرب أصحاب لوثر وتسفنغلي. وفهم جُلّهم «العهد الجديد» بحَرفْية وجِدّية كبيرة، وقرروا عدم مغادرة طريقة الحياة التي رأوها مصوَّرة فيه أبداً. وشعر آخرون أنهم لا يرتبطون على هذا النحو ب«حرف» الكتاب المقدس، لأن «الكلمة» هي «روح حية» لا تنحصر في الكتاب المقدّس بل يعبَّر عنها فيه ولا توجد بالتساوي في كل أجزائه. و«كلمة الله» الحية مسموعة في الشخصيات النبوية وفي الوعي الداخلي لكل الذين يبرّئهم الإيمان.

وكان يبدو لكلِ أتباع مذهب عدم الإيمان بتعميد الأطفال أن المستلزَم الأول ليكون المرء مسيحياً هو أن يفهم في ذهنه بوضوح معنى كل جانب من جوانب الحياة والممارسة المسيحية ثم يعمل بمقتضى ذلك الفهم مهما كان الثمن. وكانوا يعتقدون أن الطقوس والشعائر لها معنى واضح عند المشاركين فيها وإلا كفّت عن أن تكون حقيقية وحيوية. وعلى ذلك فقد رفضوا معمودية الطفل الصغير، فمن الواضح أن الرضيع لا يستطيع أن يفهم معنى ما يحدث، ولذا لا يمكن أن تعني الشَّعيرة شيئاً. وهكذا فالذين عُمّدوا في الطفولة الباكرة، سوف يقومون بأكملهم بتعميد بعضهم لبعض مرة أخرى (ومن هنا جاء الاسم الذي يحملونه). وكانوا يعتقدون أن الفهم الواضح والإخلاص، في المجال الأوسع للسلوك، هي بالضبط ما تمسّ الحاجة إليهما. و«العهد الجديد» يعلّم مبدأ التغلّب على

الشرّ بالخير بدلاً من مقاومة ظلم بظلم آخر. وقد استخلص معظم أتباع مذهب عدم تعميد الأطفال أن عليهم عدم الالتحاق بالقوات المسلّحة للدولة، وعدم الاشتراك في الحرب بأي طريقة أبداً، أو حتى عدم أخذ دور في الإدارة المدنيّة في زمن السلم، بسبب سياسة القوة التي تتبنّاها كل الدول. ووجدوا أن «العهد الجديد» يستوجب عدم حلف الأيمان، ولذلك فإنهم عندما يُدْعَون إلى المحكمة فإنهم بدلاً من أن يحلفوا فإن كلمتهم البسيطة تعدّ حقيقة، فقولهم «نعم» هو «نعم» وقولهم «لا» هو «لا». ولأن الذين لا يؤمنون بتعميد الأطفال يعتقدون أن القساوسة والكهنة ميالون إلى إرضاء السلطات الدنيوية والقيام بالحلول الوسط في المجالات الحيوية، فقد كانوا مناوئين للكهنوت ويلتقون في بيوتهم خارج المناطق الكنسيّة المعهودة، وكانت الكنائس بالنسبة إليهم «دوراً صومعية» تظهر اختلافات كالاختلافات حول المعنى الحرفي ل«الكتاب المقدس». فيفهم بعضهم، مثلاً، بحرفية أشدّ من الآخرين المقاطع النبوئية التي تؤمن بمجيء المسيح وحكمه العالم ألف سنة في «العهد الجديد» والمعبّرة عن توقّع أن يعود المسيح على غيمات السماء ليكون الحاكم في يوم القيامة. ومارس غيرهم شيوعية الأخوّة المسيحية الباكرة في أورشليم. وأحياناً، يعلن أحد أتباع مذهب عدم تعميد الأطفال أنه نبي، كما فعل نابه الذكر «هانس هت» **Hans hut** الذي كسب الكثيرين من الطبقة العاملة في النمسا والأجزاء المجاورة لها من ألمانيا لرؤيته أن الغزو التركي سوف يليه ظهور المسيح للاحتفال بافتتاح السنوات الألف التي سيحكم فيها المسيح الأرض.

إن القطيعة التي أحدثها أصحاب عدم الإيمان بتعميد الأطفال مع الكنائس ومع الدولة (ومن ثم كانوا يحملون كذلك اسم الانفصاليين) والآراء الراديكالية التي اعتنقها الكثيرون قد أدّت إلى الاضطهاد الشديد لهم. لقد افترق لوثر عنهم، أو بالأحرى، افترقوا عنه. واشترك تسفنغلي معهم في مناقشات عامة مريرة، كان يليها عادةً قرار من السلطات الكانتونية السويسرية بأن آراءه وحدها هي التي يُعترف بأنها مباحة قانوناً، وقد نُفِّذ حكم الإعدام بحق بعض أصحاب مذهب عدم تعميد الأطفال بوصفهم مجرمين. وفي العام 1527 أُعدم فيلكس مانتس

غرقاً في زوريخ، وأُحرق ميشيل سامكر وأُغرقت زوجته في «روتنبورغ»، وفي العام التالي لقي بالتازار هوبماير وزوجته المصير ذاته في فيينا. وبعد سنة أُحرق غيورغ بلاوروك في إقليم التيرول في النمسا. وقامت مجموعة يائسة من أصحاب المذهب الذي لا يعمدّ الأطفال ويؤمن بسنوات حكم المسيح الألف بالاستيلاء على السلطة في مدينة مونستر الألمانية وثوّرت تثويراً جذرياً كلتا الحياتين الدينية والاجتماعية فيها حتى وحّد الكاثوليك واللوثريون قوتهما في هجوم عنيف على المدينة وأعدموا الزعماء بالتعذيب. وإن السلوك الغريب لهؤلاء الزعماء، المتّسم كما كان بالشيوعية، وتعدّد الزوجات، والعنف، قد أعطى مذهب تعميد الأطفال سمعة سيئة لا يستحقّها في أوروبا.

وفيما بعد، فإن هذه السمعة السيئة قد كفّر عنها جزئياً زعيم لطيف وعاقل لمذهب عمد تعميد الأطفال هو مينّو سيمونز Menno Simons (1492 - 1547)، الذي أُطلق على أتباعه من بعده في هولندا والولايات المتحدة المينونيين Mennoniats. وكانوا سلميين اعتنقوا اللاهوت الأرمينيوسي (نسبة إلى أرمينيوس Arminius) الذي لطَّف قسوة الكالفانية، ومارس تسامح شخص مع شخص مكّن المينّونيين، بمحبة مسيحية بسيطة، من إيواء منفيين أمثال اليهودي المغرَّب عن بلده سبينوزا وبعض اللاجئين من الانفصاليين الإنكليز.

ولكن الثورة الرافضة لتعميد الأطفال لم تكن وحدها المعبرة عن المسيحية الراديكالية. فقد وُضع في تلك الآونة أساس الحركة «الموحِّدية». وفي زمن مبكّر من تاريخ الإصلاح الديني لم تكن في معتقدات المصلحين قد ثبتت بعدُ في أشكال معيَّنة، مثل «شهادة إيمان أوغسبورغ»، أو «كتاب هايدلبرغ لتعليم الدين بالأسئلة والأجوبة»، ولم يكن واضحاً بعد مدى الابتعاد المذهبي عن العقائد الكاثوليكية القطعيّة. قال بعض الأشخاص من ذوي العقول النشطة بأن يكون العقل غير المقيَّد مرشداً مطلقاً للبناء الجديد والسديد في اللاهوت. وكان من هؤلاء ميخائيل سِرْفتوس الذي رأينا أنه أُحرق على الخازوق في جنيف الكالفنية. فهذا الأسباني بالولادة قد صَدَمه، لدى قراءته الدقيقة لـ«العهد الجديد»، أن العقيدة النقية في الثالوث، التي باسمها أُحرق الكثيرون من أبناء بلده أو تمَّ نفيهم،

ليست موجودة في «العهد الجديد»، فضلاً عن أن لديه مآخذ على العقيدة ذاتها. ولذلك دوّن أفكاره بسرّية وجرأة إلى حد المخاطرة، وفي العام 1531 نشر رسالته الهرطوقية الشهيرة «بشأن أخطاء الثالوث». وسافر إلى سويسرا آملاً في أن يستميل إليه المصلحين، ولكنه وَجَد الزعماء الذين قابلهم باردين، مع أنهم لم يلتزموا بعدُ بأي موقف واضح. ولم يستطع سِرفتوس أن يتصوّر كيف أخفق تفكيره في أن يكون مقنعاً. فقد ظنّ أن عقيدة الثالوث انحراف كاثوليكي وظنّ نفسه مسيحيَّ «العهد الجديد» الصالح الذي يقوم بمقاومة هذا الانحراف. وكان هو ذاته بعيداً عن إنكار ألوهية المسيح. ووفقاً لتصوّره، فإن الثالوث المؤلّف من ثلاثة أشخاص في شخص الله الواحد هو محال عقلياً، واقترح بدلاً عن ذلك «تجلياً للجوهر الحقيقي لله في الكلمة (أو المسيح) وتوصيله بالروح القدس». وهي رؤية بدا له أنها تُبقي على الألوهية في المسيح من دون المساس بوحدانيّة الله. واعتقد أنه لا يبدو أن هناك سبباً وجيهاً لإنكار الولادة البتولية أو المعجزات.

وعندما وجد سِرفتوس نفسه في حالة خطر بدّل اسمه، وذهب إلى فرنسا، ودرس الطب ومارسه بنجاح، وأصبح العالم الأول الذي يقدّم نظرية الدورة الرئوية للدم. وفي تلك الأثناء، كانت «محكمة التفتيش» تبحث عنه، ومن واعي الاحتراس والحذر، فإنه عندما راسل كالفن مراسلة لاذعة وبالنسبة إليه قاتلة، فإنه كان يكتب تحت اسم مستعار. ولكن أصدقاء كالفن تحرُّوا عنه، وتعرّفوا إلى هويّته، مما اضطره إلى الفرار. وفي تلك المرحلة، لم يكن وضع كالفن في جنيف آمناً على وجه الإجمال، ولهذا السبب ولسبب آخر ذهب سِرفتوس إلى جنيف، وما ذلك إلى ليقع في ورطة مع مؤيدي كالفن، ويصدر بحقه حكم الإدانة بموافقة كالفن، ويُعدم على الخازوق (1553).

لم يكن سِرفتوس مرتبطاً بجماعة منظَّمة. كان شخصاً فردياً إلى حد ما وكان يعمل وحده. ولكن كتاباته حَرَّكت الجماعات المناوئة للمثلثيين التي وُجدت من قبل، والتي عندما تتعرض للاضطهاد سواء من محكمة التفتيش أو من البروتستانت تلجأ إلى المنطقتين الوحيدتين اللتين كانتا تؤويانهم في ذلك الزمان، وهما بولونيا وترانسيلفانيا، التي هي الآن جزء من رومانيا. وكان بعضهم

يتّخذ الموقف الأريوسي، الذي كان يقول بأنه قبل التجسد كان المسيح ينبثق من الآب ويخضع له. وأنكر غيرهم الوجود المسبَّق للمسيح ولكنهم اعتقدوا أنه يجب أن يُعبّد بوصفه مولوداً من العذراء وناهضاً من بين الأموات إلى يمين الله (ومن ثم أُطلق عليهم «العابدين»). وبعدُ هناك غيرهم (غير العابدين)، كان يقودهم واعظ ترانسيلفاني عظيم هو فرنسيس دافيد، ولا يعبدون إلا الله، لأن المسيح بالنسبة إليهم ليس الله، بل هو إنسان وُلد من يوسف ومريم، ونما إلى كمال القدرات الإلهية ـ وهي رؤية يشاركون فيها بعض الرافضين لتعميد الأطفال وهي شائعة عند «الموحِّدون» اليوم. وكان التوفيق بين هذه الآراء المتشبّعة هو إلى حد كبير ما أنجزوه «فاوستوس سوسينوس» Faustus Socinus (1539 - 1604)، الذي استقر في مآل الأمر في بولونيا بعد عيشه في سويسرا وترانسيلفانيا. وقد أنكر الوجود المسبَّق للمسيح، معتقداً أنه كان إنساناً فقط، ولكنه جَزَم، بيقين أكبر، أن حياة المسيح يُقتدى بها وأن وعيه كان يفيض بالحكمة الإلهية بشدة حتى بُعث من الأموات منتصراً ورُفع إلى يمين الله، وهكذا يمكن أن يعبده المرء ويوجّه إليه صلواته، شُرح هذا الموقف الوسطي وتبيّين أنه مقبول على نطاق واسع، وأصبح معروفاً بأنه «السوسيونوسية».

وكانت بولونيا آنذاك ملاذاً مضيافاً للمضطهدين، وفي مناخ حرية الفكر هذا لقيت هذه الآراء استقبالاً دافئاً. ولكن بعد 1632 عاد الكاثوليك إلى السلطة، وكان «الموحِّدون» يُقْمَعون، مع كل البروتستانت الآخرين في بولونيا.

الإصلاح الديني الكاثوليكي:

أفضى الإصلاح البروتستانتي إلى اشتداد النقد الذاتي الكاثوليكي المستتر وآثار الدعوة على امتداد الكنيسة إلى الإصلاح. على أن البابوات لم يكونوا من العوامل المحرِّكة، بل كانوا في موقف دفاعي إلى حد بعيد. وكان الإمبراطور شارل الخامس، الجزع شأن قسطنطين في القرن الرابع من أن تؤول الحال إلى التصدّع، يتوخّى الإصلاحات في الكنيسة بجِدّية ويَنشد إعادة تحديد المذهب الكاثوليكي لمواجهة الدعوة البروتستانتية الخطيرة. ولم يصل إلى هذا الموقف إلا بعد مساعيه المطوَّلة لإحداث توفيق بين الكاثوليك والبروتستانت على أساس

أن الإصلاحات المطروحة قد أخفقت. وكان وهو من قام بالضغط على البابا بولس الثالث للدعوة إلى «مجمع ترنت».

وكان هذا الضغط حاسماً، لأنه كانت وراءه كل القوة المتجمعة التي ولّدتها الصيحات من أجل الإصلاح، سواء منها الكهنوتية أو المدنيّة، والتي كانت مسموعة في أوروبا قروناً. وكان «جون ويكليف»، «جون هس»، و«سافونارولا»، و«إراسموس»، إذا لم نذكر لوثر وتسفنغلي قبل أن يتركا الكنيسة الأم، هم ببساطة أقوى الشخصيات بين من حضّوا على الإصلاح. ولكن الإصلاح الكاثوليكي (الذي ينعته البروتستانت بالإصلاح الديني المضاد) لم ينطلق حتى منحته الزخمَ تلك القوى العازمة على الإصلاح والتنوير والمحاربة في سبيلهما في أسبانيا، حيث أعقب طرد العرب منها في القرن الخامس عشر إصلاح الكهنوت بزعامة «خيمنز Ximens»، رئيس أساقفة توليدو العظيم وكاهن اعتراف الملكة إيزابيلا. فتطهّرت الكنيسة الأسبانية من الرهبان والقساوسة المشينين، وتأسّست الجامعات لتدريب رجال الكهنوت، وصارت وحدة الكنيسة والدولة في ظل فردينان وإيزابيلا وثيقة جداً، وتمّ العثور على الوسيلة التي تُبقي الكنيسة والدولة مطهَّرتين من خلال إعادة تنظيم «محكمة التفتيش» على أساس قومي، والتي يعين الملوك الأسبان مفتشيها. وكانت النتيجة هي إعادة القوة إلى الكنيسة الأسبانية لمجاراة الصعود السريع لأسبانيا ذاتها إلى موقع القوة الأولى في أوروبا. ولذلك عندما صار الملك الأسباني إمبراطوراً رومانياً مقدساً، في شخص شارل الخامس، المدافع على الإصلاح، بأشدّ ما يمكن من الإلحاح بسبب الخطر البروتستانتيّ المهدِّد، فقد أمّن الدعم القوي.

أ- مجمع ترِنْت. عندما حصل شارل الخامس من البابا بولس الثالث على دعوة مجمع ترنت سنة 1545، كان يأمل أولاً أن يحصل على الإصلاحات المطلوبة وبعدئذٍ إعادة صياغة الموقف الكاثوليكي. وكان على هذا النحو يخطّط ليتصالح مع الزعامة البروتستانتية وليشفع انتصاراته العسكرية على الأمراء الألمان البروتستانت بعمل سيكولوجي بارع يعيد المتمردين الجامحين إلى الحظيرة الكاثوليكية. ولكن الزعماء الكاثوليك ألحّوا على أن تناقَش العقيدة بالتناوب مع

الإصلاح جاعلين إحداث تسوية سريعة مع البروتستانت أمر محال من خلال إعادة صياغة صارمة للمعتقدات الكاثوليكية القروسطية. والتقى المجمع مدة تزيد على ثماني عشرة سنة (1545 – 1563) وأعلن ذلك:

1- إن التراث الكاثوليكي مساوٍ للكتاب المقدس في أنه مصدر للحقيقة وللسلطة على الحياة المسيحيّة.

2- إن الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس في القرن الرابع الميلادي هي القانون الكنسي المقدس.

3- للكنيسة الكاثوليكية وحدها الحق في تأويل الكتاب المقدس.

4- المناسك المقدّسة هي المناسك السبعة التي تُقرّها الكنيسة القروسطية، وليست مَنْسكي البروتستانت[1]. وهي، كما أعلن توما الأكويني، الأشكال المرئيّة للنعمة غير المرئيّة التي يُنعم بها من خلال الكنيسة على المستحقّين.

5- تعتمد التبرئة على الإيمان، ولكن ليس على الإيمان وحده، كما يجزم البروتستانت.

ب- إعادة تنظيم محكمة التفتيش. في العام 1542 اقتنع البابا بولس الثالث من مستشاريه بأن يعيد تنظيم محكمة التفتيش على مستوى يجعل استخدامها الفوري ممكناً في أي جزء من أوروبا حيث تطلبه السلطات المدنيّة أو تريد مساندته. وهكذا ظفر الإصلاح الديني الكاثوليكي بالوسائل الذي يمكن بها للمناطق الكاثوليكية أن تتطهّر من البروتستانت. وكان البلد الأول الذي تطهّر على هذا النحو هو إيطاليا.

ج- اليسوعيون والمنظمات الدينية الأخرى. كان مما له أهميته العظمى لإحياء الروح والحماسة الكاثوليكية هو نشوء المنظّمات الدينية، وكانت أشهرها المنظمة الرهبانية اليسوعية التي أسّسها اللاهوتي القديس إغناطيوس لويولا.

---

(1) إن المناسك الكاثوليكية الرومانية هي المعمودية، والقربان المقدس، وتثبيت المعمودية، والزواج، ورسامة الكهنوت، والكفّارة، ومسح المتحضر بالزيت المقدس. والمنسكان البروتستانتيان المقدسان هما المعمودية والعشاء الرباني.

اليسوعيّون:

كان لويولا (1491 - 1556) نبيلاً أسبانيا، وبعد أن كان وصيفاً في بلاط فردينان وإيزابيلا، أصبح جندياً وجُرح جرحاً بليغاً في إحدى المعارك مع الفرنسيين. وفي أثناء النقاهة قرأ عن حياة المسيح، والقديس دومينيك، والقديس فرنسيس وقرر أن يصير «فارساً من فرسان العذراء». وعلى ذلك علّق أسلحته على مذبح العذراء في «مونسِرّات» وبدأ في ديرٍ دومينيكي تأملاته في حياة المسيح وأعماله. وعندما أخذ يشعر وهو في رحلة إلى القدس بالحاجة إلى المزيد من التعلم، أسرع إلى الوطن ليدرس في أسبانيا وفي جامعة باريس. وجمع حوله زملاء الدراسة الذين مارس معهم تمارينه الروحية. وهكذا جذب إليه فرنسيس خافيير، الذي أصبح المبشّر الشهير في الهند واليابان، ورجالاً أمثال «دييغو لأينث» و «سيمون رودريغيث». وفي باريس نظّم هؤلاء الأصدقاء في «فوج يسوع» العسكري ونذروا أن يذهبوا إلى القدس، إذا أمكن، كمبشرّين للمسلمين الكفرة، أو أن يعرضوا خدماتهم على البابا إذا أخفقوا في ذلك. وعندما سدّت الحرب مع الأتراك الطريق إلى القدس، ذهبوا إلى روما سنة 1540 وحصلوا على إذن من البابا، بولس الثالث بتأسيس «جمعية يسوع»، وكان «لويولا» أول رئيس لها.

وبعد أن عُرفوا ب«اليسوعيين» نذروا أنفسهم لدراسة حياة المسيح وروحه وترجمة ذلك إلى نشاطات يومية. ولهذه الغاية، وبوصفهم «جنود الصليب»، ربطوا أنفسهم بحياة صارمة شبيهة من حيث الانضباط بالحياة في منظمة عسكرية، كما التزموا بالتمارين الروحية، وبالطاعة المطلقة لرؤسائهم، وعدم التوقّف عن تدريب إرادتهم على خدمة المسيح، من دون تحفّظ ولا أنانية. وكان أهمّ شيء هو الالتزام الذاتي في فعل ما يعدّه رؤساء المرء في مصالح المسيح. وكان هذا التفاني القرباني يُزرَع زراعة تكثيفية في نفس كل يسوعي في فترة التدريب الرهباني، وهي نظام يتضمن أربعة أسابيع من التمارين تحت إشراف

مدرّب روحي صارم. وعلى أساس القدرات المتفتّحة في هذه المدة، كـان كـل يسوعي يعيّن له رؤساؤه المهمات التي تقرَّر أنه أكثر ملاءمة لها، وعندما يُرسَل إلى موقع ما، لا يهمّ كم هو بعيـد، فهـو مُلـزَم بإرسـال سـيل مـن التقـارير إلى رؤسائه الذين أرسلوه.

وقد حقّقت المنظّمة اليسوعية النجاح عن نطاق واسع في مجال الإرساليات الدينية. ولم يقتصر النجاح على أن فرنسيس خافيير وزملاءه قد نقلوا الكاثوليكية إلى الهند، واليابان، والصين، فقد نجح الآخـرون في القـرنين الـسادس عـشر والسابع عشر في مساعيهم في أمريكا الجنوبية، ووادي القديس لورنس، ووادي المسيسبي، والمكسيك، وكاليفورنيا.

وهنا من المهم أن نلاحـظ أن الـسكان الأصـليين لم يـشعروا أن هـؤلاء الرهبان قد جاؤوا ليستغلّوهم ويسلبوهم، كما كان يفعـل الفـاتحون الأسـبان غالباً، بل لإنقاذهم. وفي أوروبا ذاتها كان اليسوعيون يبحثون باجتهاد وذكاء عن المواقع التجارية والحكومية المهمة ويشغلونها، فتأخذهم إلى أمـاكن في الخارج مترامية الأطراف بالإضافة إلى غـرف جلـسات الملـوك والأمـراء في الوطن. وكان تأثيرهم السياسي في فرنسا، والبرتغال، وأسبانيا، والنمـسا في القرنين السادس عشر والسابع عشر كبيراً جداً. وكانوا في مقدّمة مـن صـدّوا انتشار اللوثرّية في ألمانيا الجنوبية وكانوا عوامل قوية خلف المشهد عندما كان بروتستانتيّو فرنسا يحارَبون ويُذبَحون. ولكنهم في مآل الأمر لم يثيروا ضـغينة كل البروتستانت وحسب بل الكثير من الجماعـات الكاثوليكيـة كـذلك. وفي القرن الثامن عشر وجدوا البرتغال وأسبانيا وفرنـسا مغلقـة في وجـوههم، ثم فقدوا قوتهم الزمنية.

المنظمات الدينية الأخرى:

لم تكن المنظَّمة اليسوعية هي المنظمة الجديدة الوحيدة التي تُدلي بشهادتها على قوة التجدُّد الكاثوليكي. فقد شهد القرنان السادس عشر والسابع عشر نشوء الجمعية الدينية للكهنة غير الرهبانيين، ومنظّمة الثيتيين Theatime، والفيستانديات Vistandines، وأعضاء منظمة الأورسولية Ursuline للراهبات، ومنظمة العازاريّات Lazarists المعالجات لداء الجُذام. وكانت المنظمتان الأولى والثانية تَنشدان تباعاً إصلاح كتاب فروض الصلاة وتحسين الوعظ، وكانت المنظمات الثلاث الأخرى لنساء صَبَبْن التأكيد على تربية النساء ومعالجة العمل الاجتماعي.

وكانت هذه الحركات أسباباً ونتائج معاً. وقد نشأت من الشعور الكاثوليكي المشتدّ بخطورة تبشير الكنيسة في العالم، وقد جعلت المنظّمات القديمة في الكنيسة تتفحّص أساليبها وتُحِلّ جِدّية زائدة محل التراخي السابق. وهكذا انبعث القوة والنشاط في المنظمتين الفرنسيسكانية والدومينيكانية. وتأثّر حتى المقام البابوي فصار البابوات أناساً على مثال واحد من ذوي طبع أشدّ تقشفاً وأكثر جِدّية في الأهداف الكاثوليكية.

ز- التيارات المتعارضة
في القرنين السابع عشر والثامن عشر

في النصف الأول من القرن السابع عشر اندلعت الحروب الدينية في القارة الأوربية. وكان الإمبراطور والبابا، وهما على السواء يؤيدان مقررات «مجلس ترِنْت» يتوخيان استرداد الكاثوليك للأرض المفقودة منهم، في حين كان البروتستانت يحاربون في سبيل التحرر من القمع ومن أجل السيطرة في أوروبا الوسطى. وحرب ثلاثين السنة، التي أهلكت عُشر سكان أوروبا الوسطى، قد غيّرت القليل من الناحية الإقليمية. ومهما يكن، فإن الكاثوليك كسبوا بعض الأراضي من جديد، ورسّخ البروتستانت حقّهم في الوجود مستقلّين عن البابا أو الإمبراطور. وتنفسّت أوروبا المنهكة الصعداء وهي تشعر بالفرج عندما رَسَمت «معاهدة وستفاليا» (1648) الخطوط التي منحت الكالفانيين واللوثريين الحق في ارض معيّنة من دون مزيد من تدخّل الإمبراطور أو البابا، واعترفت بالهيمنة الكاثوليكية على مناطق جنوبية واسعة من أوروبا الوسطى.

ولم تكن بريطانيا متورّطة في حرب الثلاثين السنة نسبياً، ولذلك فعلى الرغم من أن الاضطهاد والقمع لم يكونا غير شائعين فيها، وُجد تسامح كافٍ للسماح بنشوء جماعات خارجة عن المذهب الديني السائد ومنشقين انسلخوا عن كنيسة إنكلترا وظلّوا مستقلّين دينياً. وقد قُدّر لهؤلاء أن ينشروا آراءهم في «العالم الجديد». وكان المستقلّون متشابهين في المطالبة بأن من حقّهم البروتستانتي تقرير المصير في أمور الاعتقاد وأمور الحكومة أو الإدارة الكنسيّة.

وعلينا أن نرجع في الزمن قليلاً إلى الوراء لننظر ملياً في أولى هذه الجماعات.

التطهّريّون:

حصل التطهّريّون Puritans على اسمهم في زمن الملكة إليزابيث. وكان تولّيها العرش سنة 1558 قد أعاد إلى انكلترا، كما رأينا، منفيين كثيرين هربوا من «ماري الدمويّة». وقد استمالتهم إقامتهم في الخارج في المناطق الكالفانية نحو الأشكال المشيخيّة للحكم الكنسيّ وبساطة العبادة والحياة، ولكن لم تكن لديهم رغبة في أن يكونوا انفصاليين. بل أرادوا مجرد تطهير العبادة في كنيسة إنكلترا مما سمّوه عناصرها «الرومية»[1]، وصب التأكيد على الوعظ ب«الكلمة» لا على الطقس والمناسك. واستسلم معظمهم، على الأقلّ في الوقت الراهن، لحكومة الأساقفة ـ أساقفة، ورؤساء أساقفة، ورؤساء شمّاسين، وهلم جرا ـ شريطة أن يخدمهم محلياً قساوسة أبرشية، ولكن قلة منهم قد دافعوا بصراحة عن النظام المشيخي كالنظام الموجود في اسكتلندا. وعندما ازدادت أعداد هؤلاء التطهّريين المشيخيين، انقسم التطهّريون. فالذين أرادوا أن يصلحوا كنيسة إنكلترا من الداخل حافظوا على عضويتهم فيها بصبر وأمل، والذين لم يستطيعوا الانتظار كانوا ينسلخون من حين إلى حين بوصفهم «انفصاليين» ويرون أن الحكومة عازمة جداً على سحقهم فيهاجرون إلى هولندا. وكانوا أوائل «الأبرشانيين» و«المعمدانيين»، وسوف نعود إليهم قريباً.

أما التطهّريون الذين ظلّوا في داخل كنيسة إنكلترا فقد وجدوا الحكومة تقسو عليهم عندما أصبح جيمس الأول ملكاً. وكان تشارلز الأول من بعده أشدَّ تصميماً حتى من أبيه لا على مجرد أن يجعل التطهّريين الإنكليز بأسرهم يتماثلون في ممارساتهم مع ممارسات الكنيسة المعترف بها بل أن ينقل محاولة أبيه نقْلة إضافية بفرض حكم الأساقفة على الاسكتلنديين. وكانت بصورة دقيقة محاولة قاتلة من جانبه. فقد حَرَّضهم على التمرد (أقسم الآلاف منهم على جهاده جهادَ حياة أو موت)، وأوصله نجاحهم في العمل العسكري إلى حالة

(1) كالركوع لتلقّي الخبز والخمر في طقوس العشاء الربّاني، وعلامة الصليب في المعمودية وتثبيت التعميد، واستعمال الخاتم في الأعراس، والملابس الكهنوتية الخاصة بالقساوسة.

جعلته يدعو المجلس النيابي إلى الانعقاد وما ذلك إلا ليرى أن التطهّريين قد صاروا آنذاك في الأكثرية في تلك الهيئة! وفي بعض الوقت لم تكن الأمور تسير مع التطهّريين على ما يُرام. وكانت تسير على نقيض المرام عندما كان رئيس الأساقفة «لود» Laud في السلطة، ذلك أن عشرين ألفاً منهم قد تبعوا الحجّاج في الفترة من 1628 إلى 1640 فوق البحر، وفي ولاية «ماساتشوستس» و«كونيكتيكوت» (وكلتاهما في الولايات المتحدة) أصبحوا «أبرشانيي نيو إنغلاند». ولكنهم في سنة 1640 كانوا أكثرية استطاعت أن ترمي «لود» في السجن. وعندما عارضهم الملك الغاضب، هبّوا بغضب إلى الأسلحة بوصفهم ممثّلي الشعب الذين يدفعهم عنادهم لصاحب السلطة أن يشنّوا عليه حرباً تدوم ست سنوات. وهكذا حدث قطع رأس تشارلز الأول والثورة التطهّرية في ظل أوليفر كروميل. وظلت إنكلترا اثنتي عشرة سنة بلداً تطهّرياً، وكان الناس جميعهم مربوطين بالزواجر التطهّرية لدين صارم لا يرحم.

ولم تكن الطريقة التطهّرية في الحياة وحدها التي توشك على النصر في إنكلترا بل بدا أن المشيخيّة هي كذلك. لأن «جمعية وستمينستر» قد دعت في العام 1646 إلى تشاور المجلس النيابي المؤلَّف من الكهنة والمدنيين الإنكليز مع المفوّضين الاسكتلنديين الذين لهم مقاعد استشارية، فقدمت إلى المجلس النيابي «اعتراف وستمينستر»، وهو آخر النماذج الاعترافية الكبيرة للإصلاح الديني ويظلّ المعيار المذهبي للمشيخيين في كل العالم. وتبنّاه المجلسُ النيابي إلى حد ما، وكذلك تبنّى الصيغ الأكبر والأقصر من كتب تعليم الدين بالأسئلة والأجوبة المعدَّة لاصطحابه. ولكن ما حدث هو أنه لم ينجم عن إجراء المجلس النيابي إلا القليل، لأن عودة تشارلز الثاني إلى إنكلترا سنة 1660 قد جلبت معها عودة الملكية، وكان رد الفعل بعدئذٍ شديد الظفر لأنه ب«قانون وحدة الإيمان» الصادر سنة 1662 أجبر التطهّريين على الخروج من «كنيسة إنكلترا» إلى صفوف «المخالفين للجماعة» وليصيروا في النهاية «أبرشانيين» و «معمدانيين» و«كويكريين» و«مشيخيين» و«موحِّدين».

الأبرشانيون والمعمدانيون:

في تلك الأثناء كان للانفصاليين الذين غادروا إنكلترا قبل «الثورة التطهّرية» تاريخ مشوِّق ومهم في الخارج. وكانت إحدى الجماعات التي استوطنت أمستردام زهاء العام 1607 يقودها «جون سميث»، الذي كان كاهن كنيسة إنكلترا في السابق، والذي أعاد تعميد نفسه وكل رعيّته حسب ما تعلّمه من جيرانه المينّونيين فيما يخص رؤاهم في معمودية البالغين واقتناعه من دراسة «العهد الجديد» أنه لم يكن تعميد الأطفال الصغار ما مارسه أوائل المسيحيين. وعاد أعضاء تجمّعه الديني إلى لندن وأسّسوا فيها زهاء العام 1612 «الكنيسة المعمدانية» الأولى التي دامت في إنكلترا. وكان ذلك بداية الطائفة المعمدانية، التي سرعان ما انتشرت في كل أرجاء الجزر البريطانية. وعلى الرغم من أن بعض المعمدانيين أرمينيوسيون وبعضهم الآخر كالفانيون في اللاهوت، فقد وجدوا في النهاية الوحدة في موقف واحد متميز: معمودية المؤمنين فقط، وذلك بالتغطيس الكامل. وفي العام 1639 قامت جماعة من المعمدانيين، ينتمي إليها روجر ويليامز، بتأسيس كنيسة في ولاية «رود آيلاند» الأمريكية. وعقب ذلك ظهر المعمدانيون في كل المستوطنات الأمريكية، ولا سيما في الجنوب.

وأمضى مهاجرون إلى هولندا سنوات نفيهم الأولى فيها بصورة هادئة إلى حد كاف. وفي «مدلبورغ» في سنة 1562 نشر روبرت براون، وهو خريج كمبريدج، أوضح تعريف ل«الأبرشانيين» كُتب عنهم في كل زمن. وكان منطقه جازماً. وقد قال إن «كنيسة المسيح» في رأي المسيحيين الحقيقيين، ليست منظَّمة كهنوتية بل هي جماعة محلّية من المؤمنين الذين خبروا الاتحاد بالمسيح، الرئيس الحقيقي والدائم للكنيسة، وبالتلاؤم الطوعي بعضهم مع بعض قبلوا أن يحكمهم موظّفون ـ راعي أبرشية، وشيوخ وشمامسة، ومعلّمون ـ وقد اختارهم بأنفسهم كما تحركهم روح المسيح. وكل كنيسة تحكم ذاتها بذاتها تماماً، وليس لأحد سلطة على أي شخص آخر، بل يخضع كلهم لواجب أن يمدّ بعضهم يد المساعدة الأخوية ونيّة الخير لبعضهم الآخر.

ولكن إذا كان كل ذلك قد حدث وقيل بهدوء، فإن مساراً مشهوراً في التاريخ كانت تديره جماعي منهم. ففي سنة 1659 استقرت في لايدن جماعة أبرشانية جاءت من سكروبي، في إنكلترا، بقيادة جون روبنسون ووليم بروستر، وكانت الجماعة تضم وليم برادفورد. ولعدم رضاهم عن المكان اتّخذوا قراراً مهماً: هو أن يعودوا إلى إنكلترا ليرسلوا أعضاءهم الأكثر مغامرة وقوة بدنية إلى أمريكا. وعلى متن سفينة «زهرة أيار» سنة 1620 عَبَرَ «الحجّاج» الأطلسي، وبروحٍ تلائم قسمهم الجليل الذي أقسموه وهم في البحر أسّسوا «مستوطنة بليموث». ولحق بهم فوق المياه مهاجرون آخرون، ومعظمهم تطهّريون من إنكلترا، حتى فازت الأبرشانية ب«نيو إنغلاند» كلها باستثناء رود آيلاند. وتمتّعت هناك فعلياً بمكانة دين الدولة مدة قرنين.

الموحِّدون:

رأينا أخيراً أن الموحِّدين يتركزّون في أوائل القرن السابع عشر في بولونيا المضيافة، ولكن عندما عادت إليها سلطة الكاثوليك، تبدّل المناخ الديني من الإباحة إلى المعارضة. وحين دُفعوا إلى النفي، فرّوا إلى ألمانيا الشرقية، وهولندا، وإنكلترا، وعندما أقرّ الإنكليز سنة 1648 قانوناً يجعل إنكار ألوهية المسيح جريمة عقوبتها الإعدام، أُرغم بعض الموحِّدين الأكثر تحرُّراً على الفرار مرة أخرى إلى هولندا. وفي غضون القرن الثامن عشر ظهر الكثيرون منهم بهدوء في «نيو انغلاند» (في الولايات المتحدة)، وفي أوائل القرن التاسع عشر وبتأثير من وعظ «إلري تشاننع» و«تيودور باركر» ازدادوا قوة، وشكّلوا «الرابطة الأمريكية الموحِّدية» (1825)، واستُقبل الكثير من القساوسة الأبرشانيين في عضويتهم المنظّمة. (وفي سنة 1961) اتّحدوا مع «الكنيسة الكونية» (القائلة بأن كل البشر ناجون من النار وسوف ينالون الخلاص)، وهي طائفة دينية تشكّلت في القرن الثامن عشر لتعلن أن إله المحبة والحقيقة والحق لا يمكن أن يكلّ قصده عن إنقاذ كل عضو في الجنس البشري.

الكويكريون:

إن الجماعة الأكثر خروجاً عن الكنيسة المعترف بها، وهي جماعة الكويكريين، تتطلّب اهتمامنا. وقد كانت في نواحي كثيرة أكثر تطرفاً من كل الجماعات. والحركة الكويكرية التي تأسّست في أثناء الحرب الأهلية التي أدّت إلى «الثورة التطّهيرية»، كانت في ماهيّتها ثورة على الشكلانية والتزييف. ولقد لُقّب أصحاب هذه الحركة بـ«كويكرز Quakers» أو المهتزّين، ولكنهم كانوا يفضّلون أن يُطلقوا على أنفسهم «جمعية الأصدقاء». وكان مؤسّسهم جورج فوكس (1624 - 1691)، وهو عبقري دينيّ يمكن أن يُعدّ أحد عظام الصوفيين في العالم. وفي خبرته العميقة بالاهتداء، التي حدثت سنة 1646، توصّل إلى اعتقاد يشبه كثيراً اعتقاد بعض أوائل الذين لا يؤمنون بتعميد الأطفال. وكانت المسيحية الحقيقية بالنسبة إليه ليست مسألة امتثال لمجموعة من المعتقدات أو مسألة إيمان بالكتاب المقدس بقدر ما هي إحداث صلة مع الله، وليست الذهابَ إلى «كنيسة ذات برج» للاستماع إلى موعظة أو أدعية يتلوها كاهن محترم. إنها الاستنارة بنور داخلي. و«كلمة الله» كائن حي لا ينحصر في الكتب المقدسة، مع أنه فيها. إنه يأتي مباشرة إلى وعي المؤمن الذي يختاره الله لغرض التكلم من خلاله.

ولم يكن فوكس يريد أن يسمع بتدريب رجال الكهنوت المحترفين، فالله يتكلّم من خلال من يشاء عندما يشاء. وكل رجل، بل حتى امرأة – هو بالقوة لسان حال الله. ويجب أن يتعامل الإخوة البشر تعامل الأصدقاء، بإجلال غير محدود للإمكانات الألوهية في شخصيتهم. والحرب وأي فِعلة عنيفة هي ذميمة بكل معنى الكلمة، والعبودية تشمئز منها النفوس، ويجب ألا يفرض على المسيحي مستلزَم حلف اليمين، لأنه يتكلم دائماً برجاحة عقل وصدق.

وفي اللقاء الديني ل «الأصدقاء» لا توجد مناسك مقدّسة (فالمناسك المقدّسة برمزيّتها المادية هي فرصة لإخراج الذهن من الحالة الذاتيّة للتأمل إلى وثنية التثبّت على الشيء) ولا توجد خطب مهيأة (فالله سوف يحرك الفكر في أحد الحاضرين، عند الحاجة). وكان يُعترف بأنه من المناسب البدء بالصلاة، ولكن فلتكن تالية للتأمّل الصامت، حتى ينير النور الداخلي فهمَ أحدهم.

وكان فوكس وأتباعه يطيعون من دون توان كلّ حضّ نبويّ على العمل. وكان من شأن فوكس، مثلاً، أن يسير بجرأة في «الكنيسة ذات البرج» إذا أُوحي إليه أن يفعل ذلك، وأن يقاطع القسيس في منتصف موعظته، ويندّد بالإجراءات، بمصاحبة صيحات الاستنكار والجَلَبة. ومن ثمَّ كانت السلطات تعارض الكويكريين بشدة بوصفهم معكّرين للأمن. وقد سُجن الآلاف منهم أو غُرِّموا غرامات باهظة. وفوكس ذاته كثيراً ما سُجن. ولكن لا يمكن لأي اضطهاد أن يُطفئ جذوة حميّته.

وفي أثناء عمليات الاضطهاد القامعة بشدة في «عصر عودة الملكية» أصبح وليم بن (1644 ـ 1718) كويكرياً، وبعد حصوله سنة 1681 على هبة بنسلفانيا من تشارلز الثاني، أتاح الاستيطان فيها كل من يمكن أن يرغب في حرية الدين، ودُعي الكويكريون إلى فيلادلفيا بصورة خاصة. وفي إنكلترا لم يتحول التسامح الديني مع الكويكريين وكل الجماعات المخالفة الأخرى إلى قانون إلا بعد «الثورة المجيدة» التي صاحبت تولّي «وليم» و«ماري» العرش (1689).

الخروج عن الكنيسة المعترف بها في القارّة الأوربية:

عندما ننتقل من إنكلترا إلى أوروبا الوسطى، نجد أن حركة الخروج عن الكنيسة المعترف بها قد ظهرت في المناطق البروتستانتية بعد أن حسمت «معاهدةُ ويستفاليا» (1684) حربَ ثلاثين السنة.

وكان المشترك عند الخارجين عن الكنيسة الرسميّة هو تحوّل التأكيد من استقامة الرأي المذهبية (التي كان يسلِّم بصحتها) إلى الاهتداء أو الولادة الجديدة. وكان يبدو أن الاهتداء هو الاختبار الوحيد المنزَّه عن الخطأ لامتلاك المسيحية الحقيقية. ولم يكن التخلي عن عقيدة الخطيئة البشرية وفساد الأخلاق موضعاً للتفكير والتأمل، ولا كانت اللاهوتات الإصلاحية النموذجية مجالاً للشك. وكل ما كان منشوداً إنما هو الشعور الرفيع بالواقع في الحياة الانفعالية. وكان التأكيد ينصبّ على امتلاك «حياة جديدة» في المسيح. وكل شخص ميّت بالخطيئة، وضائع ومذنب أمام الله، ومن المحتّم أن يُلعَن ما لم «يولد من جديد»

ويُجعل «إنساناً جديداً في يسوع المسيح»، بالانسيال السريع للنعمة الإلهية إلى الداخل، جالبة الفرح والأمن للآثم الذاهل، والإحساس بالمغفرة الإلهية التي تتوّجها المصالحة مع الله والأخوّة الشخصية مع المسيح. ولا يمكن الإفراط في تأكيد أن معظم هؤلاء الرجال والنساء من ذوي الورع الشخصي العميق الذي كان للمسيح فيه واقع ذو حضور حي، فهو وإن كان زائراً من عالم آخر كان حقيقياً وقريباً مثل أي شخص أرضي.

الورعيّة:

إننا نجد كل هذا بوضوح خاص في «الورعية» Pietism، التي كانت في الأصل رد فعل على المذهبية الألمانية في القرن السابع عشر، التي كان «الورعيون» يرون أنها مصابة بعدم الاهتمام الأخلاقي وعدم الاكتراث البارد حيال «الشعور» الصحيح في الدين. وكان يُعتقد أن رعاية الشعور الصحيح لا تُفضي إلى التوافق مع الدنيا، كما يمكن أن يعتقد الدنيويون، بل إلى أن نقيض ذلك، إلى التأكيد الزهدي لصفاء الحياة وقداساتها. وهذا السبب الذي جعل الورعيّة انفصالية النزعة في أول الأمر.

وهناك شخصيتان كانتا مهمتين في نموّ الورعيّة، إحداهما شخصية فيليب سبنر (1635 – 1705)، وكان كاهناً لوثرياً جاداً شعر شعوراً حاداً بافتقار اللوثرية إلى الدفء والحياة واستغراقها في العقائدية الصرفة، فدعا جماعة من ذوي الآراء المشابه إلى بيته بوصفه «كنيسة داخل كنيسة» (حسب تعبيره an ecclesiola in ecclesiola) من أجل دراسة الكتاب المقدس، والصلاة، والمناقشة لمواعظ الأحد. وكانت النتيجة هي اقتناعهم المشترك أن الدنيا صارت غريبة عنهم: فالدولة كانت شديدة التدخّل، ورجال الكهنوت أكثر تخاصماً على الأمور اللاهوتية من أن يعيشوا حياة مقدّسة، بل إن رجال الكهنوت متراخون أخلاقياً، والناس المدنيّن غير معتدلين في المأكل والمشرب والملبس ويقضون كثيراً من الوقت على التسليات الدنيوية، من رقص ومسرح وأوراق لعب. وأوصى سبنر في كتاباته بتشكيل جماعات دراسية مشابهة في كل مكان، ووجد على الفور استجابة فورية في كل

المناطق الناطقة بالألمانية. ولكن الحركة، بانتشارها السريع، وجدت نفسها بسرعة أمام المعارضة القاسية من جهة رجال الدين، الذين لم يطب لهم وجود كنيسة داخل الكنيسة ولا انتقادات ورعهم وأخلاقهم. وازداد عداؤهم عندما أظهر بعض أتباع سبنر ضد إرادته، ميلهم الانفصالي وذلك بالإحجام عن الحضور إلى الكنيسة والامتناع عن المناسك المقدسة.

وكان الزعيم الآخر ل«الورعية» هو هيرمان فرانكه (1663 - 1727)، وهو مدرس في جامعة لايبتسيغ، أدخل «الورعيّة» في الدوائر الأكاديمية بتأسيسه «تجمعاً لمحبي الكتاب المقدس» Colligium Philobiblicum. وحين دفعته الجامعة إلى معارضة زملائه انضم في آخر الأمر إلى «سبنر» والآخرين في «هاله» حيث أسّس أمير «برادنبوغ» (الذي أصبح ملك بروسيا فريدريك الأول) جامعة فيها وشجّع نشاطاتها من دون أن يغدو متماثلاً معها. ومضى فرانكه في إثبات الوعي الاجتماعي في «الورعيّة» بتأسيسه تباعاً مدرسة للأطفال الفقراء ومدرسة لاتينية، وداراً للأيتام، ومعهداً للكتاب المقدس، وكان لكل ذلك تأييد عصري كبير. وأظهرت جماعة هاله كذلك حماسة للبعثات التبشيرية، ونمواً للاهتمام الذي حثّ أولى المحاولات البروتستانتية على التبشير بالإنجيل في الهند.

المورافيون:

بعد زمن سبنر وفرانكه، اضمحلّت «الورعيّة» بالتدريج، ربما لأنها قد أحرزت أهدافها الأوّلية، ولكنها بقيت بمثابة خميرة انبعث منها "الإخوان المورافيون". وحدث هذا بإرشاد الكونت زينزِندورف، وهو مالك أرض في سكسونيا الشرقية جاءت إلى قراه جماعة من اللاجئين القادمين من مقاطعة مورافيا التشيكيّة والذين هم أتباع المصلح البوهيمي جون هس «Hussites»، شردّتهم حرب الثلاثين السنة. وكان زينزِنْدورف قد تلقّى تربية "ورعية" في هالِه، عدّلتها الدراسات القانونية في مدينة «فيتنبورغ» (في ألمانيا الشرقية)، وهي مركز التأثير اللوثري المعهود، كما عدّلتها رحلاته في هولندا وفرنسا. وكان من حنوّه أن سمح لأتباع هس بإنشاء قرية مورافية على أملاكه، سمّوها «هرنهوت»، وكان

من شيمته أن دخل في حياتهم المشتركة، فكان من نتيجة ذلك أن طقس المشاركة الذي دخل فيه معهم أدّى سنة 1727 إلى شكل متجدّد ومنتعش من الكنيسة المورافية. ومع زينزِنْدورف قد جاهد لإبقائها ضمن العضوية اللوثريّة، فإن الكنيسة الجديدة قد أصبحت بالتدريج طائفة انفصالية ذات حياة خاصة بها وإحساسٍ بضرورة التبشير في العالم. وأصبحت البعثات التبشيرية العلامة الفارقة للحركة، و«زينزِنْدورف» ذاته قد أوحى إلى المبشرين المورافيين الأوائل بأن يذهبوا إلى «جزائر الهند الغربية الدنماركية» (التي تسمى الآن «جزر الولايات المتحدة») وإلى غرينلاند، وجورجيا (في الولايات المتحدة). وعندما سبّبت المعارضة اللوثرية له الطرد من سكسونيا، سافر في نطاق واسع، أولاً إلى المناطق الأوروبية التي ينتشر فيها المورافيون، وفي جملتها لندن، ثم إلى جزر الهند الغربية والمستوطنات الأمريكية. وأنشأ كذلك بعثات تبشيرية بين الهنود الحمر. ولكنه لم يعش ليرى المدى الكامل للجهود التبشيرية متراميةِ الأطراف للكنيسة المورافية، والتأسيس الناجح للبعثات التبشيرية في مصر، وجنوب أفريقيا، وسورينام، وغينيا، ولابرادور.

ح - الكاثوليكية البروتستانتية
في العالم الحديث

دار الكثير من قصّتنا حتى الآن حول التمايز والافتراق وحتى النزاع. وأخيراً سنرى تحوّلاً تدريجياً نحو الاتفاق، الذي ينمو الشعور بضرورته، وتحركات نحو المصالحة والتئام الشمل.

أ- الكاثوليكية والعالم الحديث:

شهد القرن الثامن عشر الكثير من قوة «الإصلاح الكاثوليكي» تتضاءل. وفي فرنسا كان لويس الرابع عشر قد صدّ سلطة البابوية باستيلائه على دخل الأسقفيات الشاغرة، وبتشجيعه رجال الدين الفرنسيين على أن يؤكّدوا بصراحة حقّهم في بعض «الحريات الفرنسية» التي تتضمن الرأي بأن البابا ليس معصوماً عن الخطأ لأن المجالس العامة أعلى منه. وارتفاع الروح العقلانية بين أعداد كبيرة من الفرنسيين قد بلغ الذروة في الثورة الفرنسيّة، عندما نمت معاداة الكهنوت إلى حد العنف و «أُلغيت» المسيحية حيناً من الزمان. ومع أن الحرية الدينية لكل إنسان قد أعلنت بعدئذٍ، كان نابليون، في تفاهمه مع الكنيسة الكاثوليكية، مصمِّماً على إبقائها ضمن سيطرة الحكومة. وفي ألمانيا شُفي الكاثوليك بصورة مؤلمة من آثار حرب الثلاثين السنة، التي أنقصت سكان الدويلات الألمانية بنسبة خمس وستين في المئة من دون أن تُحدِث أي تغييرات حقيقية في الخطوات التي تفصل الكاثوليك عن البروتستانت. ولم تستطع الكنيسة الكاثوليكية أن تبعث الحياة في بعض قوتها القديمة إلا بعد الحروب النابليونية، حين أدّت الرومانسية إلى رد فعل على الروح العقلانية التي سادت في القرن الثامن عشر.

وفي أوروبا عموماً، وفي أثناء القرن التاسع عشر، فإن تأكيد السيادة البابوية باسم الوحدة الكاثوليكية العالمية قد عاد إلى الظهور في «مذهب السيادة البابوية المركزية» Ultramontanism، أو الحركة التي قامت بين الكاثوليك شمال جبال

الألب لصالح الرأي القائل بأن السلطة النهائية تكمن «وراء الجبال» أي في الفاتيكان. ولأسباب واضحة شجّع البابوات على قدر ما يسمح به نفوذهم.

ويتّسم القرن التاسع عشر ببعض التطورات المذهبية الرئيسة. ففي العام 1854 أعلن البابا بيوس التاسع، بعد تشاوره مع الكرادلة فيما يتعلق بمعتقد نوقش منذ العصور الوسطى، أن «الحَبَل من دون دَنَس»[1] عقيدة قطيعة للكنيسة الكاثوليكية. ومعنى هذا أن على كل الكاثوليك أن يعتقدوا أن مريم، لكي تكون لائقة بأن الحبل بالمسيح وهي بعدُ عذراء، قد حَرّرها من الإثم الأصلي النقاء الطاهر الذي أنجبها به أبواها.

وفي منتصف القرن التاسع عشر فإن تطورات متسارعة في العالم والنظرية الاجتماعية ودَمَقْرطة المجتمع والحكومة، قد هدّدت سلطة البابوية بالخطر إلى حد أن البابا بيوس قد أصدر سنة 1864 بياناً شجب فيه الاشتراكية، والشيوعية، والعقلانية، والطبيعية، والفصل بين الكنيسة والدولة، وحرية الصحافة، وحرية الدين. وقال «إن الحَبْر الروماني لا يمكن أن يتصالح ويجب ألا يتصالح مع التقدّم، والليبرالية، والحضارة الحديثة». وقد صعق هذا الشجب الليبراليين الكاثوليك وكبحهم من دون أن يُسكتهم تماماً. (ومنذ ذلك الحين تكيّفوا مع إعلان البابا بقراءته في سياقه، وذلك بالتأكيد أنه كان ضد أخطاء معاصرة معيّنة وليس ضد كل الحركات الليبرالية).

وهذا البابا المعبَّأ للقتال، الذي ما زال خائفاً من تآكل السلطة البابوية، قد أصدر في العام 1870 بياناً بمعصومية البابوات عن الخطأ في ظل شروط معيَّنة: فليس «كل» أقوال البابا خلواً من الخطأ، بل الأقوال التي تصدر عن السلطة البابوية في شرح "الوحي أو حماية الإيمان الذي تمّ تسلّمه من الرسل" أو الموروث الكاثوليكي.

---

(1) عقيدة الحبل بلا دنس على فكرة أن مريم العذراء قد ولدت من رحم أمها مبرأة من الخطيئة الأصلية.

وقد رفع هذا المبدأ الديني الباباَ إلى ذروة عالية في مجال الإيمان والأخلاق. ولكنه لم يُنقذه من نتائج نشوء القومية الإيطالية في أعقاب تحركات ماتسيني وغاريبالدي الثورية. لأنه لم يكد المجلس الفاتيكانين يصدر بيانه بخصوص عصمة البابا حتى توجه الملك «فكتور إمّانويل» للاستيلاء على روما، وبعد استفتاء عام للسكان أخذ من البابا مواقع الكنيسة، ولم يترك إلا الفاتيكان، وقصر «اللاتيران»، و«قصر غوندولفو» بوصفه المنطقة التي يمكن أن تمارَس فيها السيادة البابوية الدنيوية.

وقبيل نهاية القرن التاسع عشر أظهرت حركةُ الحداثة نفسها من جديد، عندما أخذ عدد كبير من الكاثوليك عميقي التفكير، من الكهنوت والمدنيين على السواء، يرى الحاجة إلى إقامة وزن للنظريات القائمة على النقد التاريخي الحديث المتعلّق بالكتاب المقدس وعلى مكتشفات العلم الحديث. وهكذا جاءت إلى الوجود الحركة ذات العمر القصير التي تُدعى «الحداثة الكاثوليكية» Catholic Modernism، التي كانت تتوخّى التوفيق بين الكاثوليكية والمعرفة العلمية والمناهج النقدية الحديثة. وحاولت مجموعة من الدارسين الكاثوليك أن تتوصل إلى تفاهم مع نظريات التطوّر البيولوجي والجيوفيزيائي، في حين تبنّى غيرهم النقد المتعلق بالكتاب المقدس والمتداول بين الدارسين البروتستانت، ومن الأمور الأخرى الذهاب إلى حد الشك في تاريخية «الولادة البتولية» على الرغم من أنهم كانوا يريدون أن يقبلوا حقيقتها بوصفها أسطورة تنويرية. وسُمعت الأصوات الحداثية فجأة في كل أنحاء أوروبا وكان البارز من هذه الأصوات "جورج تيريل" في إنكلترا، و«ألفريد لوازي» في فرنسا، و«هيرمان شِلْ» في ألمانيا، ولكن البابا بيوس العاشر وجد فكرهم خطيراً وأدانه بصورة جازمة في رسالة بابوية تعميمية سنة 1907، كانت مع عدد من قرارات الحرمان من الكنيسة سنة 1910 فعالة في إنهاء الحركة.

والأنجح في محاولة إلباس المذهب الكاثوليكي الأشكال الفكرية الحالية هو «التومائية الجديدة». وقد سُمّيت كذلك لأن ممثليها جان ماريتان والآخرين كانوا ينشدون الإعراب عن الفلسفية الكلية ل«توما الأكويني» بالمصطلحات الحديثة

وتطبيقها على المسائل الحديثة. ولكن البابا ما زال الفيصل النهائي في ما هو سليم في اللاهوت والأخلاق وما هو غير سليم.

وأعلن البابا (بيوس الثاني عشر) سنة 1950، في تأديته لمسؤولياته اللاهوتية، أن صعود السيدة مريم العذراء بجسدها الذي لم يمسه الفساد إلى السماء بعد وفاتها هو عقيدة قطعيّة للكنيسة.

وكان البابوات يشعرون بمسؤولية عالمية تجاه الأخلاق العامة. وقد وجدتهم في السنوات الأخيرة يزدادون ميلاً باطّراد إلى إصدار الأحكام الأخلاقية، ذات المدى العالمي، باسم الله والكنيسة. واتّخذ البابوات الأخيرون موقفاً قوياً في معاداة الشيوعية.

وبطريقة مماثلة أصبحت الكنيسة الكاثوليكية في كلّيتها مدركة بشدة قيمة العمل على المستوى العالمي، وأحد ملامح جهدها المهمة والجديدة هو تأسيس «المؤتمر الكنسي العام المتعلّق بالقربان المقدس»، الذي ينعقد كل بضع سنوات، عندما تسمح الظروف العالمية، في بقاع مختلفة من العالم الكاثوليكي.

ولكن أهمّ التطورات وأبعدها مدى هي أحدثها. لأن الاهتمام في كل العالم المسيحي بوحدة الكنيسة وقد أثّر في «الكنيسة الكاثوليكية».

التطوّرات الحديثة في العالم الكاثوليكي:

في العام 1959 أصدر البابا يوحنا الثالث والعشرون مذكرة دعوة تشمل العالم الكاثوليكي بأسره. وطلب أن يُرسَل المندوبون إلى مجلس مسكوني، يُعْرَف بأنه الفاتيكان الثانية. واجتمع المجلس في جلسته الأولى سنة 1962 في روما وحضرها 2500 أسقف من الكنيسة الكاثوليكية. واجتمع في ثلاث جلسات أخرى في السنوات 1963 و 1964 و 1965 بدعوة من البابا بولس السادس، الذي خَلَف البابا يوحنا الذي توفيّ سنة 1963. وكان من الحاضرين في هذه الجلسات مراقبون رسميون من الكنيستين البروتستانتية والأُرثوذكسية (ومنها الروسية ولكنها لا تضمّ اليونانية) وعدد من "المستمعين" الذين تمّ اختيارهم من الرجال المدنيين والنساء المدنيات. وبحث المجلس في جلساته الأربع التوافق

مع عالم القرن العشرين ودعم الوحدة المسيحية. وكانت قراراته تشمل ما يلي: الإذن بالاستعمال الأوسع للغة القومية في الاحتفال بالمناسك المقدّسة والعبادة العامة (مع النتيجة التي هي التغيير الطقسي العالمي ومشاركة جماعة المصلّين في الاستجابات الطقسية والإنشاد). وتأييد "اشتراكية السلطة بين الزملاء بالتساوي" أو المبدأ الذي مفاده أن كل الأساقفة بوصفهم خلفاء للرسل يشتركون مع البابا في حكم الكنيسة، وتوفير المزيد من المشاركة المدنيّة في إدارة الكنيسة بإيجاد نظام دائم ومنفصل للشمّاسين، يضم رجالاً متزوّجين وناضجين وليس مجر شبّان غير متزوّجين يتأهّبون للكهانة حتى الآن، والموافقة على إعلان أنه لن يُرغَم إنسان على فعل مضاد لضميره وأن على الأمم ألا تفرض دينها وألا تمنع الاعتقاد والارتباط الديني، والإذن للكاثوليك بالعبادة مع غير الكاثوليك في ظروف خاصّة، والاعتراف بإمكان الخلاص خارج الكنيسة الكاثوليكية، والإعلان عن أن اليهود يجب ألا يعتقد بأنهم مسؤولون جماعياً عن وفاة المسيح.

وإعلان المجلس عن علاقة الكنيسة بالأديان غير المسيحية تتضمن هذه الفِقَر ذات الأهمية الشديدة:

منذ الأزمان القديمة حتى الزمن الحالي يوجد بين الشعوب المختلفة إدراك ما للقدرة السّرية الخفّية الدائمة في سير الطبيعة وفي أحداث الحياة الإنسانية، وفي بعض الأحيان توصّل بعضهم إلى تبيُّن كائن أعلى أو حتى أب.

ويخترق هذا الإدراك حياتّهم بإحساس ديني عميق.

ولكن الأديان المنغمسة في ثقافة متقدمة قد جاهدت للإجابة عن الأسئلة ذاتها بمفهومات أشدّ دقة وضبطاً ولغةٍ أكثر تطوراً. وهكذا ففي «الهندوسية» أناس يتأملون السر الإلهي ويعبّرون عنه من خلال معين لا ينضب من الأساطير ومن خلال القيام بالبحث الفلسفي. كانوا ينشدون التحرر من ألم الوضع الإنساني إما من خلال الممارسات الزهدية وإما التأمل العميق وإما الطيران إلى الله بالمحبة والثقة. وتدرك «البوذية» بأشكالها المختلفة قصور العالم المتبدّل، وتعلّم طريقة يمكن بها للبشر، بروح مخلصة وواثقة، أن يكونوا قادرين على اكتساب حالة التحرر الكامل، أو أن يحرزوا بجهودهم الخاصّة أو من خلال معونة علوية تنوُّراً

أسمى. كذلك فإن الأديان الأخرى الموجودة في كل مكان تحاول أن تقاوم قلق القلب البشري كلٌ منها بأسلوبهن باقتراح "طرق" تشمل التعاليم، وقوانين الحياة، والطقوس المقدسة.

ولا ترفض الكنيسة الكاثوليكية أي شيء حقيقي ومقدس في هذه الأديان. وهي تنظر بإجلال صادق إلى تلك الطرق في السلوك وفي الحياة، وإلى تلك الوصايا والتعاليم التي على الرغم من اختلافها في الكثير من النواحي عن الوصايا والتعاليم التي تعتقد بها وتعلن عنها، فإنها كثيراً ما تعكس شعاعاً من تلك الحقيقة التي تنير كل البشر.

لذلك فإن الكنيسة تحضّ أبنائها على أن يتبيّنوا ويحفظوا ويحتضنوا الأمور الجيدة، الروحية والأخلاقية، وكذلك القيم الاجتماعية ـ الثقافية الموجودة عند أتباع الأديان الأخرى.

و"الإسلام" إن الكنيسة تنظر بإجلال إلى المسلمين كذلك. فهم يعبدون الله الأحد، الحي الباقي بذاته، الرحيم والقدير على كل شيء، خالق السماوات والأرض، الذي كلّم البشر. (وهنا يرِد قول عن المعتقدات الإسلامية بإبراهيم ويسوع والأنبياء ومريم الأم العذراء ويوم الحساب بعد نشور عام). وأخيراً، فإنهم يقدّرون الحياة الأخلاقية وعبادة الله، وخصوصاً من خلال الصلاة والزكاة والصيام.

وعلى مرّ القرون كانت هناك مخاصمات وعداوات كثيرة بين المسيحيين والمسلمين، ولكن المجلس يحضّ الآن كل شخص على نسيان الماضينْ وبذل الجهود المخلصة للتفاهم المشترك وللعمل معاً من أجل المحافظة والتشجع على العدالة الاجتماعية، والصلاح الأخلاقي، والسلام والحرية لكل الجنس البشري.

و«اليهودية»، وكما يبحث المجلس في سر الكنيسة، فإنه يتذكّر الرابطة التي تربط شعب «العهد الجديد» روحياً بذرية أبراهام (وهنا تَرِد فِقرة حول دين الكنيسة لوحي «العهد القديم».

والكنيسة تتذكّر دائماً كلمات (بولس) الرسول حول أقربائه:

وَلَهُمُ التَّبَنِّي وَالْمَجْدُ وَالْعُهُودُ وَالاشْتِرَاعُ وَالْعِبَادَةُ وَالْمَوَاعِيدُ، وَلَهُمُ الآبَاءُ، وَمِنْهُمُ الْمَسِيحُ حَسَبَ الْجَسَدِ. (رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية 9: 4-5)

وإذاً، ما دام الميراث الروحي المشترك بين المسيحيين واليهود كبيراً جداً، فإن المجلس يودّ أن يشجّع ويزكّي التفاهم والإجلال المشترك. وسيكون ذلك، فوق كل شيء ثمرة الدراسات اللاهوتية والمختصة بالكتاب المقدس وثمرة المحاورات الأخوية.

وإنه لصحيح أن السلطات اليهودية وأولئك الذين اتّبعوا قيادتها قد ألحّوا على قتل المسيح، ومع ذلك فإن ما حدث له من الآلام لا يمكن أن يصبح تهمة ضد كل اليهود، الأحياء في ذلك الحين، من دون تمييز، ولا ضد يهود اليوم.. والكنيسة في رفضها كل اضطهاد لأي إنسان، متفطّنة للميراث الذي تشترك به مع اليهود ولا تقودها الأسباب السياسية بل المحبة الروحية التابعة من الإنجيل، تندّد بالبغض، وأعمال الاضطهاد، وتجلّيات معاداة السامية، الموجّهة ضد اليهود في أي زمان ومن أي شخص.

وفي افتتاح الجلسة الثانية للمجلس قال البابا بولس إن الهدف بعيد المدى للمجلس كان الاتحاد الكامل والشامل بين كل المسيحيين. وأثبت روح عودة العلاقات الودّية في الكنيسة بزياراته في مناسبات مختلفة في غضون السنوات القليلة التالية للقدس، والهند (مرتين)، والولايات المتحدة والبرتغال، واسطنبول، وآسيا الصغرى، وآسيا، والمحيط الهادي، والتقى في روما وفي أماكن أخرى شخصيات بارزة في البروتستانتية والكنائس الأرثوذكسية الشرقية.

وحسب مبدأ اشتراكية السلطة بين الزملاء ويطلب من المجلس، نظّم البابا سنة 1967 مجمعاً كنسياً للأساقفة، يمثّل المراتب الكهنوتية الوطنية من كل أنحاء العالم، ليشيروا عليه في أمور العقيدة والقرارات الإدارية، وهو يجتمع في روما.

ولكن نشأ اضطراب في الكنيسة، لا بسبب التغيرات الطقسية فحسب، بل كذلك بسبب تحديد النسل والزواج المباح لرجال الكهنوت. وأعاد البيان البابوي

التعميمي حول تحديد النسل (1968) موقف الكنيسة السابق من كل أشكال تحديد النسل الاصطناعية السابقة، ولكنه واجه مقاومة كبيرة في كل العالم الكاثوليكي، لا بين المدنيين وحسب بل كذلك بين الكهنة والراهبات. وبينما كان بعض أساقفة الدول أو المقاطعات يتمسّكون بالبيان البابوي التعميمي رسمياً، فقد تركوا لضمير الفرد مسألة تطبيقه. ونشأ كذلك ضمن المنظمات الدينية استياء سواء من البطء الذي نُفّذت به مقررات الفاتيكان الثانية أو من موقف البابا الثابت الذي ينصّ على أن العهد المقطوع في العزوبة لا يُجيز إباحة زواج رجل الدين.

ويستمر التوتّر بين «التقدميين» و«المحافظين»، مع مغادرة أعداد من الكهنة والراهبات منظماتهم للمشاركة في العمل الاجتماعي الدنيوي.

ب- البروتستانتية في العالم الحديث:

ربما مع استثناء واحد حدثت كل التنوعات الأساسية داخل العالم البروتستانتيّ قبل القرن الثامن عشر. وقد يكون الاستثناء هو "الميثودية" (= المنهاجية). ولكن الميثودية في الحقيقة لم تكن حركة من حركات الإصلاح الديني. بل كانت في ماهيّتها تيقظاً في الاستجابة للأوضاع الجديدة التي خلقها تطور العلم والصمود السريع للرأسمالية الصناعية، ولذا يجب أن تُعدّ ظاهرة لا ترتبط بالإصلاح الديني مباشرة. وتقف الميثودية في الواقع في بداية التحوّلات والتغيّرات التي تتميز بها الأزمنة الحديثة.

الإيمان بوجود الله عقلاً (Desim) في القرن الثامن عشر:

لم يصبح العلم الغربي بمعناه الحديث منتشراً بين رجال الفكر حتى القرن الثامن عشر. وعندما انتشر، جار «عصر التنوير» الخاص بالقرن الثامن عشر. وأُرغم الدين لأول مرة على تسويغ نفسه منطقياً. وكان الناس من ذوي العقل التجريبي قليلي الرضا بالعقائد القطعية للكنيسة بحيث كانوا يتساءلون بفضول ما الذي جعل البدائيين دينيين، أو «ما هو الدين الطبيعي» وتمّ التخلّي عن مفهوم دين الوحي الذي انهار أمام كثيرين من أهل العقل. وفي رهبتهم أمام القوانين

الحديدية للكون الذي يسير سيراً جميلاً، كانوا يرونها وكأنها أعين لغاليليو أو نيوتن على المستوى الرياضي، تعلن بطلان كل المعجزات والعناية الإلهية الخاصة. فلم تعد الأسباب المباشرة تعزى إلى الله، ولم يعد الله بالضرورة في داخل الإطار الفيزيائي للطبيعة. بل كان يبدو بعيداً على الصعيدين المكاني والزماني. وكان المؤمنون بوجود الله عقلاً، الذين تبنّوا هذه الآراء، قد «أوصلوا الله إلى أطراف الكون». وقد كان بالنسبة إليهم «القديم الأيام»، الذي يجب تعظيمه بوصفه الخالق الذي صنع كل شيء ولكنهم في واقع الأمر "قد انحنوا لوداعه فوق عتبة العالم"، بأدب ولكن بثبات.

وكان المؤمنون بوجود الله عقلاً ممثّلين لعصرهم في تجنّب الصدام بين الدين والعلم من خلال الفصل بين الله وخلقه وتصوُّر أن خلقه يسير بذاته ولذلك يمكن أن يكون موضوعاً منفصلاً للدراسة.

وأن قساوسة كثيرين جداً من الكنائس الإنكليزية ومن كنائس كثيرة في القارة الأوروبية، من فئة جيدة التعلّم قد اعتنقوا آراء شبيهة بآراء المؤمنين بالله عقلاً. وبالفعل، كانوا في قلبهم من الموحّدين، أو حتى «لا أدريين» من طراز خاص. ولذلك كانت عبادتهم فاترة وأقوالهم العلنية بعيدة عن الصوفية تماماً، ولذلك كان من المحتوم أن يظهر شيء من قبيل الميثودية لإعادة القلب والروح إلى المسيحية الإنكليزية. وعندما حدث هذا التجدّد في الدفء الديني بين رجال الدين استجاب الناس بشوق.

الميثودية:

كانت الثورة الصناعية في طور النشوء. وبإخراج الناس من الريف إلى المدن، فقدوا المرساة. وكان الإدمان على تعاطي المسكرات واسع الانتشار بينهم بحيث كان يهدّد الحال القومية بالخطر. وكان الظمأ الروحي عند الناس العاديين لا ترويه المواعظ التي يسمعونها في الكنيسة ـ وهي مجرد خطابات، وفي واقع الأمر مقالات مُعَدّة لمصاحبة «كتاب الصلاة المشتركة»، ولكن جون وزلي وأصحابهن جلبوا إليهم الحماسة الانفعالية والاقتناع القلبي الذي كانوا جميعاً بحاجة إليه.

وكان اسم «الميثودي» Methodist قد أطلقه أول مرة على سبيل التهكّم رفاق دراسة وزلي في أكسفورد، على الجماعة الصغيرة – وتُدعى استهزاء كذلك «النادي المقدس» ـ التي كان زعيماً لها، وكانت تلتقي بانتظام من أجل الدراسة والصلاة في غرفها، متوخّين إنزال الله إليهم من السماوات التي أبعده إليها معلموهم المؤمنون بوجود الله عقلاً. وكانوا يجاهدون لتربية شيء من الشعور بفورية حضور الله في الحياة الإنسانية كما كان الكويكريون يشعرون. وفي خبرة حاسمة على نحو لا يُنكَر، ما دامت تُعرف بالهداية، عانوا تغيّراً كاملاً في الحياة والإيمان وصاروا يعرفون أن الدين حقيقي وحيوي لكل فعل في الوجود. وبعدئذٍ وفي نشدهم «إنعاش» إخوتهم المسيحيين في الكنائس، لم تكن لديهم نيّة في مغادرة كنيسة إنكلترا فلا يتعدّى أملهم إصلاح تلك الكنيسة من الداخل. ولكن عندما بدأ إخوة «وزلي» و«جورج هوايتفيلد» في التبشير في طول الجزر البريطانية وعرضها، وكان الناس يتدفقّون عليهم مهتدين في كل المدن بأعداد مذهلة، كان من الطبيعي أن يشكّلوا طائفة دينية جديدة، وأن يسمّونها «الكنيسة الميثودية».

وُلد جون وِزْلي في بيت قسيّس أنغليكاني سنة 1703، وهو الابن الخامس عشر ل «صموئيل» و«سوزَنّه» Susannah وزلي. وكان أخوه تشارلز في الثانية عشرة من العمر. وبعد السنوات التي أمضاها جون وتشارلز وزلي في أكسفورد، كان أهم إضافة إلى «نادي الميثودي» هو جورج هوايتفيلد، الابن الموهوب لأحد أصحاب الخانات. ذهب جون وتشارلز بوصفهما مبشّرين إلى جورجيا، حيث لم يصادفا نجاحاً كبيراً، على الرغم من أن جون وزلي أقام صداقات مثمرة مع الموارفيين. ولدى عودتهما إلى إنكلترا التجأ كلا الأخوين إلى أحد الموارفيين، وهو «بيتر بولر»، في لندن، وأقنعهما بأنهما لن يكونا مسيحيين حقيقيين ما لم يعيشا خبرة اهتداء حقيقي. ومن ثم جاءت تلك الخبرة إلى كليهما. وكانا مع هواتفيلد، الذي تبدّل أيضاً، يعظان في الحقول المكشوفة عشرات الآلاف من عمال المناجم والعمال المستثارين بعمق في إنكلترا، واستكتلندا، وأيرلندا. وكان من الشائع عن سامعيهم أن يُظهروا انفعالهم في حالات الوجد، والهياج الجسدي، والصيحات، والتأوّهات، وغياب الوعي. وما لبث

«الكنائس» الميثودية الخاصّة حتى أقيمت من أجل العبادة الأكثر انتظاماً، وهلم جرا. وفي الجانب العبادي أسهم تشارلز وزلي في القضية بالتراتيل ذات الانفعالية الشديدة التي كانت لها فائدة للمسيحية الإنجيلية مثلما كانت تراتيل «إسحق واتس» وتراتيل اللوثريين والموارفيين مفيدة للكنائس الأقدم.

وانتشرت الكنيسة الجديدة في المستوطنات الأمريكية. وهيّأ هوايتفيلد السبيل بسبع زيارات هائلة النجاح وسَّعت بشدة ذلك المجال الذي اكتسحته موجة سابقة، بتأثير من الوعظ القوي ل«جوناثان إدواردز» في مدينة «نورثامبتن» الأمريكية التابعة لولاية «ماساتشوستس»، ودعيتْ ب «اليقظة الكبيرة».

كان إدواردز راعي الكنيسة الأبرشية في مدينة نورثامبتن الأمريكية التابعة لولاية «ماساتشوستس»، مدة خمس سنوات عندما أوصلت مواعظه القوية في الخطيئة، والخلاص، وجهنّم، الشبّان ومن ثم المدينة كلها إلى حالة الذعر و «اليقظة الكبيرة». ومسألة كم كان وعظه للناس مرعباً في زمنه (في ثلاثينيات القرن الثامن عشر) يمكن الحكم فيها من الانطباع الذي تركه في القرية الصغيرة «إنفيلد» في ولاية «كونتيكوت»، حيث ذهب إليها ليعظ في صباح أحد الآحاد في تموز 1741. وقعدت جماعة المصلّين دونه في بادئ الأمر لا تعيره سوى اهتمام خفيف، مع توقّع ضئيل بأن ينفلت عليهم الهياج الشديد. وقرأ موعظته من مخطوطه، ولكنها أرعبت الناس إلى حد قريب من الموت. وحين اكتسحهم الذعر أخذوا يشهقون بالبكاء كرباً، وهم في حالة العويل والصراخ والإغماء. وكان الواعظ يغدو غير مسموع نهائياً، وتوقّف ليأمرهم بالتزام الهدوء. وأشار إدواردز وهو يتحدث في موضوع «الخطاة في يدي الله الغاضب» إلى الموقف غير المأمون للفاسقين، الذين يعلن نصّه عنهم بأن «قدمهم سوف تزلّ في الوقت المناسب. وقال إن نعمة الله الكابحة وحدها هي التي ستقي الفاسقين من الانزلاق من الأرض إلى الهاوية، حيث تستعر ألسنة النيران وينتظر الشياطين كالسباع فريستَهم بشره. وإذا كان بعض الحاضرين لم يسقطوا في جهنم منذ أن نهضوا في الصباح، أو منذ أن جاؤوا إلى الكنيسة، فذلكم برهان على صبر الله الرحيم.

وقد بدأت زيارات هوايتفليد لأمريكا سنة 1739، وكانت رسالته أقلَّ إزعاجاً بكثير من رسالة إدواردز، لأنه أعلن نعمة مغفرة الله للخطأ والأمان الذي يأتي من خلال المسيح عبر الإيمان. وقد وعظ مراراً في الجموع الغفيرة في الهواء الطلق. ويروي بنجامين فرانكلين في سيرته الذاتية وبأسلوبه الموضوعي الجافّ، كيف بعد أن خبر قوة إقناع هوايتفيلد في الداخل (وأفرغ جيبه في صحن التبرعات)، قد استجاب له في الخارج في وسط مدينة فيلادلفيا:

كان له صوت مرتفع وواضح، وينطق كلماته وجمله بصورة متقنة جداً، حيث يمكن أن يُسمّع ويفهم من مسافة بعيدة... وقد وعظ ذات مساء من أعلى درجات دار الحكومة، التي تقع في منتصف شارع السوق، وفي الطرف الغربي للشارع الثاني... ولأنه من أواخر السوق، كان لديّ فضول أن أعرف ما هي المسافة التي يمكن أن يكون مسموعاً فيها بالارتداد إلى الوراء في أسفل الشارع نحو النهر، ووجدت صوته متميّزاً حتى اقتربت من الشارع الأمامي، عندما أَخْفَتْه ضجة في ذلك الشارع. وبتخيّل ما يشبه الدائرة، التي تكون مسافتي نصف القطر منها، وقد امتلأت بالمتسمعين، أسمح لكل منهم بقدمين مربّعين، فقد حَسَبتُ أنه يمكن أن يكون مسموعاً بصورة جيدة من أكثر من ثلاثين ألفاً من الأشخاص. وهذا ما وفّق بيني وبين حساب الصحيفة أنه وعظ خمسة وعشرين ألفاً من الأشخاص في الحقول، وبيني وبين التواريخ القديمة لجنرالات يطيلون ويعربدون في خطبهم أمام جيوش بأكملها، وقد كنت أشكّ فيها أحياناً.

لقد بدأ العمل المنتظم والمنظَّم لمصلحة الميثوديين في نيويورك سنة 1766، وإن الأعمال الملحمية ل «فرنسيس أسبري» (1745 – 1816)، المبشّر الطوّاف العظيم، قد ضمنت انتشار الميثودية عبر جبال ألغيني إلى المسافات الشاسعة من الغرب الأوسط. ومنذ ذلك الحين، أصبحت الكنيسة الميثودية إحدى الطوائف الدينية الكبيرة في الولايات المتحدة.

الحركة التبشيرية:

قد يُعدّ القرن التاسع عشر قرناً بروتستانتياً كبيراً. وتمّ افتتاحه ب «يقظة كبيرة» ثانية في الولايات المتحدة، وهي سلسلة من الإحياءات زادت كثيراً عدد المعمدانيين والميثوديين في ولايات الغرب الأوسط. وفي بريطانيا العظمى كانت «كنيسة إنكلترا» تحركها بقوة حركات إنجيلية «ورعيّة»، تسبّبت في عقود لاحقة في الحركة الأُوكسفوردية، أو التراكتريّة، وهي تشكّل «الرابطة المسيحية للشبان» (في لندن سنة 1844)، وتنظيم «جيش الخلاص» (وقام بذلك وليم بوث سنة 1865). وفي ألمانيا قدّم اللاهوتيان «شلايماخر» (1768 – 1834) و «ريتشال» (1822 – 1889) تحوّلاً جديداً وليبرالياً للفكر الديني البروتستانتي. ولكن لعل أهم تطورين في القرن هما تنظيم البعثات التبشيرية العالمية والامتداد السريع لحركة «مدرسة الأحد»، وهما تطوران نلتفت إليهما الآن.

وفي النشاط التبشيري كان الكاثوليك قد بيّنوا الطريق منذ مدة طويلة. وجَمَع البروتستانت قوتهم الحركية ببطء أشد. وعندما أسّس الهولنديون محطات تجارية في جزر الهند الشرقية في القرن السابع عشر، شجّعوا المبشّرين على السير وراءهم. وفي القرن ذاته شعرت «كنيسة إنكلترا» بالمسؤولية عن الهنود الحمر ونظّمت جمعية لإشاعة الإنجيل في «نيو إنغلاند»، وهي جماعة كانت في بدء القرن الثامن عشر قد حلت محلها «معية إشاعة الإنجيل في البقاع الأجنبية». وقد أرسل الكويكريون منذ البداية المبشّرين إلى جزر الهند الغربية، وفلسطين، وأجزاء مختلفة من أوروبا. وقد كنا قد رأينا كم شجعّ المورافيون البعثات التبشيرية بشدة في القرن الثامن عشر.

وبدأت مرحلة جديدة من المسعى التبشيري بنشر مذكرات الجنرال كوك، التي كان لأوصافه الحيوية فيها لوضع البدائيين في جزر كثيرة واقعة في جنوبي الهادي قد كان زارها من 1768 إلى 1779 أن حرّضت وليم كيري على الذهاب إلى الهند بوصفه أول مبشّر ل «الجمعية المعمدانية لإشاعة الإنجيل بين الوثنيين»، وكان قد ساعد على تنظيمها في العام 1782. وفي العام 1795 شكّلت جماعة ترتبط بأكثر من طائفة دينية «جمعية لندن التبشيرية»، و«جمعية غلاسغو التبشيرية»، و«جمعية الكنيسة التبشيرية» (كنيسة إنكلترا)، و «الجمعية الوِزْلية الميثودية التبشيرية».

ولملاءمة هذه المساعي البريطانية مع ما شاكلها من التفاني في توسيع العالم المسيحي، انضمت مجموعة من الدارسين في كلية وليامز في ماساتشوستس إلى الالتزامات المشتركة التي أدّت في العام 1810 إلى ولادة المجلة التبشيرية الخاصة الشهيرة «الأبرشانية الأمريكية»، و«المجلس الإداري الأمريكي للمبشرين في الإرساليات التبشيرية الأجنبية». وبالتالي تشكّلت المنظّمات التي هي على شاكلة المنظّمات في الكنائس الأمريكية الأخرى.

ولم تكن أوروبا التي لا تضم بريطانيا متوانية عن العمل. فقد ظهرت جمعيات مشابهة في الدانمارك وألمانيا وفرنسا وسويسرا.

وفي السنوات التالية، كانت التقارير التي يوردها المبشّرون من كل بقعة من بقاع العالم ذات تأثير تسريعي واضح في حياة الكنائس في الوطن. وكانت النغمة الكلية للحياة المسيحية مرتفعة. ومع فجر القرن العشرين لوحظ أن فوائد لا تُحصى للعالم المسيحي في كليته قد نبعت من نموّ الأخوّة العالمية بين مسيحي كل ثقافة وكل لون. وأدّت التبدّلات الحديثة في الغايات التبشيرية إلى مفهوم الخدمة الكلية في كل مجال من مجالات الحياة. وجرى تشجيع الزعامة المحلية للكنيسة الوطنية.

حركة مدرسة الأحد والتربية الدينية:

كانت أقدم الكنائس البروتستانتية واعية منذ البدايات الأولى للحاجة إلى تعليم شبّانها معتقداتِ الديانة المسيحية وواجباتها قبل تثبيتهم أعضاء في الكنيسة. وحتماً كان هذا هو أصل التعليم التلقيني لأصول الدين. ولكن التربية التي يتمّ السعي إليها على هذا النحو كانت مختصرة وذات تأثير محدود، وهي لا تشمل كل أبناء الجماعة. ولذا مسّت الحاجة إلى التعليم الأكثر تكراراً، ولا سيما إلى التعليم المنفتح على الأطفال الأميين دينياً وغير المنتمين إلى كنيسة. وحدث إدراك هذه الحاجة في غلاوسستر، في إنكلترا، لروبرت ريكس، الذي أدّى اهتمامه بإصلاح السجون إلى دراسة الأوضاع الاجتماعية التي تُحدِث التقصير في أحياء المدينة الفقيرة. ولتوفير التعليم المدرسي لأولاد الأزقّة المهملين في غلاوسستر، نظّم سنة 1780 «مدرسة الأحد» الأولى ليعلّمهم كيف يقرؤون الكتاب المقدس.

وهكذا بدأت حركة «مدرسة الأحد» التي صارت ملمحاً شديد الأهمية من ملامح الحياة الدينية في القرن التاسع عشر. وانتشرت بسرعة في الجزر البريطانية، وفي المجالات البروتستانتية من القارة الأوروبية، والجانب الآخر للأطلسي. وعقدت «جمعية مدرسة الأحد» في لندن، ونظائرها في القارة الأوروبية، وروابط «مدرسة الأحد» الحكومية في الولايات المتحدة، في خلال قرن من الجهد، اجتماعات كثيرة للتقدم في القضية. وشجّعت هذه الجمعيات بفعالية برامج تدريب المعلمين، وهيّأت ونشرت مواد الدروس، وعملت كل جمعية مع الأخرى على أساس عالمي. وفي العام 1709 نظّمت هذه الجمعيات «رابطة مدرسة الأحد في العالم».

وكانت لمدارس الأحد ومعلميها قيمة كبيرة عند الكنائس في أثناء هذه الفترة لأنه لا يمكن لتجمع ديني بروتستانتي أن يطيق البقاء من دونها. وبالفعل، كانت أهم مصدر للإتيان بالأعضاء الجدد إلى الكنائس بتثبيت التعميد. وكان غرضها الإيثاري يشع مضيئاً وقوياً، وكان المعلّمون والمشرفون مع استثناءات نادرة، يخدمون من دون مرتّب على أساس محض تطوّعي. وكثيراً ما كان التعليم غير واف وسيء التحضير، ولكن كان يُقصَد منه دائماً تزويد الطلبة بأرفع نوع من الإرشاد الديني والأخلاقي.

وكانت عيوب «مدرسة الأحد» في القرن التاسع عشر تبين بوضوح في القرن العشرين. وكانت القيادة التي هي الأجود من حيث تلقّي المعلومات ناشدةً تحويلها إلى وسائل ناجعة للتربية المسيحية بتطبيق مبادئ وتقنيات مكتشفة في التعليم الدنيوي العام. وقد اكتسبت «مدرسة الأحد» آنئذ الاسم الأشمل والأكثر جلالاً ل «مدرسة الكنيسة».

وليس هناك مسعى تعليمي جرت محاولته من قبلُ في أي عهد من عهود التاريخ المسيحي أكثر منها جِدّية وتعزيزاً للإتيان بالمسيحية إلى البيت، وإدخالها في قلوب الناس وحياتهم بوصفها تدريباً في كل الحياة الإنسانية.

البروتستانتية والعلم:

بزغ فجر القرن التاسع عشر بتلويحة صغيرة بالمخاطر التي سيضعها العلم في طريق الدين، ولكن قبل أن ينقضي القرن التحق به صراع عظيم الشأن بين الدين المعهود والمذهب الطبيعي المتولّد عن العلم.

وعجّل نشوء النقد التاريخي وإعادة كتابة التاريخ في حدوث إحدى أقدم المماحكات. وألقى «هيوم» و«جيبون» Gibbon الشك كثيراً على ملمح من ملامح المعتقد المسيحي، ولكنهما لم يُعَرِّضا حياة يسوع، ولا الكتاب المقدس في كليته، للتفحّص المفصّل. وكان على القرن التاسع عشر أن يوفّر مثل هذا «النقد للكتاب المقدس». وأعاد دافيد شتراوس وإرنست رينان، في بداية عهد جديد لأعمال ألمانية وفرنسية، كتابة حياة يسوع جذرياً. والنقد الأدنى (أو النصّي) والأعلى (أو الأدبي التاريخي) للكتاب المقدس قد أثبت أن أسفاره كانت من تأليف مؤلّفين كثيرين مختلفين في أزمان كثيرة مختلفة. وأظهرت أسفار التوراة الخمسة Pentateuch أن لها تأليفاً مركّباً يمتد استغراقه إلى أكثر من خمسة قرون على الأقل. وفُرِزت أناجيل «العهد الجديد» إلى «كيو» Q و«إم» M و«إل» L، وطبقات الموروث الأخرى. والمماحكات العنيفة حول هذه المكتشفات، كما تمت، قد قسمت البروتستانتية إلى معسكرين، أُطلق فيها بعد عليهما «الأصوليين» (الذين يرفضون نقد الكتاب المقدس بوصفه كفراً فاضحاً) و«الحداثيين» (الذين يقبلونه بوصفه سليماً).

وعلى الرغم من طول هذه المماحكة ومرارتها، فقد غطت عليها أصوات جوقة احتجاج غاضب قلّت من أهميتها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وذلك في أعقاب نشر كتاب داروين «أصل الأنواع» فبالنسبة إلى داروين، وإلى سلفه في صياغة النظرية التطورية، لا مارك، لم يقتصر التفسير على إنكار قصة الخلق في الفصول الأولى من «سفر التكوين» بل تعدّاه إلى القول ببطلان أي نظرية في الخلق أياً كانت. وفي الوقت ذاته، قام بعض الخلفاء الفلسفيين ل «هيغل» بتحويل مذهبه في الوحدانية إلى المادية، ورحّبوا بصوت عالٍ بتأييد نظرية التطور. وهبّ «لودفيغ بوشنر» و«إرنست هاكل»، بوجه خاص، مناصرين

للمادية الميكانيكية التي لم تترك مجالاً لله. وقد سبق ثلاثين سنة أن استخلص فورباخ Feuerbach في كتابه «ماهية المسيحية» سنة 1841 : أن «الأنثربولوجيا هي سر اللاهوت. والله هو إنسان يعبد ذاته، والثالوث هو الأسرة البشرية مؤلّهة». وفي إنكلترا زاد توماس هكسلي وهربرت سبنسر الإحساس بالفظاعة عند المحافظين برفض الهوّة التي لا تُردَم بين الإنسان والبهائم، والإدلاء بدلاً من ذلك بالحجة التي هي لصالح النظرية القائلة بأن الإنسان قد انبثق بتطور بطيء من القرود الشبيهة بالإنسان، وليس خلقاً منفصلاً وخاصاً من الله.

ودخل المسيحيون المحافظون في إنكار حام لكل هذه الآراء باسم ثبات الأنواع التي خلقها الله منفصلة. وعندما أوجد الجيولوجيون نظرية السير تشارلز لايل Sir Charles Lyell في التبّدل التاريخي في تاريخ الأرض وقدّموا مستحاثات مأخوذة من الصخور دليلاً على التطوّر البيولوجي للأنواع المختلفة، كان الرد الوحيد الذي استطاع المتزمّتون الإتيان به هو أن الله غرس المستحاثات في الصخور في يوم الخلق لدحض حكم الكفرة، الذين صار رفضهم لحقيقة الله ظاهراً ودينونتهم مسوَّغة. وحين جابهت الكثيرين من المؤمنين الورعين، في نهاية القرن، نظرياتٌ في الكيمياء الحيوية توخّت أن تستبرئ من المبدأ الحيوي في الكائنات الحية وتعده غير موجود، ونظريات سيكولوجية تنكر وجود الروح (وبعدئذٍ وجود الذهن والوعي في حد ذاتهما أي أن لهما وجوداً مستقلاً)، فإنهم شعروا أنهم بمواجهة خيار لا يتزحزح بين موقفين لا تصالح بينهما: أحدهما هو أن العلم حقيقي والدين زائف، والآخر هو أن العلم تخمين منافٍ للعقل ووحي الكتاب المقدس هو كلمة الله المعصومة عن الخطأ والصحيحة من البداية إلى النهاية تماماً كما تضمنّتها الكتاب المقدس.

ولكن وسط الجلبة، ظل المسيحيون الليبراليون متيقّنين أنه لا وجود لمثل عدم التصالح هذا بين الدين والعلم. وسعى أناس أمثال هنري درَمونـد في اسكتلندا (في كتابه «القانون الطبيعي في العالم الروحاني») وجون فيسك في نيو إنغلاند (في «مختصرات الفلسفة الكونية وفكرة الله كما تميل إليها المعرفة الحديثة») إلى إظهار أن التطور هو منهج الله في الخلق، ومن الممكن بالفعل

التوفيق بين الدين والعلم. وقصة الخلق التي يرويها الكتاب المقدس يجب أن تُفهم بأنها تنظير ورع ما قبل علمي، صحيح شعرياً إذا لم يكن حرفياً، وماهيتها ليست باطلة، ولو أن شكلها يتطلّب إعادة التأويل. وبهذه البداية، مضى الليبراليون بثقة إلى مهمة إعادة البناء، وأكّدوا أن أسس العقيدة المسيحية لا تهزّها اكتشافات علم حذر، غير ميتافيزيقي (أو «محض»). وأشاروا إلى أن العلم ذاته يتحرك على افتراضات هي فوق البرهان، وهذا الافتراضات هي إيمانه. وفي فترة أحدث كان الليبراليون يقولون أن المادية الدوغمائية في القرن التاسع عشر لم يعد من الممكن الأخذ بها. والعلماء، لعدم وجود دليل على ما تتكوّن منه الإلكترونات والبروتونات، يجب أن تكون أذهانهم أكثر انفتاحاً تجاه التصور العضوي بوصفه مضاداً للتصوّر الميكانيكي للكون. وحتى علم النفس، بتأكيده للتكاملات والهيئات أو الأشكال المتكاملة، لم يعد متيقّناً دوغمائياً من التحليلات التي بدت فر مرة من المرات تقضي على أي دليل على وجود الروح، وهكذا فالإيمان المسيحي، كما يقول الليبراليون، لا يهتزّ في أهم افتراضاته، وقد يصادق أشياعه على مكتشفات العلم المؤكّدة. لأن الحقيقة واحدة لا تنقسم، ورؤية الحياة في استمرارها وثباتها ورؤيتها في كليتها هي اكتساب القلب النقي للذين يرُون الله.

وكانت الرؤية الليبرالية، التي هي على ثقة وتفاؤل شديدين في إيمانها بالله والإنسان، هي ذاتها قد هزّتها كارثة الحرب العالمية الأولى، فقد ظهرت هناك أرثوذكسية مُحْدَثة في المذهب البروتستانتي، قبلت مكتشفات العلم والنقد التاريخي ولكنها أصرّت أن الله ليس حالاً في الطبيعة والتاريخ بالطريقة التي يقول الليبراليون أنه حالٌّ فيهما، ولكنه مفارق (=متعال)، وموجود بعيداً تماماً عن الطبيعة والإنسان، وبالفعل هو المطلق، الآخر من كل الوجوه، الذي لا بدّ أن يخترق جدار الغلط الإنساني والتناقض الذاتي الذي يفصله عن البشر ليظهر في التاريخ البشري. ومن دون هذا الاختراق يكون الإنسان ضائعاً. وأنصار هذه الفكرة ـ كارل باث وأتباعه ـ الذين يذهبون «وراء الأصولية والحداثة» إلى لاهوت يعتمد على مثنوية الله والدنيا قد اكتسحوا الميدان حيناً من الزمان، ولكن

أنصار الحلولية الإلهية قد عادوا بمعنى أو بآخر إلى إنكار أن الله في الأرثوذكسية المحدثة له أي صلة معاصرة. وقد جرى الإصغاء إلى أصوات مختلفة كثيراً إلى: «رينهولد» و«ه.ريتشارد نيبور»، وهم يعرّفون «الواقعية المسيحية ما بعد الليبرالية»، وكان باول تيليش وردولف بولتمان، يتحدثان بمصلحة الوجودية المسيحية، وديتريش بونهوفر وأتباعه «العلمانيون» من القائلين ب «موت الله»، والآخرون أمثال القائلين بوحدة الوجود الهوايتهديين، قد التزموا بفرضية أن الله يتخلّل كل الأشياء، من دون أن يلغي وجودها بمعزل عنه.

الإنجيل الاجتماعي:

مع قدوم عصر «العمل التجاري الكبير» وحلول التوتّر بين العمل ورأس المال، انتعشت الاشتراكية. وفي أوروبا، عندما كان القرن التاسع عشر يتقدّم ويجتاز علامة منتصف طريقه، كانت للاشتراكية أهمية سياسية كبيرة ومتزايدة. والانتفاضات الاجتماعي سنة 1848 كان لها تأثير شديد في جعل رجال الكنيسة الجِدّيين يدركون الحاجة إلى حل مسيحي للفقر والعدالة الاجتماعية. وفي انكلترا قام فريدريك موريس وتشارز كنغزلي بالبداية في مناقشة تطبيق الإنجيل المسيحي على هذه المشكلات الاجتماعية. وتحرك الليبراليون في كنيسة إنكلترا لتشكيل «الاتحاد الاجتماعي المسيحي» و«العصبة الكنسية الاشتراكية» (وفيما بعد تبدّل اسمها وصار «عصبة ملكوت الله»). وربط الأساقفة ورؤساء الأساقفة أنفسهم بهذه المساعي وبالمساعي اللاحقة لجعل البروتستانتية تمت بالصلة إلى الأمور الاجتماعية. وفي الولايات المتحدة أخذ رجال أمثال فرنسيس ج.بيبَدي، وواشنطن غلادن، وشيلر ماتيوز، ووُلتر وشنبوش يبحثون في الكتب المقدسة واكتشفوا الموضوع المهمَل في تعليم يسوع – ملكوت الله. وجمعوا كل أقوال يسوع التي تشير إليه ووجدوا في نجّار الناصرة نبيّاً للعدالة الاجتماعية التي بدا أن مبادئها لا تزال المفتاح للعلاقات الإنسانية الأسعد في أنواع السياق الاجتماعي. وهنا كان الإنجيل الاجتماعي الذي ستحلّ ممارستُه مشكلاتِ الإنسان الحديثة، الاقتصادية، والسياسية، والعرقية، والدولية، وهو ممكن أن يجلب السلام بين الأمم، والعدل بين الشعوب، ونيّة الخير بين الأعراق.

وهكذا فقد سُمعت نغمة جديدة في المسيحية البروتستانتية. وعموماً، فقد التفّ الليبراليون حول التفسير الحماسي للإنجيل الاجتماعي، وتراجع المحافظون بصورة عامة مندّدين بالخوض في السياسة والانخراط في مجرد الأمور الدنيوية التي أعلنوا أنها الحفرة التي سقط فيها وعاظ الإنجيل الاجتماعي. واشتكى النقاد من أن «العهد الجديد» لا يحتوي على رسالة اجتماعية يمكن التحدّث عنها، فمناشدة يسوع تكاد تكون للأفراد حصراً ذلك أنهم يمكن أن يكونوا ناجين واحداً واحداً. ولكن أنصار الإنجيل الاجتماعي أجابوا أنه مع أن خلاص الفرد هدف ضروري لكل دين، وأن الكنيسة سوف تفقد كل صلتها بالحياة الحديثة، كما بدا أنها قد فقدت صلتها بجزء كبير من الطبقات الاجتماعية، ما لم يتمّ جعلها على صلة بالخلاص الأخلاقي للمجتمع. وكانوا يهتفون، أنه إذا لم يكن لدى الديانة المسيحية ما تقوله وليس لديها برنامج تقدّمه حول أهم مشكلات الساعة، فلن تعود ذات جدوى للبشر. ولقد انقضى زمانها.

والسؤال النقدي الذي فحواه كم يوجد من الإنجيل الاجتماعي في «العهد الجديد» لم يُحْسم وقد لا يُحسمُ البتة، ولكن الطوائف البروتستانتية الكبيرة، على الأقل في العالم الناطق بالإنكليزية، قد صاغت جميعها سياسات وبرامج اجتماعية مفصّلة، وفي كل مؤتمراتها خصّصت جزءاً كبيراً من اهتمامها لمسائل العمل الاجتماعي المسيحي. وتحديد الوجهة الاجتماعية للمسيحية هو بالفعل عامل من العوامل الرئيسة التي تجذب الآن البروتستانتية بعضها إلى بعض. وكان هذا واضحاً تماماً في مشاركة رجال الدين والمدنيين من كل الطوائف في حركات الحقوق المدنية، وبرامج مكافحة الفقر والمظاهرات المعادية للحرب.

الحركات المتجهة صوبَ اتحاد الكنائس:

تباطأت الانشقاقات والانفصالات في داخل البروتستانتية في خمسين السنة الأخيرة ولكنها مع ذلك لم تنقطع. وقد جرى الإلحاح على الاتحاد بين الكنائس البروتستانتية أكثر من قرن، والتوجُّه الحديث عند الروم الكاثوليك إلى الوحدة المسكونية الفعّالة بين كنائسهم قد وسّع المجال ليشمل التطلعَ إلى جمع شمل كل المسيحيين. والاتجاه البروتستانتي الذي عمره قرن نحو عودة العلاقات الودية كان

مناسباً، لا لمجرد موقف الليبراليين في كل الطوائف الدينية الذين أكّدوا أن التوافق على العناصر الضرورية هو أساس كل وحدة، بل كذلك للعوامل الأخرى الكثيرة: التبدّلات الاجتماعية التي يتّسم فيها الاقتصاد بالاتصالات السريعة وحدوث الاعتماد المتبادل العام، والقول إن الريبيّة العلمية والعلمانية واسعة الانتشار قد اتجهتا إلى توحيد أتباع الدين جميعهم، والاتساع الشديد للمسعى المسيحي في كل العالم، والتبادل المتزايد للأدبيات المفيدة، كالتراتيل ومواد الدستور وغيرها مما يحصل بين الطوائف الدينية، والتقاء القساوسة المدنيين واختلاطهم وهم من طوائف دينية كثيرة مختلفة في مجالس الإدارة واللجان متعدّدة الطوائف وفي المؤتمرات والمعسكرات، وليس الأقلّ من ذلك إدراك أن البروتستانتية المنقسمة هي بروتستانتية ضعيفة، ولا سيما في يوم لا تعود فيه مشكلات المجتمع مشكلات القرية أو المدينة بل هي المشكلات التي تنشأ عن المصائر المتناسجة بدقة بين شعوب العالم بأسره. وكل هذه العوامل توحي بأنه لا يمكن إلا للكنيسة المتحدة أن تسعى بفعالية إلى الخلاص الاجتماعي والفردي. وقد كانت نقطة الانطلاق والأكثر طبيعية لاتّحاد الكنائس البروتستانتية هي خلق وكالات ومجالس إدارة متعدّدة الطوائف الدينية. ومن مثل هذه البدايات نمت الحركة المسكونية إلى إحدى أهمّ التطورات في البروتستانتية الحديثة.

ففي مجال التعاون بين الطوائف الدينية، نُظّمت اتحادات أصغر وأكبر بين الكنائس (على صعيد مدينة، ومقاطعة، ودولة، وما يشمل أمة بأسرها). وكان المثال البارز على اتحاد على صعيد الأمة هو «المجلس الاتحادي لكنائس المسيح في أمريكا» المنظّم سنة 1908، وهو سَلَف «المجلس القومي للكنائس» الحالي. ومع أن هيئة المجلس الحالي لا تجتمع إلى كل سنتين، فهي تؤدّي وظيفتها باستمرار من خلال لجان محكّمة تعالج أمور التبشير في الوطن، والعلاقات العرقية، والعدالة الدولية، والرحمة والغوث، والصلات مع الكنائس في الخارج. وفي أوروبا كانت، الإنجازات العظيمة الأولى في الوحدة متحقّقة في مجال بعثات التبشير الخارجي. وأدّت مشكلات حسن المعاملة بين الطوائف في المجالات التبشيرية إلى الدعوة إلى «مؤتمر إدنبره التبشيري» الكبير سنة

1910، الذي نجم عنه تشكيل «المجلس التبشيري العالمي» 1921، وهو هيئة اندمجت الآن مع «المجلس العالمي للكنائس». وقد انبثق «المجلس العالمي» ذاته عن آمال «كنيسة إنكلترا» (أو «الكنيسة الأسقفيّة البروتستانتية») في أن تقوم مقام وسيط بين العالمين البروتستانتي والكاثوليكي. وأفضت هذه الآمال في مآل الأمر سنة 1937 إلى مؤتمرين بروتستانتيين عالميين أحدهما حول الإيمان والمنظمة (في إدنبرة)، والآخر حول الحياة المسيحية والعمل (في أكسفورد). وانعقد مؤتمرا إدنبره وأكسفورد للعام 1937 في تعاقب قريب، من أجل التسهيل على المندوبين الذين جاؤوا من كل أنحاء العالم، ونتج عن ذلك «المجلس العالمي للكنائس» الذي قَصَد أن يوازي «المجلس الاتحادي لكنائس المسيح في أمريكا» من حيث المستوى العالمي، وانعقد الاجتماع الأول ل «المجلس العالمي للكنائس» في أمستردام، في هولندا، سنة 1948، ومنذ ذلك الحين اجتمع في إفانستون (إيلينويس)، ونيودلهي (الهند)، وأبسالا (السويد). وأدخل في عضويته كل الكنائس الأرثوذكسية الشرقية، وكان يدعو على الدوام مراقبين من كنيسة الروم الكاثوليك، حضروا كل جلسة بأعداد متزايدة، وفي الواقع، فقد ضم المجلس العالمي تسعة أشخاص من الروم الكاثوليك إلى لجنته المنتدبة إلى البحث في الإيمان والمنظمة، وهو اختراق تاريخي حدث في أبسالا.

وظهر منهجان منفصلان للاتحاد: 1- اتحاد الكنائس الفدرالي من دون إلغاء الطوائف الدينية للأعضاء، كما في «المجلس العالمي للكنائس» وفي بعض الاتحادات الفدرالية المقترحة. 2- الاتحاد العضوي الكامل من خلال الدمج. ومن النوع الثاني كان الاتحاد العضوي في كندا بين المشيخيين والميثوديين والأبرشانيين في «كنيسة كندا المتحدة» 1925. وعلى امتداد الخطوط الطائفية اتّحدت الفروع المنفصلة من اللوثرية ومن الكنائس المشيخيّة في الولايات المتحدة. وكان الأهم من الوجهة المسكونيّة الاتحاد العضوي الذي تمّ في سنة 1961 في «الكنيسة المسيحية الأبرشانية» (وهي ذاتها نتيجة اتحاد الكنيستين المسيحية والأبرشانية) والكنيسة الإنجيلية والإصلاحية (تشكلت من الكنيسة الإصلاحية في الولايات المتحدة والمجمع الكنسي الإنجيلي في أمريكا

الشمالية)، تحت اسم «كنيسة المسيح المتحد». ولكن الاتحاد الأوسع بكثير هو الآن مجال للتأمل. وبدأت المناقشات بوصفها «تشاوراً حول اتحاد كنسي» (Cocu) consulation on church union يضم أربع طوائف مسيحية أساسية ـ «الكنيسة المشيخيّة المتحدة»، و«الكنيسة الأسقفية البروتستانتية»، و«الكنيسة الميثودية»، و«الكنيسة المسيح المتحدة»[1]. والمشاركون في التشاور لا يستبقون اتحاداً مبكراً بل يعبّرون عن الأمل في إمكانية التوصّل إلى خطة ملموسة للدمج في مآل الأمر. وفي العام 1970 صدرت «خطة اتحاد من أجل كنيسة المسيح الموحدة» وأُرسلت إلى الكنائس المشاركة من أجل دراستها وتنقيحها في سنتين. وعند كتابة هذه الدراسة 1973 لاقت هذه الخطّة مقاومة غير مسبوقة. وانسحبت «الكنيسة المشيخيّة المتحدة» من التشاور لعدم ثقتها بالخطة مدة سنة قبل أن تنضمّ إليه من جديد، في حين توقف المشاركون الآخرون لدراسة تعديل الخطّة.

وعلى المستوى العالمي كانت ثلاثون كنيسة إصلاحية ومشيخيّة في أكثر من عشرين بلداً في القارات الخمس تواقة إلى استمرار التشاور، أو الاتحاد الفعلي. ويجري تأمّل مشاريع الاتحاد الأساسية الأخرى في إنكلترا، وكندا، وأفريقيا، وآسيا.

إن اجتماع شمل المسيحيين في كل أرجاء العالم هو أكبر ظاهرة في القرن العشرين.

(1)ضمت هذه الطوائف «الكنيسة المشيخيّة في الولايات المتحدة» (في الجنوب)، و«الكنيسة المسيحية»، (تلامذة المسيح)، و«كنيسة الإخوان الإنجيليين المتحدة" التي اندمجت مع الكنيسة الميثودية سنة 1968 لتشكّل «الكنيسة الميثودية المتحدة» الحالية، وثلاث كنائس ذات جمهور يهيمن السود عليهم. وهي «الكنيسة الأفريقية الميثودية الأسقفية»، و«كنيسة الجماعة الأسقفية الميثودية الأفريقية»، و «الكنيسة الأسقفية الميثودية المسيحية».

ببليوغرافيا

الزرادشتية

- Boyce. M. Zoroastrians, Rutledge, London, 1985.
- Dhalla, M. N. History of Zoroastrianism, Oxford University Press, 1938.
- .... Zoroastrian Civilization, Oxford University Press, 1922.
- Dresdin, M. J. Mythology of Ancient Iran, in: Mythologies of The Ancient World, Ed.by S. N. Kramer, Anchor, 1961.
- Duchesn, Guillemin. The Hymns of Zoroaster, London, 1952.
- Chrishman, R. Iran from the Earliest Times to Islamic Conquest, Penguin, 1954.
- Gray, L. H. The foundations of Iranian Religions, Bombay, 1925.
- Hersfeld, Ernest. Zoroaster and His World, Princeton, 1947.
- Jackson, A. V. W. Zoroaster, the prophet of Ancient Iran, Colombia University Press, 1898.
- .... Zoroastrian Studies, Columbia University Press, 1922.
- Modi, J. J. Religious Ceremonies of the Parsi , Luzac , 1954.
- Moulton, James. The Treasure of the Magi, Oxford University Press, 1917.
- Zaehner, R.C. The Down and Twilight of Zoroastrianism, London, 1961.

المانوية

- Christensen, Arthur. L'Iran Sous Les Sassanides, Copenhagen, 1944.
- Cumont, franz. Mani et les origines de la miniature Persane. Revue archéologique 22 (1913): 82-86.
- Decret, francois, Mani et la tradition manichéenne. Paris, 1974.
- Ernest, J. W. Die Erzählung von Sterben des Mani aus dem Koptischen übertragen und rekonstuirt, Basel, 1941.
- Jackson, A. V. W. The personality of Mani, the founder of Manichaeism, journal of the American Oriental Society 58, (1938): 235-240.
- Klima, Otaker. Manis Zeit und Leben, Prague, 1962.
- Klimkeit, Hans - joachim. Manichaean Art and Calligraphy. Icnography of Religions, Sec. 20, fascs. 4-8. Leiden, 1982.

- Ort, L. J. R. Mani: A Religio - Historical Description of His Personality, Leiden, 1967.
- Puech, Hinry - charles. Le maniche'ism: Son fondateur, Sa doctrine, Paris, 1949.
- Taqizadeh, S. H. Mani va din-i ū. Tehran, 1955.
- Widengren, Geo. Mani and Manichaeism, New York, 1985.

اليهودية

- Albright. W. F. Archaeology and Religion Of Ancient Israel, Johns Hopkins Press, 1959.
- ———.. From Stone Age to Christianity, Johns Hopkins Press, 1957.
- Anderson, B. W. Understanding the Old Testament, Prentice - Hall inc., 1957.
- Baron. S. W. A Social and Religious History of the Jews, Columbia University Press, 1952
- Bevan and Singer, Eds. The Legacy of Israel. Oxford, 1927
- Bright, John. History Of Israel. Westminster Press, 1959
- Burrows Millar. The Dead Sea Scrolls, The Viking Press, Inc., 1955
- Cohen, A. Everyman's Talmud. J. M. Dent, inc., 1937
- Ginsberg, L. Legends of the Bible, Jewish Publication Society of America, 1956
- Kaufmann, The Religion of Israel, University of Chicago Press, 1960
- Noth, Martin. The History of Israel. Harper, 1958
- Osterley and Robinson, Hebrew Religion, Macmillan, 1937
- Sachar, Howard. The Course of Jewish History, Delta, 1963

المسيحية

- Branscomb, H. The Teachings of Jesus, Abingdom, 1931.
- Fuller, R. H. The Mission and Achievement of Jesus, Student Christian Movement Press, London, 1954.
- The Life of Jesus, Macmillan, 1945.
- Taylor, Vincent. The Life and Ministry of Jesus, London, 1954.
- Augustine, St. City of God, T and T. Clark, Edinburgh, 1934.
- Bauer, Walter, Orthodoxy and Heresy in Earliest Christianity, Philadelphia, 1971.
- Bauer, J. C. Protestantism in America, Westminster Press, 1954.
- Cadoux, C. J. The Early Christian Church, T and T. Clark, Edinburgh, 1925.
- Caird, G. B. The Apostolic Age, Gerald Duckworth, 1955.
- Denzinger, H. J. D. The Sources of Catholic Dogma, B. Herder Book Co, 1957.
- French, R. M. The Eastern Orthodox Church, Hutchinson, 1951.
- Kidd, B. J. A History of the Church to 461, Clarendon Press, Oxford, 1922.
- Manschrek, C. L. Ed, A History of Christianity, Prentice - Hall, Inc, 1964.

الفهرس

مقدمة: لطبعة الأعمال غير الكاملة 5

الفصل الأول: الزرادشـــتية 9

ديانات إيران القديمة 11

الزرادشتية دين الثنوية ال أخلاقية 27

الفصل الثاني: مانـي والمانويـة 61

ماني 63

الـمانوية 71

الـمانوية والمسيحية 91

الفصل الثالث: اليهوديــة 95

1- دين العبرانيين قبل موسى 99

2- موسى والميثاق مع يهوه (نحو 1250 ق.م) 107

3- يهوه والبعول 117

4- الاحتجاج النبوي والإصلاح 125

5- الـمنفي البابلي 149

6- نهوض اليهودية في عصر الإحياء 159

7- اتجاهات فكرية جديدة في العهدين الإغريقي والمكابي 169

8- العهد الروماني حتى 70 ميلادية 181

9- التشتت الكبير 187
10- صناعة التلمود 191
11- اليهود في العصور الوسطى 197
12- اليهودية في العالم الحديث 209

الفصل الرابع: المسيحية 217
1- المسيحية في مرحلتها الافتتاحية 219
أ- العالم الذي جاء يسوع إليه 221
ب- حياة يسوع وتعاليمه 229
2- النموّ الديني للمسيحية 257
أ- العصر الرسولي 257
ب- الكنيسة الباكرة 270
ج- الكنيسة الكاثوليكية القديمة 279
د- الكنائس الأرثوذكسية الشرقية 302
هـ - كنيسة الروم الكاثوليك في العصور الوسطى 310
و- إصلاحات القرن السادس عشر 331
ز- التيارات المتعارضة في القرنين السابع عشر والثامن عشر 360
ح - الكاثوليكية البروتستانتية في العالم الحديث 370

ببليوغرافيا 393

صدر للمؤلف

1- **مغامرة العقل الأولى:** دراسة في الأسطورة ـ سورية وبلاد الرافدين ـ الطبعة الثانية والعشرين 2016.

2- **ملحمة جلجامش:** الطبعة الرابعة 1988.

3- **لغز عشتار:** الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة ـ الطبعة الخامسة عشر 2016.

4- **الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم:** هل جاءت التوراة من جزيرة العرب؟ الطبعة السادسة 2016.

5- **دين الإنسان:** بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني ـ الطبعة الثامنة 2016.

6- **جلجامش:** ملحمة الرافدين الخالدة ـ الطبعة السابعة 2016.

7- **الأسطورة والمعنى:** دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية ـ الطبعة السابعة 2016.

8- **آرام دمشق وإسرائيل:** في التاريخ والتاريخ التوراتي ـ الطبعة الخامسة 2016.

9- **كتاب التاو تي تشينغ:** إنجيل الحكمة التاوية في الصين ـ الطبعة الخامسة 2016.

10- **الرحمن والشيطان:** الثنوية الكونية ولاهوت التاريخ في الديانات المشرقية ـ الطبعة السادسة 2016.

11- **تاريخ أورشليم:** والبحث عن مملكة اليهود ـ الطبعة الرابعة 2016.

12- **مدخل إلى نصوص الشرق القديم:** الطبعة الثالثة 2016.

13- **الوجه الآخر للمسيح:** موقف يسوع من اليهودية ـ مقدمة في الغنوصية المسيحية ـ الطبعة الثالثة 2016.

موسوعة تاريخ الأديان (تحرير ومساهمة) في خمسة مجلدات:

14- المجلد الأول: الشعوب البدائية والعصر الحجري.

15- المجلد الثاني: الشرق القديم.

16- المجلد الثالث: اليونان وأوروبا قبل المسيحية.

17- المجلد الرابع: الشرق الأقصى.

18- المجلد الخامس: الزرادشتية، المانوية، اليهودية، المسيحية، الطبعة الثالثة 2016.

19- **طريق إخوان الصفاء**: المدخل إلى الغنوصية الإسلامية ـ الطبعة الثالثة 2016.

20- **الإنجيل برواية القرآن**: الطبعة الثالثة 2016.

21- **ألغاز الإنجيل**: الطبعة الثانية 2016.

22- **أساطير الأولين**: القصص القرآني ومتوازياته التوراتية ـ الطبعة الثانية 2016.

23- **الله والكون والإنسان**: نظرات في تاريخ الأفكار الدينية ـ الطبعة الأولى 2016.

صدر له بالإنكليزية:

1-دراسة بعنوان:

Jerusalem in the Age of Judah Kingdom

نُشرت في كتاب من تحرير الباحث الأميركي توماس.ل. تومبسون شارك فيه عدد من المؤرخين والآثاريين وصدر عن دار T&T Clarkعام 2003 تحت عنوان:

Jerusalem in History and Tradition

2- دراسة بعنوان:

The Faithful Remnant and the Invention of Religious Identity

نُشرت في كتاب من تحرير الباحث البريطاني كيث.و. وايتلام شارك فيه عدد من الباحثين في تاريخ وآثار فلسطين وصدر عن جامعة Sheffield في بريطانيا عام 2013 تحت عنوان:

The politics of Israel's Past

منشورات دولية:

صدر له بالتعاون مع الباحث الصيني الدكتور شيوه تشينغ قوه كتاب بعنوان: لاو تسي، عن دارالنشر باللغات الأجنبية/بكين، وهو تطوير لكتابه السابق: كتاب التاو تي تشينغ.

يُصدر قريباً في بكين:

- كتاب المحاورات لكونفوشيوس، ترجمة عن الانكليزية ومراجعة على النص الصيني من قبل شيوه تشينغ قوه.

- كتاب منشيوس، ترجمة عن الانكليزية ومراجعة على النص الصيني من قبل شيوه تشينغ قوه.



تقع موسوعتنا هذه في نقطة الوسط بين ما يشبه القواميس من المؤلفات التي صدرت في مجلد واحد، تُرجم بعضها إلى العربية، وبين الموسوعة المحيطة التي تقدم كل شيء تقريباً، ولدينا عنها حتى الآن نموذج واحد فقط، هو «موسوعة الأديان» التي صدرت عن دار ماكميلان عام 1987 في ستة عشر مجلداً ضخماً أشرف على تحريرها ميرسيا إلياد، وساهم في كتابة موادها لا عشرات الباحثين بل المئات منهم من كل أنحاء العالم. من هنا يمكن وصف موسوعتنا بالمختصرة لأنها لن تتوقف إلا عند المحطات المهمة في تاريخ الأديان. فالاختصار هنا لا يعني الاقتضاب وإنما الاقتصار. ولقد عمدت إلى جمع مواد الموسوعة من عدد متنوع من المراجع الموسوعية والمتخصصة، متبعاً في اختيار كل مادة معيار المستوى العلمي وبساطة التناول وحسن التوصيل، مع التضحية أحياناً بهذا الجانب على حساب الآخر، لأن الموسوعة موجهة إلى أوسع شريحة ممكنة من القرأء، قد تتفاوت عناصرها من طلاب وأساتذة الدراسات العليا إلى القارئ العادي غير المتخصص والراغب في الاطلاع. ولا شك في أن إرضاء كل الفئات أمر يصعب بلوغه ولكن يمكن مقاربته. قد يجد القارئ غير المتخصص في بعض الموضوعات صعوبة، وقد يجد المتخصص في بعضها الآخر تبسيطاً.

مع تعدد المساهمين في مواد الموسوعة، حرصت أيضاً على تعدد المترجمين الذين عهدت إليهم بالمادة كل حسب ميله وخلفيته ومزاجه، وقدمت إليهم ما أستطيع من مشورة وتعاون خلاق لجعل موسوعتنا ثمرة تعاضد جمهرة من الباحثين الكبار، والمترجمين الأكفاء الذين عملوا معي بداعي المسؤولية العلمية والرغبة في رؤية هذا العمل مطبوعاً ومنتشراً على أوسع نطاق.















ISBN 978-9933-579-26-5
9 789933 579265